

نظيرة زين الدين

السفور والحجاب

مراجعة وتقديم
د. بثينة شعبان



السفور والحجاب

نظيرة زين الدين

السفور والحجاب

محاضرات ونظرات

مرماها

تحرير المرأة والتجدد الاجتماعي

في العالم الإسلامي

مراجعة وتقديم: د. بثينة شعبان





رائدات الكتابة

Author : Nazira Zin al-Din
Title : al-Sufur wa'L-hijab
Edited by Dr. Bouthaina Shaaban
Al Mada : Publishing Company
Second Edition 1998
Copyright © Al mada

اسم المؤلف : نظيرة زين الدين
عنوان الكتاب : السفور والحجاب
مراجعة : د. بثينة شعبان
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

دار مادي للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A.

Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992

P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.



المؤلفة

مقدمة

بقلم: د. بثينة شعبان

ولدت نظيرة زين الدين الحلبي (١٩٠٨ - ١٩٧٦) في العام نفسه الذي توفي فيه قاسم أمين ، صاحب كتابي «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» ، وكان والدها الشيخ سعيد زين الدين ، الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في لبنان ، والذي تلقت منه التعليم والتوجيه والمساندة . وتزوجت من الاستاذ شفيق الحلبي الذي كان رئيساً لمحكمة التمييز الذي «له في الحقل الوطني مواقف مشرفة ومعروفة»^(١) . وقد أشارت في أكثر من مكان الى أثر والدها الحاسم عليها خاصة في ما يتعلق بمسألة الحجاب بحيث أنها انتهجت الخط الذي ارتآه هو لها والذي اقتنعت باستقامته وصوابه : «وعلى كل حال أرجو من سادتي الرجال أن لا يتهموني بخرق النظام ، والفرار من سجن الحجاب ، فإني لم أفعل ذلك يا سادتي ، إنما أخوكم أبي الذي خلقه الله حراً مطلقاً - وهو لا يخشى في سبيل الحق لومة اللائم - هو الذي عدّ سجنني منافياً عدل الله ، ومصلحة العيلة والمجتمع ، ووثق بشرف نفسي وأدبها ، فأرسلني سافرة الى الحياة والنور . ولدى تحكيمي العقل رجحت ما رأى ففعلت»^(٢) . وفي مكان آخر رأت أن فضل والدها عليها لا يكبره سوى فضل الله عز وجل : «إني ممّن يأخذون اللباب ويتركون القشور ، إني خرجت بفضل ربي ، وعدل أبي ، من الظلام الى النور»^(٣) . كما وجدت السيدة نظيرة زين الدين في كتابي قاسم أمين المذكورين أعلاه نصيراً ، أيّما نصير ، في الإصرار على أهلية المرأة وحققها في الحياة الحرة الكريمة دونما مهانة أو وصاية .

(١) انظر «نساء من بلادي» لناديا الجردى نويهض ، بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦ ، ص ٩٦ . وص ٩٤ - ٩٩ .

(٢) السفور والحجاب ، ص ٥٩ .

(٣) السفور والحجاب ، ص ٢٤٥ .

ولكن ثقافتها وسعة اطلاعها لم تقف عند هذا الحد بل شملت كل الأنوار التي انبثقت في عصرها وما سبقه وفي مقدمة هذه الأنوار طبعاً كتاب الله وسنة رسوله (ص) . فقد درست كتاب الله وسنة رسوله (ص) دراسة متأنية متعمقة آخذة بالمقارنة والتحليل ثمرات دأبها مع ما أتى به أعلام المفسرين أمثال البيضاوي والخازن والنسفي والطبرسي وغيرهم كثر . وكان منطلقها الأساس هو أن الشرع ليس كل ما قاله هذا وذاك من الفقهاء «ولكن الشرع ما شرعه الله تعالى لعباده ، وإن هو إلا الكتاب والسنة ، فهما نبعتا الخير الخالص والحقيقة الصرفة ، وهما مصدر الأنوار . فكل ما حسناه حسن ، وكل ما قبحناه قبيح»^(١) .

وبعد تبهر عميق في كلام الله عز وجل بعيداً عن انحياز المغرضين وتلاعب المتسلطين وجدت في كتاب الله وسنن رسوله «أنوار هدى في الحرية ، وحرية المرأة وحقوقها تستحي منها الشمس إذا طلعت»^(٢) .

واقترنت أدلتها الدينية بكل ما يوافق الحس الإنساني السليم والعقل والوجدان والضمير بعيداً عن التدبيج الكلامي الذي لا يصمد أمام الواقع والتجربة الإنسانية الحقة . كما نسجت كل ذلك في إطار التيارات الفكرية والأدبية والعقلية التي كانت نشطة في ذلك الوقت وفي منظور التجربة النسائية سواء على أرض الواقع في العالمين العربي والإسلامي أو في الأدب والشعر والصحافة . فعن ضرورة إعمال العقل في أمور الدين والابتعاد عن التقليد أو الاتباع الأعمى للأولين وغيرهم استشهدت نظيرة زين الدين بعد أن سردت آيات الله عز وجل وأحاديث نبيه الكريم في هذا الصدد بأقوال محي الدين العربي وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ مصطفى الغلاييني^(٣) .

كما أشارت في أكثر من مكان إلى جهود سعد زغلول في رفع شأن المرأة المصرية ورفع الحيف الواقع عليها واقتبست في ذلك من كتابات مي زيادة وأقوال هدى شعراوي اللتين لعبتا دوراً بارزاً في النصف الأول من القرن العشرين بإعلاء كلمة المرأة العربية وإنصافها أمماً ومجاهدة وأختاً في الإنسانية . ويبدو أن زوجة سعد باشا زغلول قد رافقت هدى شعراوي في الكثير من نشاطاتها الهادفة إلى توعية المرأة وتحريرها من ربقة العادات والتقليد الأعمى وقد قوبلت أعمال هؤلاء السيدات الجليلات بقصيدة تحية من أمير الشعراء أحمد شوقي حيث قال^(٤) :

(١) السفور والحجاب ، ص ٦٤ .

(٢) السفور والحجاب ، ص ٧٦ .

(٣) السفور والحجاب ، الصفحات ٧١ و٧٢ و١٢٥ .

(٤) السفور والحجاب ، ص ١٤٨ .

قُمْ حَيَّ هَذِي النِّسْرَات
وَإخْفِضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً
حَيَّ الْحَسَانَ الْخَيْرَات
لِلخَرْدِ الْمُتَحَضَّرَات
مَصْرَ تَجَدَّدْ مَجْدَهَا
بِنِسَائِهَا الْمُتَجَدِّدَات

كما استشهدت بقصائد الشعراء العراقيين الزهاوي والرصافي في تبيان فضل المرأة في العمران وتربية الأجيال وعون الآباء ومواساة المحزونين والمنكوبين فتورد قول الزهاوي في المرأة^(١) :

وإن إصلاحها إصلاح مملكة
يأبى تأخيرها قوم لهم شمم
وإن إهمالها موت وخسران
وبالرقى لهم دين وإيمان

كما تورد شعر حافظ إبراهيم الذي يحث فيه على تربية البنات على الفضيلة بدلاً من إسدال ظلمة النقاب على قلوبهن وعقولهن وحرمانهن من نعمة العقل التي منحها الله لكل عباده^(٢) :

ربوا البنات على الفضيلة إنها
وعليكم أن تستبين بناتكم
في الموقفين لهن خير وثاق
نور الهدى وعلى الحياء الباقي

وهنا تجد نظيرة زين الدين صدى لما رددته مراراً في كتابها والذي هو أساس دعوتها الى رفع النقاب عن وجه المرأة التي جمع الله فيه أهم أحاسيسها ، إذ قالت : « إن العلم أدعى من الجهل الى الصيانة والكرامة والعفاف . بل إنما هو الحافظ للمرأة مقامها السامي الشريف »^(٣) ، وتضيف في توضيح هذا الركن الهام من أركان تفكيرها ودعوتها : « وأعتقد أن السفور والعلم والحرية أدعى من الحجاب والجهل والعبودية الى الصيانة والكرامة والعفاف وأدرك معنى الأمومة والعيلة البشرية وصالح المجتمع ، لأن الأدب لا يثبت في نفس الجاهل ثبوته في نفس العالم ولا يثبت في نفس العبد ثبوته في نفس الحر »^(٤) .

ووجدت أنها في دعوتها هذه منسجمة مع روح الإسلام الحنيف كما ورد في آيات الله البيّنات وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع نساءه والنساء المسلمات وتوصياته

(١) السفور والحجاب ، ص ١٣٧ .

(٢) السفور والحجاب ، ص ٢٠٢ .

(٣) السفور والحجاب ، ص ٥٨ .

(٤) السفور والحجاب ، ص ٥٨ - ٥٩ .

المستمرة بالنساء اللواتي قال عنهن إن كل الخير فيهن وأنه صلى الله عليه وسلم لو أراد أن يفضل أحداً لفضل النساء . وتستشهد بالدور الذي لعبته النساء المسلمات سواء في الحروب أو في الأدب والعلم والدراية وإدارة شؤون المجتمع وتستحضر قول أمير الشعراء أحمد شوقي في وصف حال المسلمات وهو وصف يؤيد تماماً حوار نظيرة زين الدين ويخالف الذين يطالبون بتعطيل فكر المرأة موضحاً بأن الإسلام ورسوله من مثل هذه الطروحات براء (١) :

هذا رسول الله لم	ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة	لنساءه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة	سنة والشؤون الأخريات
ولقد علمت بناته	لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينه تملأ الد	نيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسترت	آي الكتاب البيّنات

وهكذا فإن نظيرة زين الدين في عملها هذا تقفو أثر جدتها عائشة التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . ولكن نظيرة زين الدين مدت الطرف في الشرق والغرب لترى حال المرأة في كل بقعة أشرقت فيها شمس الإسلام .

واطلعت على وضع المرأة المسلمة أيام بعث الرسالة المحمدية وما بعدها من خلال مؤلفات هامة مثل الأغاني والاتليدي ومقدمة ابن خلدون حيث أجمعت هذه المصادر جميعها على أن النساء المسلمات أمثال فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلم وسكينة بنت الحسين كنّ يلقين الدروس والمحاضرات على ملأ ممتزج من الرجال والنساء ، وأن الشيخة شهدة الملقبة بفخر النساء كانت في القرن الخامس للهجرة ، تلقي المحاضرات والدروس على الجمهور ، في جوامع بغداد ومدارسها ، في الآداب والتاريخ ، والتوحيد والفقه... ولها في تاريخ الإسلام ما لأعظم العلماء من سمو المنزلة والاحترام ، ومثلها مثل أم الخير وأم إبراهيم ومثلهن أم سعد بنت عصام المعروفة بسعدونة . وتطرق إلى دور المرأة في السياسة وكيف أن النساء قد حكمن بالعدل وأظهرن حكمة وحكمة

(١) السفور والحجاب ، ص ٢٢٨ .

وتعقلاً وصلابةً حيثما اقتضى الأمر . وتبدي زين الدين في كل هذا اطلاعاً واسعاً على ما نشر في عصرها من صحف ومجلات وكتب فضلاً عن عمق وشمولية ثقافتها في التاريخ والدين والأدب .

النهضة النسائية

قبل عيد ميلادها العشرين أصدرت نظيرة زين الدين كتابها الأول «السفور والحجاب» الذي أثار ضجة وحواراً عربياً وإسلامياً داخل البلدان العربية وبين العرب والمسلمين في المهجر أيضاً . ولا عجب أن يصدر مثل هذا الكتاب في هذا التوقيت بالذات إذ كانت الحركة النسوية قد عبرت عن نفسها في ظهور الكاتبات والأديبات خاصة في مجال الرواية وفي إصدار الصحف والمجلات الخاصة بالمرأة وشؤونها كما برزت المرأة في الحقل السياسي فشهدت كل من القاهرة ودمشق مظاهرات نسائية تساند النضال الوطني من جهة وتدعو إلى إثبات حق المرأة في العمل والسياسة والتعليم والمجتمع من جهة أخرى . فقد قامت نساء دمشق بمظاهرات عدة لدعم مواقف الوطنيين في رفض التعامل مع قوات الانتداب ومحاولة خلق رأي عام وموقف وطني شامل يؤيد المواقف الوطنية ويفضح المتخاذلين والمساومين . ففي عام ١٩٢٦ اتصل الوطنيون بنخبة من نساء دمشق وطلبوا منهن القيام بمظاهرة إلى سوق الحميدية ودعوة أصحاب المحلات باسم دماء الشهداء للإضراب وإغلاق المحلات احتجاجاً على سياسة الانتداب ، وكانت حجة الوطنيين ، دائماً في مثل هذه الحالات في طلبهم إلى النساء أن يدعون إلى الإضراب ، هي أن الناس عامة يتجاوبون مع نداء النسوة أكثر مما يستجيبون لدعوة الرجال . وتذكر الكاتبة السورية ألفة الادلبي أن عدداً لا بأس به من النسوة استقلن السيارات المكشوفة وأخذن يشحن العرائم لدعم المواقف الوطنية ضد ممارسات سلطات الانتداب الفرنسي وإعلان الإضراب العام ، وتقول بينما كنا ننادي على أصحاب المحلات ونقسم عليهم بأرواح الشهداء ونستشهد بكفاحهم أخذ صرير أبواب المحلات التي شرع أصحابها بإغلاقها يعلو ويصل مسامعنا فيزيدنا ثقة وحماسة وتصميماً على الاستمرار . وفي مظاهرات أخرى قادت السيدة ثريا الحافظ مجموعة من النساء في مظاهرة إلى ساحة المرجة في دمشق وقرأت آيات من الذكر الحكيم وشرحت رأيها بأن الله سبحانه وتعالى لم يأمر المرأة بالتحجب والإنزواء ورفعت الغطاء عن وجهها كما فعلت مئة امرأة ونيّف كنّ يساهمن معها في المظاهرة نفسها . وكانت السيدة هدى شعراوي قائدة الحركة النسوية في مصر قد أعلنت أيضاً عن معارضتها

للحجاب^(١) في مظاهرة نسوية قادتها في شوارع القاهرة وعرفت بعد ذلك في جميع بلاد العرب بأنها المناضلة الأولى من أجل تحرير المرأة وارتقاء شأنها ، ولكن وكما قالت السيدة ناديا نويهض فإن المؤرخين وجلهم من الرجال لم يفوا دور المرأة هذا حقه « من التقدير والتدقيق كأن التاريخ وقف على الرجال وكأن المرأة صورة لا تظهر إلا إذا كانت خارقة العبقريّة وفائقة الإشعاع »^(٢) .

وبالفعل لم يكن قاسم أمين هو أول من نادى بتحرير المرأة ومنحها فرصاً متكافئة مع الرجل بل كانت زينب فواز العاملة التي أرخت لأربعمئة وخمسين امرأة من الشرق والغرب^(٣) قد أطلقت صرخة دوت في أرجاء الوطن العربي والعالم مطالبة بإنصاف المرأة ورفع الحيف عنها ومفندة أوجه الاستبداد التاريخي الذي حرم المرأة من حقوقها وضرورة وضع حد له والنهوض بواقع المرأة في الشرق والغرب^(٤) . ولكن قلما يتذكر أحد زينب فواز سواء كداعية إلى تحرير المرأة سبقت في طروحاتها قاسم أمين ورفاعة الطهطاوي أو ككاتبة رواية أصدرت عدة روايات قبل صدور رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل بخمس عشرة سنة^(٥) . ومن الصعب وجود تفسير لخمود صوت أنثوي وانتشار آخر ذكوري سوى فرق تكافؤ الفرص بين المرأة والرجل وانحياز المؤرخين والنقاد ، ربما بشكل عفوي وغير مقصود ، لكل ما يتفوه به الرجل والاستهتار بما تنطق به المرأة .

رغم الحروب والاستعمار والانتداب فقد شهدت البلدان العربية في النصف الأول من القرن العشرين نهضة فكرية وثقافية وحركة صحافية وأدبية نشطة وأهم ما تميزت به تلك النهضة هو أن لغة الحوار والاعتراف بحق الاختلاف كان أمراً بدهياً بحيث نجد معظم التيارات الأدبية والفكرية متعايشة بروح من التنافس الإيجابي دون أن يحاول أي منها إلغاء الآخر أو يجد في الآخر معوقاً

(١) إن الحجاب الذي رفعته هدى شعراوي وثرى الحافظ كان غطاء الوجه ولم تكشف أي من النسوة في حينه عن شعرها ، بل التزمن بتغطية الرأس بعد أن اعتبرن أن غطاء الوجه بدعة ولا علاقة له بالدين الإسلامي ، الأمر الذي يوافق عليه عدد ليس باليسير من المفسرين .

(٢) نساء من بلادي ، مصدر سابق ص ٧ .

(٣) انظر الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لصاحبه زينب فواز والذي سيصدر عن دار المدى قريباً .

(٤) تقول فوزية فواز في تحقيقها لكتب وحياة زينب فواز : « أما قاسم أمين فقد كان متأخراً عنها بمبادراته بتحرير المرأة . فمن الثابت أن رسائلها الزينية في موضوعات المرأة التي كانت تنتشر في الصحف المصرية بدأت قبل عام ١٨٩٢ ، بينما لم ينشر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة إلا سنة ١٨٩٩ » . (مقدمة فوزية فواز لرواية حسن العواقب (المجلس الثقافي اللبناني) بيروت ١٩٨٤) .

(٥) صدرت رواية زينب فواز « حسن العواقب أو غادة الزهراء » عام ١٨٩٩ (طبعت في المطبعة الهندية بشارع المهدي بالازبكية) أي عام صدور كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين وقد تلقت الكاتبة مديحاً وتقريظاً لهذه الرواية من أشهر كتاب عصرها . أما رواية محمد حسين هيكل « زينب » والتي اعتبرها النقاد أول رواية في الأدب العربي فلم تظهر حتى عام ١٩١٤ أي بعد خمس عشرة سنة من ظهور رواية زينب فواز (حسن العواقب) . ان الامانة تتوجب تصحيح الخطأ لأن زينب فواز هي أول من كتب الرواية في الأدب العربي .

في سبيل تطوره وعزته . كما كانت المرأة العربية جزءاً هاماً من تلك النهضة الثقافية الفكرية . فقد لعبت دوراً بارزاً في تأسيس المجلات النسائية الوطنية التي تعنى بشؤون المرأة . فكانت أول مجلة صدرت هي « مجلة الفتاة » لصاحبتها السورية هند نوفل التي اصدرتها في الاسكندرية عام ١٨٩٢ . وتتالى بعد ذلك ظهور المجلات والصحف التي تملكها وتحررها وتديرها نساء التي أن بلغت أكثر من خمس وعشرين مجلة صدر معظمها في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد قبل صدور كتاب نظيرة زين الدين في عام ١٩٢٨ . وهكذا فقد كانت الحركة الثقافية النسائية في أوجها كما كان الحوار بين الرأي والرأي الآخر يشهد عصره الذهبي حين صدر كتابا زين الدين . وقد ظهرت على صفحات المجلات النسائية مقالات جمة بأقلام رجال ونساء يناقشون بها حقوق المرأة المسلمة وينتقدون الفرق القائم بين النص الإسلامي والتطبيق العملي البعيد عن روح الشريعة السمحة . فقد أصر معظم كُتّاب هذه المقالات على سبيل المثال أن تعدد الزوجات حسب التفسير الدقيق للنص القرآني محرم في الإسلام كما عالجوا موضوع الطلاق من منظور ضرورة توعية المرأة بحقوقها في العصمة وأن تذكر هذا الحق في عقد الزواج بحيث يحق لها أن تمارس حقها في الطلاق تماماً كما يمارسه الرجل ، وقد طالب جلّ كتاب وكاتبات هذه المقالات بقراءة النصوص الشرعية قراءة صحيحة واستصدار القوانين المنسجمة مع روح الشريعة الإسلامية السمحة والمنصفة بحق المرأة ، والتي تخدم بالنتيجة المرأة والرجل والمجتمع .

بدأت بوادر نهضة نسائية حقيقية تظهر في الوطن العربي منذ عام ١٩١٤ من خلال تشكيل الجمعيات النسائية التي تطالب للمرأة بالمركز الذي سلب منها منذ دهور ، فقد انشئت في مصر مثلاً جمعية « ترقية المرأة المصرية » وفي بيروت جمعية « يقظة الفتاة العربية » ، وفي العام نفسه أنشئ فرع لجمعية يقظة الفتاة العربية في صيدا ، كما تم تأليف جمعية نسائية باسم « نهضة الفتاة » في طرابلس . وقد نشرت جمعية الفتاة برنامجاً في الصحف جاء فيه ما يلي :

« إن ما رأيناه من انحطاط المرأة العربية وجمودها حملنا على تأسيس هذه الجمعية التي جعلنا غايتها ترقية وتعليم الفتيات المسلمات العربيات اللواتي أخذت جهلهن ضرراً عظيماً وتأخراً كبيراً في الأمة العربية » .

كما عقدت في أوائل العشرينات مؤتمرات نسائية عربية وعالمية هدفت إلى النهوض بوضع المرأة وإعلاء شأنها في الأسرة والمجتمع والعمل . ففي عام ١٩٢٢ عقد في بيروت المؤتمر النسائي الأول بدعوة من الاتحاد النسائي اللبناني وشاركت بأعماله ثماني جمعيات ، وفي العام نفسه عقد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي بدعوة من اتحادي الجمعيات

النسائية في لبنان وسورية . ولكن المؤتمر النسائي العام الأول والأكبر في لبنان وسورية عقد بين ١٨ - ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٨ وقد اعتبرت السيدة عنبرة سلام أن المؤتمر النسائي العام هو المؤتمر النسائي الوحيد من نوعه في العالم وأن هدف المرأة السورية من عقد هذا المؤتمر هو « أن تعالج ما رآته نقصاً في نهوض الأمة جمعاء ، وتبحث بما يؤول الى تكوين أمة ناهضة راقية ذات حيوية ووجود ذاتي »^(١) .

بالإضافة إلى الجدل الذي أثاره كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ حول حقوق المرأة وواجباتها والحجاب فقد ظهرت كتب أخرى كتبها متنورون مهتمون بوضع المرأة وظهرت مطالعات ومساجلات لها على صفحات المجلات النسائية والجرائد والصحف . فقد كتب محمد جميل بيهم (١٨٨٧ - ١٩٧٨) ، وكان معروفاً باهتمامه بقضية المرأة وهو عَلم من أعلام الفكر والثقافة في ذلك الوقت ، كتابه « المرأة في الشرائع والتاريخ » عام ١٩٢١ كما نشر في عام ١٩٢٧ « المرأة في التمدن الحديث : تطور القضية النسائية على وجه عام منذ القرون الوسطى حتى الآن »^(٢) . وجمع جرجي باز « النسيمات » لسلمى صائغ - الذي صدر عن المطبعة الأدبية (بيروت ١٩٢٣) ، وفي مقدمته اعتبر جرجي باز هذا الكتاب « باكورة المؤلفات النسائية ومؤشراً على التسمية بجودة الآتي من ثمار الفكر النسائي » ، كما اعتبر الصفة النسائية للكاتبة إضافة إلى قيمة الكتاب لأنه « بالصفة النسائية ترى الكاتبة مواطن البؤس ودواعي الشقاء وتشعر بعاطفة الأم مع البؤساء الأشقياء ثم تدرك السبيل إلى القلوب . وبالنسيمات يستدل المتحري على اتجاه الأدب النسائي العربي ، ويرى المرأة وقد اشتدت رغبتها الطموح فضاحت دونها الصلاحية القديمة وانفلتت من نطاقها الضيق إلى ميادين العلم والسياسة والاقتصاد والاجتماع تبغي الاستزادة والتوسع »^(٣) .

السفور والحجاب

ضمن هذا الواقع التنويري ليس من المستغرب أن تعكف امرأة عربية مثقفة ترعرعت في بيئة دينية وتلقّت تعليمها على يدي أب مُشرّع فقيه بالشرعية ، أن تعكف على دراسة حقوقها كفتاة مسلمة كما نصّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبمعزل عن التفسيرات والتأويلات المختلفة التي قد تفرض واقعاً على المرأة لصالح العادات الاجتماعية

(١) الدكتور جورج كلاس : الحركة الفكرية النسوية في عصر النهضة ١٨٤٩ - ١٩٢٨ (بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٦) ص ٢٦٧ .

(٢) مطبعة السلام - بيروت ، ١٩٢٧ .

(٣) مجلة الخدر لصاحبها عفيفة صعب ١٩٢٣ - ص ٣٠٩ - ٣١٣ .

المتوارثة من عهود ومجتمعات ما قبل الإسلام ولا تمت إلى ما نصت عليه الشريعة الإسلامية بصلة . ويبقى كتابها «السفور والحجاب» ، وبعد سبعين عاماً من صدوره ، الوحيد الذي كتبه امرأة في تفسير الآيات القرآنية التي تخص بنات جنسها ، إذ أن المفسرين هم عادة من الرجال وقلما ظهرت امرأة تمتلك القدرة والشجاعة على مقاربة موضوع دقيق ومعقد وحساس كهذا . وقد تكون نظيرة زين الدين الوحيدة ليس في العالم العربي فقط ، وإنما في العالم الإسلامي ، التي درست الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالنساء دراسة منهجية وعلمية بروح المرأة المسلمة المؤمنة التي تعتزّ بدينها وتاريخها وتحاول إعلاء شأن المرأة ، مساهمة بذلك في إعلاء شأن الوطن والإسلام في العالم . وإذا أخذنا الاختلافات العديدة ، والعميقة أحياناً ، التي ظهرت بين المفسرين للنصوص القرآنية الكريمة عبر العصور بنظر الاعتبار فإن جهد السيدة زين الدين يُعتبر إضافة جادة ومخلصة لتراث فكري طالما اتسم بالغنى والرحابة والتنوع . ولكن ورغم المناخ التنويري السائد فقد أثار كتابها «السفور والحجاب»^(١) احتجاجات وجدلاً وتظاهرات وتهديدات ، ولكن ردودها التي ظهرت في كتابها الثاني «الفتاة والشيوخ» الذي صدر عام ١٩٢٩^(٢) كانت قائمة على المنطق والحجة والدليل الواضح المستند على ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله الكريم .

في مقدمة «السفور والحجاب» كتبت السيدة نظيرة زين الدين أنها على الرغم من اهتمامها الدائم بحقوق النساء ، إلا أن ما دفعها لكتابة هذا الكتاب هو الأحداث التي وقعت في دمشق صيف عام ١٩٢٧ حيث حرمت النساء من حريتهن ومنع عليهن الخروج دون نقاب الوجه «فتناولت القلم لأظهر في محاضرة موجزة ما في النفس من ألم فاذا بقلم يمشي في إثر نفسي ، وإذا بنفسي المتألّمة تطلب المزيد في البيان... فأضحت المحاضرة محاضرات إضافية ، يضيق المتكلم عن قائنها ذرعاً ، والمخاطب عن تلقيها سمعاً» .

وفي هذا الكتاب تبدأ زين الدين من حقيقة أنها مسلمة تؤمن بالله ونبيه محمد وبالقُرآن الكريم وان حججها كلها مبنية على هذا الإيمان .

الشريعة الإسلامية ، بالنسبة لزين الدين ، ليست ما يقوله هذا المفسر أو ذاك . بل هي ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي . وتقول إن الرجال قد سنّوا القوانين دون أية مشاركة من قبل النساء . ولكن حتى أعظم المفسرين في الإسلام ، من أمثال البيضاوي والنسوفي

(١) الطبعة الأولى ، بيروت ، مطابع قزما ١٩٢٨ .

(٢) نشر على حساب والدها سعيد بيك زين الدين (بيروت ١٩٢٩) .

والطبري لم يتفقوا على معنى الآية القرآنية حول مسائل مثل الجغرافيا والتاريخ والفلك أو في ما يتعلق بموضوع النساء ، وحول العادات والتصرفات الملائمة . ولذا فإن المرء ان يرجع الى القرآن والسنة للتوصل الى المعرفة في الشؤون الدينية وقد كتبت : «لما شرعت أهيء دفاعي عن المرأة طالعت أقوال المفسرين والفقهاء في ما يتعلق بالموضوع فلم أجد منهم جماعة في أمر ما لأتبعه . بل كلما وجدت قولاً رأيت أقوالاً أخرى بما تخالفه وتناقضه» وبالنسبة للآيات المتعلقة بالحجاب «وجدت نحواً من عشر تفسيرات لا تنطبق رواية على رواية ، كإني بكل واحد من الرواة يريد بما يروي ان يؤيد ما يرى . ولم أر رواية مستندة الى دليل ما» (١) .

تري السيدة نظيرة زين الدين ان الاسلام يقوم على حرية الفكر والإرادة والكلام والفعل . وأنه ما من مسلم لديه السلطة على مسلم آخر في شؤون الدين والعقل والارادة . وتورد عدة آيات من القرآن الكريم لتبين ان الله تعالى لم يطلب حتى من نبيه أن يراقب أعمال أو سيئات المسلمين . «ومن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيزاً» (النساء ٨٠) . وقال الله تعالى أيضاً مخاطباً نبيه : «ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيزاً وما أنت عليهم بوكيل» (الأنعام ١٠٧) . وفي سورة أخرى : «فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر» (الغاشية ٢٢) .

وتقول زين الدين اذا كان الله تعالى لم يسمح للنبي محمد (ص) أن يراقب أعمال الناس فكيف يمنح بعض المسلمين أنفسهم هذا الحق ؟ وعلى الرغم من استشهادها المتقن من القرآن والحديث فإنها تؤكد ان الاسلام هو دين الحرية وان المسلمين ليسوا مسؤولين الا أمام ربهم . وبالتالي فإن ادعاء بعض المسلمين أنهم قِيمون على الممارسات الإسلامية هو موقف متناقض مع روح الاسلام ، كما ان النبي (ص) قد طلب إليه ربه «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (النحل ١٢٥) . وقال الله أيضاً «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (العنكبوت ٤٦) .

من خلال هذه الاستشهادات وكثير غيرها تؤكد زين الدين ان مسألة الايمان وعدمه ومسألة تنفيذ تعليمات الاسلام هي من المسائل التي بين الله والانسان . وما من أحد في الدنيا ، ولا حتى رسول الله (ص) ، مسؤول عن يؤمنون - ومن لا يؤمنون . ولا يحق لأحد

(١) السفور والحجاب ، ص ٦٥ .

اتخاذ أي إجراء ضد من لا يريدون ان يكونوا مسلمين . يجب استخدام الجدل المنطقي وبلطف . الايمان الصحيح يجب ان يصدر عن القلب وان يولد شعوراً بالرضا والسكينة . ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس ٩٩) . وفي آية لا تحتمل الا تفسيراً واحداً يقول الله تعالى : ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة ٢٥٦) .

بالاستشهاد بهذه الآيات وغيرها من القرآن الكريم تؤكد زين الدين ان المسلمين مسؤولون أمام ربهم وحده لأنه ما من سلطة على الأرض تملك الحق بأن تكون ممثلة لله خاصة ان رسول الله (ص) لم يُسمح له ان يكون رقيباً على أعمال المسلمين . وتؤكد السيدة زين الدين ان هذا درس للمسلمين جميعاً بأنه ما من أحد على الأرض مخول من قبل الله بأن يحدد درجة إيمان الناس أو يعاقبهم على قلة إيمانهم وذلك لأن المسلمين جميعهم أحرار في إرادتهم وفكرهم مما ينجم عنه ان النساء المسلمات حرّات . والمشكلة الكامنة في بعض القوانين التي تُسنُّ باسم الشريعة الإسلامية على أساس تفسيرات تتعارض مع روح الإسلام . وتشكو زين الدين من أن ممارسات بعض رجال الدين تنتهك الاسلام وشريعة الله : « وانه لظلم أليم... أن يجروا بعض من أعضائك المحليين أو من أعضاء المجتمع على خرق القانون لتقييد حرية المسلمات في المدن كرهاً واستبداداً تبعاً للهوى في حين ان حرية أخواتهن غير المسلمات في المدن والقرى وأخواتهن المسلمات في القرى مصونة بالقانون من كل تعرض»^(١) .

وليس هناك أساس في النص القرآني لفكرة أن الرجال أفضل من النساء . فالله يفضل المتقين بغض النظر عن جنسهم ودينهم : ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير﴾ (الحجرات ١٣) . وأكد الباري عز وجل في القرآن ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً﴾ (النساء ١) . ومرة أخرى جاء في القرآن ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ (الأنعام ٩٨) .

وتعزو زين الدين الفكرة التي روجها البعض عن ان الرجال متفوقون على النساء الى المرتبة الخدمية التي أنزلت إليها المرأة عبر العصور . وهي ترى المسألة مشابهة للرق . ذلك

(١) السفور والحجاب ، ص ٥٤ - ٥٥ .

حال كل أمة مستعبدة . ذلك حال كل شعب تسلط عليه المستبدون وسلبت حرياته أو قيدت بأنواع القيود... « ولم يُسمع عن رقيق أنه أفلح قبل أن تحرر . لماذا ؟ لأن ظلم الحراريه كان ينهك قوى عقله ويمنع آثارها أن تظهر»^(١) .

المنزلة الاجتماعية المتدنية للنساء لا علاقة لها بعقولهن أو دينهن . فهل كان التمايز السائد بين العبد والسيد نتيجة لنواقص في العبد ؟ ليست هناك أية واحدة تفضل الرجال درجة واحدة على النساء لا في العقل ولا في الدين...

«ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً» (النساء ١٢٤) .

ولا تهدف دعوة زين الدين ضد الحجاب الى حرمان النساء من الأمومة أو الحظ من قدرهن وجعلهن مجرد مقلدات للرجال . بل ان دعوتها تنطلق من ايمانها «ولكني من القائلات مع القائلين : ان العلم أدعى من الجهل الى الصيانة والكرامة والعفاف بل انما هو الحافظ للمرأة مقامها السامي الشريف»^(٢) .

وتذكر زين الدين علماء مسلمين من بينهم محمد عبده والشيخ بدر الدين النعساني والشيخ يوسف الفقيه والشيخ جمال الدين الأفغاني ومحي الدين بن عربي والشيخ مصطفى الغلاييني ، ممن شجبوا تزوير الأحاديث وأصرروا على ان الاسلام لا يقبل حكماً دون دليل وبرهان واضح . وأصر هؤلاء العلماء على اننا يجب أن نتبع ما أنزل الله نفسه في محكم كتابه وما سنّه رسوله الكريم^(٣) .

وتقسّم زين الدين حجتها ضد الحجاب الى قسمين : عقلي وديني . فتورد في البداية حججاً عقلية وتاريخية تؤكد ان الحجاب يشجع على الفساد أكثر مما يشجع على الأخلاق والسيرة الحسنة . فإخفاء الهوية محرض على الخطأ : «حتى م لا يعرف ان القناع يبعث في النفس جرأة على ارتكاب المنكر . أفلا يرى الرجال ان اللصوص والقتلة العامدين يتلثمون اكتساباً للجرأة على ارتكاب ما يرتكبون»^(٤) . وتوضح ان «خوف العار والفضيحة سبب من الأسباب التي تعصم من السقوط في الرذيلة . فلماذا يحرم الرجل المرأة هذا العاصم ؟»^(٥) فتسأل : كيف يمكن أن تكون العبودية دافعاً للأخلاق ؟ وتسأل

(١) السفور والحجاب ص ٨٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧٠-٧٧ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ١١٨ .

ان كانت الظلمة تستطيع أن تكون مصدراً للنور ، والموت مصدراً للحياة ، والفناء سبباً للوجود ؟ وتعلن زين الدين ان الأخلاق الشخصية ونقاء الضمير أفضل بكثير من أخلاق الشادور وما من خير يرجى من التظاهر بل الخير في قرارة النفس .

وتؤكد زين الدين ان فرض الحجاب على النساء هو الدليل الأكيد على ان الرجال يشكون في أن أمهاتهم وبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم يمكن أن يكنّ خائنات لهم . هذا يعني ان الرجال يشكون « بأقرب النساء اليهم وأعزهن عليهم » « ما هذه الحياة ، حياتك ، وفي بيتك ادارة عرفية دائمة أعلنتها ضد أمك وابنتك وزوجتك وأختك خائفاً من خيانة منهن »^(١) .

وكيف يثق المجتمع بالنساء فيوكل اليهن أخطر وظيفة وهي الاهتمام بتنشئة الأطفال وهو لا يثق بهن للاهتمام بوجوههن وأجسادهن ؟ وكيف يستطيع الرجال المسلمون ان يلتقوا بالنساء الريفيات أو الاوربيات غير المحجبات ويعاملونهن باحترام ولا يعاملون المرأة المدنية المسلمة بالطريقة ذاتها ؟ وتختتم هذا الجزء من الكتاب بتقرير انه ليس من واجب النساء دينياً ان يرتدين الحجاب . واذا كان المشرعون المسلمون قد قرروا ان ذلك واجب فرأيهم خاطئ . واذا كان الحجاب قد فرض لنقص في عقل المرأة أو دينها فهل يمكن القول ان الرجال كلهم أكثر كمالاً في العقل والدين من كل النساء ؟

ثم تبدي زين الدين استغرابها كيف يمكن لبعض الناس ان يعتبروا الحجاب والانسحاب الكلي للمرأة من الحياة العامة دلالة على شرفها وكرامتها . فالمرأة الشريفة هي التي تقوم بأعمال نافعة لنفسها وللآخرين . فاذا احتجزت النساء كلهن وراء الجدران أو وراء الحجاب فكيف نميز واحدة عن الأخرى ؟ ان روح الأمة وحضارتها انعكاس لروح الأم . فكيف لأي أم أن تربي أولاداً متميزين اذا كانت هي نفسها محرومة من حريتها الشخصية ؟ وتصل الى نتيجة انه بفرض الحجاب يصبح المجتمع أسير عاداته وتقاليده أكثر مما هو مستجيب لتعاليم الإسلام .

وفي القسم الثاني من الكتاب تثبت زين الدين انه لا القرآن ولا الحديث قد طالبا النساء المسلمات بارتداء الحجاب . فالآيات القرآنية المتعلقة بالحجاب هي أربع مجموعات من الآيات : اثنتان منها موجهتان لزوجات الرسول (ص) واثنتان لنساء المسلمين عامة . وتورد آيات كل مجموعة ثم تناقش الشروحات الواردة في كتب التفسير وتضع الآيات أمام التفاسير ثم تصل الى نتائجها الخاصة بها . إن المجموعة الأولى المتعلقة بزوجات النبي هي :

(١) المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .

﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة أن الله كان لطيفاً خبيراً﴾. (٣٢-٣٤) الأحزاب .

والآية الأخرى المتعلقة بزوجات النبي هي :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾. (الأحزاب ٥٣) .

وتراجع زين الدين تفسير هذه الآيات في أشهر كتب التفاسير وخاصة «التفسير الموسوم في أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للقاضي البيضاوي و«تفسير القرآن الجليل» للإمام علاء الدين الصوفي والمعروف بالخازن و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للإمام عبد الله النسفي والذي هو تعليقات على تفسير الخازن و«مجامع البيان في تفسير القرآن» للإمام الطبري . ويتفق هؤلاء جميعاً على أن هذه الآيات موجهة إلى نساء النبي وليس إلى النساء المسلمات الأخريات على الرغم من اختلافهم في الأسباب التي أدت إلى نزول هذه الآيات على النبي (ص) . ويضيف النسفي أن المسلمات الأخريات تساءلن عن سبب توجيه هذه الآيات إلى زوجات النبي (ص) ولماذا لم يخاطب الله الأخريات ؟ وبعد ذلك نزلت آية «المسلمين والمسلمات» على النبي (ص) . وبعد أن تتحدى زين الدين أولئك المفسرين الذين يطلبون من زوجات الرسول أو المسلمات كلهن أن يبقين في منازلهن بلا عمل تورد العديد من الأمثلة عن نساء كن يعملن في كافة ميادين الحياة أيام النبي وخلفائه . وفي كتاب «منزلة المرأة في الإسلام» للأمير علي خان و«حقوق المرأة في الإسلام» لأحمد أغايف ورد أن فاطمة الزهراء ، ابنة النبي (ص) ، كانت تعلم الرجال والنساء أمور دينهم ، وأن الشيخة شهدة (القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي) والتي عرفت باسم «فخر النساء» كانت تحاضر في مدارس بغداد ومساجدها حول الأدب والتاريخ والفقه والدين . والإمام الشافعي تلقى تعليمه على يد نفيسة ، حفيدة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، وزوجة اسحق بن جعفر الصادق وأم المقتدر . وكانت ، بحضور الوزراء ، تلتقي سفراء الدول الأجنبية وتعالج مشاكل الناس

كل يوم جمعة ويكون القضاة والمستشارون بين جمهورها . النساء المسلمات ، باختصار ، ظللن يختلطن بالرجال طوال العهود الإسلامية ، وكن يستقبلن الضيوف ويعقدن الاجتماعات ويذهبن الى الحروب ويساعدن أخوتهن وأزواجهن على الدفاع عن قلاعهم وحصونهم^(١) .

والآيات الأخرى التي تؤخذ عادة لتبرير فرض الحجاب على النساء المسلمات هي الآيتان ٣٠ - ٣١ من سورة النور والآية ٥٩ من سورة الأحزاب وهما كما يلي :

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضين من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ .

والآية ٥٩ من سورة الأحزاب :

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

وتستعرض زين الدين تفسيرات هاتين الآيتين عند الخازن والنسفي وابن مسعود وابن عباس والطبري فتجدها مليئة بالتناقضات . ولكن جميع المفسرين ، تقريباً ، يتفقون على ان النساء يجب ان لا يغطين وجوههن وأيديهن . وكل من يدعي ان على النساء تغطية أجسادهن كلها بما في ذلك وجوههن لا يستطيع أن يستند في دعواه على نص ديني . فاذا كانت النساء سيغطين تغطية كاملة فلا حاجة للآية التي تخاطب المسلمين ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ . وتدعم وجهة نظرها بالاستناد الى أقوال النبي (ص) : (كل شيء مردود الى كتاب الله وما عداه فهو زخرف . وأنا لم أقل قولاً لا يوافق كتاب الله)^(٢) . وعند الطلب من زوجات النبي ان يرتدين الحجاب لأسباب خاصة تتعلق ببيت النبي أكد الله ، وكأنه يخشى أن تقلد المسلمات زوجات النبي : ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ (الأحزاب ٣٢) وبهذا يتضح تماماً ان الله لا يريد من النساء ان يقسن أنفسهن على زوجات الرسول وان يرتدين الحجاب مثلهن وليس هناك أي لبس في هذه الآية . ولذلك فإن اللواتي يقلدن زوجات الرسول ويرتدين الحجاب إنما يقمن بما لم

(١) انظر السفور والحجاب ، ص ١٥٩-١٦٢ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

يأمر به الله . وفي كتاب «الإسلام روح المدنية» يذكر مؤلفه مصطفى الغلاييني قراءه بان الحجاب لسابق على الاسلام وان المسلمين نقلوه عن الشعوب الأخرى التي اختلطوا بها . ويضيف ان الحجاب كما هو معروف اليوم تحرّمه الشريعة الاسلامية . وكل من ينظر الى الحجاب كما ترتديه بعض النساء سيجد انه يجعلهن أكثر إثارة مما لو كن سافرات^(١) . وتخرج زين الدين برأي مشابه بعد مقابلات لها مع نساء قبل لبس الحجاب وبعده .

وتشير زين الدين الى ان الاسلام ليس مخصصاً لقلّة من نساء المدينة أو لبعض العائلات المعروفة في الريف : لقد كان الحجاب من عادات العائلات الغنية ورمزاً لمكانتها . وتستشهد بعبد القادر المغربي الذي كان ، أيضاً ، يرى في الحجاب عادة ارسقاطية لتمييز نساء الأغنياء والوجهاء عن غيرهن . وتستنتج ان الحجاب كما هو معروف اليوم تحرّمه الشريعة الاسلامية^(٢) .

وفي الجزء الرابع من الكتاب تناقش زين الدين الإجابات والاعتراضات وردود الأفعال التي وصلتها من بعض علماء المسلمين مثل الشيخ سعيد البغدادي والشيخ محمد ابراهيم القاياتي الأزهري من جامعة الأزهر بالقاهرة والشيخ محمد رحيم الطرابلسي والشيخ مصطفى الغلاييني . ويبدو جلياً ان الجدل الساخن الذي نجم عن نشرها لكتابها الأول قد جعلها أكثر قوة في دفاعها عن حقوق المرأة . وقد أهدت كتابها الأول الى أبيها وكتابها الثاني الى النساء كافة «لأن فيكن روح الأم ولأنني أومن ان الاصلاح في الشرق يقوم على حريتك وكفاحكن من أجل ما هو حق ، ولينزل عليكم نور الله» .

وكان لنظيرة زين الدين مؤيدون منهم أمين الريحاني ورئيس الحكومة السورية تاج الدين الحسيني ووزير التربية محمد كرد علي الذين أرسلوا لها رسائل تأييد . وصار كتابها حديث القاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد وبلدان المهجر . وصار المهاجرون العرب في الأرجنتين والولايات المتحدة والبرازيل يرسلون لها الرسائل ويكتبون في الصحف المحلية الصادرة في المهجر حول ما ورد في كتابها من أفكار وحجج . وقد عرضت الكتاب أهم المجالات والصحف العربية الصادرة في دمشق وبيروت والقاهرة ونيويورك وبيونس آيرس وسان باولو وبغداد وحلب وتلقت رسائل من رجال دين ورؤساء دول وحكومات ومن صحفيين وناشرين في كافة أنحاء العالم .

(١) الشيخ مصطفى الغلاييني «الإسلام روح المدنية» (بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٠) ص ٢٥٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

آراء فقهية معاصرة

يتفق ثلاثة علماء معاصرين مع نظيرة زين الدين على ضرورة تنقية التشريع الإسلامي من الشائعات والأكاذيب التي تحولت في ما بعد الى جزء من الممارسات السائدة في المجتمعات الإسلامية . فيطرح الشيخ محمد الغزالي في كتابه «السنة بين الفقه والحديث»^(١) ان النساء يستطعن تسلم أي منصب لديهن المؤهلات له باستثناء الخلافة . ويؤكد ان هذا هو حكم الإسلام الصحيح . ويعلن ان أولئك الذين يدعون ان إصلاح النساء مشروط بلبس الحجاب إنما يفترون على الله ورسوله . كما انه لم يقل أي من الأئمة الأربعة إن رؤية وجه المرأة إثم . وباتفاق كامل مع رأي زين الدين يعبر الشيخ محمد الغزالي عن رأيه في ان النظرة الازدرائية للمرأة قد تسربت من الجاهلية الى المجتمع الإسلامي . ويستخدم الحجة ذاتها ، معتمداً على الآية ذاتها التي يوردها مصطفى الغلاييني^(٢) ، ليثبت انه ليس على المسلمات ان يغطين وجوههن وأيديهن . وحجة الغزالي هي أن الإسلام لم يجبر النساء على تغطية وجوههن أثناء الحج والصلاة ، الركنتين الأساسيين من أركان الإسلام . فكيف يمكن أن يطلب الإسلام من النساء تغطية وجوههن في الأوقات العادية؟^(٣) ومن خلال دراسة تفصيلية لسيرة حياة النبي (ص) يصل الى نتيجة ان السفور كان سائداً في زمانه^(٤) . ويؤكد : «ان الغض من قيمة المرأة جريمة في الاسلام وان الاسلام الصحيح يرفض عادات الشعوب التي تفرض القيود على النساء أو تقلل من حقوقهن وواجباتهن»^(٥) . ولذا فان تقاليدنا وعاداتنا ، كما يقول الغزالي ، يجب ان يعاد النظر فيها لكي لا يبقى فيها الا ما ينسجم مع الشريعة الإسلامية . وان توافقنا مع هذه التقاليد والعادات يجب ان يكون بحسب انسجامها هي مع النص القرآني .

والغزالي ، مثل زين الدين ، واثق من ان كافة التقاليد التي تريد الإبقاء على المرأة جاهلة وتمنعها من العمل في الحياة العامة هي من بقايا الجاهلية وان التمسك بها مناقض لروح الإسلام ، وقد قال الله في كتابه الكريم : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم» (التوبة ٧١) .

(١) الشيخ محمد الغزالي ، «السنة بين الفقه والحديث» (القاهرة ، دار الشروق ، ١٩٨٩ ، طبعة سابعة ١٩٩٠) .

(٢) مصطفى الغلاييني ، ص ٢٥٤ .

(٣) الشيخ محمد الغزالي ص ٤٤ .

(٤) المرجع نفسه ص ٤٩ .

(٥) المرجع نفسه ص ٥٢ .

ويصرّ الغزالي ، كما أصرت زين الدين ، على حق المسلم المشروع في مقارنة التفاسير المختلفة والنسخ المختلفة للاجتهادات الإسلامية ليختار منها الأكثر معقولية وفائدة . ان الاسلام مع اليسر وليس مع العسر . وبصفته عالماً إسلامياً رفض الغزالي تجاهل رأي المرأة عند الزواج . ولم يكن ضدّ أن تبادر هي في مسألة الزواج ان كانت حالتها تتطلب ذلك . والمرأة الفعالة والمتعلمة تستطيع ان تتبوأ أي منصب تريد . باستثناء منصب الخليفة . ويمكن ان تستشار المرأة وأن تعطي رأيها ، وقيمة رأيها مرتبطة بصحته وتماسكه . ويقول : «نحن لا نطمح الى جعل النساء رؤساء دول وحكومات لكننا نطمح الى شيء واحد هو ان يكون رئيس الدولة أو الحكومة الشخص الأكثر فاعلية في الأمة .»^(١) ويعلق الغزالي على المواقف الخاطئة تجاه المرأة قائلاً انه أيام النبي كانت النساء تتمتعن بالمساواة في المنازل والمساجد وساحة المعركة . واليوم يتم تشويه الإسلام الحقيقي باسم الإسلام .

ويتفق مع زين الدين والغزالي عالم اسلامي آخر هو عبد الحليم أبو شقة الذي كتب دراسة علمية عن المرأة بعنوان «تحرير المرأة في عصر الرسالة»^(٢) ويوافقهما على مسألة التناقض بين مكانة المرأة أيام الرسول ومكانتها في أيامنا ، فيقول :

«من خلال دراستي لأيام النبي وجدت آيات وأحاديث تبين ان النساء كن يعملن في كافة الميادين على خلاف ما نرى اليوم وما نفهم ونفسر . وقد بين لي هذا الاختلاف الكبير سر إحجام الكثيرات من النساء عن الاسلام لأنه ببساطة يحرمهن من حق الحياة . وهذا ما جعلني أشعر ان من واجبي ان أوفر على النساء عادات الجاهلية وتقاليدها التي اعتبرت خطأ إسلامية»^(٣) .

ويتفق معهما أيضاً على ان بعض المسلمين قد اخترعوا أقوالاً أو تبناوا أحاديث مدسوسة نسبوها الى النبي مثل «النساء ناقصات عقل ودين» . وفي كثير من الحالات كانوا يوردون أقوالاً لا يعول عليها إطلاقاً ويطلقونها بين المسلمين حتى صارت جزءاً من الثقافة الإسلامية . ويكتشف أبو شقة ، مثل الغزالي وزين الدين ، أنه في بلدان كثيرة يتم ابتكار أقوال ضعيفة جداً ولا يعول عليها وإحالات تراثية غير موثقة ثم تعتبر جزءاً من الشريعة . ويؤكد ، مثل زين الدين ، أن النص القرآني يثبت ان الرجال والنساء معاً من نفس واحدة ويستشهد بالآية ذاتها التي استشهدت بها زين الدين : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس

(١) المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

(٢) عبد الحليم أبو شقة «تحرير المرأة في عصر الرسالة» (الكويت ، دار القلم ، ١٩٩٠) .

(٣) المرجع نفسه ص ٥ .

واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً» (النساء - ١) . ويؤكد أن الإسلام يوجب على المرأة أن تشارك في الحياة العامة وفي نشر الخير والفضيلة : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم» (التوبة ٧١) .

إنها الآية نفسها التي يستشهد بها الغزالي كي يثبت الفكرة ذاتها .
أما بالنسبة لأولئك الذين يمنعون النساء من الخروج للعمل فيرد عليهم أبو شقة :
«إذا كان ممنوعاً على النساء الخروج الى العمل فما معنى هذه الآية : «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن» (النساء ٣٢) . ويتفق أيضاً مع زين الدين والغزالي في أن الحجاب كان لزوجات النبي . ولو ان على النساء ان يستترن سترة كاملة فلماذا أوصى الله الرجال والنساء أن يغطوا أبصارهم ؟ وفي الكثير من آرائه يورد الآيات ذاتها التي أوردتها زين الدين ويتبين انهما فهماها بالطريقة ذاتها . فلا فرق على الإطلاق بين زين الدين والغزالي والدكتور عبد الحليم أبو شقة .

وفي كتاب «تأملات إسلامية حول المرأة»^(١) يتفق السيد محمد حسين فضل الله مع العلماء المسلمين الثلاثة في معظم المسائل المتعلقة بحجاب المرأة وحريتها وعملها ومسؤولياتها الاجتماعية والسياسية . ويؤكد على أن الإسلام يرى الرجال والنساء متساوين في الانسانية وفي المسؤولية^(٢) . فالإسلام لا يُحِلُّ المرأة من مسؤولياتها ولا يقلل من أنوثتها . بل على العكس ، أن الإسلام يؤكد على أن المرأة يجب أن تحس بجمالها وتستمتع به ولكن دون استعراض أو محاولات إثارة الرغبة . وهذا هو ، بالضبط مفهوم زين الدين والغزالي للآية من سورة الأحزاب التي يأخذها بعض العلماء سنداً لرأيهم في فرض الحجاب على المسلمات كافة . ومن شبه المؤكد أن دراسة مقارنة لأعمال هؤلاء العلماء الأربعة زين الدين ، والغزالي ، وأبو شقة ، وفضل الله ستخرج بنتائج مفيدة . فمحمد الغزالي هو الذي كتب تقديم كتاب أبو شقة «تحرير المرأة في عصر الرسالة» . وفي هذا التقديم يقول الغزالي : «أتمنى لو صدر هذا الكتاب قبل قرون وطرح مشكلات المرأة في المجتمع الإسلامي بهذه الطريقة الواعية لأن المسلمين قد

(١) الشيخ محمد حسين فضل الله «تأملات إسلامية حول المرأة» (بيروت ، دار الملاك ، ١٩٩٢) .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥ .

حادوا عن تعاليم دينهم في التعامل مع النساء . فلاشاعات المفوضة والأحاديث الملفقة قد انتشرت بينهم تاركة النساء المسلمات في جهل مطبق بعيادات عن الدين والدنيا... وهذا الكتاب يعيد المسلمين الى السنة الصحيحة لنبيهم دون زيادة أو نقصان»^(١) .

وفيما تأخذ كتابات فقهاء المسلمين الثلاثة الذين كتبوا بعد ما يزيد عن نصف قرن على زين الدين حيزاً ما في الصحف والمجلات العربية المعاصرة فانه لم تتم الاشارة الى زين الدين وكتابها وآرائها من قبلهم ولا من قبل باحثة معاصرة مثل فاطمة المرنيسي التي تعالج الموضوع ذاته^(٢) . وان المرء ليتساءل : ما الذي كان يمكن أن يحدث لزين الدين لو انها نشرت كتابها في التسعينات بدلاً من العشرينات وهل كانت ستجد أي شخص يناقشها أم انها كانت ستجبر على السكوت بطريقة أو بأخرى ؟ ولا أستطيع إلا أن أتفق مع ما كتبه ليزا باير في مقالتها : «الحياة وراء الحجاب» : «لو ان زوجات النبي عشن في مناطق من العالم الاسلامي اليوم لدفعن ثمناً غالياً لاستقلالهن»^(٣) .

موقع المرأة في الإسلام

إلا أن موقع المرأة في الإسلام محفوظ لا لبس ولا غبار عليه . وقد أكد الرسول ﷺ على المكانة الرفيعة التي أولاها الإسلام للمرأة وضرب مثلاً راقياً في احترام أزواجه ومساعدتهن ومشاركتهن الرأي والقرار . فقد ذكر الرسول ﷺ أن أول من آمن برسالة الله واعتنق الإسلام هو زوجته خديجة بنت خويلد التي قال عنها ﷺ :

«آمنت اذ كفر الناس ، وصدقني اذ كذبني الناس وواستني بمالها اذ حرمني الناس»^(٤) . وكان معاصرو محمد ، وبينهم المهاجرون والأنصار ، يعتبرون عائشة مرجعاً وخبيرة في التشريع الاسلامي . وحين ذكرت لعطاء بن أبي رباح قال : «كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة» . وأول شهيد في الإسلام كانت سمية كما حضرت النساء بيعتي العقبة الأولى والثانية اللتين يُعتقد أنهما كانتا أساس تكون الدولة الاسلامية في يثرب^(٥) .

(١) أبو شقة ص ٥ .

(٢) الحزيم السياسي ، النبي والنساء - ترجمة عبد الهادي عباس (دمشق ، دار الحصاد ، ١٩٩٠) .

(٣) مجلة التايم ، خريف ١٩٩٠ ، ص ٣٧ .

(٤) قدرية حسين : «شهيرات النساء في الإسلام» ترجمه عن التركية عبد العزيز أمين الخانجي (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٩٢٤) ص ٣٣ .

(٥) محمد شحرور : «الكتاب والقرآن» (دمشق ، دار الأهالي ، ١٩٩٢) ص ٥٩٤ .

وقد روت عائشة (٢٢١) حديثاً عن النبي محمد صودق على (١٧٠) منها وأخذ البخاري (٥٤) حديثاً منها^(١). وقد كتب عبد السر عفيفي في «المرأة العربية في الجاهلية والإسلام»: «لقد امتازت «العالمة المسلمة» بالصدق في العلم والأمانة في الرواية والحيدة عن مواقع التهم ومساقط الظن مما لم يوفق اليه كثيرون من الرجال». وفي «ميزان الاعتدال» يشير الحافظ الذهبي (المتوفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)، وهو مرجع إسلامي كبير في الحديث، إلى أربعة آلاف محدث إسلامي مشكوك في روايتهم. ويضيف: «وما علمت من النساء من أثهمت ولا من تركوها». ونقول إن حديث رسول الله منذ عهد عائشة، أم المؤمنين، إلى عهد الذهبي ما حفظ ولا روي بمثل ما حفظ في قلوب النساء وروي على ألسنتهن»^(٢).

ولم تكن زوجات الرسول وقربياته استثناءً في عصرهن. فكثيرات هن الباحثات والمعلمات^(٣). ويذكر محمد بن سعيد أكثر من (٧٠٠) امرأة روين الأحاديث نقلاً عن النبي أو عن الأنصار أو المهاجرين. وكان الباحثون وأعمدة الإسلام يروون نقلاً عن هؤلاء النساء^(٤). ويعرف عن أسماء بنت يزيد بن الساکان الأنصارية أنها روت (٨١) حديثاً عن النبي. وكان عمها محمد بن عمر الأنصاري وأبو سفيان وغيرهما ينقلون عنها. وقد عرف عنها أيضاً أنها كانت عالمة ومدافعة عن حقوق النساء. وروي أنها ترأست وفداً من النساء إلى النبي وقالت له: «أنا رسولة النساء إليك». لقد أرسلك الله للرجال والنساء معاً. وقد آمنا بك وبإلهك. لكننا نحن النساء نزيلات بيوتنا نشبع رغباتكم ونحمل أطفالكم بينما أنتم الرجال تخرجون إلى القتال وتقومون بالحج وتسعون بالجهاد في سبيل الله. وحين يخرج أحدكم إلى الميدان نحفظ ما لكم ونخيظ ثيابكم ونربي أولادكم. فهل نستحق أن نقاسمكم الأجر؟»^(٥) وأقر النبي أنها تمثل النساء وأجاب النساء اللواتي يقفن وراءها.

وقد مارست النساء المسلمات السلطة السياسية إلى جانب المرجعية الأدبية. صرن ملكات ومحاربات وطبيبات وشاعرات وناقداً أدب. وكان للكثيرات منهن صيت بالبسالة في القتال وأثنى عليهن النبي (ص) وأتباعه. ومن الواضح أن دور النساء لم يكن مقصوراً على

(١) قدرية حسين، شهيرات النساء، ص ٧٤.

(٢) عبد السر عفيفي، «المرأة العربية بين الجاهلية والإسلام» (القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٢)، ص ١٣٨.

(٣) عبد السر عفيفي، ص ١٣٩.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٢.

(٥) فاطمة البتول ميرزا «النساء المسلمات في التاريخ العربي» الأهرام - القاهرة ١٥ نيسان ١٩٨٩، ص ٥.

تشجيع الرجال ومعالجة الجرحى . بل لعبن دوراً فعالاً في الدفاع عن قبيلتهن وقضيتهن . وكانت عصمت الدين (شجرة الدر) أول امرأة مسلمة تعتلي العرش . فقد مات زوجها ، الملك صلاح الدين ، أثناء الغزو الصليبي لمصر . فتابعت إصدار الأوامر العسكرية والعملياتية بعد إخفاء نبأ موته ما يزيد عن شهرين لكي لا تتأثر معنويات الجيش . رسمت الخطط وحثت الجنود وأعطت تعليماتها للضباط من أجل قيادة المعركة ضد الصليبيين ، والتي أسرف فيها الملك لويس الرابع الفرنسي (القديس لويس) فحسم النصر لشجرة الدر . وحين انتهت المعركة وضمن النصر أعلنت شجرة الدر نبأ وفاة زوجها وأقامت له جنازة ملكية واعتلت العرش بشكل علني . وكان يقرأ اسمها في صلاة الجمعة كما صُكَّت النقود باسمها^(١) وقد عرفت بأنها « كانت ملكة عاقلة لبيبة على دراية تامة بأصول المسائل وفروعها وصار الناس يتفاءلون خيراً بقدمها وبدأ الفقراء يتنعمون بميزاتها وحسناتها . لم تكن حكومتها استبدادية . ولا تشرع في عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس المشاورة ولا تصدر قراراتها الا بعد الرجوع الى رأي وزرائها ومستشاريها »^(٢) .

كما حكمت النساء في بلدان اسلامية أخرى . وقد ظهرت أكثر من ملكة في اليمن بعد القرن الخامس الهجري/ العاشر الميلادي . وأشهرهن الملكة أورفا (المتوفاة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٠ م) التي مارست السلطة السياسية كاملة واشتمل ذلك على مسائل الحرب والسلام . وفي القرن الثالث عشر كانت نساء كثيرات في مراكز مرموقة في بلدان اسلامية ، بينهن السلطانة راضية في دلهي ، وتوركان خاتون ، وصفوت الدين ملك خاتون ، وساتي بيك خان وتندو في آسيا الوسطى . وفي القرن ذاته حكمت ملكات في اندونيسيا لمدة (٢٤) سنة دون انقطاع وحملن أسماء مثل « تاج العالم » و « نور العالم » واستمر هذا التراث السياسي حتى يومنا هذا .

وكانت المسلمات شاعرات وناقداً أدب . والأولى بين هؤلاء الناقداً هي سكيمة بنت الحسين التي كانت الحكم الفصل في الشعر في عصرها . وكان الشعراء يقصدونها من مسافات بعيدة ليقرأوا عليها شعرهم ويسمعوا رأيها الذي قد يؤثر على مستقبل شعرهم^(٣) . وسارت عائشة بنت طلحة على خط سكيمة . فكانت تلتقي بالشعراء والأدباء . وكانت عمرة الجمحية من ثراة بني جمح تلتقي بالشعراء والرواة في منزلها ، فتستمع اليهم وتحكم على

(١) قدرية حسين ص ١٧٩ .

(٢) المرجع نفسه ١٧٩ - ١٨٠ .

(٣) عبد السر عفيفي الجزء الثاني ، ص ١٤٧ .

انتاجهم الأدبي^(١) . وتورد كتب التاريخ الأدبي أسماء مئات الشاعرات والأديبات عبر العصور الإسلامية وحملت المرأة العربية هذا التراث الأدبي الى يومنا هذا فكانت رائدة في الشعر الحديث والرواية ومشاركة نشطة في النشاط الأدبي والفكري والفني الحديث . كما لعبت النساء دوراً هاماً في مجال الطب الذي اشتهر به العرب ، وقد مارسن الطب في بغداد وقرطبة ومدن أخرى في العراق والأندلس^(٢) . وستظل أسماؤهن ومساهماتهن بانتظار الذكر الملائم والتوثيق الصادق . إن المعلومات الموزعة في الكتب والمجلات والصحف لم تصنف بشكل ملائم في الأرشيف ولذا لم تصبح ، بعد ، جزءاً من التيار الأساس في علم تاريخ الإسلام . والحقيقة أن دور النساء في التاريخ الإسلامي قد تعرض للتهميش والطمس ، أكثر من مرة ، وأحياناً كان الدور يُقلب نهائياً حسب مزاجيات الباحثين من الرجال الذين كانوا يقعون تحت تأثير العادات السائدة لمجتمعات ما قبل الإسلام .

نظيرة زين الدين والتفسير

«أجل انه كما للمرأة أن تشترك في الحكم الشعبي ، ان لها الحق الصراح ان تشترك في الاجتهاد الشرعي تفسيراً وتأويلاً . بل انها أولى من الرجل بتفسير الآيات القائم فيها واجبها وحقها لأن صاحب الحق والواجب أهدى اليهما من غيره سبيلاً»^(٣) .

هذا ما كتبه نظيرة زين الدين في «الفتاة والشيوخ» . ونظيرة زين الدين هي الأكثر جدية ومعرفة بين الباحثات والمفسرات المسلمات حتى الآن . ويأتي عملها منسجماً تماماً مع الدور الذي ارتضاه سيدنا محمد ﷺ للمرأة والمكانة الرفيعة التي منحها الإسلام لها فقد قال رسول الله ﷺ «أكثر الخير فيهن» وقال : (ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء) . وقد قاربت النصوص القرآنية بروح تقية ورعة وعقل منفتح ومتنبه لا يشغلها أمر سوى توخي الدقة والعلمية في فهمها للنص وتفسيرها له . وإننا إذ نضع هذين العاملين بين يدي القارئ بعد سبعين عاماً تماماً من صدور أولهما فذلك لإيماننا أنهما يغنيان الحوار القائم حول مكانة المرأة في الإسلام ويؤكدان على روح الإسلام الحنيفة وإنصافه للمرأة والرجل على حد سواء . كما أنهما يؤكدان على أن الرسالة الإسلامية السمحة قد ركزت على جوهر الإنسان وليس على مظهره كما يحاول بعض المفرضين اليوم أن يدعوا ،

(١) عبد السر عفيفي ص ١٤٧-١٤٩ .

(٢) عبد السر عفيفي ص ١٥٣-١٥٤ .

(٣) «الفتاة والشيوخ» الطبعة الأولى نشر على حساب والدها سعيد بيك زين الدين (بيروت ١٩٢٩) ص ٧٥ . دار المدى (١٩٩٨) ص ٨٢ .

ويكشفان الستار عن بعض التآويل المغرضة التي دسّها من هم من الدين الإسلامي براء بغية النيل من المكتسبات الكبرى التي أتى بها الإسلام للمرأة . وقد كررت الكاتبة مراراً أنها في بحثها هذا « معتصمة بكتاب الله وسنة رسوله » طامحة إلى الكشف عن « عادات وتقاليد وبدع في الاجتهاد قديمة تخالف روح كتابنا وسنة نبينا ، وتخالف حكم العقل مخالفة ظاهرة لكل من عَقَلَ وتأمَّل »^(١) . خاصة وأنها رأت « في كتاب الله وسنة رسوله من أنوار الهدى المحجوبة وراء غيوم من غرائب التقاليد والبدع ما يملأ العالمين حرية ورقياً وسعادة وصلاًحاً »^(٢) .

ومما قيل في « السفور والحجاب » هو أنه « كتاب الجيل الذي ستردد صدهاء الأجيال وأنه الكتاب الذي يستحق مكافأة « نوبل » وإن مؤلفته تستحق وسام الامتياز لامتيازها على كل من عالج في الشرق ما عالجت من المواضيع الاجتماعية بلاغةً وسداد رأي وحسن أسلوب وسمو مبادئ ، وقوة برهان ، وأنها اطلقت العقل من عقالة بقوة بيانها ، وزالت الأباطيل عنه بحجتها وبرهانها ، وأنها رسول تحرير المرأة ونهضتها ، وقائدة الإصلاح ورافعة لواء التجدد في الشرق ، وأنها جان دارك الشرق تنقذه من اعدى اعدائه ، من العادات المجرّدة ، والتقاليد المقيّدة ، لعقول ابنائه ، وإن لمثلها تقام التماثيل ، وإنها قد أدركت روح الدين واسراره واظهرتها بأبهى مظهر ، وأن الأنوار التي تنبعث من كتابها تخرق ظلمات الجهل والتعصب وتمزقها مهما كانت كثيفة »^(٣) .

ومن أهم ما قيل في كتاب السفور والحجاب ما قاله السيد رشيد الخوري المعروف بالشاعر القروي في مقال صدر به العدد ٤١٩٧ من جريدة « فتي لبنان » الصادرة في سان باولو (البرازيل) فكتب تحت عنوان « السفور والحجاب » :

« هذا كتاب الجيل ، ولو لم تخط يد الأنسة نظيرة زين الدين سواء ، لكفاها به أثراً بيانياً خالداً ترجع صدهاء الأجيال . وإنه لخليق بأكثر مما عني به الناقدون . فغاية ما قالوا فيه لا يعدو مألوف صحفيين في تقريظ كل كتاب تلفظه المطابع الى شواطئ الافهام ، مع أن لمثله خلقت أقلام أمثال الدكتور طه حسين تشرح فصوله تشريحاً ، وتمحص شذوره وسبائكه تمحيصاً . فهو كتاب في السفور والحجاب ، لكن نفعه لا ينحصر في المسلمات ، بل يتناول المسلمين جميعاً ، ويجوز الى سواهم من كل ناطق بالحاء »^(٤) .

(١) من رسالة زين الدين الأولى الى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سوريا ولبنان بصدد كتابها « السفور والحجاب » ص ١١٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .

(٣) من الرسالة الثانية الى المفوض السامي في سوريا ولبنان .

(٤) الفتاة والشيوخ ، ص ٢٩-٣٠ .

وبالفعل فإن كتاب «السفور والحجاب» للآنسة نظيرة زين الدين لم يُعطَ حقه في البحث والدرس من قبل الأجيال التي تعاقبت منذ ذلك الحين مع أن كثيراً من النقاد اعتبروا أن الآنسة نظيرة زين الدين صدعت في بلاد الشام لما صدع له قاسم أمين بدعوته إلى السفور في بلاد مصر وأن دعوتها هذه سيكون لها أثر مشابه لدعوة قاسم أمين ، هذا فحوى ما كتبه الأستاذ الشيخ علي عبد الرزاق في مجلة الهلال (شهر أغسطس ١٩٢٨) وقد نشرت المجلة بمناسبة كلمته هذه صورة الشيخ بجانب صورة المؤلفة رمزاً لمعاوضة الشيوخ الثقات ، للفتاة . كما يشير حنا خباز في كلمة نشرتها مجلة المقتطف (الجزء السادس من المجلد الثاني والسبعين) إلى أن نظيرة زين الدين بنشرها «السفور والحجاب» «قد أضافت إلى ظاهرات الحياة في الشرق ظاهرة جديدة . ومن علائم الفوز أن ينتشر كتابها قبيل الاحتفال بانقضاء عشرين سنة^(١) على ظهور كتاب قاسم أمين على ما هو مبين في باب شؤون المرأة من هذا الجزء من المقتطف»^(٢) . كما أشارت صحيفة النسر في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٢٩ بعد أن عبّر الكاتب عن غبطته وسعاده بالكتاب إلى أن التاريخ الشرقي سيذكر «لهذه الفتاة الراقية فطرة وتربية وتهذيباً ، اسماً طيباً مقروناً بالفخر والثناء لأنها أقدمت على مشروع عظيم الأهمية في الشرق لم تسبقها إليه فتاة من بنات جنسها ولا استطاع أن يقدم على مثله غير ذلك الشاب الطيب الأثر المرحوم قاسم أمين»^(٣) . واستشرفت كلمة البصير عدد ٩٣١٨ الأثر الطيب المستقبلي الذي لا بد وأن يحدثه كتاب السفور والحجاب تماماً كالأثر الذي أحدثه قاسم أمين صاحب كتابي «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» في المجتمع المصري : «على أن الصيحة التي أرسلها قاسم أمين وجدت مرتعاً خصباً في أذهان بعض المجددين . وبالرغم مما نال قاسم من اضطهاد ، فإن فكرته سارت سيرها الطبيعي وكان لها الأثر الذي نشاهده اليوم في مصر ، إذ نرى النساء يحضرن اجتماعات الرجال ويبارينهم في الخطابة والعمل . ولا شك أن النهضة المصرية الأخيرة كان لها أثرها الحسن في هذه النتيجة الباهرة»^(٤) . كما قرن محرر مجلة «كلمة السيدات والرجال» بين أثر كتابي قاسم أمين والأثر الحتمي الذين سيكون لكتاب نظيرة زين الدين في دحر النقاب : «فالحجاب كان منقضيّاً تدريجياً قبل كتابي قاسم أمين ونظيرة زين

(١) يقصد ثلاثين سنة لأن كتاب قاسم أمين نشر عام ١٨٩٩ وكتاب زين الدين نشر عام ١٩٢٨ .

(٢) الفتاة والشيوخ ، ص ١٧٥ .

(٣) الفتاة والشيوخ ، ص ١٧٦ .

(٤) الفتاة والشيوخ ، ص ١٨٣ .

الدين . ولكن الكتاب الأول قرره الى حافة الهاوية والثاني دفعه فيها . فمرحى يا نظيرة»^(١) .
كما أرسلت كلمة صحيفة «فتى لبنان» الثانية في العدد ١٦٦١ تحية حارة الى زين الدين
متوقعة لكتابها اهتماماً يفوق الاهتمام الذي حظي به كتابا قاسم أمين : «فحيّاك الله يا زينة
الدين والدنيا . إذا كان الشرق قد أكبر ما فعله قاسم بك أمين في سبيل تحرير المرأة ، فما
عساه أن يصنع تجاه كتابك الذي جاء آيةً من آيات البلاغة والبيان ، بل قمراً نيراً يهدي
الساري في بيدااء الحياة»^(٢) .

ولكن العقود المنصرمة لم تبرهن صحة هذه التوقعات التي انطلقت من أقلام مرموقة في
أرجاء الوطن العربي والمهجر . ولا يمكن لأي عربي اليوم أن يقارن الحضور الذي حققه
قاسم أمين وذلك الذي حققته زين الدين الى حد الآن . ففي الوقت الذي أصبح كتابا قاسم
أمين جزءاً من المكتبة العربية فإن كتابي زين الدين يُعتبران في حكم الكتب نادرة الوجود
إلا في أمهات المكتبات العربية وقد يكون هذا هو السبب وراء تقصير الباحثين في موضوع
المرأة والإسلام كالشيخ محمد الغزالي وعبد الحليم أبو شقة والغلاييني وغيرهم الذين خلت
كتبهم من الإشارة الى كتابيها ، مع أن ندرة الكتاب لا تغفر للباحث عدم التقصي واستنباط
الكتب ذات الصلة الوثيقة بالموضوع من بطون المكتبات العربية . ولا يستطيع المرء أن
يبتَ فيما إذا كان التعظيم على كتابي زين الدين ، اللذين أحدثا ضجة في عصرهما لا توازيها
إلا الضجة التي أحدثتها مؤلفات قاسم أمين ، مقصوداً أم غير مقصود ولكن النتيجة واحدة
وهي أن أعمال نظيرة زين الدين لم تنل القسط الذي تستحقه من الاهتمام والدرس ، ولذلك
فلعلها لم تحدث بعد الأثر الذي كان متوقفاً أن تحدثه .

ولكن ومنذ أن نشرتُ مقالاً بالانكليزية والعربية أعرف بأعمال نظيرة زين الدين
وردتني رسائل كثيرة تطلب مني إعادة نشر الكتابين ونقلهما أيضاً الى اللغة الانكليزية إن
أمكن . وقد أصبح النقاش في هذا الموضوع واقعياً الى حد ما بعد الحماس الذي أبداه
المرحوم سعد الله ونوس لكتابي زين الدين بعد أن قرأهما . واتفقنا أن يكتب هو مقدمة
تاريخية للكتابين وأن أكتب أنا مقدمة أعرف بالعملين أنفسهما ، ولكن الزمن أحياناً يضيق
ذرعاً بأجمل وأثمن ما لديه ، فلم يعطِ فسحة للمرحوم سعد الله أن يترك بصماته على هذا
المشروع . ولكن سعد الله كان قد قال لي مرة في معرض حديثنا عن المشروع «سأكتب
مقدمة أضع العاملين في الإطار التاريخي الذي ظهرا فيه وأري الحالة الأدبية والفكرية السائدة

(١) الفتاة والشيخوخ ، ص ٢٠٠ .

(٢) الفتاة والشيخوخ ، ص ٢٠٨ .

في ذلك الوقت» . واليوم وفي كتابتي لهذه المقدمة قبيل السنوية الأولى لوفاة المرحوم سعد الله ونوس أسجل أنني حاولت الالتزام بفكرته والعمل بوحى من توجهه كما فهمته في حينه وليس لدي أدنى شك أن حظ القارئ كان سيكون أوفر بكثير لو تمكن المرحوم سعد الله من كتابة هذه المقدمة ولكانت دون شك أمتعنا وأفادتنا أيما فائدة .

إن ما أرجوه من قراء هذين العاملين هو أن يتمتعوا بحب للإسلام مماثل لحب نظيرة زين الدين وأن يتحلوا بنفس الروح الموضوعية والحجة والمنطق التي تحلت بها المؤلفة وهي تحاول إسداء خدمة للإسلام والمسلمين وإلقاء ضوء مخلص ونير ومتبخر ومتفقه على مسألة إشكالية طالما اختلف فيها العلماء والمفسرون ، ولا بأس من التذكير بأن دافعها في التصدي لهذه المهمة الصعبة والنبيلة هو إيمانها بأن «النساء أولى من الرجال في تفسير الآيات القائم فيها واجبهن وحقهن لأن صاحب الحق والواجب أهدى إليهما من غيره سبيلاً»^(١) .

والله من وراء القصد

(١) الفتاة والشيخ ، ص ٢٦٢ .

قال الله تعالى

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾

وقال تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَالرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا ﴾

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى . فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ وَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

«كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَكُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زُخْرَفٌ».

أهداء الكتاب

إلى أبي سعيد بك زين الدين

الرئيس الأول لمحكمة الاستئناف في الجمهورية اللبنانية

إليك يا أبي

إليك أهدي ، في معرض شكري لآلائك ، باكورة آثاري «السفور
والحجاب» ، وماهي إلا انعكاس لأشعة نور علمك ، وحرية إرادتك
وفكرك ، أنارنا الله وأنار الأمة بالهدى ، ووفقنا ، ووفقها الى الطريق
السوي ، والصراط المستقيم .

ابنتك نظيرة

فاتحة الكتاب

باسم الله أبتدي ، أمّا بعد فكل مسلمة يرفع الغطاء عن بصرها ويصيرتها ففري ما أفاض الله تعالى عليها في كتابه من أنوار الحرية ، وتعلم عطف نبيه عليها ، وتكريمه إياها ، وتفهم ماخولها سبحانه وتعالى من الحقوق الشرعية لابد لها من أن تتألم نفسها من مظاهر الظلم والاستعباد ، ومما فسد من العادات والتقاليد ، فتنتقل الى التجدد الصالح ، والحق الواضح في طريق الحياة .

بدأت أدرس شؤون الشرق وأحوال المرأة فيه ، منذ بدأت أفهم معنى الحق ، والحرية ، واستقلال الإرادة ، والإعتماد على النفس ، وعدم كفاية التقليد في دين الله ، بل عدم جوازه ، فما أغرب ما رأيت فيما درست وما أكثر مأسائي ، وما أعظم ما كظمت ، حتّى حدث في الصيف الماضي ما حدث في دمشق من ضغط لحرية المسلمات ، ومنع لهنّ من السفور والتمتع بالهواء والنور ، فتناولت القلم لأظهر في محاضرة موجزة ما في نفسي من ألم فإذا بقلمي يمضي في أثر نفسي ، وإذا بنفسي المتألّمة تطلب المزيد في البيان ، وقد انفسح لها مجال للبحث عن أمراض اجتماعية نهكت قوانا ، ونحن نكابر في المعقول والمحسوس إخفاء لها كأننا آلينا أن نعصدها لتقوى علينا ولو عاد الغرور بالخسران ومما يدمي قلبي أننا نشقى مع أن عقاير الشفاء من الشقاء في يدنا ذلك بتحكيم العقل المطلق ، أمامه السنّة والقرآن ، فأضحت المحاضرة محاضرات طافية ، يضيق المتكلّم عن إلقائها ذرعاً ، والمخاطب عن تلقيها سمعاً .

ولم أجز لنفسي في سبيل إيجازها ، أن أترك من شرع الله لآلئ بعد إحرازها ولنلا تبقى في حجاب عن أولي الألباب ، أودعتها مايلي من الصفحات وأرسلتها سافرة الى الأمّة في طليعة السافرات ، تكلم اللواتي سينفنخن فيها روح الحياة .
وقد جعلت محاضراتي أربعة أقسام ونتيجة .

القسم الأول : جولات عامة في الحرية ، والحق ، والشرع ، والدين ، والعقل .
القسم الثاني : الأدلة العقلية على وجوب السفور ، والتحرر ، والتطور في ما بحثت من الأمور .
القسم الثالث : الأدلة الدينية في ذلك ويتخللها أدلة عقلية ، كما يتخلل الأدلة العقلية أدلة دينية . لأن الدين والعقل متآزران متضامنان في الحق لايفترقان .
القسم الرابع : المعارضات في مباحث ، والردود عليها .
وقد جعلت نقض محاضراتي حقاً لكل مفكر ومفكرة . للمسلمين والمسلمات آراؤهم في الأمور الخاصة : ولهم ولغيرهم آراؤهم في الأمور العامة حيث تشترك المصالح ، ويحكم العقل المطلق .

غير أنني أرجو ممن ينتقد في هذا الموضوع الحيوي رغبة في الإفادة ، أن يقرأ كتابي ويؤثر الإعادة . ليحيط علماً بكل ما في المحاضرات والنظرات ، فإن ما يرى من فراغ في بحث ، فالبحث الآخر يملؤه ، وما يتراءى من نقص في بحث فغيره يكمله .

ولا يخفى على الرجل الراقى ، مصير الحق والمرأة ، المدرك روح الإسلام وخير الأمة ، إنما سيقراً من ملام وعتاب ، في معرض الدفاع أو الخطاب ، لا يتناول أمثاله ، إنما ذلك يتناول رجاله ، إن الملام والعتاب والخرج ، على من خالف كتاب الله وسنة رسوله ، وخالف حكم العقل ، ولم يعرف نفسه . وضلّ عن معالم الخير ، وجهل مصلحة الأمة ، وخفيت عليه طرق الصيانة والكرامة ، فبخس المرأة حقاً ، وسام الحرية رقاً ، وذلك للمتقهقر أو للجامد ، أو للمراني بالورع البارد .

وليعلم كل من خالف الكتاب وضلّ عن جادة الصواب أن الفتاة المسلمة ، لا ترجو إلا الخير للعالم والأمة .

وإني أشهد أن لا إله إلا الله وبكتابه أعتمد ، وعليه أتكل وهو حسبي ، ونعم الوكيل .
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ولسنته السنية أتبع ، إنها دليلي الى الحق والهدى ، ونعم الدليل .

نظيرة زين الدين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ.
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

القسم الأول

جولات عامة

في الحرية، والحق، والشرع، والدين، والعقل

حرية الأديان والمذاهب

سادتي وسيداتتي

منذ خلق الإنسان أراد أن يمجّد خالقه . غير أن الناس اختلفوا في طرق تمجيده لتباين العقول والأهواء ، فأثار اختلافهم حرباً بينهم هواناً ، طالما سفكت دماءً ويثّمت أطفالاً ، ورمّلت نساءً ، واستعبدت أحراراً ، وخربت دياراً ، وجعلت كلّ فئة منهم تصمّ الفئات الأخرى بالكفر والإلحاد . فتن كانت تشبّ من أجل تعيين الطريق التي يجب أن يُمجّد بها الله . وإكراه الناس على سلوكها وحدها في تمجيده عزّ وجل .

ولكن تابعوا الطريق الواحد على مرّ الأجيال والعصور ينقسمون الى فرق تعمل الواحدة منها لإفناء الأخرى كأنّ في ذلك مجد الله . وما زالت الحال على هذا المنوال حتّى سطعت في الظلمات التي كانت تكتنف العالم شمس الحرية الساطعة وما كان فجرها إلا الكتب المنزلة وما كان حجابها من قبل ومن بعد إلا الجهل والهوى ، فبددت أنوارها تلك الظلمات وحرّرت كلّ دين وكلّ مذهب . فعاد الناس الى صوابهم وتجلّت لهم الحقائق الدينية الصرفة فاتخذوا بعضهم بعضاً إخواناً وتبادلوا احترام المذاهب من حيث أنهم متّفقون على تمجيده تعالى وعلى أدب النفس الذي يرضيه ولسان حالهم يقول لخالق السموات والأرض ماقاله الإمام النابلسي :

عباداتنا شتّى وحسنك واحدٌ وكلُّ الى هذا الجمال يشيرُ

وماقال شاعر القطرين :

هذي المذاهب كلّها نور الهدى كأشعة الشمس افترقن الى مدى

والملتقى في مصدر الأنوار

فانتهى - والحمد لله - التنافر والقتال من أجل الدين ، واتفق دعاة المذاهب على حرية

العمل في سبيل مجد الله ، وعلى السلام والتآخي ونصرة الصلاح ونشر المحبة في العالم . لأنهم

كلهم في طرقهم المختلفة صائرون الى الله ، فكانهم بذلك قد فطنوا الى قوله تعالى في كتابه العزيز ﴿ لا إكراه في الدين... قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ . اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ . لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ . لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .
وقد قدست الحرية الدينية القوانين الأساسية في العالم كله .

* * *

حرية العلم واستقلاله

كذلك منذ خلق الإنسان ، والناس فريقان ، فريق فطر علي حرية التفكير والاستقلال والجهاد في التنقيب والاستقراء وتحري الحقائق وقبول نظريات العلم الحديث للترقي من حال الي أصلح منها . وفريق رأى أن لا يكلف نفسه عناء في تحليل النظريات الحديثة وآثر البقاء والجمود على ما وجد آباءه عليه مقتفياً آثارهم وعاداتهم كيف كانت هذه الآثار والعادات وصبغ العلوم كلها من سياسية ودينية واجتماعية وطبيعية وفلكية وغير ذلك صبغها كلها بصبغة دينية لاتقبل تغييراً . وجعل فيها أقوال المؤلفين السابقين كأنها أصول الدين ، ولم يكتف بمنع اللاحقين أن يتفهموا أصول دينهم من منابعها الحقّة بل أيضاً من تفهم هذه الأقوال ومن اختيار أحسنها ، حاضراً فيه حق الاختيار ومجبراً الناس على العمل بما يختار للدنيا وللآخرة . وأخذ يرمي بالكفر والمروق والإلحاد كل مفكر أراد تحكيم العقل والتطور والإرتقاء وإعلان الحقائق التي لمسها في دينه ودنياه . ذلك ماكان يضع النفوس تحت الكابوس ، مثبتاً إياها في الجهل والطاعة العمياء ، طابعاً فيها المكر والخبث والرياء . وذلك ماكان يجمّد العقول حاجراً عليها أن تتحرّك إلا لتبتدع قيلاً أو غلاً جديداً يزيدها أسراً وحجزاً وجموداً وتقييداً .

ولقد دام تنازع هذه الفئة من رجال الدين ، ورجال العلم المستنيرين أجيالاً طويلاً حتى انتهى الأمر بتكسر النصال الرامية بالكفر والإلحاد ، وبتحرر العلم واستقلاله بعد ذلك الجهاد . فاعترف الناس كلهم بأن للعلم سلطاناً منفصلاً عن سلطان الدين ، قائلين أنه لايجوز الخلط بين السلطانيين لأنّ الفائدة منهما كليهما إنّما تتم باستقلال الواحد عن الآخر ، وباستقلال أسلوب البحث العلمي الحرّ عن أسلوب البحث الديني المقيّد . واعترفت هذه الفئة من رجال الدين كما اعترفت دائماً الفئة المنورة منهم لرجال العلم ، بأنه لا يضير مجد الله أن يرتقي الإنسان ويتحرر فكره وتستقل إرادته ، ويتولّى عقله زمام نفسه ويسعى لكل مافيه مصلحته في الدارين ومصلحة

الناس . بل اعترف أكثر رجال الدين بأن الأمور الدينية هي مثل غيرها لها قشور وظواهر ولها لباب وسرائر ، وإن الإعتناء باللباب والسرائر أخرى منه بالقشور والظواهر . وعلى هذا القياس احترم أرباب الدين أرباب العلم واحترم أرباب العلم أرباب الدين ، وانتهى هذا الإحترام المتبادل وتحرير الاثنين ، العلم والدين الى نفع الإثنين معاً . فتطور كل منهما بما نال الإنسان فيهما من حرية التفكير وحرية اللسان والقلم تطوراً محسوساً لمسنا بالأيدي عظم منافعه للحياة البشرية .

انظروا الى العلم القديم ، تروا أن مضاره قد تزيد على منافعه ، إذ كان الوهم والخيال فيه يغلبان الحقيقة في كثير من الأحيان ، وكان العقل مقيداً يرهب من التجول لكشفها واللسان والقلم يرهبان من بيانها ليغلباها على الوهم والخيال ، وانظروا الى العلم الحديث وهو مستند الى الحقائق الثابتة المحسوسة ، وقد أطلق فيه العقل واللسان والقلم - تروا كيف اكتشف به الإنسان أسرار الطبيعة وجواهرها ، وسخر لإرادته قواها واستخدم في منافعه عناصرها . ثم أين مفهوم بعض التعاليم الدينية عندما كان العقل مقيداً محجوراً عليه أن يدرك إلا بواسطة كنه أوامر الله ولباب الدين وأين التعاليم الحديثة التي ينشرها الأجلاء من علماء هذا الزمان الذي أطلق فيه العقل واللسان والقلم وكلها ترمي الى تحرير الفكر والعمل واحترام الآخرين . وطلب الخير لكل الناس ، ذلك إنما هو روح الدين وخلاصة خلاصات مبادئه العالية الخالصة .

لنسمع مثلاً ما قاله العالم بيار دودج في حفلة تنصيبه رئيساً للجامعة الأميركية في بيروت - والجامعة معهد انجيلي الصبغة - قال :

«إن المذهب الانجيلي في نظرنا عبارة عن الحرية الدينية ، ولكون معهدنا انجيلي الصبغة فإننا نرغب في أن نترك لتلامذتنا الحرية التامة في العبادة والمعتقد... وما كنا في تربيته الروحية لنلقي أهمية على الأسماء والظواهر... وليست الديانة في نظرنا هدفاً غائياً نسعى للوصول اليه بالتهذيب ، ولا هي قدر من الحقائق الملموسة التي يمكن تلقينها ، ولا هي معتقد نصوص معترف بصحته ، بل هي شيء أهم من كل ذلك ، هي الشعور بقوة روحية تضبط قوى الحياة وتحملها على طلب الخير... وأن تكون حياة الروح ظاهرة في سلوك الفرد... ولهذا إننا نسعى لنبت في ناشئتنا الجديدة - وهي اليوم في العالم أجمع ظامئة أي ظمأ لإرتشاف حقائق العلم الحديث - حياة متجددة منيرة لاتجعل الديانة شيئاً عملياً في سيرة شباننا وقوة حقيقية في إحياء النفوس وتجديد عمران عالمنا الذي أزهرته الحرب الأخيرة» .

هذا ما قاله الرئيس المحترم ، وكم من عالم في عالم الإسلام مفكر القى علينا من مثل هذه التعاليم الشريفة دروساً ، الخير والحكمة وروح الدين فيها . وتلك رسالة التوحيد للمرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، درس لنا نفيس من تلك الدروس .

حرية السفور وحرية الحجاب

كذلك منذ خلق الانسان ، والناس مختلفون في الطريق المؤدي الى حفظ المرأة ، فذهب بعضهم الى أن المرأة لاتحفظ إلا بتذليلها وتجهيلها واستعبادها وحرمانها حريتها ، وحبسها محجوبة في بيتها ، وسدل النقاب على وجهها ، لانصيب لها من الهواء والنور مسنداً اليها نقص العقل ونقص الدين غير حاسب لها عملاً في المجتمع إلا خدمة الرجل وبقاء النسل ، مذهب تمشي عليه من قبل أكثر الأمم ثم قلّ دعائه وأنصاره ، فأمسوا في أيامنا هذه عدة ملايين نحن منها .

وذهب بعضهم عكس ذلك فاعترف للمرأة بكمال العقل والدين وقال ان سفورها واحترامها وتعليمها وتحريرها ، احفظ لها وضمن لسعادة العيلة والهيأة البشرية ، وحسب ان لها في صلاح المجتمع تأثيراً عظيماً ، فاتبع هذا المذهب نحو من ألف وخمسمائة مليون من الناس . تبعه بعضهم على أثر رقي العلم وحرية التفكير عندهم ، وتبعه الآخرون على اثر ظهور نوابغ تفانوا في حب المجتمع الانساني ونفعه وترقيته .

ولقد كان الروسيون المسيحيون من أشدّ الناس تمسكاً بالحجاب حتى مزق حجابهم بطرس الأكبر بأمره الامبراطوري سنة ١٧٢٦ . وكان الأتراك المسلمون من أنصار الحجاب فمزقه العظم مصطفى كمال منذ بضع سنوات . ومنذ زمن قريب وقف في الناس خطيباً فقال : « لقد أحوزت نصراً مبيناً على التقاليد والأعداء ، يرجع نصف الفضل فيه للجند والنصف الآخر لتمزيق الحجاب » .

وإن اختلاف الناس في أي الطريقين أفضل لصيانة المرأة : أسفورها أم حجابها كان يحدث النزاع والفتن بينهم ، كذلك كان اختلافهم من قبل على الطريق الأفضل لتمجيد الله مبعثاً للفتن ، وكذلك كان للفتن مبعثاً ، اختلافهم على الطريق الموصول الى رقي البشر ونفعهم ، أهو طريق العلم مطلقاً فيه العقل والفكر ، أم طريق الدين مقيداً فيه العقل والفكر ، حتى كدنا ننتهي بإذن الله في هذا النوع الثالث من الاختلاف كما انتهينا في النوعين الأولين الى تبادل التسليم بحرية السفور وحرية الحجاب ، فالذي رأى تحرير المرأة وسفورها أقرب للدين وأحفظ للشرف وأنفع لها وللعيلة والأمة اتبعه ، والذي رأى حجابها واستعبادها أقرب للدين وأحفظ للشرف وأنفع للعيلة وللأمة اتبعه .

ولكلّ من الفريقين معتقده ، لاحتجة بينه وبين أحد ، له عمله ولغيره عمله . ولكن له إن شاء أن يقنع الفريق الآخر بالدليل والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة .
أجل لكلّ إن شاء أن يقنع الفريق الآخر بالدليل والبرهان ولكن ليس له أن يقبل دليله .
قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .
هذا ما يأمر به كتاب الله وهذا الأولى أن يتبع وبغير الحق يجب أن لا يصدع .

الشرك الأصغر

أما بعض المسلمين أولئك الذين كانوا وما زالوا يراؤون في الدين ويكرهون الناس فيه ويمكرون الجهلة بأنواع التمويه مستمدين منهم قوة مؤذية باطلة للسيطرة على غيرهم من المسلمين ، أو ما زالوا يتوسّلون بالسلطات العالمية مموهين عليها لتضغط العقل ، والحرية الشخصية ، وتكره الناس على البقاء تحت كابوسهم أو سيطرتهم خاملين جامدين أو مسيرين بأقوالهم وآرائهم وأهوائهم كالانعام ، إن أولئك لم يفتنوا للحديث الشريف القائل : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ . قَالُوا مَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ الرِّيَاءُ » أو لم يفقهوا الحديث الشريف القائل « من مآكر مسلماً فليس بمسلم » .

حرية الدين والعمل في كتاب الله

لا تسيطر ولا تكيل على المسلم والمسلمة في أمر الدين والعمل به :

أجل إن دين الإسلام بني على الحرية في الفكر والإرادة والقول والعمل ، لا تسيطر على المسلم في أمر دينه إلا عقله وإرادته ، ولاحتجة بينه وبين الناس إنما ، الاحتجة بينه وبين الله .

قال الله تعالى في كتابه العزيز مخاطباً نبيّنا صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَذَكَرْنَا أَنَّهَا هُذَكَرٌ ﴾

لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . فإذا كان الله تعالى يَأْتِيهَا المَسيطر لم يعطِ نبيّنا صلى الله عليه وسلّم السيطرة على عباده فهل أعطاك إياها ؟

وقال جلّ وتعالى : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ . إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُم ، أَوْ إِنَّ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ .

وقال جلّ جلاله : ﴿مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ .

فإذا كان الله جلّ وعلا لم يسمح لنبيّه صلى الله عليه وسلّم بأن يكون وكيلاً أو حفيظاً على عباده فكيف تجعل من نفسك على العباد وكيلاً وحفيظاً ؟

وقال جلّ جلاله : ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ . لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ . لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَالْيَهُ الْمَصِيرُ﴾ .
فمالك تدعي لنفسك سلطاناً على عباد الله لم يعطه الله رسولاً ولا سلطاناً .

وقال جلت حكمته : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

وقال جلّ علمه : ﴿كُلُّ يَفْعَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ .

وقال تنزهه وتعالى : ﴿وَلَا تَسِبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسِبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ . كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ . ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فمالك ياسيدي تقضي لنفسك أنك المهتدي والأهdy سبيلاً ؟ ومالك لاتدعو الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ولاتجادلهم بالتي هي أحسن بل تبدل من الحكمة والموعظة الحسنة السباب والإساءة . فلا تسيء بذلك الى المرأة المسلمة ربة العفاف أكثر ممّا تسيء الى الله والى الدين والى نفسك .

وقال جلّ عدله : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ .

وقال عزّ وجلّ : ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ .

وقال جلّ جلاله : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ .

فانظر الى سعيك وعملك ياسيدي وذو غيرك في سعيه وعمله . ولا تكن من المرأين . وقال

جَلَّ جلاله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فمالك تعمد الى الإكراه وليس له في الدين من أثر ؟ بل إن الله جل جلاله نهى عنه نهياً مطلقاً . وكان يعتب نبيه لو أكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . أفأنت تكره الناس ؟

وقال جلَّ جلاله : ﴿ قُلْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ . وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

خطاب إلى المسيطر

وفيه النفس المرضية والنفس الأمارة بالسوء والجهاد الأكبر.

يا أيها المسيطر ، ترى أن الله أمر بترك أهل الكتاب أحراراً . أفأهل الكتاب امتياز على من أسلم حتى تحاول استعباد فكر المسلم وإرادته وقوله وعمله ؟ ألك أن تقوده كرهاً الى ماتشاء هدىً كان أو ضلالاً ؟ وأي نفع في الإكراه ؟ إن الإيمان الحق تصديق في القلب واطمئنان . لا انقياد لاكره أو رياء في اذعان . أنت أم ربك أعلم بمن ضلَّ عن سبيله أو بمن كان من المهتدين ؟

إلهي ! جللت وتقدست . فالحكمة والنور والهدى في كتابك وقد قدست الحرية تقديساً . ولم يك من ضلَّ منا إلا ضعيف البصر ، أو سالكاً طريق الشرك الأصغر ، وإن عفوك لأكبر .

يا أيها المسيطر ، يامنتحل الوكالة علينا ، إن الله جل جلاله لم يوكلك ، ورسوله صلى الله عليه وسلم لم يوكلك ، والقانون لم يوكلك ، ونحن لم نوكلك ، فمن أين لك هذه الوكالة ؟

وليس لك أن تكلف غيرك شيئاً . الحرية نور الحق فلا تحاول إطفاءه في الإنسان بأذاك . شدَّ ماحاول أبو جهل وأبو لهب وأعوانهما إطفاء نور الحق بالأذى فلم يزدد نور الحق إلا

انتشاراً . إذ أن الحق الصادق لا يؤدي بل يأتي بالبرهان . وإن المؤمن الحق لا يتنزل الى الشرك الأصغر بل يتبع كتاب الله ، انه مطلع الحرية والأنوار .

واعلم كما علمنا اعظم أئمتنا ، أن النفس نفسان حيوانية وناطقة وإن للنفس مراتب عالية ومراتب سافلة . فعلى المراتب العالية تستوي النفس المرضية وفي المرتبة السفلى تزحف النفس الأمارة بالسوء ولكن على وجهها تتبع الهوى . فاختر لنفسك إحدى المرتبتين .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ أَنْ يُجَاهِدَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم لما رجع من بعض غزواته : « رَجِعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » .

أي الجهاد مع النفس الأمارة بالسوء وخلوصها عن شوائب الرياء والهوى ، والشهوة والغضب والأذى ، ولنصرة النفس العاكة مطمئنة المرضية ، عليها .

نداء إلى السلطات

أيتها السلطات الحرة الكريمة ، أناديك أي أنت وأين كنت ، أناديك لتسجلي لك نشر النور لا لتسجلي تثبيت الظلام الباقي من الدور المظلم .

لقد بلي بعضنا في هذا الشرق بظلمات أربع : ظلمة نقاب من نسيج ، وظلمة نقاب من جهل ، وظلمة نقاب من رياء ، وظلمة نقاب من جمود . فأمسينا في ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمست النقب تهولنا حتى نكاد نخشى أن يسدل الشرق نقاباً بيننا وبين حقيقتك النيرة ، حقيقتك التي من أجلها لُقبِتَ بأم المدنية وأمّ النور . أنا لا نريد أن تظهر عيناك إلا كما أنت بوجهك المتألق . ذلك ما يجعل وجودك بيننا نعمة لا تكفر بل ينوّه بذكرها في العالمين وتشكر . وهكذا تريد المرأة أن تظهر .

حررت أيتها السلطة الفكر ، والإرادة ، واللسان ، والقلم ، والاعتقاد ، وحررت العبيد ، وأزلت الإستعباد من الدنيا .

أما المرأة المسلمة فلا تطلب منك أن تحرريها ، فهي كما لا يخفى عليك حرة في كتاب

الله ، حرة في أوامر رسوله ، حرة في الشريعة ، حرة في القانون ، حرة في مبادئ الاجتماع العليا ، حرة في حقوق البشر المعلنة ، حرة مثل كل إنسان ، حرة مثل كل امرأة ، وإنما تطالب أن يكون للقانون المسنون حياة بنفوذ لا مرد له .

إن القانون روح السلطة وروح الاجتماع الناطقة ، فكما أن الروح آمرة مطلقة على أعضاء الجسد ، كذلك القانون إنما هو الأمر المطلق على أعضاء السلطة والاجتماع . ولا يسوغ لعضو من هذا أو من تلك أن يخالف أمر تلك الروح المرضية . ولا يسوغ أن يجد الهوى أو الاستبداد الى عضو من الأعضاء سبيلاً يؤدي الى اختلال أو إبطال في العمل القانوني فيؤدي نساء المسلمين .

أقول هذا ونفسي تقول قول زغلول : « أحسب سلامة النية والصدق في القول وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون » .

شدة ما موهوا علينا في الدور المظلم الماضي بأن الدين يريد ستر وجوهنا ، وكان التمييز مقروناً بالإكراه . ليس بإكراه قيم المرأة ، وقد يكون له حق في ذلك إذا ارتآه ، وكم من قيم مستنير . يدمى قلبه من رؤية محارمه مظلومات في ظلمات الحجاب على كره منهن ومنه . وإنما الإكراه كان من كل واحد له هوى ، حتى رأت المرأة المسلمة كل رجعي أو كل ذي هوى مسيطراً وولياً ووكيلاً عليها . إنه لم يفرق بين نساءه ونساء غيره لأن النقاب مشترك مانع من تفريقهن فعد كل رجل نفسه قوَّاماً على النساء جميعاً ورأت المرأة كل الرجال قوَّامين عليها .

من حيث أتيت أيتها السلطات الحرة من الغرب ، انعكس علينا في الزمن الأخير نور الحرية ونور العلم الساطعان يبددان ظلمات الجهل والاستبداد . تعلّمنا فنظرنا الى الدين بكل ما فيه من الحكمة والسمو فرأينا فيه عكس ما كانوا يموهون به علينا ، رأينا أن الدين يريد كشف وجوهنا للهواء والنور مثلما يكشف سائر الناس وجوههم . ويريد استعمال قوانا التي أودعها الله فيها مثلما يستعمل سائر الناس قواهم التي أودعها الله فيهم . وهنالك الأدلة في آيات الكتاب المنزل ، وفي أحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي أقوال أعظم الفقهاء والمفسرين .

فكل ما ترجوه المرأة المسلمة منك أيتها السلطات الحرة الكريمة أن لاتمكنني أحداً اذا أعيدت عليها الكرة في احدى زوايا حكمك أو وصايتك من أن يتخذ التمييز مدخلاً الى مقدس حريتك الصرفة الصادرة عن مصدر الحق والحرية الأعلى ، والتي أعلنها فيك أبطال الانسانية والاصلاح وجهابذة العلم والحكمة وأدب الاجتماع .

فقد كفى ما أدخله الى هياكل جنسنا الضعيف من التمويه المفرر به رجال التقليد فيه والتعقيد ، والجمود في شرقنا الحي بروحه والميت في تفكيره ، والمخدر في الكثير من أساطيره ، وقد حجت عنا تلك الأساطير المخترعة في الزمن الأخير نور الوحي الإلهي ، ونور الشرع ، ونور العقل ، ونور الطبع ، ونور الفهم ، ولم تعضنا من تلك الأنوار المتألثة بالخير والصالح إلا روايات متناقضة ملفقة ، وأقاويل مختلفة مزوقة ، فقتلوا بقتلنا شرقهم ، وأماتوا بإماتة حقنا حقهم ، واسودت باسوداد وجوهنا وجوههم ، وسدرت بستر أبصارنا بصائرهم ، وخذرت بحبسهم إيانا في خدورنا ضمانرنا وضمانرهم .

أجل إنها لقضية لاتنكر أن الدين الإسلامي الصحيح قد تحول اليوم كما قال المصلح الكبير قاسم أمين عن أصوله واستتر تحت حجب من البدع ، ووقف نماؤه وانقطع ارتقاؤه من عدة قرون ، وظهر لهذا الإنحطاط الديني أثر عظيم في أحوال المسلمين .

أيتها السلطة العليا الكريمة إنا لانطلب منك تدخلا في اعتقاد أحد فإن الله جلّ جلاله لم يسمح حتى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يكون مسيطرا أو وكيلاً أو حفيظاً على عباده ، وحذره من الإكراه في الدين . وكان يعتبه لو أكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . فبعد هذا كيف نكلفك أن تتدخل في دين وإيمان ، وما أنت إلا سلطة عليا . إنا معشر النساء فطرنا على الطاعة لله ورسوله فلا نعمل إلا مايرضيهما ، ليت المرانين من الرجال يقفون حيث نقف من حدود الدين فلا يطلبون باسمه ، وقائدهم الهوى ، تدخلا منك لاكراه المسلمات على ستر وجوههن .

أيتها السلطة الحكيمة ، لو كان قصدهم من توسلهم بك قصداً سوياً حقاً لحماية دين ، ولو كان لك في الدين حق سيطرة وإكراه ، لوجب عليهم أن يتوسلوا بك في أمور دينية كثيرة ليس فيها ستر وجه المرأة فليس من أصول الدين أمر بستره ، بل في أصول الدين أمر بكشفه ، وما كان ستره إلا بدعة ابتدعوها ، وعادة اتبعوها .

أجل ، إن ستر وجه المرأة ليس من شروط الإسلام ، ولا من أركانه ، وليس سفور الوجه من محرّماته .

فإذا رجعوا اليك أيتها السلطة الحكيمة في أمر تحجيب النساء المسلمات ، فالنساء المسلمات راجيات منك أن تسألهم أسئلة أربعة :

السؤال الأول - ماهي شروط الإسلام ؟

إنهم مجبرون على القول : شروط الإسلام أربعة ، العقل ، والبلوغ ، وعدم الإكراه والنطق بالشهادتين .

فقولني لهم حينئذ : إنكم فقدتم شرطاً من شروط الإسلام ، بما أنكم تترتأون الإكراه في الدين خلافاً للدين .

السؤال الثاني - ماهي أركان الإسلام ؟

إنه لابد لهم من القول : أركان الإسلام خمسة : الشهادتان ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت .

فقولني لهم حينئذ لأرى من الرجال في المئة واحداً يقيم هذه الأركان ، فلماذا لم تتوسطوا بي أنا السلطة المدنية لأكره الناس عليها لو جاز لي الإكراه ، واقتصرتم على المطالبة بسيتر وجوه النساء مع أنه ليس من أركان الإسلام ؟

السؤال الثالث - ماهي أعظم المعاصي المنهى عنها بنص في القرآن صريح وقد وضع الله تعالى عليها عقوبات الرجم أو الحد ؟

إنهم لا يستطيعون إلا أن يقولوا : الفحش ، واستعمال المسكر ، وتعاطي الربا .
فقولني لهم حينئذ : إنني مذ أتيت بلادكم رأيت لهذه المعاصي بيوتاً مفتوحة ، والرجال على أهوائهم يرتكبون ما شاؤوا منها ، ولم تتوسطوا يوماً لديّ باسم الدين لسد أبوابها ، أو لإكراه الرجال على اجتنابها ، كأنتم لم تهتموا لتلك المعاصي ، أو أدركتم أنه ليس للسلطة سلطان لتكره الناس وتضغط حرّيتهم ، مالم تخولها إياه القوانين الموضوعية . فأنتي تهتمون بسفور الوجه وسفور الوجه ليس من المعاصي . وكيف لم تدركوا أن ليس للسلطة من سلطان على الحرية مالم تخولها إياه القوانين ؟

السؤال الرابع - ماهي أصول الدين في الإسلام ؟ وهل فيها نص بستر وجه المرأة ؟
إنهم مجبرون - لنأ تطلبني الدليل المقنع - على أن يقولوا لك : إن أصول الدين أربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، ثم القياس - على مذهب السنيين مثلاً - والعقل - على مذهب الشيعيين . وإنه ليس في كتاب الله وسنة رسوله من أصول الدين نص أو تصريح ما بتحجيب المسلمات . إلا نساء الرسول صلى الله عليه وسلم . وإن القياس عليهن في أمر الحجاب ممتنع لأسباب كثيرة ، منها قوله تعالى في آية حجابهن « يانساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء » . وإن لإجماع في ستر الوجوه ، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه لأسماء ذكر صلاح كشفها ، وإن الفقهاء انقسموا شطرين . شطر قال بستر وجوه النساء استحساناً منه أو تأويلاً . وهذا هو القول الذي نتبعه . وشرط استحسان بالعكس كشفها ولم ير في التأويل سبيلاً إلى سترها . وهذا القول هو الذي يتبعه السفوريون ، وربما أننا نعتقد أن الحق في جانبنا ، نلجأ اليك لتكرههم على إتباع القول الذي نتبعه .

فحينئذٍ قلوا لهم : إذن حجة السفوريين من حجّتكم في كفة الدين ، لأن التأويل والاستحسان يجب أن يوجّها الى التيسير الذي يريده الله ، لا الى التعسير الذي لا يريده ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم يرى كشف الوجوه صالحاً وهو أحق أن يتّبع . ولأن العقل يقضي بذلك ، ولأن شطراً من الفقهاء قال به .

أما أنا فلكوني سلطة عالمية أرى أن لكل أن يستحسن في دينه أو يؤول كما يرى ويعتقد ، وأنه لا يد لي مطلقاً في هذه الأمور ، فلا أكرهكم على اتباع ما يتبعون ولا أكرههم على اتباع ما تتبعون .

أسأليهم أخيراً عن الحكمة في عدم اهتمامهم باسم الدين لتلك الأمور كلّها ، وفي حصر اهتمامهم بتحجيب المرأة وليس تحجيبها من شروط الإسلام ، ولا من أركانها ، ولا سفورها من محرّماته ، إنهم لعاجزون عن تبيان حكمة . أما أنا ففي دفاعي عن المرأة سائبين ما يقصدون .

قد يقولون لك أيتها السلطة المحترمة أنك ترضين عواطفنا لاتخاذك في ستر وجوه المسلمات سلطاناً من سلطتك ، فنعدّ ذلك عطفاً منك إلينا وفضلاً جميلاً ، نقدّم لك عليه شكراً دائماً جزيلاً .

فقلوا لهم حينئذٍ : لا تشكر السلطات على سلب الحريات . أنتم أحرار في ستر وجوه نسائكم ليس لأحد أن يعارضكم في حرّيتكم . وإذا تجاوز على حدّها أحد فإنّي أرجعه الى حدّه . ولكن ليس لي وليس من الحق أن أرضي عواطفكم بكسر عواطف غيركم وسلب حقوقهم . إن للسلطات كما لكل من الناس أن تبذل من حقّها لمن تريد أن ترضي عواطفه ، ولكن ليس لها أن تبذل من حق الأفراد لإرضاء العواطف . إنّما على السلطات أن تمهّد السبيل الى النور لا الى الظلام ، وتفتح الطرق الى العدل والحرّية ، لا الى الظلم والاستبداد بالناس ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .

يا أيتها السلطات الكريمة ، إنّما لنخاطب فيك سلطة عالمية لاتدخل لها في أمور الدين . ولا نطلب منك معونة لنيل ما أنالنا الدين من حق أو حرّية ، كما يطلبون همّ منك المعونة لسلبهما منا . وإنّما نطلب منك وأنت سلطة عالمية ، تطبيق القانون العالمي المسنون الذي قدّس الحرّية الشخصية تقديساً ، ومنع تقييدها إلا بحكم منه صريح .

إنه لظلم أليم ، ولا يخفى عليك أيتها السلطة المحترمة ، أن يجعلنا القانون أحراراً ، ويجعلنا الله وشرعه أحراراً ، ثمّ يجرو بعض من أعضائك المحليين أو من أعضاء المجتمع ، على خرق القانون لتقييد حرّية المسلمات في المدن كرهاً واستبداداً تبعاً للهوى ، في حين أن حرّية

إخواتهن غير المسلمات في المدن والقرى ، وإخواتهن المسلمات في القرى مصونة بالقانون من كل تعرض .

أيتها السلطات الحكيمة المحترمة ، إذا جاز أن تَري أن في النقاب مصلحة عامة دنيوية ، وأدباً عاماً إجتماعياً لم يُدركا في بلاد العالم الراقي ، فضعي - أن تريدي ، ويسمح لك عدلك وحرّيتك - قانوناً تعيّنين فيه من يجب أن يُستر وجهه ، فيطأطأ من يتناوله الحكم رأسه إطاعة واحتراماً . ولكن أيتها السلطات العالمية العادلة إن سلطانك ليس مختصاً بمسلمات المدن وحدهن . فليشمل قانونك غيرهن من جميع الطوائف والملل حيث لايجوز حصر المصلحة العامة الدنيوية والأدب العام الاجتماعي في فئة دون أخرى . إنك أنت وحدك السلطة العالمية ولايد فيها لغيرك . إنك أنت الوصيّة علينا لكي تعلينا الى مستوى الأمم الراقية . ولسنا نحن أوصياء عليك لننزلك الى مستوانا ، فلا تجعللي للمرائين اليك سبيلاً ، وذري كلاً منا حراً في معتقده يختار الطريقة التي يراها أوفق الطرائق لدينه وأحفظها لشرفه .

أيتها السلطة العادلة .

إن دعاة السفور لايعتدون على دعاة الحجاب . فيجب على دعاة الحجاب أن لايعتدوا على دعاة السفور . إن الله لا يحبّ المعتدين . والله أعلم بمن أهدى سبيلاً .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

إذن فدعاة السفور لايسخرون بدعاة الحجاب عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولايلمزون أنفسهم ، ويجب على دعاة الحجاب أيضاً أن لا يسخروا بدعاة السفور عسى أن يكونوا خيراً منهم ، وأن لايلمزوا أنفسهم .

ياأيتها السلطات العالمية الكريمة . إن كل عيلة منا وكل امرأة منا لها رئيس أو قيم ، وليس الحكم الاجتماعي إلا لذلك الرئيس أو لذلك القيم ، إذا رأى الخير في السفور اتّبعه ، وإذا رأى الخير في الحجاب إتّبعه ، وإلا انقلب الأمر فوضى .

إن حرية كل فرد محدودة بحدود حرية غيره . فلا يجوز لأحد أن يتجاوز حدود غيره . ومن تجاوز فالقانون يرجعه الى حده .

الحرية أساس الحياة الإنسانية الراقية

حرية الفكر وحرية الإرادة

سادتي وسيّداتي :

قال الكاتب الحكيم المنفلوطي : لاسبيل الى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس .
ويجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح ، وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره ، فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا الريب في أدب الحركات والسكنات أساس أعمالهم وعلائقهم وميزان قيمهم وأقدارهم ، فليعلموا أن العالم كله قد استحال الى مسرح تمثيل ، وإنهم لا يؤدّون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين .

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ، فمن حرّمها عاش في ظلمةٍ حالكة يتّصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللبّ المتحرّكة في أيدي الأطفال بحركات صناعية .

وقال الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى :

« تجلّت بالإسلام للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التي كانت تقيدّها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظنّ أنها شعبة من الإرادة الألهية أو إنها هي كإرادة الرؤساء والمسيطرين . أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظنّ في القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها . وانفكّت عزمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنّة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومنحتها حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الإشقاء والإسعاد ، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين وصار الإنسان بالتوحيد عبد الله خاصة حراً من العبوديّة لكل ماسواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لاعليّ في الحق ، ولاوضيع ، ولاسافل ، ولارفيع ، ولاتفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ، ولاتفاضل إلا بتفاضلهم في عقولهم ومعارفهم . ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء » .

مرحباً بك أيتها الحرية القدسية ، حرية الفكر وحرية الإرادة ، فأنت أنتِ روح الدين ، أنتِ أنتِ أسن كل نهضة ، وأنتِ أنتِ مولدة الحقائق بالبعث . مرحباً بك أيتها الحرية التي تخولنا حق حفظ شرفنا وحق نهوضنا بالصور التي نعتقد أنها له أحفظ وللدين أقرب ، ولنا ولعيالنا ولأمتنا أنفع . إنك لتنتصرين كما انتصرت في العالم الراقي . فوقفتي هذه مظهر من مظاهر نصرك ، وصوتي هذا بوق من أبواقك ، فلقد كان أشد الرجال في دور التعصب المظلم ، دور الإستبداد والرياء والظلم يرهبه أن يقف مثل موقفي ، ليعلم عقيدته التي يعتقد أنها الخير كل الخير للناس ، والسعادة كل السعادة للعيلة والأمة والمجتمع ، والشرف كل الشرف للمرأة .

ذكرتُ حرية الإرادة وحرية الفكر ، وقد يلتبس على البعض معنيهما ، إذ طالما بخس الجهل قدرهما ، وأراد أن يمسح جمالهما ، وخلطهما بالنزعات الحيوانية التي سماها الجهلة حرية . إن الحرية محلها العقل ، فلا تتجلى بنورها الساطع إلا في الانسان على قدر عقله . أما الحيوان فلا يملك عقلاً ليملك إرادة أو حرية فكر ، فنزعاته إذاً حيوانية محضة مضرّة لأثر للحرية فيها .

إن حرية الإرادة - كما عرفها علماء الاجتماع - هي حرية الفرد في تحديد أفعاله على مقتضى ماتحتمل نفسيته من تصور لغايات الآداب المثلى ، وحرية الفكر هي حق الفرد في أن يتبع بلا خوف ولاوجل موحيات عقله لخيره وخير الناس ليعوقه عن ذلك تدخل السلطات ، أو كراهية الجماهير ونزعاتها . ولنا أن نقيس على هاتين الحرّيتين حرية القول والحرّيات جميعها . فكلّها ترمي الى خير الانسان ، وتشبيد المجتمع .

موقفي وخطتي

أيها السيدات والسادة :

أتضح لي من موقفي أنه موقف دفاع عن حرية المرأة ، وإنّي من اللواتي رجّحن السفور مع الذين رجّحوه على الحجاب . وعملاً بحرية التفكير وتحت راية السيادة العلمية المستقلة ، اطرح لديكم كل خواطري وتأملاتي التي جعلتني أرجح السفور ، وأطلب تحرير المرأة .

وإني - وأنا معترفة بقصوري - أرى أن مذهبي وهو مذهب كثير من السادة والسيدات ، أكثر انطباقاً على روح الاجتماع ، وأضمن حافظاً للشرف الذي نقدسه جميعاً ، وتلمس أصلح الأسباب لصونه منزهاً محترماً .

قال بعض الحكماء :

« إن التفكير الحرّ أساس كلّ نهضة ، فيجب علينا أن نفسح له المجال ليسير . فيقاوم ويقاوم ضمن دائرة الأدب ، وتصطدم حرّيته بحريّات أخرى اصطداماً معقولاً سليماً شريفاً وهكذا إلى أن يتمّ النصر للفكر الصحيح فلا يتألق برق الحقيقة إلا إذا تصادمت الآراء » .

ولهذا أرجو ممن يرى غير ما رأيت أن ينظر في ملحوظاتي وتأمّلاتي وينعم فيها ، ثمّ يتفضّل عملاً بحرّية التفكير ، ببيان ملحوظاته وتأمّلاته التي يوحىها إليه العقل والدين في وقفة آتية ، حتّى إذا أقنعتني بمنطقه ، ورأيت نتائج مذهبه أحفظ للشرف ، وأطبق للدين ، وأنفع لعائلتي وللأمة - سدلت النقاب حالاً على وجهي ، وتمسّكت راضية كلّ الرضا بالحجاب ، ولو كان أشدّ أشكال الإستعباد ، وما همّني أن يكون النور والهواء ، وكلّ دواعي السعادة في الحياة فداءً للدين وللشرف ولعائلتي وللأمة .

أمّا إذا اكتفى مناظري في جوابه بالبحث عن المروق والإلحاد وبما ينافي آداب المناظرة ، فسأترفع عن سماع كلامه مكتفية بالرجاء من الله سبحانه وتعالى أن يصلحه ويرسل إلى نفسه شعاعاً من نور الحرّية والهدى ، إذ أنّ ذلك النور لا يطلع على نفس إلاّ زينها بالعقل والأدب واحترام الناس ، وبدل فيها حجة المجادلة بالتي هي أحسن من حجة المجادلة بالإساءة التي يعتصم بها المراني العاجز عن بيان الدليل والبرهان . وكذلك إنّ الإكتفاء بالقول إن نظرتي غير صحيحة دون مجادلة ودون إثبات البرهان - لدليل على عجز قائله ، وعلى عدم صحة مايقول .

ذكرت في محاضرة ألقيتها منذ مدة في الكلية العلمانية تحت عنوان « لماذا تتعلّم الفتاة ؟ » ، أنّي لست من القائلات بالترجّل ولست من مستحسنات الطفرة التي تجعل المرأة مسخاً يتلاعب به الغواة . وتسخر منه فلاسفة الاجتماع وتغرق لديه أسرة الأطفال بالدموع . وإني لأريد أن تنزّل المرأة عن مقامها الرفيع إلى منزلة يضيع فيها معنى الأمومة والعيلة البشرية ، ولكنّي من القائلات مع القائلين : إنّ العلم أدعى من الجهل إلى الصيانة والكرامة والعفاف . بل إنّما هو الحافظ للمرأة مقامها السامي الشريف .

وإني الآن في محاضراتي هذه أعيد قبل كلّ شيء ، كلامي الذي ذكرت وأعتقد أنّ السفور والعلم والحرّية أدعى من الحجاب والجهل والعبودية إلى الصيانة والكرامة والعفاف وأدرك معنى الأمومة والعيلة البشرية وصلاح المجتمع ، لأنّ الأدب لا يثبت في نفس الجاهل ثبوته في نفس

العالم ولا يثبت في نفس العبد ثبوته في نفس الحر . ولأن العيلة والمجتمع إنما ينتظمان ويسعدان متى سادهما العدل والحق . ومتى كان نور الحرية - وهو حق مثل نور الشمس - شاملاً . فلا سعادة ولا صلاح ولا انتظام مع الاستبداد والظلم وبقاء نصف العيلة والمجتمع محروماً ذلك النور ، وبقاء الأم مظلومة ترسف بل ترزح تحت قيود حجابها محرومة حريتها وكل أنواع رقيها ، الأمر الذي يحرمها القدرة على ترقية أولادها وإسعاد بنيتها .

قال المصلح الكبير قاسم أمين :

« كل إصلاح في هياتنا الاجتماعية لا يبدأ فيه بإصلاح العائلة فهو عقيم . وليس من الممكن تحسين حالتنا العائلية إلا بترقية شأن المرأة ، وإعدادها الى أن تكون إنساناً تاماً » .

وأجل سادتي الرجال أن يعدوا حرية الإرادة وحرية الفكر على الوجه الذي بينت ، وحرية القول ، والصراحة فيه ، وبيان الحقائق ، والمطالبة بالحق ، والسعي للخير تمرّداً غير ممدوح .

إنها لحظة جديدة للمرأة جميلة ، بحق أن تتخذ بدلاً من الثوب العتيق . ولي الرجاء منكم أن لا يثقل عليكم أن تأخذوا حكمة من كلامي إذا وجدتم فيه حكمة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا أَخَذَهَا » .

وعلى كل حال أرجو من سادتي الرجال أن لا يتهمونني بخرق النظام ، والفرار من سجن الحجاب ، فإنني لم أفعل ذلك ياسادتي ، إنما أخوكم أبي الذي خلقه الله حراً مطلقاً - وهو لا يخشى في سبيل الحق لومة اللائم - هو الذي عدّ سجنني منافياً عدل الله ، ومصلحة العيلة والمجتمع ، ووثق بشرف نفسي وأدبها ، فأرسلني سافرة الى الحياة والنور . ولدى تحكيمي العقل رجحت ما رأى ففعلت .

كيف استطاع أيها السادة أن اتهم بالفرار من سجنني ؟ إن الفار يختبئ أو يتقنع لنلا يعرف ، أما أنا فظهوري بوجهي السافر المعروف أين كنت وأيان سرت لدليل صريح على قصدي السوي وصراطي المستقيم .

أيها السادة :

زار أحد الأدباء يوماً أبي ، فأراه شيئاً ممّا أكتب ليرى رأيه ، فاطرى ما كتبت وحكى حكاية . قال : كنت في استانبول في اليوم العاشر من محرّم - وهو آخر أيام المأساة التي يمثلها الإيرانيون تذكّاراً لاستشهاد الحسين ومن صحبه من أهل البيت عليهم السلام . وكان هناك خطيب حكيم أراد أن يفتنم فرصة اجتماع القوم ليحدثهم في أمر اجتماعي لهم فيه خير عظيم .

ولكن ماكاد يصعد المنبر حتى علا نواح القوم وبكاؤهم ظناً منهم بأن الخطيب سيذكرهم بما يعلمون عن حادثة كربلاء . فلم تستطع الأذان أن تسمع من الخطبة شيئاً . حينئذ قام رجل صارخاً بأعلى صوته : أيها الناس لنستمع الى الخطيب متأملين في كلامه لعل لنا فيه حكمة جديدة أو كلمة مفيدة لاتتأثروا من قول قبل أن تسمعه ، ولاتحكموا في أمر قبل أن تفهموه وتعه .

ثم قال الأديب لأبي : عسى الحجابيون لايتأثرون ولايحكمون إلا بما يسمعون من هذه المحاضرات ويعون .

قلت ، إذا اجعل محاضراتي مطبوعة ، يقرأها أولو الألباب على مهل . فإذا آنسوا فيها نوراً أشعلوا مصابيح علمهم وأنار كل منهم ماحوله من ظلام .
إني راغبة في الخير والصلاح للمرأة وللأمة . أما الحكم في صلاح ماإرتأيت أو عدم صلاحه فمرجعه الأيام . قال شاعر النيل حافظ ابراهيم في مراثيه للمصلح العظيم بل إمام المصلحين قاسم أمين :

الحكم للأيام مرجعه	في ما رأيت فتم ولا تسلي
وكذا طهارة الرأي تتركه	للدهر ينضجه على مهل

قال الأديب وقد رأى فهرست محاضراتي والقي نظرة على نظراتي : إن كل ماتطلبينه للمرأة في دفاعك حق لها . ولكنني أرى أن طلبك ذلك كله دفعة واحدة يهول الرجل الذي قد تعود ظلم المرأة واستعباده إياها حتى أضحي يرى ذلك حقاً له وعدلاً ، فلو طلبت الحق الثاني بعد الأول ، ثم الثالث بعد الثاني وهلم جرا ، لكان نيل النتيجة على ماأرى أضيق .
قلت : لم أعود الحيل في العمل... فكل حق رأيت في كتاب الله وسنة رسوله ، أو أراني إياه العقل موافقاً للكتاب والسنة ، سأطلبه وللرجل أن يسلم دفعة واحدة بكل مايراه حقاً إن شاء ، وله أن يتدرج إن شاء في إعطاء الحقوق واحداً فواحداً ، ولاريب أن عقول الناس متفاوتة ، فمنهم من يتعجل العطاء ومنهم من يؤجله . ولكن خير البر عاجله . ولا أشك في أن تضامن الرجال في ظلم المرأة قد تفككت عراه في هذا العصر وحل محله التعاون على إنصافها ، وأضحى السواد الأعظم من الأمة مع المرأة لاعليها . «والله ولي الذين آمنوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» .

خطابي إلى اخواني الحجابيين

ياسادتي القائلين بإبقاء الحجاب واسارة المرأة وإبقاء التقاليد ، لكم مذهبكم في ذلك ، ونحن القائلين بالسفور وتحرير المرأة ونبذ التقاليد ، لنا في ذلك مذهبنا .
إننا نحترم مذهبكم ورأيكم فاحترموا مذهبنا ورأينا ، والله أعلم بمن هو أهدي سبيلاً .
قال الله سبحانه وتعالى : «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً» .
وإن ما يشاؤه الله سبحانه هو الخير عينه ، فلو رأى الله جلّ جلاله اختلاف الناس في المذاهب مضراً - لما شاءه ، أو أنتم أعلم منه تعالى بما يضرّ وينفع .

إن في الإسلام مذاهب عدة مختلفة في الأمور الأساسية الدينية أي اختلاف ، وبعد أن كفر المسلمون بعضهم بعضاً وتحاربوا عصوراً سلّم بعضهم الى بعض بالحرية في أمر الدين والمعتقد ، وصاروا كلّهم كما يجب أن يكونوا إخواناً . فالمسلمون إخوة . فأنتي تسلمون بذلك ياسادتي ولا تسلمون الآن بعضكم الى بعض بالحرية في الملبس وباختيار كلّ منكم الطريق الذي يراه الأصح في أمر الدنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِخْتِلَافُ الْمَذَاهِبِ فِي أُمَّتِي رَحْمَةٌ لَهَا» .
أجل ، إن اختلاف المذاهب رحمة للأمة ، إذ أنه يسوق كلّ مذهب الى إتقان العلم والعمل ويقودهم الى إحسان الإجهاد ليكونوا في حلبة التنافس للخير والعدل والصلاح والتكامل سباقين ، لاهدافاً لسهام الناقدين من مذاهب الآخرين ، فبمثل ذلك يتكامل العقل والشرع ، ويلمع برق الحق في تصادم الأفكار ، ولهذه الحكمة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تألف في الحكومات الدستورية أحزاب سياسية حرة قائمة على مبادئ مختلفة ولكنها متفقة في حسن المقاصد ، فكلّ ما رأيناه من الخير والصلاح في الحكومات الدستورية إنما منشأ اختلاف تلك الأحزاب ، وكلّ ما رأيناه من الحق البارق إنما هو أثر تصادم الأفكار ، وإن حكومة ليس فيها أحزاب مختلفة المبادئ، متفقة المقاصد ، يحجر فيها على العقل وحرية الإرادة والفكر وحرية اللسان والقلم ، ليست تلك إلا حكومة مستبدّة لا يسودها الخير والعدل والصلاح . بل يغلب فيها الباطل الحق ، والظلم العدل ، والجهل العلم ، والرقّ الحرية ، والجمود الحيلة ، إذ لارادع فيها ولاوازع ولا معارض ولا منازع .

سادتي ، نحن في زمن غلبت فيه الحقيقة الوهم والخيال ، ولا عبرة للوهم تجاه المحسوس من الحقائق .

إننا نرى بأعيننا بلاد السفوريين ، حيث نشط العقل من عقاله ، ونالت المرأة حرّيتها ، ونرى رقيهم فنعتقد كما يعتقدون : إن رقيهم وقد افلتوا من ربقة التقاليد ، إنّما ولّدت حريّة المرأة أيّ حريّة الأم . وإن تأخّرنا إنّما هو ناشئ عن استعبادنا أنفسنا بالتقاليد واستعبادنا الأم حتّى بليت بما بليت من العقم العقلي .

أنتم تقولون : بدلاً من أن نشتغل بإعتاق المرأة من رّقها ، فلنبار السفوريين رقياً بالعلوم والفنون ، بالإختراعات والإكتشافات ، ببناء البواخر والمواخر ، وصنع الطيّارات والسيّارات ، وإنشاء التلغرافات والتلفونات ، سلكيّات وغير سلكيّات ، وماشاكل من الصناعات ولنستول على الأسواق التجارية ، ولنسبقهم ولنفقههم ولنغلبهم في ذلك كله ، نفز بالمرغوب ونظفر بالمطلوب .

ونحن نقول : لا يقوم بناء بلا أساس ، ولا يمكن الوصول الى أعلى السلم إلّا بالصعود درجة درجة ، وأساس البناء لرقى الأمّة تحرير الأم ، وأوّل درجة من سلم الرقي هو السفور ، لأنّ الحجاب يورث نصف الأمّة الشلل والأمّة المشلول نصف أعضائها لاتستطيع أن تباري ، وتستولي ، وتسبق وتفوق ، وتغلب ، وتفوز ، وتظفر .

ونقول : لا يتمّ لنا رقيّ إلّا بما ذكرت وبما سأذكر تباعاً في محاضراتي .

أمّا الشرع والدين ، فهما في جانبنا ، كما سترون - وقد يكون الهدى في أمر الدنيا أيضاً في جانبنا ، وقد يكون في جانبكم . والله أعلم بالمهتدين . وإنّ أماننا طريقين يفضيان الى ظهور الحقيقة ساطعة .

الطريق الأوّل : هو المجادلة بالتي هي أحسن - وقد فتحت الباب - فإن غلبتمونا بالبرهان واقنعتمونا ، فلکم العهد علينا أننا نلتحق بكم . وإن غلبناكم تلتحقون بنا إن شئتم .

الطريق الثاني : هو التجربة الفعلية التي تظهر الحقائق محسوسة . فليكن كلّ منا حراً فيما يعتقد أنه خير له ولعيلته ولأمّة . ولنجر في حلبة السباق الى الغرض المطلوب من الرقي والتكمّل العقلي والأدبي ، إنّ ذلك - لا الجمود على التقليد - ما يستوجب الخير للأمّة . فإن سبقتمونا فلکم العهد علينا أننا نلتحق بكم ، وإن سبقناكم تلتحقون بنا إن شئتم . وإنّ عملنا ياسادتي لا يضرّكم ، وعملكم لا يضرّنا ، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم . وإن عملنا صالحاً فلأنفسنا ، وإن أسأنا فعليها . وإن عملتم صالحاً فلأنفسكم وإن أسأتم فعليها . وإن اهتدينا فإننا نهتدي لأنفسنا ، وإن ضللنا فإنما نضلّ عليها ، وإن اهتديتم فإنما تهتدون لأنفسكم ، وإن ضللتم فإنما تضلّون عليها ، ولا تزرر وزر أخرى .

نحن لسنا مسيطرين ولا وكلاء ولا حفاظاً عليكم ، وأنتم لستم بمسيطرين ولا وكلاء ولا حفاظاً علينا ، ولا حجة بيننا وبينكم ، وإنما الحجة بيننا وبين الله ، أو بينكم وبين الله .
إذا أردتم أن تمشوا الى الأمام على الطريق التي تعتقدون أن لكم وللأمة فيها الخير والصالح ، فنحن لانضع أمامكم حواجز . وإذا أردنا نحن أن نمشي الى الأمام على الطريق التي نعتقد أن لنا وللأمة فيها الخير والصالح ، فينبغي لكم أن لاتضعوا أمامنا حواجز . فالله خلق كلاً منا حراً وتركه حراً . والله لا يحب المعتدين .

نحن لانسخر بكم ولا نلزم أنفسنا عسى أن تكونوا خيراً منا . فينبغي بكم ألا تسخروا بنا ولا تلمزوا أنفسكم عسى أن نكون خيراً منكم . وما قصدنا الأقصى ، وما قصدكم الأقصى ، إلا لخير الأمة . فاسمحوا لذلك الخير أن يظهر إما في جانبنا أو في جانبكم . أما منع الخير كرهاً أن يظهر فهو حرام . وإن إكراهنا على أن نقيم عقولكم مقام عقولنا في أمورنا فنفتكر بها ، وعيونكم مقام عيوننا فننظر بها ، وآذانكم مقام آذاننا فنسمع بها - ذلك مناف لسنة الله في عباده ولعدله ولعدل الإنسان .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

الدفاع الحر المقدس عن الحق

ساداتي وسيداتتي :
أراني لأخاطب إلا آبائي وآمهاتي وإخوتي وأخواتي . أوليس لي من الدالة والقربى أن أخاطب من ذكرت بلسان صريح وقلب مفتوح ؟ أوليس لي أن أسلك كل طريق سوي من طرق الإقناع الذي يهديني اليه العقل والله وحرية الإرادة والفكر ، والغاية هي الخير للأمة ؟

إننا في زمان قدس فيه ياسيداتتي وساداتي حق الدفاع عن الحق . ولا يتم الدفاع إلا بتمام الحرية . وأي حق يدافع عنه أقدم مما عنه أدافع ؟ ألا وهو حرية المرأة . فإن رأيتموني على حق أعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدوني .

أطلقوا يا قضاة الاجتماع حرية فكركم كما أطلقت حرية فكري إطلاقاً ، وتأملوا

ما يوحى به اليّ فكري المنطلق ، ولكم عليّ عهد وميثاق أن لا أذكر قضية إلا أثبتها ببرهان العقل ، وبالكتاب والسنة ، وسأستمد نوراً من أقوال الفقهاء ، ولكنني لن أحجم في سبيل الحق عن انتقاد ما أرى من أقوالهم أنه لا يوافق الكتاب والسنة ويخالف الأقوال التي منها استمددت نوراً .

لن أحجم عن نقب الباطل حتى يخرج الحق من جنبه .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل الحق وإن كان مرّاً » .

الشرع ما شرعه الله تعالى لعباده

سادتي وسيداتي :

لم أنسَ قط واجبي في استحسان ما حسن الشرع واستقباح ما قبح . ولكنني أقول بصوت عالٍ أن الشرع في عرف الفقهاء ليس كل ما قاله هذا وذاك منهم ، في أحوال يعلم الله بها ، ولكن الشرع ما شرعه الله تعالى لعباده ، وإن هو إلا الكتاب والسنة ، فهما نبعنا الخير الخالص والحقيقة الصرقة ، وهما مصدرا الأنوار . فكل ما حسناه حسن ، وكل ما قبحناه قبيح .

غير أننا إذا حسبنا كل قول من فقيه شرعاً صالحاً دون أن نرده إلى الكتاب والسنة ، ودون أن نرى دليلاً على ذلك القول ، فقد أشركنا الشارع في شرعه أي إشراك ، واختلط الحسن بالقبيح أي اختلاط . بل رجحنا في كثير من الأحيان خطأ الناس على الصواب عينه ، وبدعهم على كتاب الله وسنة رسوله ، ودخلنا في فوضى لا يجوز أن نسلم لأنفسنا بالدخول فيها . واتبعنا من لم يكن أحق أن يتبع خلافاً لقوله تعالى :

« أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَنْ يُتَّبَعَ ، أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

إن حكم الاجتهاد شرعاً : ليس إلا غلبة الظن مع احتمال الخطأ .

وأعيد مثل قضية الاجتماع أن لا يقبلوا بالكتاب والسنة مرجعاً ، وأن لا يحسبوا للعقل حساباً ، متمسكين بأقاويل ضعيفة لا يمكن عذها أحاسن الأقوال ، وليس إتباعها واجباً ، ولا يمكن ردها إلى كتاب الله وسنة رسوله ولا يقبلها العقل في الزمن الحاضر ، وهي تخل بمصلحة الأمة . وسترون من ذلك أمثالا عديدة .

اختلاف الأقوال والروايات بين معسر وميسر وأسباب البدع المختلفة

وفيه صوت لمحمد عبده، وصوت للنعساني، وصوت للفقهاء.

لما شرعت أهبيء دفاعي عن المرأة أيها السادة طالعت أقوال المفسرين والفقهاء في مايتعلق بالموضوع فلم أجد منهم إجماعاً في أمر ما لأتبعه ، بل كلما وجدت قولاً رأيت أقوالاً أخرى تخالفه وتناقضه ، كنت أقرأ الآية وأقرأ تفاسيرها وكنت أرى أحداثاً وتغييراً لتفسيراً ، ورأيت الروايات متباينة متناقضة بصورة يحار معها العقل . مثلاً : رأيت كما سترون الروايات عن ابن عباس رضي الله عنه فيما يتعلق بتفسير ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَيُذَنِّبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ وَلِيُضَرِّبْنَ بِخَمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ - نحواً من عشر لاتنطبق رواية على رواية ، كأني بكل واحد من الرواة يريد بما يروي أن يؤيد مايري - ولم أر رواية مستندة الى دليل - وقد رأيت من تلك الروايات مايجب يسراً حميداً . ومنها مايجب عسراً شديداً - وهكذا كانت أقوال المفسرين الأخرى ، فتراءى لي أن من أراد منا أو نشد مايوافق روح العصر والاجتماع ومصلحة الأمة ويستوجب التيسير والرقى اللذين تحتاج اليهما - فله من الأقوال مايشاء . ومن أراد أو نشد التعسير والتعقيد فله أيضاً منها مايشاء .

قلت : لا بدع أن تختلف الروايات عن ابن عباس وغيره من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين بحسب أهواء الرواة . فقد فعل الناس مثل ذلك في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أخذ كل صاحب هوى يخترع حديثاً تأييداً لما يرى . حتى قام صلى الله عليه وسلم خطيباً قال : «أَيُّهَا النَّاسُ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذْبَةُ... أَيُّهَا النَّاسُ مَا جَاءَكُمْ عَنِّي يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَنَا قُلْتُهِ . وَمَا جَاءَكُمْ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ فَلَمْ أَقُلْهُ... كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زُخْرُفٌ... فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» .

قال الامام علي رضي الله عنه : «وقد كذب الناس على النبي من بعده كما كذبوا عليه في عهده» . وقد قدر حجة الإسلام الإمام الغزالي الأحاديث غير الصحيحة بسبعين ألفاً .

أما المرأة المسكينة فالله يعلم بما نالها من تلك الروايات المخترعة . ولعل نصيبها منها لم يكن أقل من نصيبها في أقوال بعض الفقهاء (إنهم أبناء الجاهلية وقد استضعفوها فحللوها) . ولكن الله سبحانه وتعالى ونبيه صلى الله عليه وسلم للمستضعفات خير الناصرين .

يقولون لاشيء جديداً تحت السماء . نعم لاشيء جديداً تحت السماء ، فسنن الله وآياته في مخلوقاته لاتتغير في نفسها ، وإنما تتغير بحسب عقولنا وتختفي على بعض منها وتظهر على

غيرها . وتختفي في زمانٍ أو مكانٍ وتظهر في غيرهما ، وكما أن في زماننا عقولاً دأبها التعسير وعقولاً دأبها التيسير ، كذلك كان الأمر عند الأقدمين . وكما أن أهل هذا الزمان يحدثون أو يبتدعون بدعاً من القوانين والعادات والأزياء بحسب تغير الأزمنة وأحوال الحياة كذلك كان الأقدمون يبتدعون أو يحدثون . وبما أنه لم يكن عندهم من شيء ، خارج عن دائرة الكتب الفقهية ، أي دائرة الشريعة - كانت تلك البدع تدخل فيها .

أقول « البدع » ولا ينبغي لأحد أن يتعجب من قلبي ، فقد جاء في مجمع البحرين : إن البدعة بدعتان : بدعة هدى ، وبدعة ضلال . فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهو في حيز الذم والإنكار ، وما كان تحت عموم ما ندب الله وحض عليه هو أو رسوله ، فهو في حيز المدح والإيثار . والابتداع كالاجتهاد فقد يخطئ المجتهد أو المبتدع فيها وقد يصيب .

ويترأى لي أنهم ذهبوا الى جهة الاحداث أو الإبتداع لقوله صلى الله عليه وسلم كما جاء في كتاب المجمع المذكور « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا . وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا » . فتسابقوا في ابتداع السنن كل بحسب عقله وهواه ، وكل معتقداً أن سنته هدى فينال أجراً وأجر من عمل بها .

ولكن ، أيها السادة ، إن الحسن الذي يحسنه الله ورسوله - حسنٌ أبدي ، والقبيح الذي يقبحه الله ورسوله قبيح أبدي . أما الحسن الذي يحسنه الناس ، والقبيح الذي يقبحونه ، بحسب عقولهم وأحوال زمانهم - فلا يمكن عدّهما حسناً أو قبيحاً أبديين ، ولا سيما إذا لم يحصل الإجماع على تحسين الواحد وتقبيح الآخر ، إنما ذلك ممّا يتغير مع الزمان ، حتى إن كثيراً ما كان الحسن في زمانٍ قبيحاً في غيره ، والقبيح في زمان ، حسناً في غيره . والنافع في زمان ، ضاراً في غيره ، والضار في زمان ، نافعاً في غيره . ولهذا السبب وضعت القاعدة الشرعية « لا ينكر تغيير الأحكام بتغيير الأزمان » .

وقد كان الله سبحانه وتعالى - العالم السرمدي - قد نسخ وغير ، وأطلق وقيد ، وعمّم وخصّص من آياته في سنين قليلة نزلها فيها . وما ذلك إلا ليعلمنا سبحانه وتعالى وجوب التطور بحسب الزمان المتغير ، على مرّ السنين والعصور .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّا مَعَشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ لَا نُكَلِّمَ النَّاسَ إِلَّا عَلَى قَدَرِ عُقُولِهِمْ » فقد تفهّم عقولنا في زماننا من أحاديثه الشريفة ، غير مافهمته عقول الأقدمين في زمانهم ممّا . والإيمان لا يجوز فيه التقليد ، وإن جاز في المعاملات .

أما سبب اختلاف الفقهاء ، وتناقض أقوالهم في ما يتعلق بحجاب المرأة فيلوح لي أنه ناتج عما يأتي :

إنّ النساء في أوّل الإسلام ، كنّ كما قال النسفي على هجيراهنّ في الجاهليّة مبتذلات تبرز المرأة في درع وخمار منسدل على جنبها مكشوفات الصدور ، وكنّ أحياناً يلبسن ثياباً رقاقاً تبدو منها أبدانهنّ ، وكان الرجال في ذلك الزمان ، يتعرّضون للنساء ، ولم تكن إذ ذاك حكومة عالمية منظمّة ، عاملة بقوانين عالميّة زاجرة ، فأمر الله تعالى المسلمات الحرائر بأن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ و ﴿لَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا. وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ .

ولمّا رأى صلى الله عليه وسلّم أسماء بنت أبي بكر في حضرتها وعليها ثياب رقاق قال : « يَا أَسْمَاءُ إِنَّ الْمَرْأَةَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا ، مشيراً الى جهة وجهه وكفيه » . فلمّا رأى الفقهاء ذلك الأمر وتلك الإشارة دليلين على كره التبرّج ، وعلى وجوب التستر المانع له ، اعتدل بعضهم ، وبعض المفسّرين ممن دأبهم التيسير ، فأبقوا - كما سيفصل في البحث المخصوص - وجه المرأة وكفيها ، في ظهور . وعدّ بعضهم - عدا الوجه والكفين - الذراعين والقدمين والعنق والأذنين ما يظهر ، مكتفين بستر الصدر وغير ذلك من الأعضاء .

أمّا غيرهم - ممّن دأبهم التعسير ، والراغبون في إظهار الورع والتدين ، أو في نيل الأجر من ابتداع السنن - فقد أخذوا يبتدعون للستر بدعة تلو بدعة ، أو سنة تلو سنة ، حتّى أمسينا في طوفان من السنن المبتدعة ، وبلغ الأمر الى أنّهم لم يبقوا جزءاً من المرأة يظهر ، وبالغ بعضهم في الستر حتّى أخفى قلامة ظفرها ، وأخفت صوتها ، وعدّ بعضهم ملائتها ممّا لا يجوز أن يظهر فلم يرَ إلاّ جدار البيت ستاراً لها . ولم يكن قصدهم - على ما يترأى لي - إلاّ إظهار التدين والورع الزائد والتفاني في سبيل إنفاذ أمر الله سبحانه وتعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلّم ، وإحداث سنن جديدة اعتبروها حسنة ، يكون لهم أجرها وأجر من عمل بها - وكلّ ذلك الأجر على حساب المرأة - ولكنهم تجاوزوا الحدّ جدّاً ، وتبيّن أنّ السنن الحسنة ، لم تكن إلاّ السنن التي هي أكثر اعتدالاً ويسراً ، وهي الموافقة لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم . ولا بحث عن الذين اعتسفوا التأويل اعتسافاً لشهوة دفعتهم الى ذلك ثمّ قالوا هذا من عند الله ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ .

* * *

قلت إذن لنا الحق في اختيار أقوال الفقهاء التي تستوجب لنا يسراً ، بل لنا أن نضع الحدّ بأنفسنا بحسب الزمان والمصلحة ، وضرورة الحياة ضمن دائرة من أمر الله سبحانه وتعالى وسنن رسوله صلى الله عليه وسلّم . فهما دون ريب أحقّ من الفقهاء أن يتّبعنا . وكأنّ الله

سبحانه وتعالى عرف بسائق علمه أن قوماً منا سيهملون آياته متبعين سنناً لبعض الفقهاء جديدة لاتوافق كتابه وسنة رسوله . فقال جلّ جلاله مبكّثاً : ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ .

قال الشيخ محمد عبده في مقالته (الدين الإسلامي أو الإسلام) :

ثم انحرف الجمهور الأعظم من المسلمين عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ماشاء الهوى من الأباطيل ، هذا كان شأنهم في السجايا والأعمال . نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أمّا في العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنّوه من أشدّ أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفي غيره من دقائق الأكوان . والخطر على الأكوان أن تنفذ إلى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لاوافق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشدّ أعداء العلم .

وقال الشيخ محمد بدر الدين النعساني في المقدمة التي دبجها لكتاب الشيخ محمد عبده المسمى (الاسلام والرد على منتقديه) قال :

ثم قام آخرون فأدخلوا في الدين من العقائد الفاسدة والأهواء الباطلة ماتأباه سماحة الدين الإسلامي ، ووضعوا لذلك الأحاديث الباطلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . والدين لم يدون بعد . ولا جمع شتاته ، وإنّما هو في صدور الرجال ممّن لقي صاحب الشريعة أو لقي من لقيه ، فاختلفت العقيدة وتشعبت المسالك على الناس .

جرّدت الكتب المؤلفة في الدين ، من أصول الدين ، وسنته ، ومحاسنه ، وآدابه ، وقوانينه الأخروية والاجتماعية ، وحشيت من الخرافات ، والأكاذيب ، والأحاديث الموضوعة المفترات على صاحب الشريعة ، وقصر حملة العلم نظرهم عليها كأنها أمّ الدين : بل شدّد في أمرها قوم منهم فقالوا أنها الدين ، وإن خالفت أصول الدين كتاباً وسنة ، بلا بحث فيها ولا تروفي شأنها .

نشأ عن هذه الأعراض التي ذكرناها وبين كيفية تسلّطها أمراض قتالة :

- (١) احتجاب نور الشريعة عن أنظار العالم الاسلامي وراء ستار التقليد .
- (٢) شيوع البدع والأحداث ونزولها أمّهات منزلة المسائل الدينية .
- (٣) استكانة النفوس لهذه البدع والركوع أمامها من العلماء جهلاً ومن العامة تقليداً لهم .
- (٤) قعود أهل الإيمان والنظر الصحيح عن بيان حقيقة الدين خوفاً من علماء السوء أن يثيروا العامة عليهم .

(٥) وقوع المسلمين في الحيرة إذ توجه عليهم اعتراض من أمر . وقامت عليهم حجة في قبحه . ظناً منهم ما هم عليه وهو الدين . ولو علموا ما هو الدين لأيقنوا أن الإعتراض متوجه عليهم لا على الدين ، وحاشا الدين الحنيف السهل أن يتوجه عليه اعتراض . الى أن قال :

إن أقرب الطرق لمن يريد أن يخدم الأمة الإسلامية في مبدئها أو معادها خدمة حسنة موصلة الى السعادة الحقيقية ، أن يزيل الستار عن محاسن الديانة . فإذا خالطت بشاشتها القلوب ، وحلت الحقائق محل الخرافات . وقامت المحاسن مقام المساوىء ، سار المسلمون في طريق السعادة . فلم يلبثوا أن يحلّوا ربوعها . وفي هذا أكبر خدمة لنوع البشر وسعادته .

وقال الشيخ يوسف الفقيه ، أحد مستشاري محكمة التمييز الشرعية في كتابه (حقائق الإيمان) تحت عنوان «بطلان تعديل جميع الصحابة وجواز البحث عن أحوالهم» مانصه بحروفه ، وإني أذكره إكمالاً للبحث العلمي مع فرط إجلالي لمن يستحق الإجلال من الصحابة والفقهاء قال :

ومن عجب أمرهم إجماعهم على عدالة جميع الصحابة وعددهم عند فقد النبي صلى الله عليه وسلم مائة وأربعة عشر ألف صحابي - هذا مع ما يتلونه في كتاب الله تعالى ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾ وقوله تعالى ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم (لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لا تبعتموهم) وقوله صلى الله عليه وسلم (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) وقوله صلى الله عليه وسلم (إنكم محشورون حفاة عراة وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي فقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فهم لم يزلوا مرتدين منذ فارقتهم) وقوله صلى الله عليه وسلم (بينما أنا على الحوض إذ رأيتمكم زمراً تفرق بكم الطرق فأناديكم ألا هلموا الى الطريق فينادي مناد إنهم ضلّوا بعدك فأقول ألا سحقاً ألا سحقاً) وقوله صلى الله عليه وسلم (يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحاذون عن الحوض فأقول يارب أصحابي فيقال أنك لا علم لك بما أحدثت بعدك إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري) . حكى هذا عن تفسير الثعلبي بسنده الى أبي هريرة الى غير ذلك من الأخبار المثقفة في هذا المعنى وقد رواها البخاري ومسلم في الصحيحين ولاريب بأن المراد بها العموم من حيث المجموع لعدم انقلاب الكل قطعاً . هذا مع ما كان من

كثير منهم من الأفاعيل والموبقات وما وقع بينهم من التشاجر حتى استحلوا دماء بعضهم واستباحوا الأموال وغير ذلك مما يقف عليه المتتبع ولا يمكن القول معه بدلالة الفاعل إلا برفع اليد عن الشريعة الإسلامية ، وأعجب من ذلك حملهم مارووه عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » على عموم الصحابة ، ومنهم الزاني ، والكاذب والباغي ، وغير ذلك مما لا يخفى على من تتبّع الأثر ، ولأزم قولهم هذا جواز الاقتداء في مثل ذلك أيضاً ، وأعجب من ذلك تحريمهم البحث فيما كان من الصحابة والصحبة أنفسهم لم يحرموا ذلك بل كانوا ينالون من بعضهم بذكر ما كان منه ، هذا مع تجويزهم البحث في أحوال الأنبياء والمرسلين . وقد جوزوا عليهم القبائح قبل النبوة بل وبعدها عند جماعة منهم عدا الكذب . ونسبوا اليهم أموراً لاتليق بمقام وجوه المؤمنين وقالوا لا يدخل الجنة من ينتقص أحداً منهم وليس بمسلم من روى قبحاً عنهم . وما أدري ما الذي دعاهم الى ذلك وحملهم على ما هنالك مع أنه لم يقم عليه دليل والأصل يقتضي التحليل والعيان شاهد على كفر البعض وفسق الكثير « الى آخر مقال » .

* * *

الحجر على العقول

وفيه صوت جاهر للأفغاني، وصوت لسيدي محيي الدين العربي
وصوت للغلاييني، وصوت صارخ لمحمد عبده.

وقد لحظت من الرسائل المنشورة ضد السفور أن أكثر علماء زماننا لم ينقلوا لنا من أحسن الأقوال شيئاً بل نقلوا كل ما فيه بدع من التفسير والتعقيد فإذا اتكلنا على ما يقولون فصفقتنا لاشك خاسرة - وبما أن العلماء المنسوبين اليوم للفقه لا يؤلفون أرقى طبقة من الأمة ، فينبغي لكل مسلم مستنير ذي حمية على ملته ، أن يشعل مصباح عقله ، متجهاً الى الجهة الدينية ، ويقرأ بنفسه الكتب الفقهية ويردّها الى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المثبتة ، راداً هذه أيضاً الى الكتاب ، فيرى هنالك غير تلك الأقوال الشاذة التي نقلوها لنا . يرى هناك أقوالاً أخرى يجب أن تستنير الأمة منها ، فتزيل ما علق بالأذهان مما ألقى على عقول العامة ظلاماً حالكاً .

أجل إن أماننا كتاب الله جلّت حكمته وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأماننا أقوال الفقهاء المختلفة ، والله جلّ فضله أنعم علينا بنعمة العقل ، فعلى أن نحكم العقل لنرى أي الأقوال ينطبق على الكتاب والسنة ، فنحكم أنه أحسن الأحوال ، ذلك ما يستوجب التيسير ويوافق مصلحة الأمة ، ذلك ما يجب علينا أن تتبعه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿بَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

ولكن إذا لم نكتف بحرمان أنفسنا ، إعمالنا العقل للإجتihad ، بل حرمانها أيضاً أعمالنا إياه في التفكير لإختيار أحسن الأقوال ، وإدراك الخير والشر ، متّكئين في ذلك على كل ذي عمامة نصادفه ، مسيرين بما يختار لامخيرين بما نعقل ، فقد أطفأنا بيدنا ذلك النور الروحاني فينا إطفاءً باتاً وحرماناً أنفسنا العقل أفضل نعم الله علينا ، وكنا ممّن فاتهم أمر الدين إنّما اختصّ به الإنسان لأنه عاقل مفكر ، خلافاً للحيوان الأعجم وإنّ الدين في الشرع ، وضع الهيّ سائق لذوي العقول السليمه بإختياره المحمود ، الى ما هو خير لهم بالذات ، وإنّ الله سبحانه وتعالى إنّما خاطب بآياته أولي الألباب ومن يعقلون ، فمن استثنى نفسه من عداد المخاطبين يكرمها ولم ينفعها ، وكنا ممّن لم يفتنوا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «دين المرء عقله ومن لا عقل له لا دين له» و «لا يتم دين المرء حتى يتم عقله» فمن اعتقد أنه ليس له عقل تام يعقل آيات الله وأحاديث رسوله ، فقد اعترف بنقص في دينه وإيمانه .

قال الشيخ جمال الدين الأفغاني رحمه الله تعالى : «إنّ الدين الإسلامي يكاد يكون منفرداً من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتّبعين للظنون وتبكيّت الخاطبين في عشواء العماية والقدح في سيرتهم ، هذا الدين يطالب المتديّنين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم ، وكلّما خاطب خاطب العقل وكلّما حاكم حاكم العقل ، تنطق نصوصه بأنّ السعادة من نتاج العقل والبصيرة ، وإنّ الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة ، وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة . الى أن قال «إنّ المقلّدين لا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر ، وإذا استمرّ بهم ذلك تفشتهم الغباوة بالتدريج ثمّ تكاثفت عليهم البلاد حتى تعطلّ عقولهم عن أداء وظائفها العقلية بالمرّة فيدركها العجز عن تمييز الخير فيحيط بهم الشقاء ، ويتعثر بهم البخت ، وبئس المآل مآلهم» .

فينبغي علينا أن لانجعل الوهم يستولي علينا فيمنعنا من النظر في أقوال الأقدمين بعين نقادة لاختيار الحسن ، ويمنعنا من التفكير في آيات الله وأحاديث رسوله ، لنعقلها بأنفسنا

ونتدبرها ونتذكرها ، فالله سبحانه قد تولى أمرنا بذلك أمراً صريحاً ، ومنع التقليد في دينه .
 قال سيدي محيي الدين العربي : « لا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ومن يفعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً مبيناً وخرج عن دين الله... وما أوجب الله علينا الأخذ بقول أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ولا يجوز أن يدان الله بالرأي وهو القول بغير حجة ولا برهان لامن كتاب ولا سنة ولا إجماع ... والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا لاتقليد حي ولا تقليد ميت » .
 وقال الشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه « الاسلام روح المدنية » إن حجر العمل بالكتاب والسنة ، ووجوب التقليد ، والعمل بقواعد الفقهاء ، من أعظم الأسباب التي أودت ببقية الروح التي كانت مختلجة في جسم الاسلام ومرفرفة فوق عقول المسلمين » .

ويجب أن ندفع عن أنفسنا الوهم القائم في أن الأذهان المفكرة في الدين مختصة بالأقدمين ، فإن حكمة الخالق ، ومصلحة الأمة لاتجيزان أن نعترف للأولين بعقول صالحة للتفكير ومعرفة الحسن والقبيح ، وإدراك الخير والشر ، وننكر على أنفسنا العقول السليمة الصالحة لذلك ، فالله تعالى جلّ جلاله العدل كلّ ، هو الذي خلقنا كما خلق الأقدمين وهو الذي أعطانا كما أعطاهم عقولاً .

ويجب أن لانقبل حجر بعض الفقهاء على عقولنا ، مستأثرين بالعقل لأنفسهم ، مهددين بالمروق كلّ من يعمل منّا عقله ، فمن يقبل الحجر على عقله ، يُنقص من نفسه شرطاً من شروط الاسلام . لأنّ الحجر على العقل يبطل عمله ، وأول شرط من شروط الاسلام هو العقل .
 ويجب أن لانقبل الجمود في العقل ، لأنّ الجمود في العقل ، ينتج في ماينتج ، الجمود في الشرع ، والجمود في الشرع ، ينتج الجمود فينا ، وإنّ الجمود لمظهر من مظاهر الموت . ألا ترون أنّ تجميدهم الشرع بسدّ باب الاجتهاد حمل الخلافة وسائر الدول الاسلامية على أن تقيم مقامه في المعاملات قوانين غير جامدة تتبدل راقية مع الزمان ؟ فهل كان سدّ باب الاجتهاد فعلاً رشيداً ، ورأياً سديداً ؟ إنهم فعلوا ذلك ولم يستشرفوا النتيجة .

نعم ، إنّ من يجمد ، يحسب ميتاً ، فيقوم مقامه حي . فلنخش أن نجمد ، ولنتق الله في مانجمد به الشريعة .

رحمك الله يا شيخنا محمد عبده ، فأنت من أدرك لبّ دين الاسلام ، وقد قلت في رسالتك (التوحيد) : « علا صوت الاسلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، وصرف القلوب عن التعلّق بما كان عليه الآباء ، وبما توارثه عنهم الأبناء ،

وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق في الزمان ، ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان . وعاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وانحى عن التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر ، وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته ، وهبت به من نومه الى آخر ما قال :

رحم الله ذلك الشيخ الجليل ، وهو الذي قال في فراش موته ، وجوارحه تتألم من الحالة التي وصلنا اليها :

ولست أبالي أن يقال محمدٌ أبلاً او اكتظت عليه المآثمُ
ولكنّ ديناً مثل دين محمدٍ أحاذرُ أن تقضي عليه العمام

نعم إنّ الاسلام قد منحنا الحرية في التفكير تامة ، وجعل الكتاب والسنة مرجعنا ، والعقل قائدنا ، إنّ العصمة لفي الكتاب والسنة . أمّا أقوال آبائنا وأسلافنا ففيها خطأ وفيها صواب ، ولا مميّز بينهما إلا العقل ، والعقل لا سبيل له الى التمييز إلا بالتفكير ، والبحث الحر . وإذا قلنا تحريم البحث فيما كان من الصحابة والفقهاء ، وقلنا أنّ السلف كلّ سلف صالح ، فلا يبحث في أعماله وأقواله - انتج ذلك حجراً على العقل ، وجموداً به يجعله كالميت لا يرجى منه عمل يوصلنا الى الحقائق التي أراد سبحانه وتعالى ونبّيه صلى الله عليه وسلّم أن يريانا إياها ، فكم من حقيقة خفيت على السلف ، فأظهرها الخلف ، أجل إنّ في كتاب الله حقائق كثيرة غفل عنها الأولون ، ولم يغفل عنها المتأخرون . إنها تراءت لهم ملموسة لا شبهة فيها وسترون من ذلك أمثالاً .

فبعد كلّ ماتقدّم ، وبعد ماسمعنا من العلماء الأعلام الذين ذكرت أقوالهم ، أرى أن تسليمنا بدوام الحجر على العقول ، أمرٌ غير معقول .
قد يقول قائل : لم ينحصر دفاعك عن حق المرأة وحرّيتها ، بل تناول الدفاع عن حق الرجل وحرّية عقله .

نعم ياسادة إنه تناوله ، لأنّ للمرأة بعض هذا الحق ، فجمود عقل الرجل والحجر عليه ، يتناول الحجر على عقل المرأة وجموده .

نداء إلى قضاة الاجتماع

وفيه قاعدتان شرعيتان وقاعدتان قانونيتان. ووصف للقرآن.

سادتي وسيداتي من قضاة الاجتماع :

ذكرت لكم أن أقوال الفقهاء ، في حرية المرأة وحقوقها متعارضة . ولا يخفى عليكم أن أماننا من الشرع قاعدتين ومن القانون قاعدتين :

فالأولى من الشرع (التيسير أولى من التعسير) لقوله تعالى : «يُرِيدُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا وَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ» أو هي (الفرج أولى من الحرج) لقوله تعالى : «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» .

فإذا كنا لانرجع إلى أمر الله وسنة رسوله ، ناظرين إلى سنن الفقهاء المبتدعة وحدها . فينبغي لنا على الأقل أن نختار من أقوال الفقهاء ، ما فيه التيسير والفرج ، ونضرب عرض الحائط بما فيه التعسير والحرج . لأن الله يريد لنا الأول ، ولا يريد لنا الثاني .

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : « إذا رأيتم في أقوالي ما لا يوافق كتاب الله وسنة رسوله فاضربوا به عرض الحائط » .

القاعدة الثانية : (إذا تعارضت الحجج بلا مرجع تساقطت) . فإذا لم يعمل بالقاعدة الأولى للحكم بما يستوجب التيسير والفرج . ربّما أن الأقوال للمرأة وعليها قد تعارضت فتساقطت ، لم يعد للحق مرجع إلا الكتاب والسنة ، وهما يفيضان للمرأة نوراً .

الحق واحد ياسادتي والهدى واحد ، فالأقوال فيما أحدثوه من الاجتهادات والسنن ، لا يمكن - عند اختلافها وتناقضها - أن يكون كلّ منها على هدى ، وكلّ منها حقاً . ولا يجوز ترجيح قول على آخر . فيقتضي الحال حينئذ الرجوع إلى الحق عينه ، إن الحق لكتاب الله جلّ جلاله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أمّا القاعدة الأولى من القانون ، وكأنّها مستمدة من الحديث الشريف «ادروا الحدود بالشبهات» . فهي : (إنّه عند احتمال الأمرين ، من اجتهاد وأدلة ، يؤخذ بما ينفع المتهّم ويعيد له حرّيته) .

وإني أجلّ قضاة الاجتماع الذين يعطون المتهّمين هذا الحق ، عن أن يحرموا أمهاتهم ، وبناتهم ، وأخواتهم . وزوجاتهم ذلك الحق عينه .

فأرجو منكم أيها القضاة ، أن تأخذوا بقول الحق النافع لنسائكم ، لا بالقول الضار ، وإلا فأنتم على الأثمة الجناة أعطف منكم عليهن .

القاعدة الثانية : (في العقوبات يقتصر على النص ولا يجوز التوسع فيه ، اجتهاداً أو قياساً) . وما حجب المرأة وحبسها في بيتها مدة حياتها ، إلا تعزيراً وعقوبة من أشد التعزير والعقوبات بدون معصية منها ، فكل اجتهاد أو قياس أرادوا فيه توسعاً في النص لعقوبتها لا يعتد به .

فأرجو منكم يا قضاة المجتمع بعد استماع دفاعي كله أن تتذكروا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة له : (أيها الناس إلا إن أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه) . وأن تفكروا وتدققوا ، والمرجع الكتاب والسنة ، والقائد العقل مجرداً عن العادة والتقليد والهوى ، وبعد ذلك تكمّلون ، وأمامكم آية الله : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : إِثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ . رَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ ، فَهُوَ فِي جَنَّةٍ . وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ وَلَمْ يَقْضِ بِهِ وَجَارَ فِي الْحُكْمِ ، فَهُوَ فِي النَّارِ . وَرَجُلٌ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقَّ فَقَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ » . فعسى أن تكونوا من قضاة الجنة .

وقال صلى الله عليه وسلم في وصف القرآن : « إِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمُ الْفِتْنُ كَقَطْعِ اللَّيْلِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ . فَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ . وَهُوَ الدَّلِيلُ ، يَدُلُّ عَلَى خَيْرِ سَبِيلٍ ، وَهُوَ كِتَابٌ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَخْصِيلٌ . وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، وَلَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ . فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ . ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ . لَهُ نُجُومٌ وَعَلَى نُجُومِهِ نُجُومٌ ، مَصَابِيحُ الْهُدَى وَمَنَارُ الْحِكْمَةِ وَدَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ . فَلْيَجْلُ جَالِ بَصَرِهِ ، وَلْيَفْتَحْ لِلضِّيَاءِ نَظَرَهُ ، يَنْجُ مِنْ عَطَبٍ ، وَيَتَخَلَّصَ مِنْ نَشَبٍ ، فَإِنَّ التَّفَكِيرَ حَيَاةَ قَلْبِ الْبَصِيرِ ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ . فَعَلَيْكُمْ بِحُسْنِ التَّخْلِصِ وَقِلَّةِ التَّرَيُّصِ » .

ويقول علماء الحقوق : (حسن تطبيق القوانين أضمن للعدل من حسن سنّها) . فالقوانين الناقصة يكملها القضاة وأولو الأمر بحسن اجتهادهم واستقامتهم ، والقوانين الكاملة تنقص بسوء اجتهادهم واعوجاجهم .

فعسى أن تكونوا ممن يظهرون ماعندنا من الكمال ، لاممن ينقصون . وقال البيضاوي : إن النفس قد تكره بسائق العادة ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً ، وقد تحب ما هو بخلافه ، فليكن نظركم الى ما هو أصلح للدين وأدنى للخير .

ولي ملء الثقة أنكم ستحكمون بحرية النساء المسلمات وسفورهن ضمن دائرة الكتاب

والسنة ، فإن غير المسلمات لسنّ أحقّ منهنّ بالعقل ، والدين ، والحرية ، والنور . إنّ ذلك من أنوار الحقّ الأزلي التي يجب أن تنير كلّ إنسان .

الدين والعقل متآزران في الحق لا يفترقان

لأنكر عليكم أيّها السادة والسيدات ، أني لما باشرت إعداد دفاعي استندت فيه الى العقل فحسب ، ولكنني ماقرأت ذلك الدفاع على أبي - وعنده أحد الشيوخ العلماء المستنيرين - إلا رأيت عيني ذلك الشيخ تلمعان ، ووجهه يفتر من الإستحسان . غير أنه قال : إنّ دفاعك يا ابنتي غير تام ، لأن الأدلة الدينية ، لم تشترك مع الأدلة العقلية في هذه القضية ، التي يجب أن يشرك فيها العقل والدين ، فهما متآزران في الحق لا يفترقان .

قلت : هل في الدين أدلة منطبقة على ما أراني العقل من الأدلة وهو مطلق مجرد ؟ فقال الشيخ الجليل : (كلّ الصيد في جوف الفرا) لأمر في الدين القويم إلا قبله العقل السليم ، إذا أفلت من القيود ، وتجرّد من الأهواء وما استحسّن مثل هذا العقل أمراً إلا كان منطبقاً على أصول الدين ، وإن جاء في كتب الفقه ما لا ينطبق على المصلحة والعقل ، فليس ذلك إلا خطأ في الاجتهاد ، لأنّ المجتهد يخطئ ويصيب ، والاجتهاد يتغيّر بحسب المكان والزمان ، ولكن كلّ شيء مردود الى الكتاب والسنة .

نظرت الى أبي فقال : الحق ما قاله حضرة الشيخ . فأسمعني الشيخ درساً وجيزاً بدا لي شعاعاً من الهدى ساطعاً . ما شرع أبي يلقي عليّ دروساً تلو دروس ، آنست فيها هدىً كثيراً ، ونوراً يلي نوراً . ففتحت كتاب الله وكتب الحديث الشريف ، وكتب الفقه والتفسير ، وأطلقت للعقل حرّيته في تعقلها - فكان لي من كتاب الله وسنن رسوله أنوار هدى في الحرية ، وحرية المرأة وحقوقها تستحي منها الشمس إذا طلعت .

العقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج

رجحت ياسادتي وسيداتي تقديم البحث في الأدلة العقلية على البحث في الأدلة الدينية ، فقد جاء في الحديث عن الإمام علي رضي الله عنه (العقل شرع من داخل والشرع عقل من

خارج) . وفي الحديث (حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ النَّبِيُّ وَالْحُجَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَ اللَّهِ الْعَقْلُ) .
فقلت إذا كانت الحجة بين الله والعباد العقل ، فلا بدع أن يكون العقل أرجح حجة الناس ؟
وقلت إذا كان العقل شرعاً من داخل فكيف لا أتمسك بهذا الشرع وفيه لروح الإنسان
حياة ؟
وقلت إذا كان الشرع عقلاً من خارج ، فليس إلا عقلاً يزيد العقل جوهرأ فيتكمل الشرع .

المسلم ليس أكمل من المسلمة ديناً وإيماناً

فالرجل خرق أحكام الدين ويرائي فيه

قالوا ، وما أدراكم ما قالوا ؟ قالوا : النساء ناقصات العقل والدين ، ليس لهن أن يبحثن في
أدلة هذا . ولا في أدلة ذاك .
قلت ياسادتي : ليس من مصلحة الأمة الإسلامية ، ولا من مقتضى شرفها ، أن يكون نصفها
ناقص العقل والدين . وليس من مصلحة الرجل أن يقال أن أمه ناقصة وابنته ناقصة ، واخته
ناقصة ، وزوجته ناقصة .
وقلت ، ياسادتي : (العقل نور من الله روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية
والنظرية) . فلا يستطيع أحد أن يحرم المرأة هذا النور الروحاني إلا المنعم به عليها ، إنه تعالى
مصدر الأنوار يهدي بنوره من يشاء .
وقلت : إني من عباد الله مؤمنة ، (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله) .

وإني مسؤولة عن عملي ومجزية به . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إتَّقُوا فِرَاسَةَ
الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» .

وإن «الحجة فيما بين العباد وبين الله العقل» .

فكيف تحرموني أن أنظر بنور الله وأن أفهم حجته تعالى وأفهم حجتي ؟ ياسيدي الرجل
ينبغي لك - وأنت القائل بكمال عقلك ودينك - أن لاتجعل حجتك على المرأة في اتهامك إياها
بنقص الدين والعقل ، كحجة الذئب على الحمل فأيد إن استطعت ، قولك بالبرهان . كما أنني

عاهدت نفسي أن لا أقول قولاً إلا أيدته بالبرهان عقلاً ونقلًا عملاً بقوله تعالى : ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

إن الثمرة دليل على الشجرة . ودليل الشيء في الأمور الباطنة يقوم مقامه . وبما أن الدين في النفس هو من الأمور الباطنة ، فلننظر الى أعمال الاثنين ، الرجل والمرأة ، فيما يتعلق بالدين ، لنعلم أيهما الناقص ، أو الكامل فيه ، ذلك لأن العمل الظاهر صورة من النفس ، أو هو دليل الحسن الباطني .

وقد جاء في الحديث الشريف : (أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ إِلَّا بِظَاهِرٍ مِنْهُ وَنَاطِقٍ عَنْهُ) .

تعلمون ياسادتي وسيداتي ، أن الرجال هم الألى سنوا قوانيننا وأنظمتنا ، فأعلنتها الخلافة قبل إلغائها . أما المرأة فلم يشركوها ولم تشترك هي في وضع حرفٍ منها . إذن ، إن القوانين الموضوعية هي عمل الرجل المادي الدال على درجة تعلقه بدينه وحرصه عليه .

فالدين ياسادتي وسيداتي ، حرّم الربا ، أما الرجل فقد حلّله في قوانينه ، وأسس المصارف لتعاطيه ، ومنها ما ينسب الى الدولة كالمصرف السلطاني .

الدين حرّم المُسكر وبيعه وشراءه وتقويمه . أما الرجل فقد أباح في قوانينه شربه ، وبيعه ، وشراءه ، وقوّمه . وأسس لشربه ، وشرائه ، وبيعه ، حانات سنّ لها أنظمة مخصصة ، وأخذ عن المُسكر ضرائب أدخلها بيت المال .

الدين حرّم الخنزير ولم يجعل له قيمة . أما الرجل فقد قوّمه واستوفى عنه ضرائب أدخلها أيضاً بيت المال .

الدين أوجب التعزير والحدود الشرعية على شاربي المُسكرات ومرتكبي المعاصي . أما الرجل فقد ألغى في قوانينه الحدّ والتعزّر الشرعيين .

الدين أوجب قطع يد السارق ، وإتلاف العضو بالعضو ، أما الرجل فقد حرّم في قوانينه ذلك . الدين أوجب رجم من يستحق الرجم من الرجال والنساء . أما الرجل فقد منع الرجم ، وجعل ما يستوجبه حلالاً لاعتقابه عليه في قوانينه .

الدين وضع أحكاماً زجرية هامة تتعلق بالإرتداد ، أما الرجل فقد منع تطبيق تلك الأحكام ، وماعدّها شيئاً .

الدين أباح ضرب المتهم بالسرقة وتعذيبه ما لم يظهر العظم حتّى يقرّ ، أما الرجل فقد حرّم في قوانينه ذلك ، ووضع على ضارب المتهم ومعذّبه العقوبة الإرهابية .

الدين حرّم الصور والتماثيل . أمّا الرجل فأنشأ متاحف كبيرة وأعظمها في دار الخلافة ، مألها من التماثيل ينافس في جمعها الأمم ، وسنّ لحمايتها نظاماً أعلنته الخلافة قبل إلغائها ، وقد آلف لذلك إدارة رسميّة . وهذه تماثيل محمد علي وإبراهيم باشا ، ومصطفى كامل ، منصوبة في ساحات مصر .

الدين وضع الشريعة ليعمل بها ، وأقام حكام الشرع ليقضوا بين الناس بمقتضاها . أمّا الرجل فقد سنّ قوانين وأنظمة جديدة أعلنتها الخلافة قبل إلغائها . بدّل فيها معظم الأحكام الشرعية تبديلاً يجيز الممنوع ، ويمنع الجائز ، وقد أهمل كثيراً من تلك الأحكام إهمالاً . وأقام محاكم نظامية متعدّدة القضاة ، مختلفة الأديان والمذاهب ، لتحكم بموجب القوانين والأنظمة . وحصر المحاكم الشرعية في دائرة من الوظائف ضيقة ، لا تتناول من وظائفها القديمة إلا قليلاً قليلاً ، أكثره يختص بالنساء . كأنّ الرجل أبقى ما أبقي من الأحكام الشرعية قصد الاستمرار في العمل بما قال الرجال القدماء في أمر النساء ، والله أعلم بما يعملون .

الدين أباح الاسترقاق . أمّا الرجل فقد حرّمه في قوانينه ، ووضع العقاب على بائع الأرقاء والإماء وشاريهم .

الدين حلّ ما حلّ ، وحرّم ما حرّم . أمّا الرجل فحرّم الحلال ، وحلّ الحرام ، حتّى أنه منذ عهد الخلافة شرع يفتح بيوتاً للفجور سنّ لها قوانين وأنظمة ، وعيّن لها أطباء وموظّفين ، حيث أذن للمسلمات أيضاً في التبذل .

يسمح بهذا سيدي الرجل ، ولا تهوله فظاعته الدينيّة . ولكن لا يسمح للمسلمة الشريفة الرصينة ، ولا يسمح لربة النبل والعفاف والكرامة ، لا يسمح لربة الخلق الكريم ، والأدب الرائع القويم ، لا يسمح لأمه وابنته ، وزوجته ، وأخته أن يستنشقن الهواء ويرين النور . لا يسمح لهنّ باستخدام القوى التي أودعها الله وجوههن ، وهي في الدين قوى حرة طليقة .

وقد لا يغيظ بعض الرجال ، على ما أسمع ، أن يرى مقنّعة ما داخل بيوت الفجور ، أو خارجة منها ، تجلب على الاسلام عاراً ، بقدر ما يغيظه أن يرى سيّدة سافرة تسعى للكسب الحلال ، أو للتكمّل العقلي والأدبي ، في دور العلم ، والأدب ، والفن ، والصناعة ، تُعدّ نفسها بذلك لضمان نفعها ، ونفع عائلتها ، وأمّتها .

فيا لتديّن الرجل من تدين صحيح ويا لغيرته على الدين من غيرة صادقة! إنه كامل الدين ، وحفاظ له! يستخرج من ذلك لنفسه حق السيطرة باسم الدين ، ليس على نسائه فحسب ، بل على نساء غيره من المسلمين ، فينس الاستخراج ! وينس السيطرة ! وينس المكر ! وينس الرياء .

ياسيدي الرجل ، تذكر قوله تعالى ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ و﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكَيْلاً﴾.

ياسيدي الرجل :

إنك لاترى ما فعلت ، وفعلت مروقاً والحاداً . ولكنك ترى الإلحاد أن تتكمل المرأة أدباً ،
ونوراً ، وعقلاً ، ورشاداً . إنني أطيع الله والرسول وولي الأمر عليّ أبي . ولن أطيع من يراني في
دين ربّي رياء .

والدين حرّم التشبيب ، والتغزل ، وإنشاده ، واستماعه . أمّا الرجل فقد أغرق في ذلك
إغراقاً . وتلك دواوين الشعر شاهدة .

والدين حرّم الملاهي واستماع آلاتها . أمّا الرجل فقد حلّ ذلك تحليلاً . ولو أردت أن
أسرد كلّ ما حلل من الحرام ، وحرّم من الحلال ، لاستغرق ذلك زمناً طويلاً . ولكن لأرى لي
غنى عن ذكر مخالفته الدين بما يفعله بوجهه ، كما سأذكر في كلّ موضع من موضوعي الأدلة
البالغة على مخالفته الدين في ستر وجه المرأة .

فالدين ، ياسيداتي وسادتي ، أمر الرجل بإرخاء لحيته وجزّ شاربيه جزاً يلزق بالشفّة ، وذلك
بقول رسول الله صلى الله عليه وسلّم «أَحْفُوا الشَّوَارِبَ وَارْخُوا اللَّحَى» وعلى قول (أَغْفُوا اللَّحَى) .
ولهذا ترى المسلمين في العجم مازالوا يكفرون من يحلق لحيته ، وقد ورد في الحديث «حَلَقُ
الرَّأْسِ مِثْلُ لَأَعْدَائِكُمْ وَجَمَالُ لَكُمْ» . أمّا الرجل عندنا فقد أطلق لنفسه حرية التصرف في رأسه
ووجهه المقيدين بالنص ، وفعل عكس النص ، فأخفى اللحية وأبقى على شعر رأسه ، وأرخى
الشاربين ، أو أخفى اللحية والشاربين ، أو أبقاها معاً . وأمّا وجه المرأة المطلق بموجب النص ،
فقد قيده خلافاً للنص ، بالنقاب المظلم ، ساداً دونها طرق عقلها ومنافذ حياتها .

وبكلمة أبين أن الله جلّت حكمته ، غطى وجه الرجل بالشعر الطويل والدين أمر بإبقاء
ذلك الغطاء . أمّا الرجل فقد أزاله .

وكذلك جلّت حكمته خلق وجه المرأة مكشوفاً نقيّاً ، والدين أمر ببقائه مكشوفاً جليّاً . أمّا
الرجل فقد غطاه بالنقاب ليحمله خفيّاً .

فأثبت بذلك أنه يرى نفسه قوياً كالطائر الكاسر ، ويرى المرأة ضعيفة كالذبابة ، متمشياً
على ذلك القول القديم السقيم . «إنّ القانون مثل حبال العنكبوت ، تخرقها الطيور الكواسر .
ولا يعلق بها إلاّ الذباب» .

أو أنه تعود كلّ خطيئة ، حتّى أمسى لا يحسبها شيئاً ، فلا يهوله من الأمور إلاّ ما لم
يتعود .

ذكرت لك ياسيدي الرجل ما ذكرت من أعمالك المحسوسة التي خرقت فيها أحكام الدين وخالفت أصوله . فهل لك أن تذكر للمرأة مخالفة لأصول الدين واحدة ؟
 لأعتقد أن ذلك في استطاعتك . اذن وجب عليك أن تعترف لساعتك بأنك لست أكمل من المرأة ديناً ، ولست أكرم منها عند الله . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا لِتَعَارَفُوا. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾ .
 وتذكر إن كنت ناسياً لامتناسياً ، إنك أمرت بأن تأخذ نصف الدين عن المرأة . وذلك بالحديث الشريف القائل : (خُذُوا نِصْفَ دِينِكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَا) تلك سيدتنا عائشة رضي الله عنها .

* * *

انتحال عذر للرجل ولومه في وقت واحد

ياسيدي الرجل :

بعد كشف أعمالك واضطرارك الى الإعراف بأنك لست أكمل من المرأة ديناً ، استدرك مايحتمل ظنه بقولي : إنني ذكرت من أعمالك ما ذكرت . لا لتحسين أو تقبيح . إنما لأريك أنك عند البحث في أمر المرأة ترائي في الدين رياءً ، وتموه تمويهاً .
 فقد كان في أعمالك تلك ما يُستحسن وما يستقبح . أمّا التبعة في ذلك فتابعة لقصدك . فإن كان قصدك عدم احترام الدين ، فإنك آثمٌ لا عذر له . وإذا كنت ممن اجتهدوا في التأويل للخير ، وكانت أعمالك تلك ، نتيجة أقصى اجتهادك . فلا يسأل المرء عن اجتهاده بل يُثاب . سواءً كان في خطأ أم في صواب .

فقد تكون استندت ، ياسيدي ، في استباحتك مامنع ، ومنعك ماأبيح الى السيادة العلمية ، اعتقاداً منك أن ذلك مما يتعلق بالمعاملات الدنيوية ، وقد اقتضته تطوراتها بحسب الزمان ، واستوجبه أسباب العمران . قد يكون أنك حررت باجتهادك القاعدة الجليلة القائلة (لاينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان) ، من بعض القيود التي توهن قوتها مضيقاً دائرتها ، منقصةً فائدتها ، فأخذت بالحكمة المكنونة في آيات الله ، مأولاً إياها خير تأويل ، تبعاً للقصد الإلهي في التنزيل ، وليس القصد الإلهي في أحكام المعاملات الدنيوية . إلا الخير للبشر في الدنيا ، وطرائق الخير في الدنيا لمتقلبة ، تختلف بحسب الأزمنة المتحوّلة ، فلاهل الأزمنة أن يذهبوا ماشاؤا من المذاهب في سبيل خيرهم ونفعهم . وحيث يتم الخير والنفع للناس يتم القصد

الإلهي ، إنه ينبوع الخير واليسر والرقى للعباد . أو ليس من أجل ذلك كانت آيات الله أثناء تنزيلها تُنسخُ ، وتُعمَّم ، وتُخصَّص بحسب الزمان ، تأميناً لنفع الإنسان ؟ أو ليس من أجل ذلك جُعِلَ عد اجماع الناس أصلاً من أصول الدين كالكتاب والسنة ، وما يحلّه الناس على الأرض محلّولاً في السّماء عند غيرنا ؟

سادتي : إنّ التجدّد لازم ، ولا بدّ لنا منه ، فخير لنا أن يكون تجدّدنا على اجتهاد واعتقاد ، من أن يكون نتيجة خرق في الدين أو إلحاد وهل يُحسُنُ بنا أن نعدّ الخلفاء ، والدول الإسلاميّة في تجدّدهم ووضعهم القوانين الجديدة ، خارقين أحكام الدين أو ملحدين ، وغير مكترئين لها أو مهملين ؟ لا لعمرى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم في وصف القرآن : « الْقُرْآنُ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ . فَظَاهِرُهُ حُكْمٌ ، وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ ، ظَاهِرُهُ أَنْيَقُ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ ، وَالتَّفْكِيرُ فِيهِ حَيَاةٌ قَلْبِ الْبَصِيرِ ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَنِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ » . فينبغي للعالم الإسلامي أن يشكر لأولي الألباب جليل فضل لهم بتفكّركم في عميق باطن القرآن ، مستخرجين بتأويلهم من حكمه لآلىء وجواهر ، يصوغونها قلائد لجيد العصر موافقة ، ولعلمه مطابقة .

وقد يكون ياسيدي أنّك ممّن تفكّروا في باطن القرآن فأولوا آياته ممّا يتعلّق بالمعاملات الدنيويّة خير تأويل ، لخير الناس الدنيويّ ، تاركاً للسيادة الدينيّة كل ما يختص بالعبادات ، لأنها علاقة البشر بالخالق ، وهي ثابتة أبداً ، ليس للمخلوق أن يمدّ الى تأويلها يداً . فإذا كان ذلك - وقد يحمد الناس لك تمهيدك السبل للتفكير الحرّ والتطوّر ، على مثال ماجرى ويجري في العالم الراقي - فعلام ترى ستر وجه المرأة - ولم يكن إلا بدعة ابتدعوها وعادة إتبعوها - أشدّ علاقة بالدين من تلك الأمور التي غيرتها وبدلتها ؟ أليس ذلك منك أثر هوى ورياء ، واعوجاج والتواء ؟

وهل يطلب الدين من المرأة - إذا بقي منصرفاً لتمجيد الله ، ولم تداخله البدع - أن تقدّم لخالقها غير قلبها وإيمانها ، وصالح أعمالها ؟ فالله جلّ وتعالى عن أن يستر وجهها سترأ يفسد أكثر ممّا يصلح ، حارماً إيّاها أن تستخدم القوى التي أودعها سبحانه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إِنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ لَا إِلَى وُجُوهِكُمْ » .

إنّ وجه المرأة مطلق حرّ . هكذا إرادة الله ، وهكذا إرادة رسوله ، وهكذا يريدّه الاجتماع . وسترى الأدلّة .

المرأة أصلح من الرجل في الفطرة عقلاً

هو يرجحها بالقوة الجسدية وهي ترجحه بالنفس العاقلة المرضية

سادتی وسیداتی :

لقد تبين أن الرجل ليس أكمل من المرأة ديناً . فلنبحث فيما إذا كان أكمل منها في الفطرة عقلاً .

سأذكر هنا ما ذكر من الجولات العامة مثبتة بالأدلة . وبالنظر الى الظاهر ، أن المرأة أصلح عقلاً من الرجل في الفطرة . إذ أن كمال الفعل لا يقاس إلا بصلاحه ، ومن لا يكتفي هنا بما أكتفى ، فله في قسم الأدلة العقلية ما ينفي .

سيستكبر الرجال هذا المقال ، ولاغرو أن تشترك في استكباره ربّات الرجال ، أي ربّات
الخلخال . ولكنه حقيقة .

استكبر الناس ما قاله غاليلو من دوران الأرض حول الشمس ولكنّ قوله كان حقيقة . حقيقة رآها فقالها ، ولئن رُدَّت في البداية فقد سادت في النهاية .

من الأمور المعلومه ياسادتي أن الرجل تغلب على المرأة بقوة جسمه فاستعبدها وحرمها استعمال قواها من حيوانية وناطقة . فانسدت طرق عقلها ، فأدى ذلك الى تفاوت بينه وبينها في إظهار آثار العقل ، كما يحصل التفاوت بين كلّ غالب مُستعبد ومغلوب مُستعبد . فظنّ من كان قصير النظر ، أنّ الحالة الماثلة أمامه ، مقتضى الفطرة ، ولو تحرّى الحقائق . لعقل أن هذه الحالة ليست إلا لسبب عارض ، ينشأ من تغلب الرجل على المرأة واتباعه هواه واستعباده إيّاها .

أما العاقل فلـي يرى الحقيقة ، يجـيـل نظره في الماضي وفي الحاضر ، لا في مكانه فقط ، بل في كل أرض من الأرضين وفي كل عالم من العالمين .

فالرجل ياسادتي حرّ مستعبدٌ للمرأة منذ عصور الله أعلم بها .

أما المرأة فلم تنل حرياتها ، إلا فى العالم الرأقى ، ومنذ سنوات معدودات .

أَجِيلُوا الطَّرْفَ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ . أَفَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ ، مَعَ أَنَّ حَرِّيَّاتَهَا لَمْ تَكْمَلْ بَعْدَ ، تَجَارِي الرَّجُلَ رَقِيًّا فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا ؟ فَكَمْ مِنْ مُكْتَشِفَاتٍ وَمُخْتَرِعَاتٍ ، وَطَبِيبَاتٍ ، وَمُهَنْدِسَاتٍ ، وَقَاضِيَّاتٍ ، وَنَائِبَاتٍ ، وَمُحَامِيَّاتٍ ، وَمُعَلِّمَاتٍ ، وَعَالِمَاتٍ ، وَأَدِيبَاتٍ ، يَسَابِقْنَ الرَّجُلَ فِي مِيقَانِ

العقول . فمن هنا يمكن أن تستشرفوا المستقبل . فتعلموا أن المرأة إذا قضت الزمان الكافي في دور تكملها العقلي ، نالت دون ريب حرياتها كاملة ، وجرت في ميدان الحياة تباري الرجل ، ولا يبعد أن تسبقه شوطاً في كل ما يعود لخير الإنسان . ولا قوة في الكون قاهرة . تستطيع أن تقعدها بعد نهوضها ، كما أنه ما من حجاب يستطيع أن يقاوم أشعة الحرية الساطعة عليها .

انظروا مثلاً الى الرومانيين ، وقد كانوا أعظم أمة في العالم ، كيف كانوا وهم متمتعون بالحرية التامة ، في أعلى درجات الرقي التي وصلت اليها الإنسانية في ذلك الزمان ، وانظروا اليهم بعد استيلاء البرابرة عليهم ، وسلبهم إياهم حرياتهم ، كيف غشيهم ظلام الجهل ، وانحطوا عقلاً وعلماً انحطاطاً تدريجياً انتهى بزوال اسمهم من سفر الحياة .

وانظروا الى اليونان لما كانت مشرق الحرية ، كيف كانت مشرق العقل ، والعلم ، والفلسفة . وانظروا اليها لما تمكن غيرها من استعبادها فغربت عنها الحرية ، ولا سيما في استعباد الترك ، كيف غشيها ظلام من الجهل حالك . ذلك حال كل أمة مستعبدة ، ذلك حال كل شعب تسلط عليه الإقطاعيون وسلبت حرياته . أوقيدت بأنواع القيود . وذلك كان حال الأرقاء في العالم . إنهم كانوا يناهزون الأحرار عدداً . ولم يسمع قط عن رقيق أنه أفلح قبل أن تحرر . لماذا ؟ لأن ظلم الحر إياه كان ينهك قوى عقله ، ويمنع آثارها أن تظهر .

وانظروا الى الأمة الإسلامية ، والى أى درجة من السمو وصلت ، لما كانت فيها العقول حرة طليقة ، وانظروا اليها لما قيد فيها العقل والفكر ، وحرمت حريتها في الاجتهاد والتفكير في كتاب الله وسنة رسوله ، وفي كل ما يؤدي الى خيرها ، كيف جمدت بل كيف تقهقرت .

هكذا المرأة ، ففي استعباد الرجل إياها ، وسلبه إياها حريتها ، نراها في ظلام من الجهل حالك ، ولكن في دور تحريرها في العالم الراقي ، نراها تجاري الرجل في الرقي العقلي وتكاد تباريه . ذلك مما يدلنا على أن سبق الرجل والمرأة في إظهار آثار العقل لم يكن مقتضى الفطرة ، بل مسبباً بسبب عارض أحدثه الرجل ، فقد أجبرها على إهمال خدمة عقلها حتى أصبح كالأرض البائرة التي لا يصلح فيها نبات ، ولكنها أرض طيبة مستريحة إذا أصلحت أعطت أحسن الرزق ، وأطيب الثمر ، وأوفر الخير .

قال الشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه (الاسلام روح المدنية) «إن المرأة المسلمة اليوم متأخرة عن سواها في العلوم والحضارة ، ولكن ذلك من جهل الرجل ، واستبداده ، وعدم إطلاعه على مأسسته لها الشريعة المطهرة من الحقوق ، فالذنب في ذلك راجع اليه» .

صدق الشيخ الغلاييني . لأنك لو نظرت ، ياسيدي الرجل ، الى العالم السافر الراقي ،

لرأيت أن تلك المرأة التي كانت مغمورة بالزينة . متسريلة بالأزياء ، منغمسة في اللهو ، قد حل محلها في ذلك العالم - حيث حل العقل محل القوة ، وحلت الحرية محل الإستعباد ، وحل العلم محل الجهل ، وحل الإهتمام بزينة الروح محل الإهتمام بزينة الجسد - امرأة جديدة هي المرأة التي وصفها المصلح الكبير قاسم أمين بأنها شقيقة الرجل وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع .

* * *

عبارات للفيلسوف استوارت فيها لنا عبرة

واسمح لي ياسيدي الرجل . وأنت تحسب امرأتك ناقصة العقل والدين ، وقد أهملت روحها ، وجعلت جسمها لعبة مزينة للهوك وهواك ، اسمح لي أن أقرأ لك العبارة التي وضعها الفيلسوف الكبير جون ستوارت ميل في صدر كتابه المسمى (الحرية) ، وقد طبعه بعد وفاة زوجته ، قال :

« إنني أهدي هذا الكتاب الى الروح التي ألهمتني أحسن ماوضعته فيه من الأفكار الى صديقتي وزوجتي التي كان غرامها بالحق والعدل أعظم ناصر لي ، والتي كان استحسانها من أكبر المكافآت التي أرجو نيلها على عملي ، كان لها الفضل في جميع ماكتبته الى الآن . ولها في هذا الكتاب حصّة من العمل لا تنقص عن حصّتي فيه . وأكبر أسفي أن هذا الكتاب طبع بالحالة التي هو عليها الآن قبل أن تعيد النظر فيه . ولو كان في استطاعة قلبي أن يعبر عن نصف مادفن معها من الأفكار العالية والوجدان السامي ، لانتفع العالم به أكثر ممّا ينتفع بجميع ماأكتبه . صادراً عن فكري ووجداني . بدون مشورة عقلها الفريد » .

لله استورات ، ولله زوجته ، وأكثر من امثالهما بيننا ، كأثما هما اللذان أدركا ، مع من أدركوا ، لبّ دين الإسلام فتمشياً عليه . ألم يؤثر في قلبك ياسيدي الرجل ماقاله استورات ؟ ألم يسر منه لقلبك سيال روعي يردك الى الحق ، فتردّ الى زوجتك حقوقها المسلوبة ، أقلها التسليم لها بالعقل والدين ؟

* * *

ياسيدي الرجل ، رجّحت عقلك من حيث الفطرة على عقل المرأة وذلك ليس من أمرك ، وليس في استطاعتك . لأنه أخفى الأشياء عليك . فخالفت بذلك أمر ربك (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ

الرُّوحُ فَقُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) . ألم تعلم أن الله خلق العقل ، وهو أول خلق من الأرواح على يمين العرش ، كما علّمنا صلى الله عليه وسلّم ، وإنّ روحك أو عقلك ، ليس إلا نفسك وحقيقتك ، ذلك أخفى الأشياء عليك ، كما قال حجّة الإسلام الإمام الغزالي ؟

أما أنا فأقرّ وأعترف بأن ترجيح عقل الرجل من حيث الفطرة على عقل المرأة ، أو ترجيح عقل هذه على عقل هذا ، ليس من أمري ، ولا في استطاعتي ، لأنه أخفى الأشياء عليّ . ولكن بما أنّك أدّعت ما أدّعت رأيت أنه لابدّ لي من الدفاع عن نفسي ، وعن بنات جنسي ، ورأيت أنه لا ينبغي للإنسان أن يهمل البحث العلمي في ما يلوح له من أسرار الطبيعة ، آخذاً بالظواهر . ولا تظنّ إثباتي أنّ المرأة أصلح من الرجل عقلاً ، يسوقني الى طلب ترجيح المرأة على الرجل منزلة .

إنّي لن أفعل كما فعل الرجل ، ولكنّي أطلب منه أن يعترف بأنّ المرأة مثله عقلاً ومنزلة ، بذلك أبتعد عن التفريط والإفراط ، لازمة حدّ العدل والإعتدال والمساواة .

إنّ الفطرة ، ياسادتي وسيداتي ، هي ما تتّصف به روح كلّ حيّ في أوّل خلقه ، والروح في الإنسان ، من حيث الخاصة ، كما يفهم من قول العلماء والمفسّرين ، روحان : روح جسمانية مشتركة بين الإنسان والحيوان ، وروح ناطقة يمتاز بها الإنسان على الحيوان . أمّا الروح الناطقة فهي تتغيّر بالإكتساب ، فترقى أو تتدنّى ، وأمّا الروح الجسمانيّة المشتركة ، فهي لا تتغيّر . فلا ترقى ولا تتدنّى .

إنّ مباحثة الرجل مباشرة في الروح الناطقة أو العقل ، أهو أرجح من حيث الفطرة فيه منه في المرأة ، أم هو أرجح فيها منه فيه ، لاتوصّل الى نتيجة تجلو الحقيقة . إذ أنّ هوى الرجل يثنيه عن الإذعان للحق . فوجب لحمله على الإذعان للحق أن أثبت قضية تشبه قضيتي لاهوى له فيها يثنيه ، ثمّ أتخذ تلك القضية المسلّمة ، مقدّمة للقياس ، فتظهر النتيجة التي لامندوحة له عن الإقرار بها . إذن وجب لكي نعرف الفطرة أن ندرس الروح المشتركة ، وهي لاتظهر منفردة إلا في الحيوان ، ثمّ نقيس عليها الفطرة في الروح الناطقة .

انظروا الى ذكر وانثى من أيّ نوع كان من الحيوان ، تروا أنّ الذكر أقوى جسماً من الأنثى . وأنّ الأنثى أصلح غريزة من الذكر . كأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر عدله فأعطى الذكر الحظّ الأوفر من صلاح الغريزة . وأراد أيضاً أن يظهر حكمته باضطراره كلاً من الانثى والذكر للشركة ، فيكمل كلّ منهما مأنقص في صِنوّه . فهذا يستفيد من تلك حكمة . وتلك تستفيد من هذا قوّة .

أجل إنَّ الله تعالى جعل الانثى في الحيوان ، أصلح من الذكر وأحكم منه غريزة ، ولولا ذلك لَمَّا كَلَّفَ الله انثى الطير بناء العش ، ولا يخفى ما في بناء العش من دقة لا يمكن أن تكون إلا بنت حكمة ، ولَمَّا كَلَّفَ تلك الانثى تربية صغار النسل وحفظه ، وهذا ما يستوجب من الحكمة والعناية قسطاً أوفر من ذاك ، وما ذلك كله إلا من خصائص العقل الحيواني المعروف بالغريزة التي هي قائدة الحركات الجسدية .

أمَّا الذكر من الطير فلم يكلفه الله ما يستلزم تكليف الانثى ، من دقة وعناية وحكمة ، إنَّما كلفه ما يوافق قوَّة جسمه من جلب قشٍّ لبناء العش ، والتقاط قوت لصغار نسله .

تلك حالة ثابتة في روح كل حيوان ، وقاعدة طبيعية عامة لا تتغير ، ولا استثناء فيها . وهي مقدمة صحيحة في القياس نستنتج منها أنَّ الروح الناطقة أو العقل يرجح فطرة في المرأة كما ترجح قوَّة الجسم في الرجل . ولولا ذلك لما خصَّ الله تعالى الرجل بالجهد الأصغر وهو يقتضي قوَّة من الجسم أكثر ممَّا يقتضي من العقل ، ولَمَّا خصَّ المرأة بالعناية في تربية الصغار وهي تقتضي قوَّة من الروح والعقل أكثر ممَّا تقتضي من الجسم ، مع أنه سبحانه وتعالى كلف الاثنين في غير ذلك تكاليف لافرق بينهما فيها .

وهنا أيضاً نسبَّح الله تعالى وقد أظهر عدله في إعطائه الرجل الحظَّ الأوفر من قوى الجسم ، والمرأة الحظَّ الأوفر من قوى الروح ، كما أظهر حكمته في اضطاراره كلاً من الرجل والمرأة الى الشراكة ، فيكمل كل منهما ما نقص في صنوه . ولا بدع أنه تعالى عدل في قسمته نعمه بين الذكر والانثى من الانسان ، وهو أشرف مخلوقاته . فإنه سبحانه قد عدل أيضاً في قسمتها بين الذكر والانثى من الحيوان .

إنَّ النعمة التي أسبغها الله على الرجل من قوَّة الجسم محسوسة منظورة . فلا ريب أنه جلَّ عدله أسبغ على المرأة من قوَّة الروح والعقل ما يعادل نعمته المنظورة على الرجل .

البنات أصلح من البنين

قلنا ياسادتي : إن الفطرة هي ما تتَّصف به روح كل حي في أوَّل خلقه قبل أن تتحوَّل وتتغير ، وقبل أن ترقى أو تتدنَّى بالاكْتِسَاب . إذن يستدلُّ على فطرة الإنسان من أحواله وأفعاله في صغره ، فانظروا الى البنين والبنات ، حتَّى السن التي يحجر فيها عندنا على هؤلاء . ويطلق أولئك فماذا ترون على الغالب ؟

إنكم ترون على الغالب أولئك يفتقون وهؤلاء يرتقن ، أولئك يبعزقون وهؤلاء يرتبن ، أولئك يقسون وهؤلاء يرأفن ، أولئك يكدّون وهؤلاء يسررن ، أولئك يتعبون وهؤلاء يُرحن ، أولئك يفسدون وهؤلاء يصلحن ، أولئك يتمردون وهؤلاء يطعن ، أولئك يضرون وهؤلاء ينفعن ، أولئك يلعبون وهؤلاء يجتدن ، أولئك يوسّخون وهؤلاء ينظفن ، أولئك يقحّون وهؤلاء يستحيين . حتى أمسى وبالأأسف من أمثال العرب (وقاحة الوجه سلاح الفتى) ومن أقوال الوالدين (نحب البنات لما هنّ عليه الآن ، ونحب الصبيان لما يكونون في المستقبل) .

فتأملوا في أعمال الجنسين واحكموا في أيهما الأدلّ على الصلاح في الفطرة والعقل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَبُّوا أَوْلَادَكُمْ الذُّكُورَ » قالوا ، والإناث يارسول الله قال : « لَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُوَصِّيَكُمُ اللَّهُ بِالْحَبِّ لَهُنَّ فَهُنَّ يُحَبِّبْنَ أَنْفُسَهُنَّ إِلَيْكُمْ بِصَلَاحِهِنَّ وَحَنَانِهِنَّ » .

إذن ليس الرجل أصلح من المرأة عقلاً في الفطرة ، وما العقل الصالح إلا شيمة النفس الناطقة المرضية ، وما كان سبق الرجل المرأة في ميدان الحياة والعمل ، إلا لسبب العارض الذي أحدثه الرجل ، وهو تقييده قواها ، وغلّه حركاتها بما شاء من القيود والأغلال ، ظلماً وعدواناً ، مستنداً في ذلك الى قواه الجسدية ، دون أن يشرك العقل أو الروح في أفعاله ، فكانت شائنة يخجل القلم من أن يكتبها ، لولا أن إظهار الحقيقة يحمله على ذلك .

أجل إنّ الانسان لمخلوق عجيب! متى غلبت فيه النفس الأمارة بالسوء فليس في الحيوان أبعد منه عن رقة الشعور ، وأكثر منه غضباً ، وهوىً وشرّاً ، وظلماً وأذىً وضرراً . وإذا غلبت فيه النفس الناطقة المرضية ، وهي نفخة فيه من الروح الالهية ، أوقع الله الملائكة له ساجدين ، وليس فيهم ألطف منه شعوراً ، وأوفر حكمة ونزاهة وعدلاً .

ومن من الجنسين كثرت في أفرادهِ انتصارات النفس الناطقة المرضية فهو الأصلح عقلاً . إنّ العقول الصالحة توزن بقسطاس العدل والحكمة والنزاهة والخير لابميزان الظلم ، والشر ، والاستبداد ، والظير ، وإلا كان أوفر نصيب من العقل للأبالسة والشياطين ، وللأشقياء الأقوياء ، والظلمة المستبدين المضرّين .

كيف عامل الرجال الأقدمون نساءهم

سأذكر لك يا سيدي الرجل ماصنع الرجال الأقدمون بأمهاتهم وبناتهم وإخواتهم وزوجاتهم من الظلم والاعتساف ، شيمة النفس الأمارة بالسوء ، ذلك قبل أن أشرق على نفوسهم أنوار الهدى وبعث الله تعالى نبينا بكمكارم الأخلاق .

قال الشيخ مصطفى الغلاييني في كتابه «الاسلام روح المدنية» مانصه :
« كانت المرأة عند العرب قبل أن تشرق على بصائرهم أشعة الدين الإسلامي ، أشبه بحيوان يتخذونه للقنية ، فهي ساقطة الإعتبار والمنزلة ، بل إنما كانوا يفضلون الحيوانات عليها . فكانت حالتها عند العرب من الصعوبة والشدة بمكان سحيق ، لا يجاريهم في اضطهادها واحتقارها مجارٍ من الأمم ، حتى أنهم كانوا يجعلون البنات ، إن ولدن لهن ، علامة على الشر ، ويتطيرون منهن . وكانت عادة الوأد شائعة عندهم ، فقد كانوا يعدمون لها الحياة دسا في التراب ، وكانوا يبيعونها ببيع السلعة ، أو يستبدلون بها بعض الحيوانات - كل ذلك خشية العار والشنار على زعمهم - والوَأَد عندهم على أنواع : فكان منهم من يحفر لها حفرة يدفنها فيها الى أن تموت ، ومنهم من يرميها من مرتفعات عالية ، ومنهم من يغرقها . ومنهم من يذبحها - وكانت المرأة مع كل هذا الاضطهاد تسلم نفسها لعوامل الهلاك . كأنها لم تخلق إلا لتموت وكانوا يستترون إذا ولدت زوجاتهم بنتاً . حياء من القوم كأنها ذنب عظيم أو عار أبدي . فكانت المرأة بهذه الأعمال الوحشية مهضومة الحقوق كأنها الحيوان الأعجم حين يساق للذبح . فهي آلة بيد الرجل يديرها كما يشاء . وقد ظلت على هذا الاضطاد والذل الى أن أشرقت شمس الهداية المحمدية ، والتعاليم القرآنية ، وكان الرجل إذا مات وترك امرأة ألقى عليها قربه ثوبه ، فمنعها من الناس : فإن كانت جميلة تزوجها ، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها . وكان الرجل إذا أراد أن يتزوج امرأة جديدة بهت الأولى بفاحشة لتفتدي منه بما أعطاه ليصرفه في سبيل التزوج بغيرها . وكان أهل يثرب «المدينة المنورة» إذا مات الرجل وله زوجة ورثها من يرث ماله ، وكان يعضلها أو يحبسها ويضيق عليها ويمنعها من الزواج حتى تفتدي منه بمال » .

الى آخر ما وصف وقال . ثم ذكر شيوع تعدد الزوجات شيوعاً هائلاً بلا انتظام ولا حد حتى أن بعضهم كان له من الزوجات ما يقارب مائة زوجة .

وبعد أن أشار الشيخ الموما اليه الى ما كانت عليه المرأة من الشقاء والذل عند الأمم قال :

«إنّھا كانت عند الفرس تحت سلطة الرجل المطلقة يحكم عليها بالموت إن شاء ،
ويتصرّف بها طبقاً لما تطيب به نفسه كأنّھا سلعة .

وذكر السيّد جميل بيهم في كتابه (المرأة في التاريخ والشرائع) ما ذكره الغلاييني وزاد
عليه قائلاً :

إنّ السبارطيين كانوا يقتلون سبع بنات من عشر يولدن لهم ، وإنّ البراهيمين يحرقون
الزوجة بالنار أو يدفنونها مع زوجها إن مات .

هذه هي صورة عن عقل الرجل في فطرته ياسيدي الرجل . والذي أصلح فيه من الفطرة
ما أصلح هو الدين ، فالفضل في إصلاح حالته الدينيّة لا لفطرته . إنّ الدين هو الأساس الذي
قامت عليه صروح الإصلاح والصالح ، وإنّ تحرير المرأة في العالم الراقي أقام على هذا الأساس
بناءً من الصلاح عظيمًا ، فهل لك أن تريني أعمالاً ظالمة غاشمة وقعت من المرأة مثل الأعمال
الظالمة الغاشمة التي وقعت من الرجل لتعزو اليها النقص في عقلها أي في نفسها الناطقة
المرضية ، وماهي إلا العقل الصالح ؟

أهذا هو العقل الفطري الصالح الذي يفضّل به الرجل المرأة مفتخرًا به عليها . إذا وقع
صالح ضعيف الجسم ، في يد غاشم قوي ، وأهانته وظلمه ، فهل يحسب ذلك الغاشم الظالم
القوي الجسم الضعيف الروح ، أفضل عقلاً من ذلك الصالح العاقل المظلوم ، الضعيف
الجسم ، القوي الروح ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَمْرَأَةٌ صَالِحَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ
رَجُلٍ غَيْرِ صَالِحٍ» وفي الحديث عن حجة الإسلام الإمام الغزالي : «السَّالِمَةُ فِيْهِنَّ أَكْثَرُ وَ
الثَّوَابُ أَجْزَلُ» .

هل رأيتم ياسادتي حيواناً في الدنيا يعامل إنثاه كما يعامل الرجل انثاه ؟ هل رأيتم حيواناً
قتل أولاده أو وأدها كما قتل الرجل أولاده الإناث ووأدهن ؟ هل رأيتم انثى الحيوان تحرق أو
تُدفن حيّة مع صنوها إذا مات ؟ هل تخيل المتخيّلون أنّ الغول الوهمي صنع بأمّه ، وبصنوته ،
وبناته ، واخواته كما فعل الرجل بأمّه وصنوته وبناته واخواته ؟ أيتوقع أن يقع فعل كهذا من
صالح في الفطرة عقلاً . عقلاً يفضّل عقل المرأة ؟ هل ترنون أن للنفس الناطقة المرضية أثراً في
أفعاله تلك ؟ ألا ترون الرجل محتاجاً الى استصحاب المرأة ، واحترامها ، وإشراكها في أعماله ،
لتنصر بما لها من فضل ربّها من قوّة الحكمة ، النفس الناطقة ، المرضية منه ، على النفس
الأمارة بالسوء ؟

إنّا نستفزع الآن ماصنع آباؤنا الأولون بأمّهاتهم ، وبناتهم ، وزوجاتهم واخواتهم ، وكانوا
يحسبونه بمقتضى العادة الظالمة عدلاً وحقاً . وسيستفزع أحفادنا مايصنع رجال اليوم ،

بأمهاتهم ، وبناتهم ، وزوجاتهم ، وأخواتهم ، وهم يحسبونه بمقتضى العادة الظالمة أيضاً عدلاً
وحقاً ، فياليتنا نعجل في اجتناب ماسيستفظعه أحفادنا ، ويستفظعه الآن المستنيرون منا ،
ومعاصروننا من الأمم الراقية . (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

* * *

الحمامة خير من النسر والحمل خير من السبع

يفتخر الرجل بأنه كالنسر الكاسر ، والمرأة بين مخالبه كالحمامة أو الدجاجة . ولعمري إن
كلاً من الحمامة والدجاجة خير للإنسان من النسر . فهما أصلح غريزة منه ، وأفضل طبعاً
وعملاً ، وحقهما أن يرجحا عليه منزلةً وقدرًا لدى أولي الألباب ، إذ أنهما لهما خيرٌ ومنافع ،
لاضرر منهما ولاأذى .

زرت يوماً حديقة لبيت . فرأيت فيها مشهداً مارأيت أغرب منه ، رأيت في إحدى زواياها
نسراً ذكراً ، هائل الخلقة ، تطلّ الشراسة من عينيه ، ويلمع فيهما بريق الكبر والخيلاء . قوائمه
كعمد الحديد ، ومخالبه كشفار الفولاذ ، وفي عنقه ورجليه السلاسل الغليظة مخافة أن ينشب
مخالبه بمربيّه وبأولاده وبزائريه . وفي الزاوية الأخرى طائفة من الحمام والدجاج ، تبيض
وتفرّخ ، فيعمد الرجل مربّي النسر ، وفي أخلاقهما نوع من الشبه ، الى فراخها ويقذف بها بلا
رأفة ولاحنان ، الى ما بين مخالب الطير الكاسر ، فيمزّقها ويلتهمها التهاماً ، ويحشو بها جوفه .
والرجل يختال أمامه كأنه يريد أن يتشبه به في أعماله نحو أبناء جنسه ، فيلتهم حقاً التهاماً .

الدجاجة والحمامة تثمران للرجل ، والنسر المؤذي يتمتع بالثمار . هما الوديعتان يحكم
الرجل على فراخهما بالموت ، والنسر المستبدّ الشرس يتغذى بلحوم هذه الفراخ . ممزّقاً
إياها ، الحمام الضعيف يهضم حقه ، ويكسر قلبه ، تسلب حشاشته ، والنسر القوي يُراعى
جانبه ، ويقدّس ظلمه ويمنح حقّ غيره .

لقد كان لهذا الرجل ثلاث بنات رافقني في التفرّج على النسر على إطعامه فراخ الدجاج ،
وزغاليل الحمام ، ولم يكن موسرات . فقالت لي إحداهنّ لما سرنا في الجنيّة : نحن أحقّ
بفائدة الفراخ والزغاليل المسكينة . ولكن هكذا قضت مشيئة والدنا ، قضت أن تكون طعام
النسر ، وليس النسر عندنا إلا بلاءً وشرّاً .

نعم هكذا قضت إرادة ذلك الرجل ، ربّي نسر القوي الجبار ، ليطعمه فراخ دجاجة ،
وزغاليل حمامته الوديدة المفيدة ، وكانت بناته أحقّ منه فيها . أفيكون النسر الوحشي خلقه ،

الكثير أذاه ، المفقود خيره أفضل من الدجاجة الأليفة ، والحمامة الوديدة ، ولنا من بيضهما وفراخهما خير غذاء ؟ أو هكذا تنتصر العقول المستبدة والنفوس المؤذية في الهيئة الاجتماعية ، على العقول الصالحة والنفوس المرضية ؟

كان زمان لاسيادة فيه إلا لقوة الأجسام . وكان الضعيف يتحمل أذى القوي القريب منه ، استحماؤه به من أذى أشد يوقعه قوي غيره . أما الآن فالسيادة للعقول الصالحة ، والأرواح المرضية ، والقوة للمجتمع لا للفرد ، وكل فرد له في قوة المجتمع ، ممثلة بالقانون . ومن يستعمل قوة جسدية فردية ، لا يستنها له القانون ، فهو مذموم لا يستحق الكرامة ، ذلك يستعبد امرأته ، وأمه ، وابنته ، وأخته ، ولكن غيره يستعبده ، هو يظلمهن لكنه يبلى باظلم منه .

لاتخافوا ياسادتي من أن تبدلوا الحكمة والنزاهة . من القوة الفردية . فالحاكم الآن في الدنيا ، ليس الأفراد الأقوياء جسماً . بل النزهاء الحكماء الراجحون عقلاً . وكل نزيه عادل حكيم ، حقه محفوظ ومكرم ، فلا كرامة اليوم إلا بالتقوى ، والخير ، والصلاح ، والسلام .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ » وقال صلى الله عليه وسلم : « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِنِسَائِي » .

إن سيدنا عيسى عليه السلام ، لم يرد أن يصف نفسه بالسبع القوي المختال ، بل وصف نفسه بالحمل الضعيف الوديع ، قائلاً : « تَعَلَّمُوا مِنِّي فَإِنِّي وَدِيعٌ وَمَتَوَاضِعُ الْقَلْبِ فَتَجِدُوا الرَّاحَةَ لِنَفْسِكُمْ » إذن الحمل خير من السبع . والله سبحانه وتعالى لم يصف نبينا صلى الله عليه وسلم بالبطش والقوة ، بل وصفه بمكارم الأخلاق قائلاً : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . ونصح له بقوله تعالى ﴿ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

فلنأخذ من هذا الوصف وذاك عبرة ولنترك الخيلاء لتغلب النفس الأمارة .

باستور وأمثاله خير من أتيلأ وأمثاله

أتيلأ ، تيمورلنك ، جنكيز خان ، وأمثالهم من الفاتحين المستبدين ، حكموا أقساماً واسعة من العالم ، وداسوها بخيلهم ورجلهم ، ودمروها بمناجيقهم ، ونيرانهم ، ويثموا بنيتها ، ورمّلوا نساءها ، بسيوفهم وفضائهم ، واستعبدوها بظلمهم واعتسافهم ، إنهم لم يتمكنوا من ذلك كله ، إلا بعقول كبيرة .

وباستور ، ذلك الرجل الصامت الهادئ ، لم يفتح بلاداً ، ولم يحكم نفساً ، ولم يستعبد نفساً ، ولم يستبدّ بنفسٍ ، وكلّ ما فعل ، أنه وقف نفسه لخدمة الإنسان ، فانزوى في غرفة عمله الجليل ، مع رهط من معاونيه وتلامذته الفتيان والفتيات ، وأخذوا مكبراتهم في أيديهم ، يتحرّون أسباب الأوبئة القتّالة ، التي تفتك بالألوف من البشر ، حتّى اكتشف الميكروب وأنواعه ، وأسباب نمائه ، ووسائل إفنائه ، فوقى البشرية بعقله ، وجهوده وصبره ، شرّ الأمراض القتّالة ، والأوبئة الفتّاقة .

فيا سادتي الرجال ، أيّ أصلح ؟ أعقل الفاتح المضّرّ الظالم ، مدمّر البلاد ، قاتل النفوس ، مستعبد العباد ، أم عقل باستور النافع المسالم ، كاشف الميكروبات ، واقى الحياة ؟ ما كان مثل اتيلا بعقله وعمله ، إلّا شيطاناً أثيماً ، وما كان مثل باستور بعقله وعمله ، إلّا ملاكاً كريماً . وما كان قائد الأوّل إلّا النفس الأمّارة بالسوء ، وما كان قائد الثّاني إلّا النفس العاقلة المرضية .

* * *

روح المرأة نصير الرجل في الجهاد الأكبر

ياسادتي الرجال : إنّ المرأة تؤثر الحمّامة على النسر ، والحمل على السبع ، وباستور وأمّثاله على اتيلا وأمّثاله ، وتريد أن تكون نافعة مثل من تؤثر .

فمن أثر منكم النسر على الحمّامة ، والسبع على الحمل ، وآتيلا على باستور ، مؤثراً الراغب في ظلم المرأة واستعبادها وقتل قواها ، على الراغب في إنصافها وتحريرها وإحياء قواها ، تعتبر المرأة إيثاره صادراً عن النفس الأمّارة ، وتأمل منه أن يعمل لساعته بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فيعلن الجهاد الأكبر لتغليب النفس المرضية عليها . إنه لجهاد قام في بني الإنسان ، في كلّ قطر ومكان ، ولا يزال قائماً .

والناظر بعين البصيرة مجرّدة عن الهوى ، يرى أنّ الظفر كان للنفس الناطقة المرضية في كلّ جهاد عاونت فيه روح المرأة روح الرجل ، وكان الظفر على قدر اشتراك المرأة ومعاونتها ، ويرى أنّ النفس الأمّارة بالسوء هي الحاكمة المطلقة في الرجل ، ما لم يقم فيه الجهاد الأكبر . ولها الظفر على النفس المرضية في كلّ جهاد لاتعاون فيه روح المرأة روح الرجل ، وظفرها بنسبة ابتعاد المرأة عن المعصية ، وإذا أجلتم على العالم النظر مجرّداً عن الهوى ، ترون ما أرى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : (أَكْثَرُ الْخَيْرِ فِي النِّسَاءِ) ولا يعني ذلك الخير إلّا الخير

الروحي . وقال صلى الله عليه وسلم : (العَبْدُ كُلَّمَا ازْدَادَ لِلنِّسَاءِ حُبًّا ازْدَادَ فِي الْإِيمَانِ فَضْلًا) وما الحب الذي يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تقارب روحه من أرواحهن ، ذلك ما يؤثر في تغليب النفس المرضية على النفس الأمارة بالسوء ، فيزيد في الإيمان فضلاً . فحيث تقاربت أرواح النساء وأرواح الرجال تمّ للرجال الظفر في الجهاد الأكبر .

وقال صلى الله عليه وسلم : (وَهَلْ تُنْصَرُونَ إِلَّا بِضَعْفَانِكُمْ) أو ليس القصد من ذلك ، النصر في الجهاد الأكبر ، بمعاونة أرواح النساء المستضعفات ؟ إن النصر في الحرب الجسمانية أي في الجهاد الأصغر لا يتوقع بمعاونة الضعفاء من النساء بل بمعاونة الأقوياء من الرجال .

قال رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لي زوجة إذا خرجت شيعتني ، وإن رأيتني مهموماً قالت لي ماذا يهملك ؟ فإن كان همك للدنيا فالدنيا فانية . وإن كان للآخرة زادك الله همًّا . وإن رأيتني مسروراً قالت زاد الله في سرورك . فتبسم رسول الله وقال : «إِنَّ لِلَّهِ عَمَلًا فِي أَرْضِهِ وَتِلْكَ الْمَرْأَةُ مِنْ عَمَالِ اللَّهِ» .

أجل إن تلك المرأة من عمال الله . تعمل لنصرة روح الرجل في الجهاد الأكبر . وقال صلى الله عليه وسلم : «مَا مِنْ أَحَدٍ يُذَكِّرُ ابْنَتَيْنِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهُمَا مَا صَحِبَتَاهُ إِلَّا أَدْخَلْنَاهُ الْجَنَّةَ» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ إِلَيْهُمَا مَا صَحِبَتَاهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ كَانَ لَهُ ابْنَةٌ فَأَذَبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي أَسْبَغَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، كَانَتْ لَهُ مَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ مِنَ النَّارِ إِلَى الْجَنَّةِ» .

صدقت يارسول الله ، صدقت يا حبيب الله ، صدقت ياسيد الأولين والآخرين . ألا بارك الله في روح المرأة تلك الميمنة والميسرة في الجهاد الأكبر من النار الى الجنة . نعم يارسول الله ينبغي للرجل أن يستصحب المرأة وروحها دائماً فهي الميمنة والميسرة ، وهي التي تنيل الظفر بالأخلاق والعواطف ، وتبعد عن الكبرياء والشر .

أو ليس من أجل هذا كان حب النساء من أخلاق الأنبياء ، وكانت النساء أحب ما في الدنيا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المخاطب بقوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ هنا لا يمكن لعقل تقي سليم أن يتصور حباً جسدياً يفاخر الأنبياء به ، دون أن ينقص من قدرهم ، جلّوا عن ذلك ، وإثماً ذلك بمعنى التقارب الروحي بين نفوس الأنبياء ونفوس النساء ، فليس أخرى من الأنبياء بالنصر في الجهاد الأكبر .

وهنا استعير لسان النبي الحكيم سليمان بن داود عليه السلام ، في مدح المرأة وروحها المرضية ، حيث قال عليه السلام في أمثاله في التوراة :

« المرأة الفاضلة ثمنها يفوق اللآلئ . تصنع خيراً لا شراً كل أيام حياتها . تبسط كفّيتها للفقير وتمدّ يديها الى المسكين . سراجها لا ينطفئ في الليل ، وتشتغل بيدين راضيتين ، زوجها معروف في الأبواب بين مشايخ الأرض ، العزّ والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتي . تفتح فمها بالحكمة ، وفي لسانها سنن المعروف . فلتمتدحها أعمالها في الأبواب » .

عوا ، ياسادتي الرجال ، ماتقول الأنبياء عليهم السلام عن المرأة ، المرأة ، يفوق ثمنها اللآلئ ، المرأة تصنع خيراً لا شراً كل أيام حياتها . المرأة ، تبسط كفّيتها للفقير ، وتمدّ يديها الى المسكين ، المرأة ، تفتح فمها بالحكمة ، وفي لسانها سنن المعروف . المرأة ، زوجها معروف في الأبواب بين مشايخ الأرض . لأنها تنصر بروحها الحكيمة الهنيئة ، نفسه المرضية إذ أنّ الحكمة في فيها ، وسنن المعروف في لسانها .

يأتيها الزاعمون التبعية لسنن الأنبياء . من أين جلبتم للمرأة نقص العقل ونقص الدين ، حتى أضعتم ، ياويحكم ذلك الكنز الثمين .

* * *

كيف تريد المسلمات ان يكون رجالهن

إنّ المسلمات يردن أن يكون رجالهن رجالاً خيراً وخير رجال ، يعرفون أنّ أرواحهم نفخة من روح الله . فيجب أن تكون منبع العدل ، والخير ، والحكمة ، والرحمة ، والصلاح ، يجب أن يعرفوا أنّهم خلقوا والنساء من روح واحدة ، ويجب أن يخافوا من أن توصم نفوسهم بعيب ، كما تخاف النساء من أن توصم نفوسهن بعيب .

يجب أن يكون ما يُعدُّ عيباً للرجل ، عيباً للمرأة ، وما يُعدُّ عيباً للمرأة عيباً للرجل . وما يُعدُّ فضيلة للرجل ، فضيلة للمرأة ، وما يُعدُّ فضيلة للمرأة فضيلة للرجل ، إنّما بهذا وبمثله من العدل يتمّ الصلاح في العيلة وفي المجتمع الإنساني . فمن قبل هذا وعمل به عدّته المسلمات رجلاً ، رجلاً حقاً يليق بأن يكون قوَّاماً على زوجته بمقتضى أمر الله تعالى . وإلاّ فتسلّم نفسها مكرهة الى عوامل الظلم ، كأنّها لم تخلق إلا لذلك . وتخضع كما يخضع كلّ مظلوم لظالم ، وذلك ليس من مصلحة الرجل .

كان في الأناضول رجل صالح تقيّ ذو نفس مرضيّة ، وكان له ولد شرّير ، متكبر ، مؤذّر ،

مستبدّ ، لنيم ، يمتهن إخوانه ووالدته . نصح له والده مراراً فلم ينتصح ، وكلّما امتنع عن قبول النصح كان والده يقول له : (إنّك لاتصير أبداً رجلاً) . فلمّا بلغ الولد أشدّه دخل في خدمة الإنكشارية وتدرّج في سلكهم ومعسكرهم الى أن صار في استانبول «باشا» أي باشا أنكشاري ، وقد انقطعت عن والده أخباره ، فلمّا استكبرت نفسه خطر في باله قول والده له (إنّك لاتصير أبداً رجلاً) فأراد أن يريه منصبه العالي ونفوذه ، فبعث بأمر الى والي الولاية ، فأحضر أبوه الشيخ في تعب وضنك شديد الى حضرته ، وكان مجلسه موحشاً مهيباً ، فقال له : هل عرفتني ؟ قال : لا . قال : أنا ابنك الذي كنت تقول له (إنّك لاتصير أبداً رجلاً) ، فأحضرتك الى حضرتي لتراني «باشا» فقال له الأب : (صرت يا ولدي باشا ولكن لم تصر أبداً رجلاً) . أنّي لن أعترف بأنك صرت رجلاً ، مالم أر النفس الناطقة العادلة المرضية فيك ، غالباً النفس المؤذية الظالمة الأمارة بالسوء .

الى الأمام ياسادتي ، الى الأمام في الجهاد الأكبر ، حتّى لا يبقى في النفوس من تلك العادات القديمة الظالمة المضرة أثراً ، فيعقد للنفس المرضية والعقل الصالح لواء الظفر ، فتكون أرواح الملائكة سائرة بينكم تبثّ الخير والصالح في البشر .

ترجيح الرجل في الارث والشهادة وتعدد الزوجات
واستبداده بالطلاق حجج عليه لا له

رأيت في بعض الرسائل المنشورة ضدّ المرأة وتحريرها وسفورها أن أصحابها يفاخرون بأنّ الله تعالى فضّل في كتابه العزيز الرجل على المرأة ديناً وعقلاً في أمور ثلاثة :

الأول - في أنّ الله جعل إرثها نصف إرثه .

الثاني - في أنّه تعالى جعل شهادتها نصف شهادته .

الثالث - في أنّه تعالى أذن للرجل في تعدّد الزوجات حتّى أربع ، وبطلاقهنّ متى شاء دون رضائهنّ . ويستنتجون من ذلك نقص المرأة عقلاً ودينياً . ذلك ما يزعمون أنّه حمل الله عزّ وجل على أن يفضّل الرجل على المرأة في هذه الأمور الثلاثة .

أما أنا فاستنتج غير ما استنتجوا . وأرى أنّ الحجّة في ذلك على الرجل لا له .

أجل إنّني أطلّ على الإسلام من أعالي آيات الله وأحاديث رسوله ، فأراه مستوياً على عرش العظمة ، والحرية ، والمساواة ، والعدل ، والخير ، والكمال ، فينتعش قلبي ، وتكبر روحي ،

حتى تكاد تخرج فرحاً من صدري . فعسى أن يطلّ من يدعون أنّهم حماة الإسلام ، وحملة لوائه الشريف من حيث أطللت ، فيرون ما قد رأيت . ولا يطلّوا عليه من خروق تفاسير ، وثقوب تأويل تريهم الإسلام في المكان الذي وضعت فيه تفاسيرهم وتأويلهم ، وهو يحل عن مثل ذلك المكان إجلالاً عظيماً .

إنّ هذا الجواز الإلهي لم يُبنَ إلا على قساوة قلب الرجل ، وصعوبة إذعانه الى الحق والعدل ، وعلى فساد خلقه بما اعتاد من سيء عادات الجاهلية ، وهي كما لا يخفى تخالف طبيعة النفس الناطقة المرضية .

إنه اتخذ مستضعفات النساء إماء ، ومن استضعف من الرجال الأرقاء يتصرف بهم تصرفه بالسلعة والبهيمة كيفما يشاء ، ولولا فساد في عقله وغواية في نفسه ، وقساوة في قلبه ، لما كان منه ما كان ، ولما أجاز له الحكيم العليم ما أجاز له في ذلك الآن جوازاً يكرهه ويزول مع الزمان .

إنكم رأيتم كيف كان حال المرأة في الدنيا عامّة ، وفي الجاهلية خاصة تحت نير الرجل ، لما أنزل الله تعالى كتابه على نبيّنا صلى الله عليه وسلم . إنّ الله يكره استرقاق الأرقاء ، كما يبغض الطلاق ويكرهه ، ويهتزّ عند لفظه على الأرض عرشه ، وسيأتي البيان تفصيلاً في بحث الطلاق .

إنّ الله أنزل آياته كلّها مشبعة بروح الحرية ، والعدل ، والمساواة ، بين الناس ، ولم يجعل فرقاً بينهم في الكرامة عنده تعالى إلا بالتقوى .

كيف يرضى الله سبحانه عن استعباد من نفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة أن يقفوا له ساجدين ؟ هل نفخ الله من روحه في القويّ المستعبد غيره ، ولم ينفخ منها في الرقيق الضعيف الذي استعبده غيره ، كلا ، إنه نفخ من روحه في الاثنين ، ولكنّ الرجل القوي منذ عهد آدم عليه السلام ﴿عَصَى رَبَّهُ فَغَوَى﴾ .

فإذا كان آدم عليه السلام ، وقد كان تبيّناً ﴿عَصَى رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فكيف حال الأقوياء من أولاده الرجال الذين وجدوا في أنفسهم قوة غووا بها ، فتكبروا ، وتجبّروا ، على كلّ من استضعفوه فاستعبدوه .

إنّ الله تعالى بعث نبيّه صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في ذلك المحيط الفاسد الغاوي مبشراً ، وقد نصح له بقوله سبحانه ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ . ومن أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم «عَلِّمُوا ، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا» .

قال الشيخ الغلاييني في كتابه (الاسلام روح المدنية) :

« إن الاسلام رأى من الحكمة أن لا يبطل بتاتاً بعض العادات المكروهة مثل تعدد الزوجات لأنّ أمام إبطالها عقبات كثيرة تحول دون ذلك » .
وقال :

« إن دين الاسلام يكره الاستعباد والرق ويجفو الأسر ، وكأنه ينادي بأن عادة الإسترقاق من بقايا الهمجية . ولكن السياسة لم تكن في ذلك الوقت تقضي بمنعه بتاتاً » .
أجل ، إنه كان ثمة عقبات كثيرة أقلها أنه لو أمر الله سبحانه وتعالى بتأبيل تلك العادات السيئة دفعة واحدة لنفر الرجال من دين الله ولانفضوا من حول نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولما عمل بأمره تعالى إلا القليل .

إن النساء والعبيد كانوا في يد الرجال الأقوياء في الجاهلية مالا ومتاعاً يتصرفون بهم ويتمتعون كيف شاؤوا . والرجل المادي يتعلّق بمال الدنيا ومتاعها كما يتعلّق بروحه . وقد كان الرجل يملك أحياناً ، يقرب من مائة امرأة ، ويملك من الأرقاء بقدر ما تطول يده ، وكان هؤلاء يورثون ويورثون كالأمتعة والبهائم ، فكيف يسلم بتحريرهم وخروجهم من حوزته وبمساواتهم إياه في كل أمر بلا استثناء ما ، دفعة واحدة بلا تدرج .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ﴾ فكان من حكمته تعالى أن يزيل تلك العادات المكروهة تاركاً منها أثر قليل يلهو قلوب الرجال وتسكن اليه ، لنلا ينفروا من دينه ، بانقلاب تام يضر بمصالحهم الشخصية فينفضوا من حول نبيه .

وهل يمكن أن يتخذ من عدّة شهادتها نصف شهادته دليلاً على نقص عقلها ؟
إن كان الأمر كذلك ، فغير المسلم لم تكن شهادته على المسلم مقبولة . فهل يعدّ ذلك دليلاً على نقص عقله ، أم ناشئاً عن أحوال استثنائية اقتضاها ذلك الزمان ؟

وهل كان عدّة شهادتها نصف شهادته ، بالنظر الى النتيجة ، إلا لطفاً من الله بها اعتقده الرجل أنه امتياز له فسكن اليه قلبه ؟ إن الشهادة ليست إلا تكليفاً يتعب صاحبه ويخرجه . فكان الله أراد أن يطمئن قلب الرجل ويخفف عن المرأة من ذلك التكليف في وقت واحد . فكان مرمى هذا الأمر الفرقاني حمل الناس على استشهاد الرجال ما لم تكن أمور مختصة بالنساء فتكون حينئذ شهادتهنّ تامة .

ولاسبيل الى الظنّ أن الله اختار ذلك لنقص في عقل المرأة أو دينها فإن أكثر الخير أو الصلاح الروحي فيها ، وإن امرأة صالحة خير من ألف رجل غير صالح . ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن ، شهادتها في الحقيقة أصلح من شهادته ، وأوثق في كثير من الأحيان .

إن حكمته تعالى اقتضت أن تترك أثراً من العادات السيئة طمأنينة لقلوب أصحابها ، ولكنه سبحانه أنزل في كتابه من الحكمة آيات ، ورسوله صلى الله عليه وسلم أتانا في أحاديثه ببيّنات أزال المحاذير من بقاء ذلك الأثر ، مخففة وطأة شرهه ، ومحولة حالته المملولة ، الى حالة مقبولة ، وكان الله تعالى عليمًا بأن أولي الألباب يمحونه مع الزمان محوًا تبعاً للحكمة المكنونة في تلكم الآيات والأحاديث ، تلك الحكمة التي يعلم الله أنها لن تخفى عليهم . فكان تعالى بذلك مبيحاً استرقاق العبيد متشوقاً الى حرّيتهم ، وهكذا كان متشوقاً الى منع تعدّد الزوجات ، والى إزالة كلّ فرق في الحقوق بين المرأة والرجل ، وهذا من الأمور التي قال بها ذلك المحقق الكبير الشيخ محمد عبده .

وقال السيّد جميل بيهم صاحب كتاب (المرأة في التاريخ والشرائع) مانصّه :
« وقد استنتج بعضهم من هذه الأحكام عدم جواز تعدّد الزوجات لتعليق الإباحة على العدالة مع عدم إمكان العدل ، ولا غرابة في ذلك فطالما فسرت أقوال الشرائع حسب روح المدنيّات ، فكما أنّ المسيحيين قدروا أن يجدوا في دينهم ما يحظر تعدّد الزوجات وهو لم يتعرّض لذلك فالمسلمون يسهل عليهم إيجاد حكم يمنع التعدّد مراعاة لروح العالم عامة وتطوّر الحياة وترقي النساء » .

أجل إن ذلك أهون على المسلمين من إيجاد تلك الأحكام التي أباحها ، فيها ما حرّم الله مثل الفواحش ، والمسكر ، والرّبا ، ونصب التماثيل ، وتلك الأحكام التي منعوا فيها ما أمر الله مثل الحدود والرجم والقصاص وسائر العقوبات الشرعية . أجل إنهم على إيجاد تلك الأحكام سائرون .

ألا ترون أنّ الرق زال من بين الإسلام كما زال عند غيرهم ، ووضع العقاب لكل من يسترق رقيقاً ؟

ألا ترون أنّ تعدّد الزوجات أضحى عند المتنوّرين منّا أمراً إداً ، وأنّ دولة تركيا التي هي أعظم كتلة حرة مسلمة ، منعت تعدّد الزوجات ، مرتبة على ذلك عقاباً شديداً ؟
ألا ترون أنّ المسلمين ، بما سنّته خلفاؤهم وحكوماتهم من شرائع ، جعل بعضهم شهادة المرأة في العقوبات وفي الكثير من المعاملات كشهادة الرجل ، وجعل إرثها في الأراضي كإرثه ، وجعل الأتراك المسلمون شهادتها كشهادته في المعاملات كلّها ، وارثها كإرثه في الأموال والأموال كلّها ؟

إنّ الحكومات الاسلامية لم تخالف أمر الله وسنّة رسوله بما سنّته من الشرائع ماحيةً بذلك من بقية سبب العادات ذلك الأثر ، إنها أدركت الحكمة المكنونة في آيات الله وأحاديث رسوله

فأزالت الرق وكلّ فرق بين المرأة والرجل . إنها اتبعت الروح من الآيات والأحاديث لا ظاهرها ، وعلى الإسلام ، وكلّ ذي الأفهام أن يعتنوا بالروح لا بالظاهر إنّ هذا الموضوع لواسع جليل ، يقتضي الشرح الطويل ، للإقناع التام بالدليل ، بيد أن دائرة محاضراتي تضيق عن استيعابه . فسأضع إن شاء الله تعالى محاضرة مخصوصة به .

ومع ذلك أرى أنّ علينا أن نفطن منذ الآن للسبب الذي أبقى من تلك العادات السيئة أثراً أثار في المساواة المطلقة بين المرأة والرجل ، وبين الرجال أنفسهم من حرّ ورقيق . إلا أنّ السبب ، هو ظلم الرجل وقساوته ، وغوايته ، واستبداده ، وتغلب نفسه الأمارّة بالسوء ، على نفسه الناطقة المرضية . وذلك ما حمل الحكمة الإلهية ، على إباحة أمر مكروه ، ما كان تعالى ليعده عدلاً وحقاً .

ومن الآن يجب أيضاً أن نفطن الى أنّ السبب لاعلاقة له بعقل المرأة ودينها ، أو كان عدم مساواة الرقيق الضعيف ، بالحر ، القوي ، ناشئاً عن نقص في عقله ودينه ، ليكون عدم مساواة المرأة بالرجل في الأمور المذكورة ناشئاً عن نقص عقلها ودينها ؟ لو أراد الله تعالى الرق ، وتعدّد الزوجات ، وعدم المساواة بين المرأة والرجل ، لما وضع الله تعالى على الرجل تكاليف لها مثل مهرها ، ونفقتها ، ونفقة أولادها ، تعادل مانقص من ارثها وتزيد ، ولما وضع أحكاماً تنتج زوال الرق ، وأحكاماً تنتج اجتناب تعدّد الزوجات ، ولما فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناث على الذكور ، في كثير من الأمور . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ خَرَجَ إِلَى سَوْقٍ مِنْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، فَاشْتَرَى شَيْئاً فَحَمَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ فَخَصَّ بِهِ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَورِ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ . وَمَنْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ» . وقال صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَمَلَ طَرِيقَةً مِنَ السُّوقِ إِلَى عِيَالِهِ فَكَأَنَّمَا حَمَلَ إِلَيْهِمْ صَدَقَةً حَتَّى يَضَعَهَا فِيهِمْ . وَلْيَبْدَأْ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذَّكَورِ ، فَإِنَّ مَنْ فَرَحَ أَنْثَى فَكَأَنَّمَا بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَنْ يَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ بَدَنَهُ عَلَى النَّارِ» .

فلو كانت الإناث ناقصات العقل والدين ، لما استحققن تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهن على الذكور . جلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضل قلة العقل ، على العقل ، وقلة الدين ، على الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم : «إِتَّقُوا اللَّهَ فِي الضَّعِيفِينَ الْمَرَأَةِ وَالرَّقِيقِ» . ويجب أن نقف بخضوع خشوع ، موجّهين وجوهنا الى القبلة ، لنسمع آخر وصيّة منه صلى الله عليه وسلم في فراش موته ، قالها وفي قلبه النبوي حسرة ، لأنه لم يكمل إزالة الفروق

بين الحرّ والرقيق ، والرجل والمرأة ، إكمالاً تاماً . قالها حتى تلجلج لسانه ، وانقطع كلامه .
قال : « الصَّلَاةُ . الصَّلَاةُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... لَا تَكْلَفُوهُمْ مَالًا يُطِيقُونَ ... اللَّهُ اللَّهُ . فِي
النِّسَاءِ ... إِنَّهُنَّ عَوَانٌ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ... أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ » .
قال هذا وفاضت روحه الطاهرة .

السلام عليك يا رسول الله . السلام عليك يا حبيب الله . السلام عليك يا سيّد الأولين
والآخرين . سلام عليك ، يوم وُلدت ، ويوم متّ ، ويوم تُبعث حيّاً .

بقية آيات الله وأحاديث رسوله في كمال عقل المرأة

هذا ما أذكر من جهة العقل وفيه كثير من النقل . وأما من جهة النقل فلا معرّف لعقل المرأة
أصدق من كتاب الله جلّ جلاله . العلم السرمدي ، الذي خلقها والرجل من روح واحدة ، وسأوى
بينهما في العقل ليعقلا آياته ويتدبّراها ، ويتذكّراها ، ويعرفا محلاته ومحرماته .
قال الله في كتابه العزيز ، الآية الأولى من سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .
فيا سيدي الرجل ، خلقت والمرأة من نفس واحدة ، أي من روح واحدة ، فكيف تدّعي أنّك
تفضلّها عقلاً ؟

إنّ الله سبحانه وتعالى كلف المرأة كما كلف الرجل ، وهل يكلف إلا العاقل ؟
إنه تعالى خاطب أولي الألباب ومن يعقلون . فلو كان قصده من أولي الألباب وممن
يعقلون ، الرجل دون المرأة ، لسقطت حجّته تعالى عليها ، وقامت حجّتها عليه ، عز وجلّ ،
ولانحصر التكليف والثواب والعقاب في الرجل وحده .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :
« لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ اسْتَنْطَقَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ ، ثُمَّ قَالَ :
وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، مَا خَلَقْتُ خَلْقًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ . وَلَا أَكْمَلْتُكَ إِلَّا فِي مَنْ أَحَبُّ . أَمَا إِنِّي إِيَّاكَ
أَمَرُ وَإِيَّاكَ أَعَاقِبُ وَإِيَّاكَ أُثِيبُ » .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ : النِّسَاءُ ، وَالطَّيِّبُ ، وَقُرَّةُ عَيْنِي
فِي الصَّلَاةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلّم : « مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ حُبُّ النِّسَاءِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْعَبْدُ كُلَّمَا ازْدَادَ لِلنِّسَاءِ حُبًّا ازْدَادَ فِي الْإِيمَانِ فَضْلًا » .
فكيف يجوز للرجل أن يتصور الله يحرم النساء كمال العقل ، والعقل موضع أمر الله ،
ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ؟

بل كيف يجوز له أن يتصور أن الله لم يعطهن أصلح العقل وأكمله ، وهن أحب ما في الدنيا
إلى رسوله وحبيبه صلى الله عليه وسلم ، وحبهن من أخلاق أنبيائه ويزيد في الإيمان فضلاً ؟
إنه لا يوافق عدل الله وهو العدل كله أن يعاقب المرأة ويثيبها ، مثلما يعاقب الرجل
ويثيبه ، ما لم يكن مكملًا عقلها إكمالاً .

وقد قال سبحانه وتعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وقال : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا
بغیر حسابٍ » .

وقال عز وجل ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .
وقال سبحانه وتعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴾ .

فهل أراد الله أن لا يعقل آياته إلا الرجال ؟
وقال جل وعلا : ﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ .
وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فهل ترك الله ، جلّت حكمته ، هذه الآية البينة بإنزال الرجز من السماء على فسق ،
ليعقلها الرجال دون النساء ؟ ألا يجب على النساء أن يعقلنها ؟ وكيف يعقلنها ما لم يكن كاملات
العقول ؟

وقال تبارك وتعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُذَكِّرَ بِهِ آيَاتِهِ وَلِتُذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .
فهل حرّم الله جلّ جلاله المرأة أن تدبر آياته وتذكر ؟ وكيف تتدبر أو تتذكر إن لم تكن
من أولي الألباب ؟

وقال قدس اسمه : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴾ .

فهل خاطب الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الرجل وحده ؟ أولا يجب على المرأة أن تعقل أن الدار الآخرة خير لها فتتقي ؟

وقال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ تَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ. ذَلِكَ أَوْصِيَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . أفلم يرد الله جلّ جلاله أن تعقل المرأة ما حرم عليها ؟

وقال عزّ وتمجّد وتعالى : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ . كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ . وقال سبحانه : ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ . أولم يرد جلّ جلاله أن تتذكر المرأة كما يتذكر الرجل آياته لتثبت إيمانها وتحذر الآخرة وترجو رحمة ربّها ؟

وقال جلّ جلاله : ﴿بَشِّرْ عِبَادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ. أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ .

أفلم يجعل الله المرأة من أولي الأبواب لتهدي ، وتتبع أحسن الأقوال ؟ إنها لو لم يجعلها الله من أولي الأبواب لسقطت حجته عليها إن لم تستمع القول وتتبع أحسنه فتهدى . وقال جلّ علاه : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

فهل يظنّ الرجل أن الله تنزهه وتعالى جعل المرأة المسلمة ممّن كفروا حتى ألقى النقاب على وجهها لتعمى ، ومنعها من الكلام لتبكم وأسند الى عقلها النقص ليصمّ ؟

ساء ظنّ الرجل . فإنّ الله لم يفرّق المرأة بالعقل عنه ، كما أنه لم يفرّقها عنه بالشواب والعقاب . بل ربّما رجّحها بالعقل والحكمة بقوله تعالى : ﴿مَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ولقول رسوله صلى الله عليه وسلم (أَكْثَرُ الْخَيْرِ فِي النِّسَاءِ) .

ياسيدي الرجل قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

وجاء في الحديث القدسي : ﴿إِذَا أَحْبَبْتُ عَبْدِي كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَكُنْتُ بَصَرَهُ الَّذِي يَرَى بِهِ، وَكُنْتُ عَقْلَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يُحِبُّهُ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ، وَلَا يَعْقِلُ إِلَّا مَا يُحِبُّهُ. وَيَكُونُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَلِكَ لَهُ يَدٌ مُؤَيَّدَةٌ، وَعَوْنٌ وَوَكِيلٌ، يَحْمِي سَمْعَهُ، وَبَصَرَهُ، وَيَدَهُ، وَرَجْلَهُ، مِمَّا لَا يَرْضَاهُ﴾ .

فإذا قالت المرأة لربها يوم حشرها ، إنك جئت قدرتك ، جعلت لي قوى السمع ، والبصر ،
والفؤاد ، وإننا لك ممن يشكرون . ثم وعدت في الحديث القدسي بحماية سمعي ، وبصري ،
ويدي ، ورجلي مما لا أرضاه ، أما الرجل فقد اعتدى عليّ وسلبنى تلك القوى . فيا سيدي
الرجل ، ماذا يكون يوم حشرك وحسابك ، جوابك لإلهك ؟

وقال جلّ علمه وتعالى حكمته : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نَتَّبِعُ مَا أَفِينَا
عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ .

أفلم يحسب الله سبحانه وتعالى النساء عاقلات كالرجال ليُتبعن ما أنزل الله ، ولا يتبعن
ما ألين عليه آباءهن ، إذا كانوا لا يعقلون ؟

جئت حكمتك يا إلهي ! ألا فليفقه كل من يعارض التجدد في الإسلام هذه الآية . وليرجع الى
كتاب الله . فكل ما لا يمكن رده اليه فهو زخرف . ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .
يا سيدي الرجل ، ترى أنك خلقت والمرأة من روح واحدة . فعلام تدعي أنك أكمل منها في
الفطرة عقلاً ؟

ألا تعلم يا سيدي الرجل أن الله تعالى يكلف المرأة التكاليف الشرعية في السنة التاسعة من
عمرها ، مع أنه تعالى لا يكلف الرجل تلك التكاليف إلا في السنة الثانية عشرة هذا إذا بلغ ؟
أفما يدل ذلك على أن المرأة يكمل عقلها قبل أن يكمل عقل الرجل ؟

هذه هي براهيني على كمال عقل المرأة ودينها . فهااتوا براهينكم على نقصها .
أما الآن فأذنوا لي في أن أبحث في أدلة العقل ، وفي أدلة الدين لأثبت قضيتي .

للمسلمة ما للمسلم في ادراك الحق وبيانها

أيها السادة والسيدات .

ومما قال سادتي الرجال : النساء عيَّات ، عليهن أن يسترن عيَّهن بسكوتهن .
قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ يَرَى الْحَقَّ وَيَسْكُتُ عَنْهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ
أَخْرَسٌ» - ، أفلا تسمحون لي بأن أتبع سنن الرسول وأن لا أسكت عن حق أراه ؟ وهل
يضيركم أن تتروا عيَّ بناتكم يزول بالحرية ، وأن تسمعهن ناطقات بالحق ، والخير ، لهن ،
وللأمة ؟

وقالوا : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) وليس عليهنّ إلا خدمتهنّ ، والصلاة في بيوتهنّ ، وأما ما عدا ذلك من أمور الدين اللازمة لهنّ ، مثل الحجاب ، والقرّ في البيوت ، وستر الوجوه ، وأسباب ذلك ، وحكمته فنحن نفهم ونخبرهنّ .

قلت : أشكر لكم فضلاً اكتسبت منه علماً ، ولن أقصّر في تأدية فروضي وخدمة أهلي وإسعادهم ، ولكنّ الفقهاء عرفوا الدين أنه وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة بإختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات .

وقالوا : لا يجوز شرعاً للإنسان أن يقلّد غيره في المعتقدات ، بل يجب عليه نفسه أن يعمل النظر والفكر لمعرفة الحقيقة ، ولا يبدّل للإنسان في كفاية الإيمان من الدليل .

وقال الشيخ جمال الدين الأفغاني رحمه الله تعالى : (وإنّ معتقداً لاحت العقيدة في مخيلته بلا دليل ولا حاجة ، قد لا يكون موقناً ، فلا يكون مؤمناً) .

وقال سيّدي محيي الدين العربي : (والتقليد في دين الله لا يجوز عندنا وما أوجب الله علينا الأخذ بقول أحد ، غير رسول الله صلى الله عليه وسلّم) .

وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ .

فبناءً عليه ، أرجو منكم أن لاتمنعوا المرأة المسلمة كفاية الإيمان . ولاتمنعوها أن تعقل آيات الله وأحاديث رسوله وتتفكر فيها . وأن تسعى لنور الآخرة ، كما تمنعوها أن تسعى لنور الدنيا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «تفكّر ساعة خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً» .

ياسيدي الرجل ، إنّ الله سبحانه وتعالى ، أمر المرأة كما أمرك ، بتعقل آياته والتفكر فيها . وقد حصرت فيك ذلك عصوراً طويلاً ، نهاراً وإيّاه ، سامحك الله ، التعقل ، والتفكر ، أمّا اليوم فترى أنّ دورها قد جاء ، بعد ما انبثق من علمها فجر حرية وضاء ، وستصدع بما أمرت متعقّلة آيات الله ، وأحاديث رسوله ، متفكرة فيها وسيحكم أولو الأبواب فيما أيهما (خير وأحسن تأويلاً) .

القسم الثاني

في

الأدلة العقلية

في السفور وتحرير المرأة والتجدد الاجتماعي

ويتخللها أدلة دينية لأن العقل والدين
متآزران متضامنان في الحق لا يفترقان

نظرتان

نظرة الى العالم السافر ونظرة الى العالم المحجب

أيها السادة والسيدات :

قابلت في أول الأمر بين عدد أنصار الحجاب ، وعدد أنصار السفور ، فرأيت أن أهل الحجاب لا يجاوزون عدة ملايين من الاسلام يسكنون المدن ، وأن العالم الاسلامي في القرى ، وأكثر من ألف وسبعمائة مليون من الأمم الأخرى ، كلهم من أهل السفور ، وقد نبذوا الحجاب الذي كانوا أنصاره من قبل ، ورأيت أن الأمم التي نبذت الحجاب . أمم راقية في العقل والمادة ، رقياً ليس للأمم المتحجبة مثله . فالأمم السافرة هي التي اكتشفت بالبحث والتنقيب أسرار الطبيعة ، وسخرت لإرادتها العناصر ، كما تعلمون وتشهدون . أما الأمم المتحجبة فلم تكتشف سرها ، ولم تسخر لإرادتها عنصراً ، وإنما هي تتغنى بمجد مضي ، وتقليد لها قديم ، مستنمة بذاك الفناء على الجمود .

ورأيت كثيراً من مفكري الأمم التي لاتزال نساؤها محجبات ، يطالبون بالسفور ، ولم أر واحداً من الأمم السافرة نساؤها ، يطالب بالحجاب أو يؤثره ، عنيت أنني لم أر أحداً جرب السفور ، ثم أثر الحجاب ، حتى إذا زينه لنا غربي بكلامه الريائي ، فهو إنما يريد أن يسر بمنظر النقاب الشرقي الخلاب ، وإننا نراه يرفض في الوقت نفسه أن تتحجب أمه وزوجته وأخواته وبناته لما في الحجاب من الضرر الذي قد يريده لغيره .

تأملت فلم أستطع التصور أن هذه الأمم الراقية التي كشفت أسرار الطبيعة ، وسخرت قواها ، والتي لم تترك أمراً يمر إلا قتلتته بحثاً وتنقيباً ، والتي استمرّ الجهاد فيها بين الحق والباطل ، وبين الحقائق والأوهام ، حتى كانت الغلبة عندها للحق ، تلك الأمم التي نرى آثارها المكتوبة ، وموضوعاتها الاجتماعية ، آية في الأدب والاجتماع ، تأملت وتأملت ، فلم أستطع التصور ، أن تلك الأمم أغفلت درس هذه العادة ، وأهملت البحث عنها ، لمعرفة منافعها

ومضارها ، بل لم أستطع التصوّر أنّ الجهل عندنا ، أدعى الى معرفة أسباب الشرف من العلم عندهم ، وأنّ آدابنا أسمى من آدابهم ، وإنّ خروج نسائهم سوافر متمتعات بالحرية دليل على انحطاط آدابهم وفساد أخلاقهم .

أجل ، تأملت في كلّ هذا ، فلا يسعني إلا أن أعده دليلاً على علو تربيتهم ، وسمو آدابهم ، يثبت ذلك ، أن فضليات نساينا اللواتي يتحجبن بيننا ، لاتنزل إحداهنّ بلاد الغرب ، إلا أماطت النقاب ، وأطرح الحجاب ، لاتمنعها محارمها من ذلك ، كما منعتها وهي بيننا ، وكما تمنعها بعد أن تعود اليها ، وليس هذا إلا لأنّ ثقتنا بآداب الغربيين أثبت من ثقتنا بآدابنا ، أولئك أدبهم اختلاط بالنساء ، وهم يبنون عاداتهم وأخلاقهم على المنطق والعقل ، ناظرين الى النفع وحسن النتائج ، ونحن نبني آدابنا وأخلاقنا على عاداتنا ، كيف كانت مقدّماتها ونتائجها .

لأنسى أبداً ماجرى بين شرقي يدعو الى الحجاب وغربية سافرة تملك حرّيتها واستقلالها . إذ قال الشرقي للغربية : « إنّ طبيعتنا لاتستطيع أن تقبل عاداتكم . فعاداتنا أشرف من عاداتكم ، وإنّ الرجال عندنا (قوامون على النساء) فالرجل يمشي بالطبع ، وبمقتضى هذا الحق ، أمام زوجته ، أمّا عندكم فالمرأة تمشي قبل الرجل كأنها قوامة عليه » .

فقالت الغربية : « إذا أردت أن تكون حقاً قوامة على زوجتك ، فأرجو منك أن تجعلها أمامك ، لتراها عينك ، كما يجعل رجالنا نساءهم أمامهم ، وأن لاتضعها وراء ظهرك ، لئلا تسيء هي حرّيتها أو يساء اليها » .

فسكت الشرقي وقال : الحق أن الغربيين يبنون عاداتهم على العقل ويجب أن يكون العقل وحده قائد العادة .

بناءً عليه ، وحرصاً على آدابنا ، وحفظاً لكرامتنا ، لايجوز أن نسند التبذل الى أكثر من مليار ونصف من الناس أكثرهم أرقى منا ، ونحصر الشرف بيننا ، ونحتكره لنفوسنا ، وما نحن إلاعدة ملايين أكثرنا قاصر متأخر فيرقية .

عار علينا أن ننكر نقائصنا ونظنّ في أنفسنا الكمال ، وندّعي أنّ عاداتنا أحسن العادات في كلّ زمان ومكان ، فقد يقوم هذا الغرور والظن الباطل حاجزاً بيننا وبين الإصلاح الذي نريد . فإنّ شعور الأمة بنقصها ، يعدّ أول خطوة في سبيل رقيها .

لايجوز لنا أن ندّعي ، أننا حماة الشرف ، وأن غطاء الوجه حرزه المنيع ، بل يجب أن نعرف مثلما عرف الناس ، أنّ الشرف متأصل في القلب ، وأنّ العقّة أدب في النفس ، لا في قطعة نسيج شفاف تسدل على الوجه .

يجب أن نعلم كما يعلم العالم السافر الراقى أن الأدب الصحيح ، والشرف المصون ، هما

في التربية الصالحة المؤسسة على المبادئ السامية ، ومناهج الفضيلة . وإنّا لقاصرون إذا
حسبنا أنّ غطاء الوجه يبعد الشرّ عن النساء ، وأنّ تلك الملايين المنتشرة في العالم ، وتزيد
على ألف وخمسمائة مليون ، كلّها في ضلال ، ونحن على هدى .

* * *

المفتري المزور على الناس انما حجته لهم عليه

ذكرت ماذكرت ، ياسيداتي وسادتي ، وأنا أخشى أن أصادف مناظراً لايعتمد العقل
والمنطق للإقناع ، ولكنه يجعل حجّته أخباراً ملفّقة عن تلك الأمم الراقية السافرة . إنه قد يرى
هناك مواطن الرذيلة ولكنه لا يريد أن يعلو الى مواطن الفضيلة ليراها ، قد يكون أنه رأى
السافلات منهنّ ، فحاول أن يجعل العيب منهنّ شاملاً النبيلات الشريفات ، فيرشقهنّ بسهام من
الأفك والمطاعن ، مع أنه لايليق بالإنسان أن يكون كالذباب ، يترك الرؤوس ، ويقع على
الأذنان .

هو لايجرؤ أن يفاخر الأمم السافرة في المعارف العلمية والصناعية إذ أنّ آثارها محسوسة ،
فيرميهم بنقص الأخلاق والآداب ، لأنّ ذلك معنوي وخفي غير محسوس تكمن المكابرة فيه مهما
كان الإدّعاء باطلاً .

أيها السادة ، تعلمون أنّ الأمم كالأشجار يسقط من ثمارها ماكان خبيثاً فاسداً ، فتتناوله
الحشرات من الانسان والحيوان ، وان العاقل الراقى لاينظر من الثمار إلّا ما طاب وصلاح . تلك
هي الثمار التي منها تعرف الشجرة .

أمّا مناظري فكأنّي به يجهل أو يتجاهل ذلك . يريد أن يعرف الشجرة ممّا يرى تحتها من
ثمرات ساقطة . وبوجه من البيان آخر ، لايريد أن يعرف أنّ في كلّ أمة ، مهما علا شأنها ،
طبقة منحطة استولى عليها الفساد ، فسفلت آدابها وأخلاقها ، إذ لم يتيسّر لها العلم والتكمّل ،
لتثبت في مستوى الأمة .

فأرى من الواجب علينا أيّها السادة أن نسعى خير مسعى لنجعل الأكثرية في أمّتنا ممّن
تيسّر لهم العلم والتكمّل ، فيجوز لنا حينئذٍ أن نفاخر غيرنا من الأمم .

لايمكن ياسادتي إحصاء ما يحدث في الخفاء ، وإنه لعارٌ على من يعمل مثل هذا الإحصاء ،
وعار على من ينقله ، وإنّما يحصي ما يظهر من الجرائم والمنكرات ، فهي ميزان الأخلاق ،
ومقياس انحطاطها . هذه السجون في بلدان الأمم المحجّبة غاصة بالمجرمين ، وهذه سجون

سويسرا السافرة فكانها خالية ، هذه احصاءاتنا ، وهذه إحصاءاتهم ، فلننظر الى هذه الإحصاءات الفعلية لا الى الروايات المزورة .

ألم يكتب المؤرخون أخبار زور في تاريخهم ؟ أو لم يخترع بعض المسلمين أحاديث كثيرة وضعوها لغاياتهم الخاصة كما هو ثابت ومعلوم : حتى أن حجة الإسلام الإمام الغزالي . أرى ابنه على مايروي سبعين ألف حديث وقال له : يا بني إن هذه الأحاديث كلها موضوعة ، زورها بعض الناس على النبي وهو براء منها .

وقد رأيت في كتاب القضاء من كتاب الوسائل حديثاً للإمام علي رضي الله عنه . ألخصه بما يأتي : سأل سليم بن قيس الهلالي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قائلاً : رأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ، وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أنتم تخالفونهم فيها ، افتري الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويفسرون القرآن بآرائهم ؟ فأجابه رضي الله عنه : أن في أيدي الناس حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وحفظاً ووهماً ، وناسخاً ، ومنسوخاً ، ومحكماً ومتشابهاً . وقد كُذِبَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده ، حتى قام خطيباً وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكَذَابَةُ ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » . ثم كُذِبَ عليه من بعده . الى نهاية الحديث ومافيه من التفصيل .

فحتى نصدق كل خبر ، فنأخذ من الباطل دليلاً وحجة ، ولا سيما حجة يعود على الأمة منها شرٌ عظيم ، هو القعود عن الإصلاح والبقاء في انحطاط دائم . ألا يجب علينا أن ننبد فروع الإقناع بالأكف والكذب والتزوير والإفتراء ، وهي أمور تدمي لها مهجة الأدب . ولا تعود على قائلها إلا بالخيبة والخسران ، وهي شاذة عن أصول المناظرة ؟ بلى ، وليقم مقامها الإقناع الحق ، عن طريق الصدق ، والعقل السليم ، والعلم المنزه ، والأدب الصحيح ، وفقاً لإرادته تعالى ، وإرادة نبيه صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَحَرُّوا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ الْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ . وَتَجَنَّبُوا الْكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ النَّجَاةَ ، فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدَاً هُوَ لَكَ بِمِ مُصَدِّقٍ وَأَنْتَ لَهُ بِمِ كَاذِبٌ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَلَيْهِ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » .

كيف ينبغي للرجال أن يكونوا قوامين على النساء

لقد سمعتم ياسادتي جواب الغربية للشرقي عندما افتخر بأنه قوام على زوجته يمشي أمامها - أجل ، ليكن الرجال قوامين على النساء في الروح ، وكلّ منهم قواماً ولكن على زوجته التي ينفق عليها . ولا يدّ له على غيرها فإن الآية إنّما نزلت في سعد ، الربيع من النقباء وفي زوجته حبيبة . وعباراتها مختصة بالزوج والزوجة ، وعلى كلّ حال فليعلم الرجال أن الولاية مقيدة بالمصلحة فيستكملوا أسباب تكملهنّ تكملاً أخلاقياً سامياً ، كما يريد الله وكما تقتضي سنة الاجتماع ، تكملاً يجعلهنّ قويات ، يعتمدن على أنفسهنّ ، فإنّ النفوس إذا اشربت مبادئ الفضيلة والعزة ، والشرف ، ابتعدت عن الشرّ ، لارهوة من عقاب ، ولارغبة في ثواب ، ولالمانع لاتستطاع إزالته ، بل لأن الشرّ قبيح ولأنّ النفس الكبيرة تأبى الدنيئة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .
فهل كانت مكارم الأخلاق إلّا من شيم الروح ؟ إن قطع النسيج على الوجوه لن تكون للأخلاق ميزاناً .

النقاب اهانة للمرأة والرجل

وليس ينفع الرجال والنساء ، أن يكون الرجال قوامين جسماً ومادة فقط ، وأن يعمّم الرجال ولايتهنّ على من لم يعطهم الشرع حق الولاية عليهنّ ، بل يضرّ الجنسين أي ضرر ، أن يحقّر كلّ رجل أمّه ، وابنته ، وزوجته ، وأخته ، بسوء ظنه المستمره ، يسند اليهنّ فساد الأخلاق ، ويحبسهنّ كما قال المصلح الكبير قاسم أمين في قفص مقصوصات الجناح ، مطاطات الرؤوس ، مغمضات العيون ، له الحرية ولهّن الرق ، له العلم ولهّن الجهل ، له العقل ولهّن النقص فيه ، له الضياء والقضاء ولهّن الظلمة والسجن ، له الأمر ، والنهي ، ولهّن الطاعة والصبر ، له كلّ شيء في الوجود ، وهنّ بعض ذلك الكلّ الذي استولى عليه .
رحم الله قاسماً ، وبارك الله في قلمه الذي قال فيه شاعر القطرين :

يدك القبيح ويبني المليح رجوعاً الى سنة الراسم
يشمعشع نوراً إذا ما انبرى يسيل بماء الدجى الفاحم

إذا كان في الحجاب وبالأسف إشارة الى عجز المرأة عن صون نفسها بدونه ، ففيه إشارة أخرى الى أن الرجل ، مهما علا أدبه ، ومع أنه قوام ، خائن ، سارق للأعراض ، لا يجوز أن يؤمن شره ، بل يجدر بالمرأة أن تهرب منه هرباً .

ياسيدي الرجل القوام :

إذا كان بعض النساء لجهلهن الذي ألقيتهن فيه ، لم يدركن مافي الحجاب من مهانة لهن وللرجال ، أفيهن عليك ، وأنت الرجل الذي ترك نفسه حراً يتمشى في سبيل الكمال والأدب ، أن تتحمل هذه المهانة التي تنالك من جهة ، وتنال أمك ، وابنتك ، وزوجتك ، وأختك من جهة أخرى ؟ أصحيح أن هرب المرأة منك ، أو مجابتهها إياك بسدل النقاب على وجهها ، وتحويلها ظهرها اليك ، عمل مثبت علو قدرك ، كما تظن هي وتقول ، وتزعم أنت وتقول ، أم أن ذلك مهانة فاضحة ؟ أهذا هو أدب النفس وحشمتها وحيائها ؟ إذا كان هذا حقاً ، فينبغي لأنفس الرجال أن لا تتجرد عن هذه الصفات النفسية ، فليلبسوا النقاب ، وليجابها بعضاً ، وليجابها النساء بسدلها كما تفعل النساء .

لماذا سمي النقاب ذنباً ؟

كيف يستطيع لرجل أن يكون قواماً على المرأة ، وهو يحجب وجهها بحجاب يمنعه هو نفسه من معرفتها خارج بيتها ، ولا سيما إذا لبست ملاءة غير التي يعرفها رجلها ؟ كيف يكون قواماً عليها ، وقد حُرّم عليه الدخول الى كل مكان تكون فيه إذا قيل له أن معها نساء محجّبات ، وقد تكون أولئك النساء المحجّبات رجالاً ، وقد تكون أولئك النساء المحجّبات حيات وأفاعي تنفث سمّاً في قلب المرأة التي يفتخر الرجل أنه قوام عليها ، فيميت فيها عفتها وكبر نفسها وفضيلتها ؟

كيف يكون الرجل قواماً على المرأة ، وهو سافر الوجه معروف كيفما سار ، تسهل عليها مراقبته ، أمّا هي فمنقبة بنقاب لا يخترقه نظره فيصعب عليه أن يراقبها ، بل لا يستطيع الى ذلك سبيلاً . إذ أن الملاءة تتغير فليست بصفة ثابتة للمرأة حتى يعرفها بها ؟

وعلى هذه الصورة . لا يكون قواماً عليها ، بل هي قوامة عليه . وإن لنا مثلاً ما يحدث في المرافق والألعاب والمراقص المقنعة ، حيث يتقنع الرجال والنساء ، ويخلع بعضهم عذار الحياء ، فقد تمثل فصول يندى لها جبين الأبي خجلاً ، وترتجف النفوس الشريفة تأثراً ، هناك الرجال مقنعون ، والنساء مقنعات ، والقناع يسمى ذنباً ، فقد يختل عامل الحياء الى حد أن تبدر حتى من الأب أو من الأخ بادرة خفة نحو ابنته ، أو نحو أخته ، أو من هاتين نحو هاذين ، ثم ينكشف الغطاء ، وتعرف الوجوه!!! أقول هذا ولا أزيد!!

إن المدققين في أحوال الاجتماع ، ذكروا لنا منشأ الألعاب المقنعة وسبب تسميتهم القناع فيها بالذنب ، هو أنه منذ أكثر من ألف سنة دعا أحد الأمراء في بلاد الغرب ، رهطاً من أكابر الرجال والنساء ، واخترع لهم لعبة الذئاب مشخصة بالرجال ، والنعاج مشخصة بالنساء ، يلعبها الفريقان في غابات حدائقه الغضة - فتتكرر الذئاب بالقناع لئلا تعرفهم النعاج أنهم ذئاب ، وتتكبر النعاج بالقناع لئلا تعرفها الذئاب أنهن نعاج ، وكان الأمير بين الذئاب ذنباً ، ولكن لم يمنعه القناع من معرفة النعاج - ثم انتقلت تلك اللعبة المقنعة في الغابة الى لعبات مقنعة في المسارح والمراقص ، وسمي القناع بالذنب إشارة ورمزاً .

* * *

رد على أمير الشعراء

إنني أراكم ، ياسيّداتي وسادتي ، تنفرون من هذه اللعبة المقنعة نفوراً . نعم ياسيّداتي وسادتي ، يجب أن تنفروا من اللعبة المقنعة ، يجب أن تنفروا من القناع .
قال أمير الشعراء :

إن السفور كرامةً ويسارةٌ لولا وحوشٌ في الرجال ضواري

نعم أيها الأمير ، إن السفور كرامة ويسارة ، ولكن القناع لم يمنع أن يكون في الرجال وحوشٌ ضواري ، بل إن القناع كان عوناً لذاك الوحش الضاري ، أو لذاك الذئب ، ولولاه لكان حال النعجة أبعد منه عن الشر ، وأقرب لسلامة الشرف من الأذى .

ولكن ياسادتي وسيّداتي ، وياإخواني شباب المسلمين ، أما حان لنا أن نجلو هذه الوصمة السوداء التي لم يكتبها علينا غيرنا فحسب ، بل سجلها أيضاً علمٌ من أعلامنا هو أمير الشعراء .

إنّ الغرب في عصر النور هذا ، روض الأسود والفهود ، والذئاب والضباع ، وكلّ نوع من الوحوش الضواري ، وقد رأينا بأمّ العين فتيات يرضنها ويدسن رؤوسها دوساً ، وهي تنظر اليهنّ صاغرة ذليلة نظرة الدنيء للشريف . أفليس لنا من ذلك عبرة ؟

أيّها الأمير ، أشكر لك دفاعك عن النساء ، وإلقاؤك التبعة كلّ التبعة على الرجال ، ولكن أيّها الأمير ألا ترى ألوفاً من الفتيات والسيدات السافرات اللواتي يشبهن البدور يمرحن في الطرقات والمنتزهات أمام رجالنا ، ساعيات الى عملهنّ أو كسب رزقهنّ الحلال أو لتنزيه قلوبهنّ ، وفيهنّ متبرّجات كاشفات الرؤوس وأعالى الصدور والأعضاء ؟ فهل رأيت مع ذلك بين رجالنا وحشاً ضارياً حسب إحداهنّ فريسة له فأنقضّ عليها ؟

فلماذا تخاف منهم على المسلمات إذا كشفن وجوهنّ ، واجتنبن كشف غيرها ، محافظات على الرصانة ، وهنّ غير متبرّجات ؟ أنت ترى أنّ غير المسلمات مصونات من كلّ تعدّ ، مصونات بالقانون ، بأنفسهنّ وبرجالهنّ وبما في رجالنا عامة من المروءة والأدب . أفلا تصان المسلمات إذا سفرن صون غيرهنّ ؟ هل يحتاج المسلم في صون محارمه الى قطعة من نسيج يلعب بها الهواء ؟ وهل تحتاج المسلمة في صون نفسها الى تلك القطعة من النسيج ؟ ألم تلاحظ أيّها الأمير أنّ كل رجل فينا ، لأقول فقط في الطبقة العليا ، بل في العامة أيضاً - كل رجل فينا ، يحني رأسه ، ويخفض جبينه ، لأولئك الفتيات والسيدات السافرات ، ولا يخاطبهنّ إلا بكل لطف وأدب ووقار على ما رأيت في حكيم شعرك :

واخفض جبينك هيبَةً للخرَد المتحضّرات ؟

ألا ترى أنه يعني في كلمة « مدام » أو كلمة « مدموازيل » حين يخاطبهنّ بكل معاني الاحترام اللائق بالحرائر ، ثمّ ألا ترى الرجل مثلاً ، إن لم يكن قد تجدد ، يعني في كلمة « وليّ » التي يخاطب بها ابنته ، واخته ، وزوجته المحجّبات ، كلّ معاني الإمتهان التي لا ترضى عنه الإماء ؟ ولهنّ نعمة كبرى أنه ترك في الأيام الأخيرة القابهنّ المعهودة « أجلك مرتي ، أجلك بنتي ، أجلك أختي » ؟

ثمّ ألا ترى أنه لم ير نقاباً على وجه محجّبة ، ولا سيما إذا كان مرفوعاً فسدل ، أو كان ناعماً شفافاً ، إلا حدّقت عيناه اليهنّ بجبين لم يخفض ؟ . . ولا أزيد بياناً ، فيما يحسن بي السكوت عنه .

إذن أيّها الأمير ، ليس الرجل فينا الوحش الضاري ، ليس هو الذئب ، إنّما الذئب كما ذكرت في حكايتي لعبة الذئاب والنعاج ، إنّما هو النقاب المسمّى ذئباً هو الذي افترس كرامة الرجل ، وكرامة المرأة ، بما يعني من الحقارة . وهو الذي قد يفترس العرضين عرض

الرجل وعرض المرأة . وهو الذي قد يجعل المرأة تحسب نفسها كالنعجة رهينة افتراس الذئب حين يلتقيان ، فتصغر له نفسها ، وتهن إرادتها فتهون . أما تلك السافرة ، فقد راضت الذئاب والسباع ، وداست رؤوسهم دوساً ، وأثبتت لنا أن أقوى الفتيات على السباع أكثرهن رؤية لها .

تأثير النساء في المجتمع بقدر ظهورهن فيه

فهل تظنون ياسادتي أن في رجالنا وحوشاً ضواري امتنع ترويضها أكثر من تلك ؟ جربوا ياسادتي جربوا ، ادخلوا سيّدة سافرة جليلة على السكارى يصيحوا ، ادخلوها على غوغاء الناس يصلحوا ، ادخلوها على مجلس في فوضى ينتظم ، ادخلوها على لسان بذي ينصرم ، اشركوها في أعمالكم ومجالسكم وأنديتكم يسد فيها الصلاح ، والنظام ، والأدب ، والوقار . راجعوا ياسادتي البحث الذي بيّنت فيه أن النصر في الجهاد الأكبر لا يتم إلا بمعاونة روح المرأة . واليكم مقاله جهبذان في علمي الاجتماع والسياسة ، مستنديين فيهما الى التجارب الفعلية . أذكر ذلك لإثبات مزايا المرأة ، وفوائدها في إصلاح الهيئة الاجتماعية . لا في معرض المطالبة الآن باشراكها في الوظائف العامة .

نشر القاضي الأميركي جون لينجمن مقالة ضافية في أهم جرائد أوربا ، بحث الأمم فيها على إشراك النساء في الوظائف العمومية . ومما جاء فيها : إن انتشار الفسق في المدن الكبيرة لا يضيق نطاقه ، وفساد الأخلاق السياسي لا يصلح ، إلا إذا اشتركت النساء في الوظائف العمومية . الى أن قال : كان المحلفون يحكمون في الغالب ببراءة الجناة ، فلما اشترك النساء والرجال في الوظائف القضائية ، نتج عن ذلك معاقبة المذنبين . وكذلك كان المحلفون لايهتمون بالعقوبة على السكر والقمار والفجور ، فتغيرت الحال الآن ، وقد نشأ عن حضور النساء في الجلسات ، أننا نرى الآن قاعاتها متجلية بالنظام ، والأدب ، والوقار ، بأكثر مما كان يعرف فيها من قبل .

وبعد اشترك النساء في الوظائف العامة في جمهورية يومنج الاميركية بأربع عشرة سنة ، قام رئيس الحكومة جون هويت في ١٢ أيار سنة ١٨٨٢ خطيباً فقال :
إن جمهورية يومنج هي المكان الوحيد الذي تتمتع فيه النساء بجميع الحقوق السياسية الممنوحة للرجال بلا فرق بين الصنفين ، وهذا الإقدام من أمتنا التي أرشدها حب الحق والعدل

الى اصلاح خطأ طال عليه الزمن ، قد وجه أنظار العالم إلينا . ولئن زعم خصومنا أننا لانزال في دور التجربة ، فكلنا يعلم أن هذا الدور قد انقضى بالنسبة إلينا ، وإني أصرّح هنا بأن اشتراك الرجال والنساء في أعمال الحكومة تتج عنه أن القوانين عندنا أصبحت أحسن ممّا كانت عليه . وأن عدد الموظفين الأكفاء ، وصل الى درجة لم نعهد لها مثلاً من قبل ، وأن حالتنا الاجتماعية ارتقت كثيراً ، وهي الآن تفوق في رقيّها سائر البلدان ، وأن جميع المصائب التي كنّا نهتدّ بحلولها مثل فقد النساء رقة الطبع ، واضطراب النظام في معيشتنا المنزلية ، لم نر لها أثراً إلا في مخيلات خصومنا .

إنّ السواد الأعظم من نساتنا قدّرن حقوقهنّ الجديدة حقّ قدرها ، واعتبرن القيام بها واجباً وطنياً ، وبالجملّة فإنّي أقول ، إنّ تجربة أربع عشرة سنة مع النجاح الباهر ، قد مكّنت في عقولنا ونفوسنا أن معادلة النساء للرجال ممّا لا يرتاب فيه .

كلّ هذه المقدمات تسير بنا الى طلب الكمال في حالتنا الاجتماعية حتّى نجعل جمهورية يومنح نجماً يهتدي به العالم في الحركة العظيمة التي تصعد بالإنسان الى ذروة الحرّية . قلت ، إنّ نجم حرّية المرأة وحقّها ، ظهر مع ظهور الاسلام ليهتدي به العالم وتصلح أحوال الأمم ، ولكنهم ، يالأسف ، حجبوه فيما بعد عنا حتّى ظهر في يومنح .

النقاب يحرم الرجل ان يكون قوَّاماً على المرأة

كيف يدّعي الرجل أنه قوَّام على المرأة ، راغب في إبعادها عن الشر ؟ حتى مّ لا يعرف أنّ القناع يبعث في النفس جرأة على ارتكاب المنكر ، أفلا يرى الرجال أنّ اللصوص والقتلة العامدين يتلثمون اكتساباً للجرأة على ارتكاب ما يرتكبون ؟ وتلك الفصول التي يمثّلها المقنّعون والمقنّعات في المرافق والمراقص ، هل يجروون على تمثيلها وهم سافرو الوجوه ؟

أي امرأة شريفة لها شرفها ترتكب الدنيئة ، وهي معروفة بشخصها وأشخاص أبيها ، وأمها ، وزوجها ، وأخيها ، وأسرتها ؟ إذن لماذا نمهد لها سبيل التلبس والتنكر ، ونفتح أمامها للشّر باباً من التحجّب والتستر ؟

أتمّ تعلمون أنّ خوف العار والفضيحة ، سبب من الأسباب التي تعصم من السقوط في الرذيلة ، فلماذا يحرم الرجل المرأة هذا العاصم ؟ ولماذا لا يرسلها سافرة تصون شرفها

خجلاً من الناس ، إن لم تكن قوّة شرف النفس ، التي هي خير وسائل الدفاع ، متمكّنة من نفسها .

إنّ النقاب يبعد الزوجة عن زوجها ، والزوج عن زوجته ، خارج بيتهما ، فلولا شرف النفس وهو الضامن الأقوى ، لما كان في الدنيا أضمن لحفظ أدب الزوجة من هيبة حضور زوجها ، ولا أضمن لحفظ أدب الزوج من هيبة حضور زوجته . فعلام يخسر الإثنان بذاك النقاب هذا الضامن ؟

سمعنا في السنة الماضية أنّ زوجة محجّبة رمت بنفسها من صخور الروشة الى البحر مرتين متتابعتين ، وقد خلّصها الناس من الغرق فيهما . وبيان الحال ، أنّ تلك المرأة ركبت في سيارة مع شابين غربيين عنها من سوق الإفرنج الى تلك الصخور للتنزه . وبينما هي معهما حدثت هناك جناية اقتضت أن تؤخذ فيها شهادتها . فلمّا أدركت أن لا بدّ للقضاء من تعرّف هويّة الشاهد ، استولى عليها خوف الفضيحة ، فأثرت الموت على الحياة ، ورمت بنفسها الى اللجة ، وما نشلها الناس من مخالب الموت حتّى ألقت بنفسها ثانية تريد الموت ، ولكن أجّلها أبقى عليها . فوقّ الناس لإنقاذها مرة أخرى .

فيا سادتي الرجال ، هل تتصوّرون أنّ تلك المرأة ترتكب ما ارتكبت من المنكر بذهابها مع الشابين لو كانت سافرة الوجه معروفة ؟ كلا ، إنّما أثرت الموت على الحياة لئلا تُعرف .

هل يجوز ياسيدي الرجل أن تسهّل الأمر لامرأتك حتّى تكون مجهولة بين الناس فلا تدري هل يبدر منها أو اليها بادرة سوء ؟

وأيّ نفع يرجى من غطائها إزاء هذا الضرر ؟ أو لا تعرف أنها امرأة إذا تنكّرت بالحجاب فتصرف عنها العيون ؟ تنكّرت النعجة في تلك اللعبة المقنّعة ، أفما عرفها الذئب إنها نعجة ؟

ياسيدي الرجل ، ألا تخشى من التباس إحدى محارمك بالسافلات من المحجّبات ، فيدخل الفساد قلوب ناظريها ، في حين أنهم لو رأوا وجهها وعرفوا أية امرأة هي ، وأيّ شريفة ينظرون ، لا نقلب فاسد نظرهم الى نظر وقار واحترام .

ألا تعتقدون أنّ سفورها أصدق انطباقاً على مدلول الآية الكريمة التي تأسر الحرائر بأن يُعرفن فلا يُؤذِن ؟

الخير والصالح في حرية المرأة

ياسيدي الرجل ، إننا نرى محارمك المتحجبات يعتنين أيّ اعتناء بالتحجب والتستر أمام قضاة الشرع والمفتين ، والأساقفة ، والحاخاميين ، والكهنة ، والمشايخ ، والعلماء ، والأشراف ، والأدباء ، ولكن لاتستطيع أن تنكر أنهنّ يظهرن عادةً للخدمة ، وساقدة المركبات والسيارات ، والباعة ، والجزارين ، والخبازين ، وأمثالهم سافرات الوجوه ، فلي نصف الرجل القوام على محارمه ، وليفتكر في أيّ الجماعتين يكمن الخطر . ويسهل وقوعه ، أفي الجماعة الأولى وهم نبراس الأخلاق والآداب ، أم في الجماعة الثانية ؟

إن من الناس كثيرين يمنعون صغارهم من التعرّض لحرارة الشمس ومزّ الهواء ، يريدون بذلك حفظ صحتهم وقواهم ، فيتسرب الهزال على مهل الى أجسامهم ، ثمّ تلمح الشمس أحدهم ، وليس لأحد غنى عن الشمس ، أو يلმسه الهواء لمساً من خلال النوافذ ، فينطرح المسكين مريضاً ، ويهن جسمه الندي لأنه لم يتعوّد المقاومة . فأطلق ياسيدي الرجل ، ولدك من وراء الجُدُر ، وعرضه لهواء السماء النقي ، وحرارة الشمس المنشطة ، فينشأ في حضن الطبيعة وعين أبيه ترعاه ، ثمّ يصبح رجلاً صلب العود ، لايؤثر فيه حرّ الشمس وعاصف الهواء . هكذا عوّد ابنتك ياسيدي الرجل منذ الصغر ، وعينك وعين أمها ترعيانها ، أن ترى الرجال ، ولا بدّ لها في حياتها أن تراهم ويروها . مثلما ترى الشمس والهواء .

عوّدها رؤية نيرات الأخلاق والأدب ، لارؤية الصنف المنحط الآخر ، وإلا فنظرة فسقطة . كذلك هي الحرية أيها السادة ، إنها منبع الخير للإنسان ، وأساس رقيه الأخلاقي وكماله الأدبي إذا هي بنيت على التربية الصحيحة ، هي التي ترفع عقل المرأة وتزيده نماءً وثقيفاً ، وتفهم المرأة معنى الشرف وطرق حفظه ، وتحيي فيها عاطفة الثقة بنفسها ، وتحمل الرجال على احترامها . يجب أن نعلم كما يعلم سائر الناس ، أنّ استقلال النساء كاستقلال الرجال ، يخلق بالنفوس الى مافوق ، ويبعدها عن مواطن الزلل .

يجب أن نعلم أنّ استقلال الإرادة أهمّ عامل في نهوض الرجل ، فلا يكون له في نفوس النساء إلا مثل ذلك الأثر الطيّب .

يجب إطلاق المرأة وتحريرها ، وإيقاظ ضميرها الذي خدّره الخدر ، وأنامه ذل النقاب والحجاب ، وجعل ذلك الضمير المستيقظ الحي متولياً بنفسه محاسبة صاحبه على جميع أعمالها ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطاناً وأقوى يداً من سيدي الرجل .

يجب أن يعرف سيدي الرجل ، أن أبعد الناس عن الزلاّت والسقطات ، إنما هو من يحترم نفسه ، فعليه أن يحترم المرأة لتتعود احترام نفسها .

يجب أن يعرف سيدي الرجل ، أن عفة النفس والضمير ، أشرف من عفة الخدر والخباء وأوثق سلطاناً .

يجب أن يعرف سيدي الرجل ، أن العبودية ، وهي مصدر الذل والخمول والجمود ، لن تكون أبداً كما قال بعض الحكماء مصدراً للفضيلة ، ومدرسة لتربية النفوس على الكبر إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور ، والموت علة للحياة والعدم سلماً للوجود .

سادتي وسيداتي :

لأنستطيع ، أردنا أم لم نرد ، أن نقف حاجزاً في سبيل تيار النهضة الحديثة وما تتحفنا به من آراء جديدة في العلم والاجتماع .

قال الزهاوي ، الشاعر الفيلسوف الشرقي :

وليس من قوة في الكون قاهرة
تستطيع أن تقعد الأقوام إن نهضوا

فالدين قد تحرّر ، والعلم تحرّر ، والعقل تحرّر ، والفكر تحرّر ، والفن تحرّر ، والمجتمع تحرّر ، وكل شيء في هذا العالم أفلت من يد الإستعباد والرق .

أفقضي القضاء أن يستثني التحرير هذه البقية الباقية من النساء في بعض بقاع الشرق ؟ وهل كتب الله لوجه المرأة ، وهو مجتمع حواسها ، أن يظلّ مقيداً ؟ وهل يجوز أن يحرم الرجل المرأة استعمال قواها ، أي قوى النظر والسمع ، والذوق ، والشم ، والتنفس ؟ أفوجدون لو تأملتكم ، ظلماً أظع من هذا الظلم ؟

يدلّنا التاريخ ، أن قوى الكون القاهرة ، ما استطاعت إيقاف شمس الحرية عن الشروق ، متى حانت ساعته ، إنه ليس من قوة في الأرض تمنع الحرية أن تشمل هذا الكون بنورها الساطع كما يشمل نور الشمس هذا العالم . ولكن ، كما أن الشمس ، لا تشرق دفعة واحدة على العالمين ، بل تتناول الجبال أولاً ولا تهبط أشعتها الى الأودية إلا بعد أن تصل الى أعلى العرش ، كذلك شمس الحرية ، تشرق في أول الأمر على النوابع والمفكرين والفريق الراقي من البشر ، ثم يضيء نورها الفريق الآخر الجاهل متى بلغت قمة العرش ، وإنه لسعيد ذلك النابغ المفكر ، الذي يستنير قبل غيره بنور الحرية الساطع ، هذا النور الذي ينعش العقل والفكر والاجتماع ، بما يحدثه من تجديد ، وهو من مظاهر الحياة ، خلافاً للجمود ، وهو من مظاهر الموت .

يدلّنا التاريخ ، أن الشرق والغرب كانا يسيران على طريقين متشابهين ، قيد فيهما العقل ولم

يعط حرية التفكير المطلق ، وكان الشرق سباقاً وله التقدم على الغرب . ثم اختلف طريقاهما فنام الشرق على جموده ، وقام الغرب يمشي الى العلياء براياته وينوده ، ولم نرَ عند اصطدام الاثنين غير فرار الشرق الجامد ، من وجه الغرب الناهض المجاهد ، فاستولى الغرب على كل ما في الشرق ، حتى أنه لا يكاد يبقى في الشرق أمة مستقلة حقاً ، اللهم إلا اليابان والأتراك ، الذين عرفوا أن يتلمسوا لهم طريقاً غير الطريق الذي جربوه يقودهم الى ذروة المجد .

كفى الشرق جموده ، وموت روح الحرية والاستقلال فيه ، وكفى الشرقيين حرمانهم حرية التفكير التي هي أساس كل نهضة ، بل كفاهم أنهم يمشون على منهاج آبائهم لا يتطورون ولا يتجددون ، مادامت الأرض أرضاً والسماء سماءً . إنهم هم الخاسرون .

قرأت في الصحف ، أن نور حرية المرأة ، أشرق حتى على سمرقند وطاشقند وهما في أقصى الشرق ، وأن عدة ألوف من النساء المسلمات ثرن على البراقع التي حسبها علامة استبداد بهن . وقد مشى منهن خمسة عشر ألف امرأة في أسواق سمرقند كاشفات الوجوه دون براقع . وجرى مثل ذلك في طاشقند حيث مشى موكب من النساء المسلمات أمام خمسة وعشرين ألفاً من الرجال الى الساحة العمومية ، وهناك نزعن النساء براقعهن عن وجوههن وأحرقنها كومة واحدة على مرأى من الجمهور ، وقد كان يهتف لهن . وخرجن بهذه الصورة ، الى الحياة والى النور .

نداء الى شباب المسلمين في الاقطار العربية

فيا إخواني ، يا شباب المسلمين في الأقطار العربية ، إن شمس الحرية لم تطلع من أنحاء الغرب ، ولا من أقصاء الشرق ، إنما فينا طلعت وعلينا بزغت ، وهذا كتابنا وقد قال الله تعالى لنا فيه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يرسل كالشمس فيما يرسل من أنوار الهدى أشعة الحرية ساطعة تملأ العالمين نوراً ، وهذه سنة الرسول العربي صلى الله عليه وسلم والمخاطب في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ إنها لم تكن إلا أشعة من ذلك النور الإلهي نالت منه المرأة المسلمة حظاً موفوراً ، وهذه أحاديثه الشريفة تدل على فرط عطفه صلى الله عليه وسلم على النساء . ومن أحاديثه صلى الله عليه وسلم أن أكثر الخير فيهن ، ولما كانت المرأة في الأمم الأخرى ، تورث وتورث ، وتباع وتشترى ، ولما كان الناس يتساءلون عما إذا كان لها نفس ناطقة خالدة ، كان نبينا صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نأخذ نصف الدين عن امرأة رضي الله عنها ، وكان للمرأة حق الاجتهاد في الشريعة ، وحق القضاء والإفتاء ، وحق الوصاية على الرجل ، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يولي

أسواق المدينة نساء مع وجود الرجال من الصحابة ، وكانت حقوق المرأة وحقوق الرجل في جميع المعاملات والتصرفات سواء ، ولم يكن حجب الحرية عنا إلا كما تحجب قطعة غيم نور الشمس ، وهو أمر عارض نشأ فينا عن تمويه عقول على عقول ، وإجماد عقول لعقول ، حتى أثر ذلك في العقول المموهة والمجمدة نفسها ، كما أثر في العقول المموهة عليها والمجمدة ، وإنما التمويه والإجماد ، وكابوس الرمي بالإلحاد ، ذلك ما ألقى على البصائر والأبصار ، حجباً من الظلمات تحجب الأنوار ، فكان فجر الحرية عندنا ، ورأد ضحاها عند غيرنا ، غير أننا لانكاد نرفع الحجب عن أبصارنا ، وبصائرنا ، حتى نرى الحرية في سمائنا ساطعة ، ومن كتابنا طالعة ، وما كانت هذه السماء للكتب المنزلة إلا مهبطاً ، وما كانت لها هذه الأرض إلا مسقطاً ، وما من كتاب منزل بخس الحرية حقاً ، وسام الحرية رقاً ، فاتقوا الله في أن تجعلوا مطلع الهدى مظلماً ، ونصف الأمة فيه مظلوماً .

قال الشيخ محمد بدر الدين النعساني :

« ألا إن محاربة البدع والأحداث وعلاج هذه الأدواء الفتاكة يجب أن تكون من جهة النابتة الحديثة لا من جهة الشيوخ علماء العامة ، فإن هذا الصنف من الناس قد استحكمت فيهم الأمراض فليس إلى شفائهم سبيل ، إن النابتة الحديثة لم تعرف قلوبهم هذه المفاصد ، ولا وضعوا زمام أمرهم في يد أحد يقودهم حيث شاء . فهم أحرار . فهؤلاء إذا ظهر لهم الحق لم يلبثوا أن يصيروا إليه » .

إلى الأمام يا إخواني ، إلى الأمام ، مزقوا حجب البصائر ، تمزق حجب الأبصار . لا خيراً يا إخواني في القشور والظواهر ، إنما الخير في اللباب والسرائر ، لا خير للأمة في اغماض إحدى عينيها ، وغل إحدى يديها . كونوا قدوة الإسلام في العالم ، ولئن ينتقدكم الجهلة في الابتداء ، فإنهم سيقدمونكم في الانتهاء . ايقظوا الهاجعين فقد كفاهم غطيظاً ، وانفخوا في الجامدين روحاً نشيطاً . انشدكم الحق أن لا تجعلونا ، وتكونوا انتم ، آخر من تمتع بشمس الحرية ، أن فجرها ، وقمة عرشها في سمائنا ، وأن الحجب بيننا وبينها ليست كالغيوم التي تحجب الشمس ، ولا تنالها أيدينا ، إنما هي حجب تماط بالعقل الحر المطلق ، وبرد أقوال الفقهاء إلى الكتاب الحق ، فنقبل ما يوافقه ، ونهمل ما لا يوافقه .

إلى الأمام يا إخواني ، إلى الأمام ، مواكب الأمم المتدافعة تمر في طرق التطور والرقى سراعاً لا تنتظر .

إذا كانت أخواتكم لم يجاهدن معكم بالسيف أيام كان السيف الجهاد الأصغر ، فأحرى بهن أن يجاهدن معكم بالعلم ، والأدب ، والعفاف ، والشرف ، الجهاد الأكبر . أطلقوهن معكم ، إنهن في هذه الحلبات ، لسباقات . أطلقوهن معكم إنهن ليمثلن المثل الأعلى في هذا السباق بجياد العواطف ، وكرائم الأخلاق ، بالعلم والأدب والعفاف والشرف .

إدارة عرفية ظالمة معلنة في كل بيت

ياسيدي الرجل القوام على النساء ، إن كل حكومة هي قوامة على الشعب ، وقد طالما أدعت الحكومة في الأدوار المظلمة ، أن سلطانها مستمد من قوتها أو من الله ، ولكن ، ماهي إلا حقبة من الزمان حتى سقطت دعواها ، وانهارت صروح مجدها ، وتذخرجت تيجان أصحابها وأكرهت على التسليم بأن الشعب قوام عليها ، كما هي قوامة عليه ، فحفظت الموازنة ، وبطل الاستبداد ، وسادت الحرية العالم والعلم ، وتكملت الأدب ، وسعدت العيلة ، والمجتمع البشري .

ياسيدي الرجل ، إن الرقي والأخلاق في الحكومات المستبدة الغاشمة المستعبدة شعوبها أخط منها جداً في الحكومة الحرة العاقلة . كان يقال ، إنما العاجز من لا يستبد ، فأصبحنا اليوم ، وكل يخجل من أن يوصم بالاستبداد ، لأنه ينافي العدل والمروءة ، ينافي العقل والمصلحة ، والأدب والاجتماع .

يهم الحكومة المستبدة ، أن تقبض على رقاب الناس فتقيد حرياتهم وتخفت أصواتهم وتكسر أقلامهم لتأمن شرهم .

ويهم الحكومة العاقلة أن تمتلك قلوب الناس بالرفق والحلم فتكسر قيودهم وتطلق أفكارهم وتعمل على إخماء قواهم ، وتضمن النفع لها ولهم .

يهم الحكومة الغاشمة أن يجهل الشعب ، وتسلب قواه ، تريد من ذلك أن تستقوي من ضعفه ، وتستغني من فقره ، ويهمها أن تأخذ بخناقه فتريه صنوف المظالم ليكون عبداً ذليلاً ، وآلة صماء ، ويعتاد الطاعة العمياء ، لما تتحفه به من حسن وقبيح ، فتقتل باستبدادها معنويات الشعب وأدبياته وتقع الخسارة عليها لا على الشعب وحده ، فيكون مثلها حينئذ مثل الذي يقتل ثم ينتحر .

ويهم الحكومة العاقلة أن يتعلم شعبها وترتقي أخلاقه ، وتكثر موارده ، وتحسن إرادته ، فيسعد الشعب وتساعد الحكومة ، وعندما تعجز الحكومة عن إدارة الشعب بحزم وتعقل ، أو عندما يكثر الفساد في الشعب حتى يفقد ثقة الحكومة به فيختل النظام وتكثر الأجرام ، تعتمد الحكومة حينئذ إلى الحكم العرفي ، فتحبس الناس سواء أكانوا مجرمين أو أبرياء ، مخلصين أو خائنين تحبسهم في بيوتهم ، وتقيد ألسنتهم وأقلامهم وحركاتهم ، غير أنه لا يجوز الظن أن ذلك الشعب المقيد وهو تحت ذلك الحكم ، أخلص للحكومة وأصلح لنفسه ، من الشعب

الموثوق به ، ولا يجوز الركون إلى الأول المرهق . كما يجوز الركون إلى الثاني المطلق ، وكيف ينتظر السجان وفاء من سجين مظلوم أثقله بالقيود في ظلمات سجنه ؟ أو كيف يجوز الركون لمن كان جسمه في صيانة ، وقلبه في خيانة ؟
ياسيدي الرجل القوام . ماهذه الحياة حياتك ، وفي بيتك إدارة عرفية دائمة ، أعلنتها ضد أمك ، وابنتك ، وزوجتك ، وأختك خائفاً من خيانة منهن ؟

كيف يكافئ الرجل أمه ويبرئها

أمن أجل هذا حملتك أمك وولدتك ياسيدي ؟ أمذا هو البر بالأم الذي أوصاك به الله ؟ أمذا ما يقتضيه الدين والمروءة والوفاء ؟ أنسيت قوله تعالى : «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي صَغِيرًا» .
أنسيت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه رجل قائلاً : من أحق الناس ببري وصحابتي ؟ قال : (أمك) ، قال ثم من ؟ قال (أمك) ، قال ثم من ؟ قال (أمك) ، قال ثم من ؟ قال : (أبوك) .
وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين .
وقال صلى الله عليه وسلم : «بِرَّ أُمِّكَ ، ثُمَّ لُمِّكَ ثُمَّ أُمِّكَ ، ثُمَّ أَبَاكَ ، ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَلِأَقْرَبٍ ، وَإِذَا دَعَاكَ أَبَوَاكَ فَأَجْنِبْ أُمِّكَ . إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ» .
هي أمك التي أرقك النور وأنت تحرمها إياه .
هي التي حفظت قواك ، وأمنت أسباب حياتك ، بالتضحية والمتاعب التي تعلم ، وأنت تنهك قواها ، وتمنعها من استعمال أسباب حياتها كما تستعمل أنت أسباب حياتك .
هي التي علمتك الكلام وأنت تمنعها منه .
هي التي ولدتك حراً تتمتع بالشمس والهواء ، وأنت تلقيها في أسر الحجاب وتمنعها منهما .

هي التي تفانت في الإخلاص لك ، وعلقت كل أمالها بك ، وأنت تعاملها معاملة التهميم المريب .
هي أمك التي هزت سريرك ، وغذت عقلك ، وأنت تتهمها بنقص العقل ، وتحرم عليها أسباب تكمله .

هي التي غرست في قلبك الدين ، ودين الإنسان فعلاً دين أمه ، وأنت تتهمها بنقصه ؟
ألم تقرأ قول النبي موسى عليه السلام : « ملعون من يستخف بأمه » .
ألم تسمع قول أمير الشعراء في تحيته للسيدات :

هذا مقام الأمهات تـ فهل قدرت الأمهات
لا تلغ فـيـه ولا تقل غير الفواصل محكمات

ألم تسمع قول غيره من ذوي المروءة والبر والوفاء ، كالشاعر ذي الشعور الشريف حلیم
دموس القائل :

أنا لولا الثقی لقلت لقومي قابلوا الأم ركعاً وسجوداً

قانون جائر وحكم ظالم

ياسادتي الرجال .

هل يجوز أن تحقروا جميع النساء وفيهن أمهاتكم وشقيقاتكم وبناتكم ، وزوجاتكم ، إذا
وجدت بينهن من لا تستحق الاحترام ؟
أليس أولى أن تكرموهن بمقتضى الحديث الشريف القائل : « ما أكرم النساء إلا كريم ،
وما أهانهن إلا لئيم » ؟

أليس أقرب إلى العدل ، أن تدرس ياسيدي الرجل ، أخلاق من كانت تحت ولايتك من
نسائك ، حتى إذا انست ريبة من إحداهن عاقبت ومنعت وحرمت .

ياسيدي الرجل ، ضع العدل والمروءة نصب عينيك وتأن في حكمك ، ولا تنزل قصاصك بمن
يستحق ثناءك ، وأصغ إلى نفسك فلا بد لها من أن تناجيك مع ذلك المصلح الكبير قاسم أمين
بقوله : « أليس من العار أن تتصور أن أمهاتنا ، وزوجاتنا وأخواتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أليق أن
لانتق بهؤلاء العزيزات المحترمات المحبوبات ، الطاهرات ، وأن نسيء الظن بهن إلى هذا الحد ؟ » .
قال الله تعالى في كتابه العزيز : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا » .

وتذكر ياسيدي الحديث الشريف القائل «إِنَّ مِنْ الْغَيْرَةِ غَيْرَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ» .

وقال علي رضي الله عنه : «لَا تُكْثِرِ الْغَيْرَةَ عَلَى أَهْلِكَ . فَتُرْمَى بِالسُّوءِ مِنْ أَجْلِكَ» .

فلا تفعل ياسيدي ما يبغضه الله . وما يرمي أهلك بالسوء من أجلك .

قال الله في كتابه العزيز : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

ومافرق سبحانه وتعالى في آياته بين الرجل والمرأة بما يتعلق بأدب النفس وحفظ

العرض .

أهذا هو عدلك في حكومتك الصغيرة ، في بيتك . بين أولادك . البنين والبنات ؟

ياسيدي ، إذا خفت فساداً وغيباً من سفور بناتك ، وحسبت من الجائز أن تقيدهن

بالحجاب . دفعاً لذلك الفساد ، ومنعاً من العيب ، فلماذا لاتحجب البنين وتقيدهم للحكمة

نفسها ؟ وكلُّ يعلم أن البنات ، أمتنُ أدباً وأقلُّ فساداً من البنين وأبعد منهم عن العيب ، يشهد

بذلك إحصاء الجرائم من الجنسين في بلدان الدنيا قاطبة ، فإذا كان متبعاً قول القائلين : «عيب

الرجل على زرِّ مداسه» فلا شأن لنا معك في البحث ياسيدي ، وإذا كان الرجل قد ترك حراً

ليسير في طريق الكمال ، أفلا يصح أن تترك المرأة حرة تسير في هذا الطريق معه ، وتأخذ

نصيبتها منه ، كما هي الحال في الشعوب الراقية ؟ وهل يجوز لك أن تعوق نماء التكامل العقلي

والأدبي في جنس النساء كله لأنك آنست فساداً في بعضهن ؟ أو لم تأنس مثله في بعض الرجال

فعلام لا تعامل الجنسين معاملة واحدة ؟

إذا قيل أن الحجاب للمرأة المسلمة مبني على أصول الدين ، فهذا مردود في الدين كما

سأبين وأفصل في القسم الديني .

وإذا قيل أن الحجاب للمرأة بدعة أو سنة فقهية ، فهذا قول لايعبأ به لأن سنن الفقهاء في

هذا الشأن متعارضة ، والأغلبية الساحقة في جانب السفور كما سترون ، ولأن بدعة الحجاب

مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإذا قيل أن الحجاب للمسلمة مبني على منقص عقلها ودينها فهذا مردود ، لأنني أثبت أن

المرأة أكمل ديناً وأصلح في الفطرة عقلاً من الرجل . وهل يكون الرجال جميعاً أكمل عقلاً

وديناً من النساء جميعاً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (امرأة صالحة خير من ألف

رجل غير صالح) وهل يستوي كل صنف من الرجال والنساء في العقل والدين ؟ إذا لماذا لا

يحجب من الرجال من هم أنقص عقلاً وديناً من بعض النساء ، وعلام لا تطلق الحرية للنساء

اللواتي هن أصلح عقلاً وديناً من بعض الرجال ؟

ما هذا القانون الجائر الذي يتغلغل فيه روح الاستبداد والظلم المخالف لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ إنه لمن الوضع الغالب ، وضع الرجل الذي غلب المرأة بقوة جسمه ، وضعه متلاعباً بكتاب الله مفتخراً بظلمه واستبداده ولو أضرّ به ، وضعه وحده مستقلاً لم يشركها في وضع حرف منه فجاء على هواه مخالفاً لإرادة الله .

هذه هي حالة هذا الكون ، القوي يستبد بالضعيف . هكذا وضع الأحرار قوانينهم على العبيد . هكذا وضع الرومان قانونهم الجائر على من لم يكن رومانياً . هكذا وضعت الأمم الغالبة قوانينها على الأمم المغلوبة . تلك شيمة الغالبين في ما يشرعون .

سيطروا وضيّقوا ياسادتي ، سيطروا وضيّقوا ماشتم على النساء وعلى الحرية ، وعلى العقل ، وعلى الحق ، وعلى الأفكار . ففوة الدفع تزداد بقدر التضييق .

اشتدي أزمة تنفرجي فالشدة أولى بالفرج

المرأة مرآة الرجل

ياسيدي الرجل :

إنّ القول بوجوب بقاء المرأة عندنا على حالها من الجمود ، وحجبها وحبسها دون تبديل ولا تغيير ، خروج عن سنة النشوء والارتقاء ، ولا يصح القول أن حق الارتقاء من حال إلى أصلح منه مختص بالرجل وحده ، فقد قال أحد الفلاسفة : إما أن لا يكون حق لأحد الناس . أو أن يكون لكل فرد حق مساوٍ لحق الآخر ، ومن جرّد غيره عن حقه فقد داس بقدمه حق نفسه . وقد قال روسو : يكون الرجال كما تكون النساء : فإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوي الأدب والفضيلة ، فعلم النساء الأدب والفضيلة .

وأنا أقول : تكون النساء كما يكون الرجال ، فإذا أردت أن تجعل النساء من أهل الأدب والفضيلة ، فعلم الرجال الأدب والفضيلة .

لله أنت يا أديب اسحق ، فقد نثرت من أدبك درراً حيث قلت :

كل ما تنظره منك ولك	إنما المرأة مرآة بها
وإذا أصلحتها فهي ملك	فهي شيطان إذا أفسدتها

التكامل العقلي والأدبي في المدرستين: المدرسة والعالم

ياسيدي الرجل :

ألا تظنّ أنّ وقوفك في سبيل نماء التكامل العقلي والأدبي في النساء هو حكم عليهن باستمرار الفساد ؟ وهل يتمّ التكامل العقلي والأدبي داخل جدران المدرسة التي أدخلت اليها الفتاة في الزمن الأخير ، لتتلقّى فيها القراءة والكتابة ؟
أفلا تعلم أنّ الإنسان لا يبني في المدرسة من علمه وتكمّله العقلي والأدبي إلا أساسه ، وأنّ صرحه الظاهر النافع لا تبنيه إلا الحرية في مدرسة العالم ، وإلا كان علماً ناقصاً ضاراً ، إذ يكون أرباب العلم الناقص عادة ممّن لا يدركون وهم لا يدرون أنهم لا يدرون ؟
قابلوا بين الفتيان والفتيات في البيوت والمدارس حتّى السن التي يحجز فيها عندنا على هؤلاء ويطلق أولئك ، هل ترون الفتيان أرجح عقلاً وأصلح أدباً من البنات ؟ لالعمري ، فقد قابلنا في القسم الأول بين الجنسين فكنّ الراجحات . إذن من أين يحصل هذا الفرق في مابعد بين الرجال والنساء ؟

أفليس السبب في ذلك إطلاق هذا الفريق في مدرسة العالم ، وتقييد الفريق الآخر ؟
إن الرجال حرّموا النساء أن يتعلّمن . ثمّ اتهموهنّ بنقص العقل والدين ، وتركوهنّ ، بعضهن مع البعض الآخر ، لا يرين الرجال ولا يسمعن أقوالهم فيتّفقن بأحاديثهم ونتائج اختباراتهم في العالم ، فأنتى لناقص العقل والدين ، كما يزعمون ، أن يتكامل من ناقص مثله عقلاً ودينياً ، إن كانوا في تكامل نسائهم راغبين ؟
فعوّدوا النساء منذ الصغر ياسادتي الرجال أن ينظروا اليكم نظرهنّ الى منبع عقل وأدب .
عوّدوهنّ أن ينظرن اليكم من حيث الروح لامن حيث الجسد . وعوّدوا أنفسكم الشرف والإباء والنبل عند مقابلتهن .

إنكم تعوّدتم مقابلة السيدات الشريفات غير المسلمات سافرات ، وتعوّدتم احترامهنّ ، وتعوّدت أولئك السيدات مقابلتكم واحترامكم احتراماً روحياً نزيهاً وشريفاً فيمكن والحالة هذه أن يكون أمركم كذلك مع السيدات المسلمات الشريفات إذا تعوّدتم أن تروهنّ سافرات فالسافرات اليوم لسن أشرف فطرة منهنّ .

ألا ترون أنّ مقابلاتكم المسلمات من القرويات وهنّ سوافر وهنّ يزدن على مدنيّات

أضعاف ، لاتؤذيكم ولاتؤذيهن أدباً ونبلاً ، فلماذا تتوقعون الأذى في مقابلة المسلمات المدنيات ؟

وإذا كانت مقابلاتكم المدنيات مفسدة للقلوب ، ولا فرق بينهن وبين القرويات إلا بالنقاب ، فأزيلوا النقاب تزل المفسدة وتسلم من الأذى .

* * *

الاجتماعات العيلية مراقي العقل والأخلاق

وصوت للرصافي

ياسيدي الرجل :

لقد طالما حرمك تحجب الزائرات ، لذة الإجتماع بعيالك في السهرات وسائر الأوقات ، فالى أين تذهب حينئذ ؟ قد تذهب لقتل الوقت بحكم ضرورة الى أماكن لاخير فيها ، وتبقى النساء وحدهن ، وقد لايزيد بعضهن أدباً ، أليس أصلح ياسادتي أن يرفع هذا النقاب الذي بلوتمونا وبلوتم أنفسكم به خلافاً لما تستوجبه مصلحتنا ومصلحتكم ، ولما يقتضيه أدب الإجتماع ، وأن تسهل الإجتماعات الشريفة العيلية ، حيث يحصل التعارف بين الناس ويتكمل أدب الجنسين ؟

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ خَلْقَنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا لِتَعَارَفُوا﴾ . فكيف يتم التعارف بين الناس والمرأة منهم مع هذا الحجاب والنقاب ؟ وقال جل جلاله : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ . فلماذا يحرم الإسلام بالتباعد الحاصل أمر المؤمنات بالمعروف ونهيهن عن المنكر ؟ وقد قال تعالى : ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .

يجب أن نخجل من قول بعضهم « بارود ونار لايجتمعان » أو « هوى الجنسين في المجتمعات لا يضبط » فالإجتماع العيلي الذي يتخلله الإباء والمروءة والأدب والحياء ، لاينتج عنه إلا الشرف والوقار والرصانة والتكامل العقلي والنفسي ، وإن من في قلبه ذرة من الشرف يدرك أن ماء الحياء والأدب ، وندى العرض والمروءة إذا جريا في العروق . وامتزجا في القلوب لايبقيان فيها إلا عناصر الخير والطهر والعفاف . هكذا الأمر في العيلات الشريفة من العالم السافر ، فكيف لانتظر أن يحصل في قلوبنا التأثير عينه ، فلا يرى سيدي الرجل في قلبه باروداً ولاناراً ولادخاناً ، بل نرى منه بإذن الله تعالى نوراً وبرداً وسلاماً ؟

وإني أصارح سادتي الرجال ، انه لو عرض لي مناظر لايراعي آداب المناظرة ولا يدفع صدمة البرهان إلا بالسباب والشتائم ، لما ترددت في القول أن ذلك إنما هو نتيجة جفاء خلق لا يدمشه إلا الأدب المكتسب من اجتماع الجنسيتين ، ولاتلطفه إلا شواعر المرأة المؤثرة الحساسة ، بل هو نتيجة فساد قلب لا يطهره إلا أشعة نفسها المطهرة ، ولما ترددت في اعتقادي أن العامل في جفاء خلقه وفساد قلبه وبذاءة لسانه هو النقاب الحائل بينه وبين أسباب صلاحه .

وليت شعري ، هل يخطر في البال أن في العالم سافلاً ينظر الى محارم غيره نظرة سوء ومحارمه الى جانبه ؟ أولا يخطر ببال الرجل حينئذٍ مهما كان دينياً أن نظرتة السيئة الى محارم غيره إذن ضمنى منه لغيره في أن ينظر الى محارمه مثل نظرتة تلك ؟ وهل تخافون ياسادتي خوراً في نفوسكم ، ومروءتكم ، وإبائكم ، وآدابكم ، الى هذا الحد فنجتنب مثل هذه الاجتماعات الشريفة ونحن ندعي أننا أشرف الناس .

وعلى هذا الإفتراض ألا يحسن بكم أن تعلنوا وفقاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد الأكبر ضد النفس الأمارة بالسوء لنصرة النفس المرضية عليها ؟ وإني أرجو منكم أن تراجعوا البحث الذي أثبت فيه أن أقوى نصير للرجل في الجهاد الأكبر أرواح النساء وتقرّبها منه .

وإذا كنّا على هذه الحالة التعيسة من أنفس أمارة بالسوء ، وإحجام عن إعلان الجهاد الأكبر أفلا يكون ذلك ناجماً عن عدم تكمل آدابنا ؟ أولا يجب أن نجتهد في تكميلها بالصورة التي عرضتها على بصائركم النيرة ؟ ولو أبعدنا مدى التصوّر فحسبنا أننا في حالة تبدل من الخلق ، لانتصوّن معه في مجتمعاتنا المشتركة ، وكلّ منا مع محارمه ، فكيف حال المتبدّل منا منفرداً لارادع له ولا رقيب ؟

(خَلا لك الجوّ فيضي واصفري ونقري ماشئت أن تنقري)

وأني نفع من هذا الحجاب الفاصل في الظاهر ، الرجال عن النساء ، وكثيراً ماسمع كثير منكم أشخاصاً يسأل الواحد منهم عن أبيه فيقول :

«فلان إن صدقت الوالدة» ؟ ياله من قول ترتعد له الفرائض ، وياله من نقيصه تحتوي كلّ النقائص . تَبّاً لذلك الحجاب الذي جعل الأم تهان هذه الإهانة ، وتَبّاً لتلك النفس الدنيئة التي ترضى بهذه الإهانة .

سادتي ، غيروا من عاداتكم وكونوا في الجماعة مع نسائكم لتخلص ثقتكم وتخلصوا من سوء الظنون أو من شرّ قد يكون .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .
 فاحش أيها الراعي أن يعيث الذئب في قطيعك إذا انقطعت عنه . وهل تعتقد أن ذلك النقاب
 المسمى ذئباً كافٍ لحماية النعاج من الذئاب ؟ أولا ترى أن ذلك النقاب أو الذئب يعيث أيضاً في
 الخراف إذا كانت بلا راع ؟ وهل يعرف الراعي أين ، أو كيف ، أو متى يتصادف الذئب والقطيع ؟
 أو ليس خيراً لكل راع ، رجلاً كان أو امرأة ، أن يرافق قطيعه ويكون مع الجماعة فلا يؤذى .
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ
 الْقَاصِيَةِ) .

إن ذلك مثل النفس التي ليس لها من نفسها راع ، يروع الذئاب والسباع ويجعلهم خرافاً .
 سادتي وسيادتي .
 تأملوا في الاجتماع المختلط لاستماع المحاضرات . وقابلوا بين منفعه ومضاره إن كان فيه
 مضار ، وقيسوا المجتمعات الأدبية العيلية عليه ، أناشدكم الشرف ياسادتي أن تطلقوا نفوسكم
 من أسر العادة معمية البصائر وتحكموا العقل ، وتحكموا في أي الطريقين أصلح للجنسين .
 قلت أن تطلقوا نفوسكم من أسر العادة لأنه لا مانع من الاجتماعات العيلية كما بينت إلا العادة .

ولله در الرصافي شاعر العراق القائل :

وإني لأشكو عادة في بلادنا	رمى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
فذلك أنا لاتزال نساؤنا	تعيش بجهل وانفصال عن الجمع
وأكبر ما أشكو من القوم أنهم	يعدّون تشديد الحجاب من الشرع
أفي الشرع إعدام الحمامة ريشها	وإسكاتها فوق الغصون عن السجع
وقد أطلق الخلاق منها جناحها	وعلمها كيف الوقوع على الزرع

لابدع يا شاعر العراق الكبير ، إنك شاعر بمصيبتنا من جهل النساء لانفصالهن عن الجمع
 لتشديد الحجاب ، وإنك لم تكن عن المرأة بالحمامة التي خلقها الله تمثال الطهر والوداعة ،
 وعلمها السجع ، والوقوع على الزرع ، وأطلق جناحها ، إلا لتلقي على الأمة من منبر الشعر
 العالي درساً مفيداً خالداً . وكأنني بك تقول فيه ، أيها المسلمون كافة إذا كانت الحمامة قد
 تعلمت وأطلقت حريتها ، فعلموا أنتم بالأحرى المرأة ، وأطلقوا حريتها التي لها من الله ، ولا
 تسكتوها فتحرموا نغم روحها اللطيف أمتكم التي لم يتصل بها الجهل إلا لانفصال نساؤها عن

جمع رجالها . فيجب أن تسمع في هذه الأمة نعمة الأم الحنون كما تسمع نعمة الأب القوي ليتألف منهما النعمة التي لها التأثير الكامل في النفوس .

أجل ، يجب أن يكتسب الأب من حنان الأم ، وتكتسب الأم من قوة الأب ، ليعتدلا ويأتلفا ويوفيا وظيفتهما المثلى ، وإن مثلهما في ذلك مثل المقص الذي لا يحسن وظيفته مالم تأتلف شفرتاه متوافقتين . هكذا يأمر العقل وبهذا يأمر الدين .

أجل ياسيداتي وسادتي ، وأنا سأبين لكم في البحث الديني أن الدين لا يمنع اجتماع الجنسين في المجالس كما أنه لا يمنعهم في الأسواق ولا في الجوامع والمساجد ، وإنما يمنع الخلوة ، ويمنع دخول الرجل على النساء بغير إذن أوليائهن . قال أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه : « نهى رسول الله أن لا يدخل الرجال على النساء إلا بأذن أوليائهن » .

أناشدكم يا سادتي وسيداتي أن لا تفتحوا للمغالطة باباً فتخلطوا معنى الخلوة بمعنى الاجتماعات العلنية الحرة بإذن الأولياء وبحضورهم ، بل إذا قيل لكم : إن الشيطان ثالث بين المرأة والرجل إذا خلوا . فقولوا بصوت عالٍ إن الاجتماعات الشريفة الحرة حيث يتكامل أدب الجنسين وعقلهما لمحضر الملائكة .

* * *

الاجتماعات العيلية عندنا ورد بلا شك

يشبه بعض السادة والسيدات الاجتماعات العيلية بالورود الجميلة يفوح طيبتها ، ولكنهم ينفرون مما قد يشوبها ألا وهو الرقص بالمخاصرة الذي يرى أشبه شيء بالشوك للورود . إنهم أصحاب حق في نفورهم من ذلك الرقص الذي أسمع به ولاأراه . فهو لا يوافق أخلاقنا بل يخالف آدابنا . وإذا كان المصلح الأعظم مصطفى كمال الذي أطري مبادئه الاجتماعية الحرة ونهوضه ، قد أباح ذلك الرقص ، فما خرجت هذه الإباحة عن كونها هفوة وهي المانع الذي جعل قومنا يترددون في قبول المبادئ الأخرى الحرة خائفين أن يكون هذا الشوك ملازماً ذلك الورد . ولكن ياسيدي الرجل . هب ذلك المصلح مصطفى كمال ، جاوز الحد وغالى في الحرية ، وأدخل الرقص إلى المجتمعات . أفليس لنا حق الاختيار ، فننبذ الحريات الشاذة مثل هذه ومثل كشف العورات من صدور وأعضاء ، وتقصير أثواب بدرجة عائبة ، والتبرج المنافي للرصانة ، والخلوة بالرجال ، وما شاكل ، ونتخذ ما يوافق تربيتنا وأخلاقنا ؟ هل تخشى ياسيدي أن تستعمل محارمك إذا سفرن ، هذه الحريات الشاذة إن نهيتها

عنها ؟ إنهنّ إن فعلنّ ذلك في محل العلانية ، ولم تتمكن من منعهن وهنّ في حضرتك ، أن يحضرنّ مجتمعات الرقص ، فاعلم أنهنّ قد يكنّ فاعلات في محل الخفاء وأنت غائب ، أموراً لاترضى عنها . إذا فالغطاء ماكان إلا ستاراً لاخير فيه .

* * *

في الراهبات وأمثالهن عبرة لمن اعتبر

وصوت لمحمد عبده، وصوت للزهاوي

إن نساء أوروبا وأمريكا ، أكثر نساء الأرض اختلاطاً بالرجال ، وأسبقهن تمتعاً بالحرية ، يتلقين علومهنّ العالية مع الفتيان على مقاعد واحدة . هكذا يختلط الجنسان في المعابد ، وهكذا يختلطان في المتنزهات والمجتمعات وفي الأندية العلمية حيث تلقى المحاضرات وهنّ يعلمن أن العلم العالي يرفع المرأة من منازل الضعة والصغار ، إلى مراقي الشرف والكرامة والفخار .

وقد أخذت الأدبيات والمعلمات الغربيات يأتين بلادنا ويقمن فيها منذ زمن بعيد . فلا يجوز أن ندعي أن نساءنا أشرف منهنّ وأعزّ نفوساً .

بل لايجوز لنا أن ندعي أن نساءنا المحجبات بزيهنّ الحاضر الخلاب أكثر شرفاً ، وأكمل أدباً ، وأعف نفوساً ، وأبعد زياً عن التبرج والفتنة من الراهبات السوافر اللواتي انقطعن عن الرجال ولا قوام عليهنّ في هذه الحياة ، كأنما هنّ اللواتي عملن بكتاب الله وسنة رسوله في العلم والتعليم وفي الزي إذا خرجن من بيوتهنّ . وكأنما نحن الألى خالفوا .

إن كلّ من تأمل منصفاً بعقلٍ مجرد عن الهوى يرى ما رأيت .

وهل بيننا من لا يثق بهنّ كلّ الثقة وقد اعترف لهنّ العالم بحسن السجايا فضلاً عن شديد عنايتهنّ بتهديب الصغار وتشقيف أخلاقهم وإنارة عقولهم .

وهل ينكر أحد أنهنّ مرجع الفقير ، وملجأ العاجز والمريض ، وغوث المعوز واليتيم ؟ أكان سهلاً عليهنّ أن يفعلن ما فعلن في سبيل خير البشر لو كنّ في أسرالحجاب يرسفن بقيوده كما يريد سيدي الرجل أن نكون نحن ؟

وهل يرضى الله عزّ وجلّ ، وهو العدل كله عن ضعفنا وخمولنا ونحن محجّبات ، ولا يرضى عن جليل عمل أولئك وهنّ سوافر ، وقد ملأن البشرية منافع وإحساناً ؟

انظروا الى معاهد العلم التي أسستها . وهي تنير أرضنا كما تنير النجوم السماء . انظروا

اليها وقد صيرتها بقوة الحرية والإرادة وسمو المدارك وصدق العزيمة ، جنّات باسقة الأغصان ناضجة الثمار . واسمعوا من وراء جدران الملاجئ دعاء الأيتام والمعوزين الذين رمتهم يد القضاء الى وهدة البلاء والشقاء ، فتلقّتهم أيدي ملائكة البر والعطف البشري تشبع جوعهم ، وتكسو عريهم ، ناشلة إياهم من تلك الوهدة .

انظروا الى كلّ هذا ياسادتي الرجال ، وقابلوا بين الفئتين الراهبات السوافر ، والنساء المحجّبات اللواتي حرمن القوّامين عليهنّ ، تروا هؤلاء وقد عجزن عن كسب قوتهن يتزاحمن على أبواب المحاكم الشرعية ودوائر التنفيذ منكسرات القلوب ذليلات النفوس يسألن نفقةً تقيهنّ غائلة الجوع ، وبعضهنّ يشتهي الرغيف ، وأولئك يطعمن الفقراء واليتامى . أفلا يخشى الرجل أن تتبدّل المرأة التي لامعين لها ، إذا عجزت ، وقد منعها الحجاب ، عن كسب رزقها الحلال ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْكَسْبُ الْحَلَالُ) .
وقال صلى الله عليه وسلم : (الْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءٍ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الْكَسْبِ الْحَلَالِ) .
وقال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ فهيئوا النساء للكسب الحلال ليستغنين به ولا يحتجن الى غيره .

وقال قدوة العلماء المحققين المرحوم الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : طالب الإسلام بالعمل كلّ قادر عليه ، وقرّر أنّ لكلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره ، ولم يحظر الإسلام على الإنسان إلا ما كان ضاراً بنفسه ، أو بمن يدخل في ولايته ، أو ماتعدى ضرورة الى غيره ، وحدّد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة ، فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتّسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتّى لم يعد لها عقبة تعثر بها اللهم إلا حقاً محترماً تصطدم به .

رحمك الله يا شيخنا المصلح ، وطيب ثراك ، نعم إنّ دين الاسلام لم يترك في سبيل تسابق الهمم عقبة يعثر بها المسلمون ، ولكن بعض علمائنا وفقهائنا - أرادوا التسابق في وضع العقبات في سبيلنا فلم يتركوا لنا حركة ما في الدنيا ، جسمانية وعقلية ، دنيوية ودينية ، إلا قيّدوها بقيد كما شأؤوا ، ولأثر لذلك القيد في الكتاب ولافي السنّة ، سباق جرى بينهم لوضع القيود ، وقد ندر من ظهر مثلك ليفكّ قيده أو يزيل عقبة ، وكثراً جداً من يضع القيود فوق القيود ،

ويحدث العقبات بعد العقبات حتى وصلنا الى ماوصلنا ونفوسنا وعقولنا وجسومنا وحركاتنا كلها ترسف بقيد فوق قيد ، وأمست طريقنا عقبات تلي بعضها بعضاً ، ذلك مادعا أصحاب العقول فضربوا بتلك القيود عرض الحائط راجعين الى الكتاب والسنة منبع الخير والصالح والهدى . ومصدر اليسر والفلاح والنور .

* * *

أفلا يجب عليكم أن تهينوا النساء منذ الصغر لاحتمال كوارث الدهر أو لمقاومتها إذا نزلت بهن من بعدكم والدهر ذو غير ؟ وهل تستطيع الأسيرة المحجبة أن تجاري الحرة السافرة في كسب عيشها المشروع ، وحفظ كونها والوقوف في وجه الفقر المروع ، ومن منا يأمن الكوارث ويطمئن الى الدهر ؟ وهل نعتقد أنه يتسنى لكل فتاة أن تقضي حياتها زوجة ينفق عليها أو مستغنية لاتحتاج الى ذلك ؟ وإن لم يتسن للفتاة أن تقضي حياتها زوجة أو مستغنية وهي غير معدة ومستعدة للكسب الحلال ، أفلا يخشى عليها أن تقع في شر حال لاترضى بها نفوس الرجال ؟

وهل يرضي عدل الله جلّ جلاله أن نجعل نعمة الإسلام على المسلمات وياً ، فنحرمهن الهواء والنور ، والحرية والعلم ، وماأودع الله عقولهن ووجوههن وأيديهن من القوى ، حتى نرى هذا القدر من التفاوت بينهن وبين أخواتهن في الإنسانية ؟
إنّا حكمناكم بإقضاة الاجتماع فاحكموا بالعدل .

أنصفوا ياسادتي الرجال ، إنكم تتهموننا بنقص العقل والدين ، لماذا ؟ لأنكم سدتم طرق عقلنا أي حواسنا ، وجعلتمونا في محيط يكتنفه الذل والجهل ، فنقصت عقولنا بسبب نقص العلم ، وحرماننا رؤية الحقائق ، ونقص بالطبع ديننا إذ لادين حيث الجهل ، فالجاهل لا يستطيع أن يتناول من الدين إلا قشوره ، وأي نفع للقشور دون اللباب ؟

رأيتم أنني قابلت بين الراهبات ، وبين المنقطعات من النساء ، فهل تسمحون لي بأن أقابل بينهن أيضاً ، وعددهن لايزيد في سوريا ولبنان عن الألف ، وبين سادتي الرجال القوامين أعني غير المتجددين منهم ، الذين لم تصل عقولهم الى لباب الأمور فبقيت عند قشورها ، وهم يبلغون مئات من الألوف ؟

لأعتقد أن المقابلة مما لا يستغنى عنه ، فأثار كل من الفريقين تدل على نماء عقله وتنتاج فضله - وقد جاء في الحديث « أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَدِلْ عَلَى الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ مَنِ الْعَقْلِ إِلَّا بِظَاهِرٍ مِنْهُ أَوْ نَاطِقٍ عَنْهُ » .

وإني أتذكر هنا ، حين أرى ما أرى من آثار الراهبات ، ما أنتجه العلامة الإيطالي الشهير -
وكأنني اسمعه وهو صارخ بصوت العلم والحق « ما أكفر الرجل الجاه كبيره وحب استبداده بالمرأة
أن يزور حتى في علم التشريح قائلاً أن نخاعها أخط من نخاعه » .
إن شاعركم ياسادتي الرجال قد عيّن واجب الرجل ، وواجب المرأة بشعره المشهور
القائل :

(كُتب الحرب والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذبول)

أما الراهبات السافرات فمع تجرّدهن عن القوامين ، ومع أنهن من جنسنا المتهّم بنقص
العقل والدين ، لم يقبلن أن يكون هذا واجب المرأة وذاك واجب الرجل ، بل سابقن أفاضل
الرجال وفضليات النساء ، من العالم السافر الراقى ، في سبيل خير الإنسان ونشر المحبة
والصلاح في العالم ، وتعويد النفوس البرّ والفضيلة كما ترون .

أنتم تنادون بعي المرأة ونقص عقلها ووجوب الحجر عليها واستعبادها ، وأنتم تجعلونها
عبئاً ثقيلاً ينوء به أبوها وابنها وأخوها ، وهن بأفعالهنّ وتعليمهنّ تلميذاتهنّ يشبتن ماقاله
الزهاوي يوم زار بيروت :

لولا تقدّمها ما تمّ عمران	للمرأة الفضل في العمران نشهده
وإنّما هي للآباء معوان	فإنّما هي للأبناء مدرسة
وإنّما هي للمحزون سلوان	وإنّما هي للمفجوع تعزية
وإنّها لجني الأثمار بستان	وإنّها الروض مطلولاً له أرج
وإنّها تارة روح وريحان	وإنّها تارة نار قد اتّقدت
وإنّ أهملها موت وخسران	وإنّ إصلاحها إصلاح مملكة
وبالرقى لهم دين وإيمان	يأبى تأخيرها قوم له شمم
إلا رجال أولو عزم ونسوان	لا يرفع الشعب من أعماق وهدته
والشرّ أن يهضم الإنسان إنسان	الخير في أن يعزّ المرء صنوته

ياسادتي الرجال

هل تعتقدون بعد كل ما ذكر ، أن تتهموا الراهبات السوافر بنقص العقل والدين ، كما تتهموننا ، وهذه أعمالهن النبيلة وآثارهن الخالدة ملء العيون ؟
إذا كان الجواب لا ، فلماذا لا ؟ ألسن مثلنا من جنس النساء ؟
بلى ، هنّ من جنس النساء ولكنهن مع انقطاعهنّ عن الرجال ، قد تمتعن بالحرية واعتمدن على أنفسهن فطلعن بدوراً في سماء العلم والرقي والكمال .
أما نحن ، نحن الشقيّات ، فلا يصلح لنا غير العمى ، وقطع النفس ، والحبس تحت وطأة غطاء كالكفن أو في قفص . لا يليق بنا أن نخرج من خدرنا إلا الى قبرنا .
قال الله تعالى : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ فلماذا تكتبون علينا الشقاء باسم القرآن وقد جلّ عن مثل ذلك ؟
أما حان لنا أن نعتبر فنصحو من غرورنا ، فنرفع هذه الغشاوة المظلمة عن عيوننا ، ونرمي بالغرور الأعمى من قلوبنا ، ونستيقظ من سباتنا القاتل فنسابق في نفع البشرية وخير الإنسان ، أولئك السيدات وأمثالهنّ من العالم السافر الراقى ؟

لماذا أخاطب الرجل أكثر مما أخاطب المرأة لتحريرها

أراني للتخلص من عبودية الحجاب ، أخاطب سيدي الرجل أكثر مما أخاطب رفيقتي المرأة . فأطلب التداوي بالذي كان هو الداء . إنّ لذلك أسباباً عديدة أذكر منها :
أولاً : إنّ الرجل اعتاد استضعاف المرأة ، والمعونة تطلب من القوي لا من الضعيف .
ثانياً : إنّ الرجل اعتاد بنيته حرياته في العصور الأخيرة أن يقطع مراحل واسعة نحو الرقي والكمال ما استطاعت المرأة المحجّبة أن تجاريه فيها ، فأصبح واثقاً بأنّ قضيتها هي قضيته ، وأنهما ، كما قال الفيلسوف الانكليزي تنسن ، عمودا العيلة ، إذا مال أحدهما وقصر واختل وضعه ، تداعى سقف العيلة وانهار صرح الاجتماع القائم على دعائمه ، أو كما قال فيلسوفنا الزهاوي ، هما جناحا الشعب ولا يمكن أن يعلو شعب ويطير إلا بجناحيه مستويين ، فإن لم يستوِ جناحاه ، علتِ الشعوب المستوية الجناحين الى مراتب العزّ ، وظلّ هو مستلقياً يتغنّى

بمجد أجداده السابقين ، كما تتغنى العجوز بجمالها المنقضي ، وقد يسليه أن يرمي بالكفر والإلحاد ، كل من علا وتسامى وتحرّر وتجدد ، وقد يتغنى ببساط الريح هائلاً بالطيارات المحلقة ، يكفر مخترعيها والطائرين فيها ، قال الشاعر الفيلسوف :

كم غافل ظنّ الخيال حقيقة ورأى الحقيقة في الحياة خيالا
من قد أضاع صوابه من جهله عدّ الهوى للسالكين ضلالا

ثالثاً : ثبت بالإختبار أنّ الحرّ أعرف بقدر الحرية من العبد ، وإنّ العبيد لولا جهاد الأحرار المفكرين لما نالوا حرّيتهم ، وإنّ العبيد تعودوا الخمول والإنعتاق من الفروض الواجبة على الأحرار ، فقد يخافون الحرية تخلصاً من تعبهم في إيفاء واجبهم ، إذا هم أصبحوا أحراراً ، وأضحت نفوسهم كباراً .
قال المتنبي :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وبوجه من البيان آخر يجدون أنفسهم أحراراً في حركاتهم أكثر منهم فيما لو تحرّروا ، فالحر مقيد بقيود من الواجبات وما أكثرها ، والعبد مطلق من أمثال هذه القيود .
ومن الغرابة أنّ بعض البشر يعد الخمول والإنزواء في الخدور من مميّزات الأكابر والأشراف ، على أنّ المرأة الشريفة يجب أن تمتاز كما هو الأمر في العالم السافر الراقي ، بأعمال مميّزة شريفة تنفعها وتنفع البشر ، بخلاف الستر والخدر اللذين تستطيع كلّ واحدة مهما كانت خاملة أو وضعية سافلة أن تلازمهما ، وهل بقي من فرق وامتنياز بيننا الآن في التحجيب ، أليس السافلات متحجّبات كغيرهنّ ، فلا نعرف نحن في الظاهر ولا يُعرفن .
رابعاً : إن الحرية عادة تستدعي الصراحة والوضوح في القول والعمل والعبودية تملي عادة على المستعبد ، المكر والرياء فيهما . إذن فأنا أتوقع المعونة من الرجال ، أكثر ممّا أتوقعها من النساء .

قرأت مرة حكاية رمزية نفعتني في تأملاتي ، ولعلّها تنفع سيّدي الرجل إذا خلا الى نفسه :
قال الراوي : إنّ رجلاً ظالماً كان يستبدّ بزوجته مشدداً في تحجيبها على اعتقاد أن يجعلها باستبداده شريفة وهي ليست شريفة ، فدعاها مرة الى قضاء ساعة في حديقة منزله ، وفي الحديقة حوض ماء فيه سمك ، فلما جلسا على حافة الحوض أرسلت المرأة حجابها ، وقالت لزوجها مأكرة مخادعة : الدين قبل كلّ شيء ، فأخشى ياسيّدي أن يكون بين الأسماك ذكراً

فيرى ، أعوذ بالله ، وجهي ! قال الراوي ، فضحك أحد الأسماك وأنطقه الله بما كذب إدعاء الزوجة الشرف والتدين رياءً ومكرًا!

ياسيدي الرجل ، أنا لأعرف طبعك ، ولكنني أخشى جداً ، أخشى جداً المرانين المتظاهرين بالتدين والورع البارد ، هؤلاء يعرفون أن في أنفسهم نقصاً ، فيحسبون أنهم يكملون ذلك النقص بالمكر والرياء ، أما الشريف الصريح في قوله وعمله فهو بعيد عن الرياء والمكر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخُوفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ » . قالوا ما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال « الرياء » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مُرَاءٍ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يُرِي النَّاسَ فِيهِ خَيْرًا وَلَا خَيْرَ فِيهِ » .

خامساً : إنني أخشى أن يستهوي بعض النساء ، شكل الحجاب ، شكل الحجاب الحديث فلا يجزن لأنفسهن تركه ، ليس لحسابانه ساتراً وحافظاً للشرف ، بل لأنه خلّاب فتان ، خلافاً للوجه السافر في الزي الرصين ، فبذلك يكنّ قد ثرن الرغبة في الفتنة على الرغبة في الصيانة .

سادساً : لانستطيع بالطبع أن ننكر على كثير من الرجال أنهم عاشوا أحراراً فتعلّموا وسمت أفكارهم ، وعلى كثير من النساء المحجّبات أنهن عشن في جهلهنّ مستعبدات ، والجاهل من عادته أن يميل إلى ما يضرّه ويبتعد عما ينفعه .

وعلى كلّ حال ، أسأل رفيقاتي الشريفات المتنورات ، وإنني معتقدة أن عددهنّ غير قليل ، أن يعضدن كلّ فكر حرّ يظهر في سبيل خدمتهنّ وتحريرهنّ ، وأن يترفعن أمام رجالهنّ وفيما بينهنّ عن قبول كلّ رياء ترجح فيه العبودية على الحرية ، وامتهان المرأة وتحقيرها وسوء الظن بها على احترامها والثقة بها والاعتماد عليها .

السفوريلد الأمهات المنجبات ونماء الأمة ورقيا ولیدا رقی الأم

رأيت في بعض الصحف أن أحد مناصري الحجاب يتخوف من السفور أن يسوق الأمهات الى إهمال تربية أولادهن ، غير أننا حين نرى ، في عصر العلم والنور هذا ، أن

عدد نفوس الملل الاسلامية المحجبة في تأخر أو توقف ، ونفوس الملل السافرة تتضاعف عدداً في عشرات السنوات .

حين نرى أن مدينتي لندن ونيويورك تبلغ نفوس كل منهما عدداً سبعة ملايين ونيفاً ، وذلك أضعاف ما كانتا عليه قبل مئة سنة ، وأضعاف ما بقي في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق من نفوس .

حين نرى المدن الأخرى في العالم السافر تتضاعف مثلها نفوساً ، حتى ضاقت أرض السفور بأهلها على رحبها فانتشروا في الأرض مستولين بما خلقت عقولهم من قوة ، وبما أعدوه من عدة ، على بلدان الأمم المحجبة ، أو بلدان الأمم المتأخرة ، وهي التي أمست الأرض فيها واسعة على سكانها الجامدين في مقدار نفوسهم ، كما جمدوا على العادات في عقولهم أو تأخروا .

حين نرى الحقائق فنعرف ، دون اعتراض على حكمة الباري ، ودون إنكار لحكم الأجل ، أن نصف الأطفال عندنا يموتون من جهل أمهاتهم ، وقلما يموت عندهم طفل إلا بقدر .

حين نرى ما أنجبت تلك الأمهات في هذا العصر ، عصر العلم والنور ، من مخترعي طائرات وسيارات وغواصات وتلغرافات وتلفونات سلكيات ولاسلكيات ، وميكروسكوبات وتلسكوبات ، ومن كاشفي ميكروبات ، وإيونات ، وراديو ، وأنوار وأشعات ، وغير ذلك من المدهشات المذهلات .

حين نرى كيف أنجبت أولئك الأمهات السوافر ، أولئك المخترعين والمخترعات ، والمكتشفين والمكتشفات ، والمعلمين والمعلمات ، والأطباء والطيبات ، ثم نلقي نظرة الى أنفسنا والى ما أنجبت أمهاتنا .

حين نتأمل فنرى ونعرف ، أن لافرق بيننا وبين ذلك العالم ، إلا نقاب النساء ، يجب أن نعرف بأن الأم هناك لم تهمل تربية أولادها ، بل أحسنتها وأن السرف في زيادة عدد النفوس هناك ، ونقصانها هنا ، إنما هو حسن تربية الأم عندهم وسوء تربيتها عندنا .

ويجب أن نعرف أن ذاك الذئب يعيش أيضاً بأرواح أطفالنا .

ويجب أن نعرف الداء الذي ينهك قوانا ويسبب ضعفنا .

ويجب أن نعرف ذاك الورع البارد الذي يجمد عقولنا ، والبلاء القاتل الذي يحيط بنا .

ويجب أن نعرف أن روح الأمة وروح الرقي هو الأم ، وهي لا تنجب ولا تنشىء ، أولاداً حبسوها وقيدوها وضيّقوا عليها وحرموها الحرية والنور ، وكيف تنجب أو كيف تحسن تنشئة أولادها ولم تكن ابنة أم منجبة ؟

إنّ أمها كانت مثلها خاملة ، متنقبة ، مستعبدة ، أما نجابة من نجب فهي أثر الطبيعة وخلق الله ونذر أن يكون للأم فيها يد .

إنّ الأشجار تعرف من ثمارها ، فلا يليق بنا أن ننكر الثمار الطيبة من أمهات الغربيين ، وإلا فقد أمسينا في بحر من الغرور غارقين .

* * *

رأي المرحوم سعد زغلول في السفور

سادتي وسيداتي :

لا يخفى على أحد في كل بلد ما طبع عليه فقيد الشرق والاسلام سعد باشا زغلول من الحكمة البالغة والروح السامية والغيرة المتّقدة لخير المسلمين ونفعهم وإعلانهم ورفعهم . فلا بدع أن تصغوا الى بعض الكلمات البليغة من مقال نشر في الأهرام للكاتبة النابغة مي ، وهي ممّا يثبت رأي سعد الصائب بوجوب سفور المرأة . قالت :

« فباسم سعد اجترأت المرأة المصرية على رفع صوتها ، وتحت لوائه سارت مواكب النساء في الشوارع ، وهتفت بحياة الوطن والحرية والإستقلال ، وفي ظلّ سطوته تلقى الجمهور اسم المرأة وهتافها وتعوّد أن يستمع لمطالبها في تهيب واحترام ، وهل من عامل أقدر على تقدير المرأة من أنّ الزعيم العائد من المنفى ، تلك العودة الفخمة ، يستهلّ خطابه في فندق سميراميس شكراً على احتفاء عظماء قومه به فيقول : سادتي وأرجو أن أبدأ خطابي في محفل قريب بقولي (سيداتي وسادتي) لأنّ للمرأة المصرية قسطاً من الفخر في جهاد الأمة فيقابل هذا الكلام بالتصفيق الحاد المتواصل - وهل من عامل أقدر على السفور من أن يدخل الزعيم محفل السيدات بعد عودته من المنفى فيأبى البقاء فيه إلا إذا سفرن السيدات المجتمعات لاستقباله وسابقت يده لسانه فيما أراد فمدّ يده ضاحكاً ورفع الحجاب عن وجه أقرب السيدات اليه فكان ضحك وكان تصفيق وكان تهليل وسفرت الحاضرات بعد ذلك التحجّب فكان ذلك اليوم عنوان تحرير المرأة » .

* * *

أقوال تافهة للرجال يسترون بها جنبهم في موقف الاقدام على ما يؤثرون

مارأيت وسمعت ، من جميع من رأيت وسمعت ، وبينهم العلماء والفقهاء والأدباء والفضلاء ، واحداً أثر الحجاب على السفور ، بل لم أرَ أحداً إلا رجح السفور على الحجاب ، واعترف بأنه ادعى الى تقوية الملكات الأدبية وإنماء المواهب العقلية وسعادة العيلة والمجتمع البشري ورقيهما . ولكنني رأيت ، وأخجل أن أقول ، أن بعضهم يخيفه نقد العامة التي تجهل مصلحتها وهي عدوة لما تجهل ، تستمد حكمها من إحساسها لامن عقلها ، ويمكن القول أن عقولها في عيونها لا في أدمغتها ، فهي لاتستحسن الشيء لأنه مطابق للحق ، وإنما تعتقد الشيء مطابقاً للحق لأنها تستحسنه فلذلك نرى من يخيفه نقد العامة ، يضحى بسعادته وسعادة محارمة ، وسعادة أمته إرضاءً لهذا الصنف من الناس ، والويل لأمة تنقاد لجهالها ، والويل لأمة لا يجرو العاقل فيها أن يصدع بالحق الذي يراه بعين عقله .

يجب على الإنسان أن يجاهد بعزيمة لايشوبها ضعف في سبيل الحق ولئن يُلصق بالمجاهد باطل في البداية ، فلا بد له من الفوز في النهاية ، وإن رجوع الإنسان عن الجهاد في سبيل الحق ، ليس إلا جبناً واحتقاراً لمبدأ الصدق الذي يجب أن يتأصل في القلوب ويحكم الشعوب . ينبغي للإنسان عندما يرى تنازعا بين الحق والباطل ، أن يحمله كبر نفسه على تأييد الحق ونشله ، وإزهاق الباطل وخذله ، ويهتف في مثل هذا الموقف كما علمه القرآن أن يهتف ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ .

لايكفي الإنسان أن يعرف الباطل ويسكت عنه بل يجب عليه أن يجاهر بالحق إذا رأى قومه معرضين عنه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ رَأَى الْحَقَّ وَسَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ أَخْرَسٌ» . وإذا سكت ولم ينصح لهم وأخذ أخذهم وأعانهم على غيهم ، كان مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «مَثَلُ الَّذِي يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ مَثَلُ بَعِيرٍ تَرَدَّى وَهُوَ يُجَرُّ بِذَنَبِهِ» . وقد فسّر هذا الحديث الشريف الشيخ عبد القادر المغربي بقوله : أي إن شأن من يتمسك بما كان عليه قومه من الأباطيل ، وهو يعلم أنها أباطيل ، شأن من يتمسك بذنب بعير قد وقع في حفرة عميقة . لاجرم أن البعير إذ ذاك يجره معه الى الهاوية فيهلك . وهذا شأن ذلك المسابير لقومه على الأباطيل ، سوف يهلك معهم ولاينفعه علمه بباطلهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ ظَالِمٌ فَقَدْ تَوَدَّعَ مِنْهَا » .

وأي ظالم في الدنيا أظلم من جاهل سالك على سبيل الباطل ، يجبرك على ترك الطريق الحق واتباعه في ذلك السبيل .

وسمعت من الناس من يقول أن السفور عدل واضح ورأي صالح وفكر حسن ، ثم يعتذر أنه لايجرؤ أن يعلق هو ، الجرس ، ذلك الجرس الذي رأت الفئران أن تعلقه في عنق الهر تخلصاً من شره ، متنزلاً بذلك الى الخوف في سبيل الحق ، كما يخاف الفأر من الهر ، أو كأنه منتظر أن فتاة مثلي تعلقه! فكان بذلك منقصاً من نفسه الناطقة إحدى قوتيهما ، أي قوة الإرادة وهي القوة التنفيذية لقوة الإدراك والتعقل والحكم .

ورأيت بعضهم يؤثر المكر والخداع ، يرى المستنيرين المتجددين من الأمة ، فيؤثر في محادثته إياهم السفور بأحسن العبارات ، مردداً الأحاديث المثبتة فضلاً عن الآيات ، وينحى باللائمة على الجامدين المتقهقرين الذين لم تستر عقولهم بعد رؤية الحقائق ، عاداً إياهم عثرة في سبيل رقي هذه الأمة والعدل فيها بين المرأة والرجل ، ثم أسمع أنه حينما يرى المتقهقرين ويباحثهم ، يدور كمعلم الهواء دوراً فيحدثهم رياءً ومكراً بكل مايرضيهام متناسياً أنه حينئذ في الشرك الأصغر ، وإنه لأصغر من أن يكون من القائلين مع الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه :

(فسري كاعلاني وهذي حقيقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري)

ياأيها المستنيرون ، يامصايح الأمة وقادتها ، أي خير للأمة من ترؤسكم وقيادتكم في الظاهر ، إذا كان زمام قيادتكم في يد من يرون مالاترون ؟ أي فائدة لنا من نور عقولكم إذا غشيه الرياء وكدره ضعف الإرادة ؟ أي فائدة من عقولكم إن لم تحترموا نفوسكم فتصدع بما تأمر به تلك العقول ؟

وأي نفع من تلك العقول إذا تدنأت تلك النفوس زاحفةً الى الرياء ؟
إني - ياأيها المتجدد المراني - لأجل الجاهل الصريح أكثر مما أجلك ، لأنه يعمل بما يعتقد أنه صواب ، أما أنت فإنك تعمل على عكس ماتعلم .

قال الله تعالى : «وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنْبًا قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِدٌ» .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حَشْرًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَصَفَ عَدْلًا وَعَمِلَ بِغَيْرِهِ » .

وقال الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم ، هي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم ، وظنهم أن فساد العامة لادواء فيه ، وأن ما نزل به من الضر لا كاشف له ، وإنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه . مرض سرى في نفوسهم ، وعلة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به في كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الأخبار ، أو خطأهم في فهم ما صح منها ، وتلك علة من أشد العلل فتكاً بالأرواح والعقول ، وكفى شناعة قولها جل شأنه : « إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ »

ورأيت آخرين لا يجروون أن يكونوا البادئين في خلع القديم البالي ، فهم يريدون أن يتقدمهم الناس ليقتفوا أثرهم ، إنهم أصغر من أن يكونوا في طليعة الناهضين . وهنا أرى مسافة الفرق بيننا وبين الغربيين الذين بلغوا ما بلغوا من الرقي ، فيلتهب قلبي حسرة ، ويكاد يذوب .

انظروا الى إجماع رجالنا عن الصدع بالحق الذي يرونه ، وانظروا للمقابلة الى « غاليليو » لما رأى الحق : أحضر أمام النار وقالوا له « إن لم ترجع عن كلامك قائلاً أن الأرض ثابتة فهذا مأواك » قال غاليليو : « ولكنها تدور فخير عندي أن تطفأ حياتي من أن يطفأ نور الحق » . واقتحم النار فمات ، أما ذكره حي ، ورأيه خالد الى الأبد .

ومنهم من يسند الى نساءه الجهل معترفاً بأنه ناشئ من تعودهن الحجاب ، فيخشى أن يصيبهن بانتقالهن الفجائي من الظلام الحالك الى النور الساطع ، ما يصيب الخفاش إذا أبصر النور ، ولكنه عقد النية على سفور بناته اللواتي يستطعن مع علمهن وتربيتهن أن يتبعنه إذا تعودنه منذ الصغر يقول هذا ولا يؤثر في قلبه تشبيه أمه وابنته وزوجته وأخته بالخفافيش ، ولا يعبأ ببقائهن على هذه الحالة المحزنة التي يراها ، فأسألك ياسيدي أن تلازمهن في النور زمناً ، وعينك ترعاهن ، فتعلم أن اعتياد النور ، أهون من اعتياد الظلام ، وتتلافى بذلك احتمال الضرر .

إنه يقول ما قال ، ولا يفتكر أنه لا يجوز تشبيه النساء المحجبات جميعهن بالخفافيش ، فإن منهن مع حجابهن ، من بقين ، لخلوص جوهرهن ، درراً ولآلىء مكنونات ، إذا حرمت عيونهن النور ، فقلوبهن طافحة به ، فعلام يحرم اليوم مثل تلك السيدات ، تلكم النعمة التي ستعطاها البنات .

ياسيدي الرجل :

إذا جاز تقييد حرية المرء دفعاً للضرر المحتمل وقوعه ، أفيجوز أن تمنع الأطفال من المشي خوفاً عليهم من السقوط فيبقوا مقعدين - في أرجلهم شلل .
أفيجوز أن تمنع الطائرات والسيارات ، والسفن من الطيران والسير خوفاً من الخطر المحتمل وقوعه ؟ ناسين ما هنالك من النفع وأسباب الرقي والعمران ؟
أعلى الناس ، ياخير الناس ، أن يستغنوا عن النحل والعسل خوف أن تلسع أحدهم نحلة ؟
أعليهم أن يستغنوا عن الورد خوف أن تشوك أحدهم من الورد شوكة ؟
كثيراً ما كان الرجال في الجاهلية يندون بناتهم خوف إملاق ، يفضي بهنّ الى التبذل في الأخلاق ، وكان ذلك عندهم ، ويا للأسف ، عملاً نبيلاً ، وسيدنا عمر رضي الله عنه ممّن وأدوا أخواتهم في تلك الأيام قبل الإسلام .

فهل تجيز لنفسك ياسيدي الرجل ، أن تدفن في هذه الأيام ابنتك حية ، خوفاً من فقر وإملاق وتبذل في الأخلاق ؟ وهل يبيح لك دينك وعدلك وعقلك ، أن تأتي ضرراً حقيقياً لتتقي ضرراً وهمياً ؟ وهل تحسب استبدالك وأد ابنتك بحبسها داخل منزلها وحرمانها النور والهواء وأسباب الحياة ، نعمة منك عليها ؟
إنّ المنصفين يلومونك جداً ياسيدي ، فاسمع صوت الرصافي من العراق ، داوياً في الآفاق ،
أسفاً مبكّثاً :

«لئن وأدوا البنات فقد وأدنا جميع نساينا قبل الممات»

وسمعت غيره يقول أنّ الكون في كلّ مكان يتمخّض بالحرّيات تبعاً ولا تستطيع قوة أن تمنع الحرية من الظهور حتّى حانت ساعتها ، وقد ظهرت في أوانها وترعرعت في سائر البلدان ، فلا داعي لاستعجالها عندنا ، مهما احتاج اليها المسلمون ، إنها ستلدها لهم السنون .

يقول هذا وقد فاته أنّ الحرية هي وليدة العزم والحزم والإرادة فينبغي لنا أن لا نترك أسبابها غير مهتمّين ، وهي أنفع ما ينفع المسلمين ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «مَنْ لَا يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ» .

تعليق السفور على تعميم التعليم والتهديب دور وتسلسل باطلان

وسمعت آخرين يقولون : يجب أولاً تعميم تعليم البنات ، وتهذيب الشباب ، تعليمًا وتهذيبًا صحيحين ، وبعدئذ يحسن تعميم السفور .

يقولون هذا ، ولا يفتكرون أنهم داخلون في الدور والتسلسل الباطلين ، إذ لا يتعمم تعليم البنات وتهذيب الشباب تعليمًا وتهذيبًا صحيحين - إذا افترض إمكان ذلك - إلا بالسفور كما هو ظاهر لكل ذي عين .

وأي أمة في الدنيا تعلّمت بناتها كلّهن وتهذّب شبّانها كلّهم تعليمًا وتهذيبًا صحيحين ولم يبق فيها مجرمون ناقصون تهذيبًا ، أوجبوا تأليف الحكومات ، لأجل زجرهم ؟ وما هو حدّ التعليم وتهذيب ، وحدّ تعميمهما الذي ينتظرون ، فننتظر معهم وصولنا إليه ؟ إذ أنا كلّما وصلنا الى حدّ يقولون ليس هو الحدّ بل مابعده ، وهكذا من حدّ الى حدّ ، الى يوم القيامة ، حيث نلقى الحق ويالللخجل بوجوه مستترة وعيون مغمضة ، وقلوب مفطرة .

ومع هذا فلم تؤخذ من أقدمت وأخذت قسطها من العلم ، بذنب من جمدت وحفظت قسطها من الجهل ؟

لماذا تتبع المتعلّمة الجاهلة الى الورا ، والى الظلام ، ولا تتّبع الجاهلة المتعلّمة الى الأمام والى النور ؟

لماذا لا تأخذ المتعلّمة بيد أختها الجاهلة لتنقذها من وهدة الجهل الى مستواها ، بل تأخذ الجاهلة بيد المتعلّمة لتنزلها معها الى وهدة الجهل ؟

لماذا لا تنقذ المتعلّمة أختها الغارقة في بحر الغباوة ، ولكن تغرق هذه تلك في ذلك البحر ؟ لماذا يؤخذ الرجل الأديب المهذّب بجريمة الرجل المجرم ، فيعد الرجال كلّهم مجرمين ؟! وإذا قلنا بالسفور ، فهل من عاقل عارف سنن التدرّج ، يظنّ أن هذه الأمة تسفر كلّها دفعة واحدة ؟

هل يشرق نور الحرية على جميع الناس في آنٍ واحد ؟! إذا قلنا بالسفور ، فنحن نعلم أنّ اللاتقات بالسفور ومستحقّاته يسفرن ، أمّا غيرهنّ ، فعليهنّ أن ينتظرن يوم استحقاقهنّ ، وهكذا رويداً رويداً حتّى تصلّ شمس الحرية الى أعلى العرش ، فيعمّ نورها الأمة جمعاء .

لله ما أسعد تلك الساعة! إنّ فيها سعادة الأمة كاملة .

الجامدات موميات، والمتجددات نيرات

كثيراً ما رأينا بأمّ العين في الجرائد والرسائل والمجلات المصورة السيدتين الجليلتين حرم المرحوم فقيد مصر وفقيد الإسلام العظيم سعد باشا زغلول ، وهدى هانم شعراوي وأمثالهما الكثيرات من فضليات السيدات المسلمات الساعيات لإصلاح المجتمع في مصر ، لابسات قبعات بلا ملاء ولا خمار ولا جلباب ، وسافرات تمام السفور ، فهل أخلّ هذا بشرفهنّ وقدرهنّ ؟ أم أنهنّ في الإسلام كالنجوم والبدور في الظلام وهنّ مرسلات الى رفيقاتهنّ من علمهنّ وفضلهنّ أنواراً ؟ « إِنَّ خَيْرَ الْإِسْلَامِ مَنْ نَفَعَ الْإِسْلَامَ » .

وهل يرجو الإسلام من بعض الخاملات الجامدات الموسومات بنقص العقل والدين ، خيراً ونفعاً وصلاًحاً ، أكثر ممّا يرجو من مثل هؤلاء السيدات الفاضلات الجليلات المتجدّات ؟

دونكم بضعة أبيات من تحية أمير الشعراء لهنّ . قال :

قَمْ حَيَّ هَذَا النَّيَّـرَات	حَيَّ الْحَسَنَ الْخَيَّـرَات
وَاخْفُضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً	لِلخَرْدِ الْمُتَحَضَّرَات
مَصْرُ تَجَدَّدَ مَجْدُهَا	بِنِسَائِهَا الْمُتَجَدَّدَات
الْناْفِرَاتِ مِنَ الْجُمُودِ	كَأَنَّهُ شَبَّحَ الْمَمَات
هَلْ بَيْنَهُنَّ ، جِوَامِداً	فَرْقٌ ، وَبَيْنَ الْمَوْمِيَّاتِ

هذه هي مكانة المتجدّات ، وهذه هي منزلة الجامدات ، ياسادتي وسيداتي ، الأول قابلهنّ أمير الشعراء بخفض الجبين هيبةً لهنّ ، ووصفهنّ بأنهنّ مجدّات مجد مصر ، والأخريات وصفهنّ بالموميات وهي الجثث القديمة المحنّطة التي وجدت في القبور . فماذا تخترن ياسيّداتي النساء أن تكنّ ؟

وماذا تريدون ياسادتي الرجال أن تكون نساؤكم ؟ أمن الموميات أم من المتجدّات ؟ وماذا تقولون في تلكم السيدات السافرات ؟ أهنّ يامسلمين غير مسلمات ؟ ويحسن بي الآن أن أذكر أبياتاً ، من قصيدة الشاعر الاجتماعي أحمد الكاشف في استقبال حافل للسيدات هدى هانم شعراوي المشار اليها ، ورفيقاتها الجليلات ، لما عدن من المؤتمر الذي عقدته جمعية اتحاد النساء الدولي في روما . قال :

هدى سرت لا عيناً منعت ولا أذناً
 ذكرت بك الزهراء وهي ظعينة
 وما كنت في المدن التي بك رحبت
 سلاسل تقليد واغلال عادة
 وأطيب واد ما تزكت نساؤه
 يزهد في الحسن السفور منزهاً
 وليس الحجاب الصائن الخدر محكماً
 وربّ أب ألقى الى الزوج بنته
 فإن صانها حرصاً عليها وغيره
 إذا طلبت حقاً من المرء امرأة
 إذا كان أنسياً فانسية له
 إذا عود الإنسان يسراه مثلما
 أحاديثك الحسنى ومطلعك الأسنى
 تحف قريش ركبها ، الطهر والظعنا
 أقل من الغازي الذي فتح المدنا
 كسرت ولا حرباً شهدت ولا طعنا
 وأفضل ملك ماعلى خلق يبنى
 ويغري بذات الحسن اخفاؤها الحسن
 وليس النقاب الحافظ الخز والقطنا
 كما ساق بيعاً ماتملك أو رهنا
 أعد - ولم تذب - لها بيته سجن
 فمن حقها أن لا يسيء بها الظن
 وإن كان جنّاً أصبحت عنده جنّاً
 تعودت اليمنى استوت هي واليمنى

أسمعتم ياسيداتى وسادتي ما يقول رجال مصر ؟ أفلا يجدر بنا أن نعتبر فنذكر أن السر في
 الروح والعمل ، لا في الملابس والحلل ؟

مساوىء التقليد والعادة

خلاصة القول ، إنني رأيت كل من رأيت من الناس يؤثر السفور ويقول به ، ولكن رأيت
 منكم في الوقت نفسه ضعفاً في الإرادة ، وتردداً لا يليق بالرجال ذوي العزائم ، متناسين أن
 أشرف قوى المرء قوتاً الإرادة والعزيمة الصادقة ، اللتان يجب أن تستخدمتا في كل عمل خير
 يرشدنا اليه العقل والعلم .

إنهم يتناسون أن انتظار الأيام والسنين ، حكم بالبقاء في ظلمات الجهل ، جائر على
 بناتنا ، وفي النتيجة علينا .

الدفع أهون من الرفع ياسادتي . فادفعوا ما يتهددكم من بلايا الجهل والتقهقر بين الأمم قبل
 وقوعه ، إنه أهون من رفعه فيما بعد . وهل من العدل ، أن نقيّد بنات اليوم ، بما ستنتقل منه

بنات الغد ؟ ولمَ ذلك ؟ لأننا وبالأأسف نشأنا على الجمود والتردد وضعف العزيمة ، واعتاد الكثيرون منا أن يكونوا عبيد عادة ماتحروا شرها وخيرها . وإنما ورثوها عن الأسلاف ، فحفظوها مصونة مقدسة ، لاتمتد إليها يد تعديل ولاتبديل .

أجل ، إنّ بلية الشرق بعاداته ، وإننا عبيد لما ورثنا ، عبيد لما رأينا فيما يعني العادات .

يدلّ على هذا ، أننا نحن البشر ، بحكم العادة الموروثة عن الأجداد ، عبدنا الحجر ، وعبدنا البقر ، عبدنا النار ، وقد كنّا عمي البصائر ، حتّى أنّ الأم كانت تقذف بولدها الى النار إرضاءً للنار ، وتذبح ابنها بيدها قرباناً للوثن . أجل ، رأينا ما أتبع البشر من عادات فاسدة مضرة ، فهل يجوز لنا أن نعدّ إجماع متبعي تلك العادات في زمانهم على الفاسد والضار ، صواباً ؟

رأينا كلّ هذا ، ولكن كلّ عقيدة ، وكلّ دين . كلّ عادة ، وكلّ مذهب . كلّ لباس ، وكلّ تقليد ، قد تطوّر مع الزمان بالنسبة الى رقي العقول ، وسمو المدارك ، وعلو الهمم والعزائم ، وقوة الإرادة ، حتّى وصلت البشرية الى ما وصلت اليه من المدنية والكمال .

وإنّي لأستطيع القول مع القائلين ، إنّ البشرية ترجع في مدنيّتها الى الوراء ، لأنّ هذا الإعتقاد ، يشير خلافاً للواقع ، الى أنّ أرقى عصور البشرية ، وأفضلها آداباً ، العصر الحجري ، المائل أمامنا في بطون التواريخ ، مع ما فيه من الهمجية .

إن كان هذا اعتقادنا ، فيالتعس البشرية ، إنّنا سنلبث خاملين أو نعود القهقري بدلاً من أن نسير الى الأمام ، مع الأمم الناهضة في طريق التجدد والتطور .

ويالتعسنا إذا لم نر أمهاتنا وزوجاتنا وبناتنا وأخواتنا ، يمشين معنا بجبهات وضّاحة في طريق الحرّية والشرف والمجد ، والتكمّل العقلي والأدبي .

قال الله تعالى : ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فلنغير ما بأنفسنا الى أصلح منه ، تتغير حالتنا إلى أصلح منها .

ربّي ، قبل أن تتوفّى الروح منّي ، متّع عينيّ أن تشهدا ، وأذنيّ أن تسمعا ، أنّ فتیان المسلمين وفتياتهم ، الإخوة والأخوات ، كلا الفريقين المثل الأعلى في الأخلاق والآداب . كلاهما سافر يبادل الآخر الاحترام فكراً وقولاً وفعلاً ، وكلّ أخذ بيد الآخر ، يسيران في طريق المجد ، بوجوه طافحة بماء المروءة والحياء ، لامعة بنور الفضيلة والعفاف .

القسم الثالث

في

الأدلة الدينية

في السفور وتحرير المرأة والتجديد الاجتماعي

ويتخللها أدلة عقلية لأن العقل والدين
متآزران متضامنان في الحق لا يفترقان

أصول الدين وكتب التفسير

سادتي وسيداتي :
إن أصول الدين في الاسلام أربعة : الكتاب والسنة والإجماع ، ثم القياس على مذهب
السنيين ، والعقل على مذهب الشيعة .
أقول هذا لأن خطابي موجّه للمسلمين عامة ، لالفئة منهم خاصة .
فلنبتدىء بالبحث في آيات الكتاب .
إن آيات الكتاب التي دار عليها حديث الفقهاء والمفسرين ، والتي تدخل في موضوعنا ،
أربع ، لاخامس لها . آيتان مختصتان بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . وآيتان للمسلمات
عامة . سأذكرها بنصوصها ، وأنقل بالحرف بعد كل آيتين ، ماذكر بشأنهما في كتب التفسير
التي راجعتها وهي :
التفسير الموسوم بأنوار التنزيل ، وأسرار التأويل للقاضي البيضاوي .
تفسير القرآن الجليل المسمى : لباب التأويل في معاني التنزيل ، للإمام علاء الدين
الصوفي المعروف بالخازن .
التفسير المسمى : بمدارك التنزيل ، وحقائق التأويل ، للإمام عبد الله النسفي وهو حاشية
على تفسير الخازن .
التفسير المسمى : مجمع البيان ، في تفسير القرآن ، للإمام الطبرسي . وسأبين بعد نقلي
تفسير الآيتين الأوليتين . ثم بعد نقلي تفسير الآيتين الاخيريتين ، الملحوظات التي اقتضتها
الحال .

آيتا الحجاب والقور في البيوت مختصتان بنساء النبي ﷺ

وأقوال المفسرين الكرام، ونظرات لي فيها

فالأيتان الأوليان هما ، الآية الثانية والثلاثون ، والآية الثالثة والخمسون من سورة الأحزاب :
﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ . إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ (بفتح القاف وسكون الراء) فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ .

و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طُعِمْتُمْ فانتشروا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ . وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ .

فاليكم أيها السادة من التفسير ما يتعلق بالآية الأولى :

قال البيضاوي صفحة (٥٥٧) « وقرن في بيوتكن » من وقر يقر وقاراً ، او من قرَّ يقرُّ حذفت الأولى من رائي إقررن ونقلت كسرتهما إلى القاف فاستغني بها عن همزة الوصل ، او من قار يقار (اي مشى على اطراف قدميه لنلا يسمع صوتهما) .

وقال الخازن صفحة (٦٠٥) « قيل هو أمر من الوقار أي كنَّ أهل وقار وسكون »

وقال النسفي صفحة (٦٠٥) « قرن » اصله من قار يقار او من وقر يقر وقاراً ، أو من قرَّ يقرُّ حذفت الأولى من رائي إقررن قراراً من التكرار ونقلت كسرتهما إلى القاف .

﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ اي لا تتبخترن في مشيتكن تبرجاً مثل تبرج النساء

في أيام الجاهلية القديمة . قيل هي ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، وقيل الزمان الذي ولد فيه ابراهيم ، كانت المرأة تلبس درعاً - اي قميصاً - من اللؤلؤ فتمشي في وسط الطريق وتعرض نفسها على الرجال .

وقال الخازن صفحة (٦٠٥ و ٦٠٦) : «التبرج هو التكسر والتبختر والتغنج وإبراز المحاسن للرجال . قبل الجاهلية الأولى هو ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم . وقيل هو زمن داود وسليمان عليهما السلام .

كانت المرأة تلبس قميصاً من الدرر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه ، وقيل كان في زمن نمرود الجبار ، كانت المرأة تتخذ الدروع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي به وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها للرجال . وقيل أن بطنين من ولد آدم عليه السلام كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكانت رجال الجبال صباحاً وفي النساء دمامة (أي قبح) وكانت نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة ، وأن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل وأجره نفسه وكان يخدمه واتخذ شيئاً مثل الذي يزمر به الرعاة ، فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حولهم ، فأتوهم يستمعون اليه ، واتخذوا عيداً يجتمعون اليه في السنة فتتبرج النساء للرجال وتتزين الرجال لهن . وأن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك ، فرأى النساء وصباحتهن ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهن ، فذلك قوله تعالى ﴿ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ . أما الجاهلية الأخرى فقليل أنها جاهلية الفسوق والفجور في الاسلام .

قلت : أرجو ممن يتغنى بالأزمة القديمة ، ويريد الرجوع الى الوراء ، أن يري ، إن صحت الرواية ، كيف كان التبرج ، وكيف كانت الأخلاق في تلك الأزمنة ، زمن ابراهيم وداود وسليمان عليهم السلام ، والزمن الذي مر بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

وقال : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت» نصب على النداء وعلى المدح وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته .

وقال الطبرسي صفحة (٢٤٦) : اختلفوا في تفسير أهل البيت ، فقال عكرمة أراد أزواج النبي لأن أول الآية متوجهه اليهن ، وقال الخدري وأنس : إن الآية مختصة برسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وعلى هذا ذهب الشيعة فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلّقها بغيرهم .

وقال البيضاوي صفحة (٥٥٧) : «واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة» هو تذكير بما أنعم عليهن من حيث جعلهن من أهل بيت النبوة ومهبط الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الإلتفاء والإلتزام فيما كلفن به . «إن الله كان لطيفاً خبيراً» أي يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون من أهل بيته .

وقال النسفي والبيضاوي : فلما نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، قالت نساء المسلمين فما نزل فينا شيء فنزلت الآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ، وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ۝ ﴾ .

واليك من التفسير ما يتعلق بالآية الثانية :

ذكر المفسرون المشار اليهم لتنزيلها أسباباً أربعة :

السبب الأول : ذكر الخازن في الصفحة (٦١٧) عن أنس بن مالك أنه قال : « إني أعلم الناس بالحجاب حين أنزل ، وكان أول ما نزل في مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش ، حين أصبح النبي صلى الله عليه وسلم بها عروساً ، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ، ثم خرجوا وبقي رهط عند النبي صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبي صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا ، فمشى النبي صلى الله عليه وسلم ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة ، ثم ظن أنهم قد خرجوا ، فرجع ورجعت معه ، حتى إذا دخل على زينب فإذا هم جلوس لم يقوموا ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم ورجعت ، حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم قد خرجوا ، فرجع ورجعت فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه بالستر وإنزال الحجاب » .

السبب الثاني : قال الخازن والنسفي صفحة (١٦٨) عن ابن عباس أن أناساً من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام ، ويقعدون ناظرين أي منتظرين لإناءه ، أي لإدراكه أو لوقت الطعام وساعة أكله ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية .

وقال النسفي : « روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وأمر أنس بن مالك أن يدعو بالناس ، فترادفوا أفواجاً يأكل فوج ويخرج ، ثم يدخل فوج الى أن قال يارسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقال ارفعوا طعامكم ، وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا . فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجرات ، وسلم عليهن ودعون له ورجع ، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فتولى ، فلما رأوه متولياً خرجوا فرجع . ونزلت الآية » .

السبب الثالث : قال الخازن صفحة (٦١٧) : « عن عائشة ، أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن في الليل إذا تبرزن الى المناسع ، أي المواضع الخالية لقضاء الحاجة . وهي

صعيد أفيح أي أرضاً واسعة ، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم ،
حجب نساءك ، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج
النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من ليالي عشائه ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : « ألا قد
عرفناك ياسوده ، حرصاً على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب » .

وقال أيضاً عن أنس وابن عمر ، أن عمر قال : « وافقت ربي بثلاث قلت يا رسول الله لو
اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فتنزلت الآية ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى﴾ وقلت يا رسول
الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت الآية ، واحتجبن ، واجتمع
نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً
منكن ، فنزلت الآية كذلك » .

السبب الرابع : قال البيضاوي صفحة (٥٦٢) : « قيل أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه
بعض أصحابه ، فأصاب يد رجل يد عائشة ، فكره النبي عليه الصلاة والسلام ذلك فنزلت الآية » .
قلت : يفهم من هذا أن المسلمين والمسلمات ، كانوا يجلسون في المجالس وعلى
الموائد معاً .

وقال الخازن صفحة (٦١٨) : لم يكن لأحد بعد آية الحجاب أن ينظر الى امرأة من نساء
رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة .

قلت : أولم ينظر الناس بعد آية الحجاب الى سيدتنا عائشة ، لما كانت على رأس الجيوش
داخل المعركة ، حيث قطع كما يروى على خطام جملها سبعون يداً ؟
أما سبب قوله تعالى : «ولأن تنكحوا أزواجه من بعده أبدأ» .

قال الخازن والنسفي صفحة (٦١٨) : إن طلحة بن عبد الله من أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : « إذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأنكحن عائشة » .

وقال الطبرسي صفحة (٢٥٠) : قيل أن رجلين قالوا ، أينكح محمد نساءنا ولا ننكح
نساءه ، والله لئن مات لنكحنا نساءه ، وكان أحدهما يريد عائشة والآخر يريد أم سلمه ،
فأخبر الله أن ذلك محرّم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته تطيباً لنفسه وتسريراً
لقلبه واستفراغاً لشكره . فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمة ، حتى يتمنى لها الموت
قبله ، لئلا تنكح بعده .

وقال النسفي والخازن صفحة (٦١٨) : أن الضمير في سألتموهن لنساء رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، بدلالة بيوت النبي لأن فيها نساءه .

المفسرون مجمعون على أن آية قرن وآية الحجاب مختصتان بنساء النبي والأدلة على اختصاصهما بهن

قلت : أن ثقات المفسرين والفقهاء متفقين على أن هاتين الآيتين خاصتان بنساء النبي دون غيرهن ، وقد اختلف المفسرون في أسباب تنزيلهما على ما نقلت ، فبين كل ما بلغه من الأخبار المروية ، ولكن الأسباب التي ذكروها ، مع اختلافها اختلافاً بيناً ، لا يخرج واحد منها عن أن يكون مختصاً بهن لا ينطبق على غيرهن ، وفي نص الآيتين عينه ، تصريحات بذلك جلية ، وهي « يانساء النبي ، بيوت النبي ، أهل البيت ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً » .

وقد صرح النسفي في تفسيره ، أنه لما نزلت الآية في نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت نساء المسلمين فما نزل فينا شيء فنزلت الآية « إن المسلمين والمسلمات... » .

وقلت : لو عمّت هاتان الآيتان المسلمات جميعهن ، لما قالت نساء المسلمين للنبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها ، فما نزل فينا شيء ، ولما نزلت حينئذ الآية « إن المسلمين والمسلمات... » .

وقلت : ألا ترى الفرق بين الآيتين المنزلتين لنساء النبي ، والآية المنزلة بعدهما للمسلمات ؟

وقلت : لم يذكر الله في آية المسلمات حجاباً ولا نقاباً ، وإن من القواعد الفقهية « لا ينسب الى ساكت قول » .

وقلت : إن سيدنا عمر ، ذلك الحكيم الذي كان يدرك مافي حجاب المسلمات جميعهن من العسر والضرر للأمة ، والذي دعا ، بعد أن توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، امرأته أم كلثوم لتأكل معه ومع رسول سلمة بن قيس ، والذي له في نزول آية الحجاب اليد الطولى ، ما قال رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم « احجب نساء المسلمات » وإثما قال : « احجب نساءك » فنزلت الآية .

وقلت : لو كانت آية الحجاب نزلت عامة لجميع النساء ، لما لزم إنزال آية الغض من البصر ، وضرب الخمر على الجيوب ، وعدم إبداء الزينة إلا ما ظهر منها .

بناءً عليه ، إن كل من يدعي أن الآيتين عامتان للنساء جميعاً ، مع مافيهما من التصريحات

الجلية ، وبعد كل ما ذكر ، فقد أراد ما لم يرده الله ، وأحدث عسراً لا يوافق مصلحة الأمة ، ولا يمكن معه السير الحق في طريق الحياة .

فقد قال الخازن ، كما مرّ ، لم يكن لأحد بعد آية الحجاب أن ينظر الى امرأة من نساء النبي صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة ، فلو كان أمر (قرن) من قرّ ، وعمّت آية الحجاب كل النساء ، وكان لا يجوز النظر اليهنّ ولو متنقبات ، وأنه لا يجوز نكاحهنّ بعد أزواجهنّ ، لكان ما يحدث من خروج المتنقبات في المدن ، وهنّ يملأن الأسواق والحقول ، والنظر اليهنّ ، ولكان ما يعقد من نكاح الأرامل والمطلقات في كل مكان ، من النكر والعصيان ، ولندّر معاذ الله في الإسلام ، من لم يرتكب هذا المنكر .

غير أنه على افتراض القول ، خلافاً للنص ولكل ما ذكر ، أنّ آية النساء عامة للمسلمات جميعاً ، فحصل تردّد في أن تكون عامة أو خاصة ، أفليس من الواجب علينا ، أن نقبل من الأقوال والتفاسير ، ما يستوجب التيسير ؟ وهل يجوز أن يحصر التيسير في نساء القرى ، وحينما ينتهي الأمر الى المدنيّات يغلب العسر على اليسر ، خلافاً لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

اجتماع الرجال والنساء أمر واقع وقد أباحه الشارع

وقلت : يفهم من أقوال المفسّرين التي ذكرتها ، أنّ اجتماع المسلمين والمسلمات ، في المجالس ، وعلى الموائد ، كان أمراً واقعاً . وبينما كان الحال على هذا المنوال ، أمرت نساء النبي بالحجاب ، ومنع أن يجتمعن والرجال إلا من وراء حجاب بأمر الآية الخاصة بهنّ ، وما نزل بعدها آية تمنع . ومن القواعد الفقهية (الأصل بقاء ما كان على ما كان) و (ما ثبت بزمان يحكم ببقائه ما لم يقم الدليل على خلافه) .

وقلت : يدلّ على ذلك ، أنّ أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه ، لم يتردّد في دعوته أم كلثوم ، بنت علي بن أبي طالب الى الأكل معه ومع رسول سلمة بن قيس .

قال الطبري : بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بواقعة حربية ، فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر ، قال : « فاستأذنت وسلّمت فأذن لي ، فدخلت عليه ، فإذا هو جالس على مسح متكىء على وسادتين من آدم ، محشوتين ليفاً ، فنبت

التي بإحداهما فجلست عليها ، وإذا بهوؤ في صفة فيها بيت عليه سْتِيرُ . فقال : « يأمّ كلثوم غداءنا » . فأخرجت اليه خبزة بزيت ، في عرضها ملح لم يدق ، فقال : « يأمّ كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا ؟ » .

فلو رأى سيّدنا عمر رضي الله عنه أنّ سفور الوجه ، واجتماع الرجال والنساء ، منهيّ عنهما لما دعا امرأته لتأكل على المائدة معه ومع رسول سلمة .

وجاء في الأغاني والاتليدي ، ومقدمة ابن خلدون ، إنّ المدرّسات كنّ في أوائل عهد الدولة العبّاسية ، ينشئن في منازلهنّ قاعات فسيحة . يستدعين اليها الشعراء والعلماء والأدباء ، وكنّ يتزاحمن في ذلك تزاحماً شديداً ، ويتنافسن تنافساً عظيماً ، فاكتسبن شهرة واسعة وصيتاً مجيداً ، ثمّ تحولت كلّ قاعة من تلك القاعات الى مدرسة جامعة ، كان يقصدها كلّ يوم عدد وافر من الشعراء والأدباء والظرفاء للمناقشة في العلوم المختلفة .

وكانت المرأة تستقبل الزائرين والزائرات ، دون فرق بين الجنسين وتحيي الليالي بالحفلات الأدبية .

وجاء في كتاب (مركز المرأة في الاسلام) للأمير علي خان ، وفي كتاب (حقوق المرأة في الاسلام) لأحمد آغايف ، أنّ فاطمة الزهراء بنت النبي صلى الله عليه وسلّم ، كانت تلقي الدروس والمحاضرات ، على ملاّ ممتزج من الرجال والنساء ، وأنّ الشیخة شهده الملقبة بفخر النساء ، كانت في القرن الخامس للهجرة ، تلقي المحاضرات والدروس على الجمهور ، في جوامع بغداد ومدارسها ، في الآداب والتاريخ ، والتوحيد والفقه ، وكان يحضر محاضراتها كثير من أهل الفضل والعرفان . ولها في تاريخ الاسلام ، ما لأعظم العلماء من سموّ المنزلة والإحترام ، ومثلها مثل أمّ الخير وأمّ ابراهيم ، فقد كانتا تلقيان الدروس على طلبة العلم في بغداد ، ومثلهنّ أمّ سعد بنت عصام المعروفة بسعدونه ، كانت تقرأ الحديث والكلام في مدرسة قرطبة .

وقال ابن خلكان ، وابن مصعب ما ملّخصه : وكانت سكينه بنت الإمام الحسين ، وحفيدة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلّم ، من أجمل النساء وأظرفهنّ ، وأحسنهنّ أخلاقاً ، وأوفرهنّ ذكاءً وعقلاً وأدباً ، واحدهنّ جنائاً ، فاحرزت قصب السبق في مضمار الأدب ، وكان لها تأثير عظيم في نفوس معاصريها ، فكانوا يحذون حذوها في جميع ما تضعه من الأزياء والعادات ، حتّى أنها تفنّنت في ذلك ، ومما وضعته الطرة السكينية المعروفة باسمها الى يومنا هذا . والطرة هي قصاص الشعر حيث تنتهي نبتتها في مقدمة ويقال لها (غرة) ، وكانت تصفف جمتها (أي مجتمع شعر رأسها) تصفيفاً لم يرَ أحسن منه . وشهرة سكينه لم تقتصر على

الأزياء ، بل تناولت الأدب الرائع ، والمعارف الواسعة ، وحسن المحاضرة ، حتى أصبح منزلها كعبة القصد ، من المشترعين والشعراء والعلماء ، وحذا حذوها في ذلك ، كثير من نساء الطبقة العليا في ذلك العصر الزاهر ، وكانت سكيئة تستقبل الزائرين ، الذين كانوا يتوافدون على منزلها ، من جميع أنحاء الخلافة ، لاستماع محاضراتها ، وكانت تزين المجلس بحسن أدبها ، ووفرة ذكائها ، وبالأسئلة التي كانت تطرحها على الأدباء والشعراء ، وجلة القوم .

وجاء في ابن الأثير وابن جبير ، والمسعودي ، والسيوطي ، والأغاني ، وحضارة الاسلام ، والدر المنثور ما ملخصه ، ان جميع الأعمال المجيدة والأفعال الحميدة ، التي اصطنعها المهدي ، وانشاء معاهد العلم التي أكسبته الشهرة الواسعة أنها جميعاً تنسب الى تأثير زوجته خيزران ، وتحريضها إياه على القيام بها ، وكانت الملكة خيزران تستقبل في دار الخلافة ، جميع العمال والحكام والعلماء والشعراء ، وقد تعلق بها الناس تعلقاً شديداً وأنزلوها سويداء قلوبهم . وإن زبيدة زوجة هارون الرشيد . والعباسة أخته ، كانتا تحضران في مجلس الرشيد تحضران العلماء والأدباء ، وإن قطر الندى زوجة الخليفة المعتضد وأمّ المقتدر ، كانت تقابل في حضرة الوزراء وأرباب المناصب ، سفراء الدول الأجانب ، وكانت تجلس للمظالم تنظر في رقاع الناس كل جمعة ، وكان القضاة والأعيان يحضرون مجلسها .

وذكر الرحالة الشهير ابن بطوطة زيارته نساء سلاطين التتر المسلمات ، وشرح حال مجالسهن ومقابلتهن ، جميع أركان سلطتهن ، وأفراد تبعتهن ، الى أن قال عند زيارته إحداهن (أيت كججك) (فلما دخلنا عليها أمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد ، وجماعة الطلبة والمشايخ وقابلناهم بحضورها) .

وإنه لأمر مشهور أن الإمام الشافعي أخذ العلم عن نفيسة حفيدة علي بن أبي طالب ، زوجة اسحق بن جعفر الصادق رضي الله عنهما .

إن ما ذكرته ، وهو قليل من كثير ، مما يدل على أن المسلمات كن يبارين الرجال في الرقي ، وإنهن داومن بعد الآيتين على الإجتماع بالرجال ، ومما يدل أيضاً على ذلك ما قاله الأمير علي القاضي المشار اليه إذ نشر مقالاً جليلاً موضوعه النساء ترجم للمقتطف جاء فيه : إن الذي أمر بفصل النساء عن الرجال في الولائم والحفلات العمومية هو المتوكل «نيرون العرب» ، ولكن ، بقيت النساء يختلطن بالرجال الى أواخر العصر السادس للهجرة ، وكن يقابلن الزوار ويعقدن مجالس الأنس ويمضين الى الحروب لابسات الحديد ويساعدن إخوتهن وأزواجهن في الدفاع ، عن المعقل والقلاع .

ومما يدلنا على ذلك أيضاً ، أن نساء المسلمين سكان القرى ، المبتعدين عن مظاهر

المدنية - ودواعي التطور - والذين هم أحفظ الناس للتقاليد الموروثة ، وأشدّهم تمسكاً بالعادات ، إنهن يختلطن بالرجال ويجتمعن في الحقول والبيوت وفي مجالس المسامرات والحفلات وفي سائر المجتمعات .

* * *

«قَرْن» أمر من قار لا من قر

سادتي وسيداتي :

ثبت ممّا تقدّم أنّ اجتماع الرجال والنساء دام في الإسلام عصوراً ، وأنّ آية الحجاب مختصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلّم .

ولكن بما أنّ بعض رجالنا يداومون على التمويه بالدين ظلماً لنسائهم كما اعتادوا قائلين لهنّ خلافاً للنص الصريح ، أنّ أمر «قَرْن» يعمّ النساء جميعاً فأرى من الواجب أن نبحث قليلاً إيقاظاً لأخواتي في أمر «قَرْن» بفتح القاف وسكون الراء .

إنّ المفسّرين المشار اليهم فهموا من أمر «قَرْن» أحد المعاني الثلاثة .

الأول : «قَرْن» أمر لهن من قار يقار على وزن خفن ، فعل خاف يخاف ، ومعناه كما جاء في المعاجم مشى على أطراف قدميه لتلا يسمع صوتهما ولما ملء الحق أن نأخذ بقول المفسّرين هذا لأنّ المعنى الذي فيه طبيعي لا تكلف فيه ، ومطابق تماماً لقواعد اللغة ، وموافق للمصلحة وإرادته تعالى ليسر لا العسر ، ويؤكد لنا هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَضُرِّيَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ - أي كما قال البيضاوي - لتتقنع خلاخيلهنّ فيعلم أنهنّ ذوات خلاخيل فإنّ ذلك يورث ميلاً في الرجال .

الثاني : «قَرْن» من وقر يقر أي كن أهل وقار وسكون .

إنّا نريد أن نأخذ بهذا المعنى فهو موافق كالأول . ولكن تعارضنا فيه قواعد اللغة لأنّ الأمر للنساء ليس «قَرْن» - بفتح القاف وسكون الراء - من وقر يقر كوعد يعد بل «قَرْن» بكسر القاف ، وهذا مخالف لما ورد في الآية على ما هو مشاهد في نسخ القرآن من الطباعات المختلفة زماناً ومكاناً .

المعنى الثالث : «قَرْن» من قر يقر أي ثبت وسكن وهو المعنى الذي يريده بعض رجالنا . إنّ هذا القول تعرضنا فيه قواعد اللغة كلّ المعارضة ، فلو قلنا كما قال البيضاوي والنسفي أن

الأمر كان لنساء الرسول من فعل قرّ يقرّ بكسر القاف ، لوجب أن يكون الأمر لهنّ «إقرن» ولو جوز حذف الراء الأولى تخفيفاً . والإحتفاظ بكسرتها فنقلت الى القاف كان لها منها «إقرن» بكسر الهمزة والقاف ، ولو استغني عن همزة الوصل لما كان لنا «قرن» بفتح القاف بل «قرن» بكسرها وهذا مخالف لورودها .

وأرانا في غنى عن سلوك طرق الحذف والنقل والاستغناء للوصول الى أمر «قرن» من فعل قرّ يقرّ ، دون بلوغ الغاية التي سلكوا من أجلها سبلاً وعرة لم تؤد كما ترون اليها . فما أولانا بالإقتصار على اتباع الطريق السهل الواضح ، الذي لا ينتهي بسالكه إلا الى الحقيقة ، وهي أن أمر «قرن» من فعل قار يقار قوراً ، وزن خاف يخاف خوفاً ، ومعناه كما سبق بيانه ، «امشين في بيوتكنّ على أطراف أقدامكنّ ، لئلا يسمع صوتها» . إن هذا المعنى لامحل للريبة في صحته ، وأمّا معنى «قرن» من قرّ فهو مستوجب الريبة بالنظر الى ماسبق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (دَعُ مَا يُرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيْبُكَ) . واعيد سادتي الرجال أن يكونوا مصداقاً لقوله تعالى «يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِيَاءً» أي يحرفونه فيشرعون يقرأون (قرن) بكسر القاف ، ليستخرجوا هذا المعنى الثالث الذي يريدونه للنساء ولا يريده الله لهنّ ١٠

إن الحقيقة ، ياسادتي ، أمّا قرن بفتح القاف أو قرن بكسرها فإن كانت بالفتح بطل معنى وقر وقرّ ، وإن كانت بالكسر بطل معنى قار فجمع المفسّرين في لفظ قرن الواحد معنى وقر وقرّ مع معنى قار ، كأنهم عدّوها مفتوحة القاف ومكسورتها في وقت واحد ، ليس من الجائز وليس من الصواب لأنه من قبيل جمع النقيضين على أنه لا يمكن اعتبارها مكسورة القاف بعد أن ترى عيوننا أن طبعات القرآن المختلفة زماناً ومكاناً متّفكة على فتحها .

فلا يظنّ الرجال الذين يريدون أن تشمل آية الحجاب المسلمات جميعاً ، إن أمر «قرن» الذي تبين معناه ينفعهم بعد في قولهم : إن أصلح الأمور لنساء المسلمين ولرجالهنّ ، أن يقررن في بيوتهنّ ولا يخرجنّ من خدورهنّ إلا لقبورهنّ .

ومما يبدو لي ، أن سيّدتنا عائشة رضي الله عنها ، وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نأخذ نصف ديننا عنها ، قد أثرت المعنى الحقيقي ، وهو المعنى الأوّل الذي قالوه ، وإلا لما برحت بيتها متدخلة في مسألة الخلافة العظمى ولما ترأّست الحزب المعارض لعلي رضي الله عنه ، وحاربت مع الجيوش ، وخطبت في الناس تحملهم على الإنضمام الى الحزب الذي كانت تؤيّده . ومثلها أم عطية ، فقد غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كانت فيها تداوي الجرحى ، وتقوم على المرضى . وإنّ قبول النبي صلى الله عليه وسلم مثل أم عطية في غزواته ، لدليل على أن معنى «قرن» في بيوتكنّ ، ليس من قرّ يقرّ أي اثبتن في بيوتكنّ ولا تبرحنها .

لقد أبدت مابدا لي ياسادتي في أمر « قرن » الجليل . ولا ينبغي لنا أن يهولنا الوهم ،
فنحجر على عقولنا أن تفكر في ما قال القائلون ، وما فسّر المفسّرون ، وقد أمرنا تعالى بتعقل
آياته والتفكر فيها .

وإنّ ما قد بحث فيه ، مسألة لغوية تتعلق بأمورنا الحيوية . فحقّنا في تعلّقها وتفهمها
وتفهمها لا يقبل نزاعاً .

أنّى يمنع الرجل المرأة التعقل وعلم لسانها العربي ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

استطراد لأقوال المفسرين الكرام

في ما يتعلق بالجغرافيا والتاريخ والفلك ونظرات لي فيها

سادتي وسيداتي :

إنّ المفسّرين ماكانوا في تفسير (قرن) إلا مخطئين .

وهل تظنون أنّ في الإسلام من لا يخطئ ؟ لو كان كلّ مجتهد مصيباً لما اختلف
المجتهدون . وأيّة مسألة في الشرع ليس لها فيها أقوال وفتاوى ومذاهب متنوّعة مختلفة ، أو
متناقضة مع أنّ الحق والصواب واحد ؟ أيمن أن تكون كلّها مع تباينها صواباً ؟ كلا ، بل يمكن
أن تكون كلّها خطأ والحقيقة محتجة .

فإذا رأينا خطأ بيناً مغايراً للمحسوس أو للحقائق العلمية التي بلغت درجة البداهة ، أعلينا
أن نرضى بها ونغمض عيوننا ، ونغلق قلوبنا ، عن رؤية الصواب ومعرفته ؟ لاشكّ أنّ كلّاً منكم ،
أيها السادة والسيدات ، من أهل الفضل والعلم ، جوابه على هذا ، لا .

إنّ ماقلته أيها السادة والسيدات لابدّ لتأييده من البرهان ، ولا ريب أنّ كلّ نفس تشعر
بظماً لإستقاء الحقيقة ، إنّي أذكر من شتيت أقوال المفسّرين قليلاً من كثير يتعلّق بعلم الأرض ،
أي الجغرافيا ، وبعلم التاريخ وبعلم الفلك ، تلك علوم مادية مشتركة بين العالمين يجب اشتراكنا
كلّنا في تفهمها على الوجه الصحيح ، ولا يجوز أن يستقل فيها المفسّرون . أذكر في أوّل الأمر
الآيات الكريمة الآتية : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَاهُ فِي
الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، حتّى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة

(وفي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وأبي بكر حاميه) وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا،
حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلَعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا، ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا،
حَتَّى إِذَا بَلَغَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ
يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا؟
وهنا أجتزئ بما يأتي من أقوال المفسرين لهذه الآيات الكريمة ولم تكن أقوالهم متفقة ،
فذكر كل منهم روايات شتى «الصفحات الـ ٢٩٩ ومايليها من البيضاوي والـ ٢٧٥ ومايليها من
الخازن والنسفي والـ ٨٨ ومايليها من الطبرسي» .

«إِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ اسْمُهُ اسكندر بن فيفلوس الرومي ، لَمَّا مَاتَ أَبُوهُ جَمَعَ مَلِكُ الرُّومِ ، ثُمَّ
حَضَرَ إِلَى مَلُوكِ الْعَرَبِ وَقَهَرَهُمْ ، وَمَضَى حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْضَرِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مِصْرَ وَبَنَى
الْأَسْكَندَرِيَّةَ وَسَمَّاها بِاسْمِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ أَرْمِينِيَّةَ وَبَنَى السُّدُودَ وَالْأَبْوَابَ ، ثُمَّ اسْتَوْلَى عَلَى مَمَالِكِ
الْفَرَسِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْعِرَاقِ وَمَرَضَ بِشَهْرٍ زَوْرَ ، وَمَاتَ فِيهَا وَكَانَ عَمْرُهُ أَلْفًا
وِثَلَاثِينَ سَنَةً .»

وقيل اسمه مرزبان بن مرزبة من اليونان ، وقيل أنه من حمير اسمه أبو كرب بن عبرين
بن إفريقين .

ولتسميته ذَا الْقَرْنَيْنِ روايات شتى منها : قيل كان له قرنان تواريهما العمامة ، وقيل أنه
أمر قومه أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ فَضَرَبُوهُ بِالسَّيْفِ عَلَى قَرْنِهِ الْأَيْسَرِ فَمَاتَ فَأَحْيَاهُ اللَّهُ ، فَسَمِيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ ،
وَزَادَ عَلَى ذَلِكَ صَاحِبُ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ بَقِيَ بَعْدَ الضَّرْبَةِ الْأُولَى مَيِّتًا خَمْسَمِائَةَ عَامًا
ثُمَّ بُعِثَ ، وَبَقِيَ بَعْدَ الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ خَمْسَمِائَةَ عَامًا ثُمَّ بُعِثَ ، وَقِيلَ رَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ دَنَا مِنَ
الشَّمْسِ حَتَّى أَخَذَ بِقَرْنَيْهَا فِي شَرْقِهَا وَغَرْبِهَا فَسَمَّوْهُ ذَا الْقَرْنَيْنِ ، وَقِيلَ انْقَرَضَ فِي وَقْتِهِ قَرْنَانِ
مِنَ النَّاسِ وَهُوَ حَيٌّ فَسَمِيَ بِذَلِكَ .

وقالوا أَنَّ السَّدَّيْنِ الَّذِينَ بَنَاهُمَا ذَا الْقَرْنَيْنِ هُمَا وَرَاءَ بَحْرِ الرُّومِ بَيْنَ جَبَلَيْنِ هُنَاكَ يَلِي
مُؤَخَّرَهُمَا الْبَحْرُ الْمَحِيطُ ، وَقِيلَ أَنَّهُمَا وَرَاءَ دَرْبِنْدِ وَخِرَاسَانَ مِنْ نَاحِيَةِ أَرْمِينِيَّةٍ وَأَذَرْبَيْجَانَ ، وَقِيلَ
فِي أَوَاخِرِ الشَّمَالِ فِي مَنْقَطِعِ أَرَاضِي التُّرْكِ .

وقيل أَنَّ الْوَائِقَ بَعَثَ مِنْ يَثْقُ بِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ لِيَعَايِنُوا السَّدَّ فَخَرَجُوا مِنْ بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ حَتَّى
وَصَلَوْا إِلَيْهِ وَشَاهَدُوهُ فَوَصَفُوهُ قَائِلِينَ أَنَّ بِنَاءَهُ مِنْ لَبْنٍ حَدِيدٍ مَشْدُودٍ بِالنَّحَاسِ الْمَذَابِ وَعَلَيْهِ بَابٌ
مَقْفَلٌ .

وقالوا أَنَّ ارْتِفَاعَ السَّدِّ مِائَتَا ذِرَاعٍ وَعَرْضُ الْحَائِطِ خَمْسُونَ ذِرَاعًا وَأَنَّ الْبَعْدَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ

مِائَةُ فَرَسَخٍ .

وقالوا أن وراء هذين السدين من ولد آدم أمتين هما ياجوج وماجوج منهم الترك ، وإن ولد آدم كلهم جزء وهم عشرة أجزاء ، وإنهم متصلون بنا من جهة الأب آدم دون الأم حواء ، وإن كل أمة منهما أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح . وهم ثلاثة أصناف ، صنف منهم طوله مائة وعشرون ذراعاً ، وصنف منهم عرضه وطوله سواء مائة وعشرون ذراعاً ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالأخرى وهم لا يمرّون بفيل أو وحش ولا خنزير ، إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه ، وإن من أمتي ياجوج وماجوج صنفاً قصيراً جداً طول الواحد منهم شبر واحد .

وقالوا في الصفحة الـ ٢٩٦ من البيضاوي وفي الصفحة الـ ١٦٩ من الخازن والنسفي في تفسير آية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ إن مجمع البحرين هو ملتقى بحر فارس وبحر الروم ممّا يلي المشرق .

وقال الطبرسي في الصفحة الـ ٧٣٢ في تفسير آية ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبْكَ﴾ أي ذات الحسن والزينة عن علي رضي الله عنه ، وروى علي إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن الحسين بن خالد بن أبي الحسن قال : قلت له أخبرني عن قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحَبْكَ﴾ فقال محبوكة الى الأرض ، وشبك بين أصابعه . فقلت كيف تكون محبوكة والله تعالى يقول رفع السماء بغير عمد ؟ فقال : سبحانه وتعالى أليس يقول بغير عمد ترونها ؟ قلت بلى ، قال فثمّ عمد ولكن لا ترى ، فقلت كيف ذلك جعلني الله فداك ؟ قال ، فبسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال هذه أرض الدنيا ، والسماء الدنيا فوقها قبة ، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة ، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة ، ثم هكذا الى الأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة ، قلت : فما تحتنا إلا الأرض واحدة ، قال : وما تحتنا إلا أرض واحدة . وإن الست لفوقنا .

وقال البيضاوي في الصفحة الـ ٥٨٥ في تفسير آية ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي لحد معين ينتهي اليه دورها والمنتهى مقدر لكل يوم من المشرق والمغرب ، فإن لها أي الشمس في دورها ثلاثمائة وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود اليهما إلا الى العام القادم .

وقال الخازن والنسفي في الصفحة الـ ٢٧٦ والطبرسي في الصفحة الـ ٨٩ نقلاً عن التوراة إن الشمس تغرب في ماء وطين أسود . وقال الطبرسي تغرب في عين حمئة أي في ماء وطين أسود منتن . وقال النسفي وعند العين المذكورة مدينة لها إثنا عشر ألف باب يقال أنها لجاسوس واسمها بالسريالية حريحصا . وقالوا أن لباس القوم هناك جلود الوحوش وطعامهم مالفظه البحر .

وقال الخازن في تفسير ﴿ولم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ إنّ القوم الذين وجدهم ذو القرنين في مطلع الشمس لا يثبت على أرضهم بناء ولا ينبت فيها شجر وإنهم إذا طلعت الشمس يغورون في الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم . وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم أحد أذنيه ويلتحف بالأخرى . وقيل أنهم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية سرقيسيا وهم مجاورون ياجوج وماجوج .

وقال الطبرسي في الصفحة الـ ٢٧٣ أنّ الشمس أبداً من القمر جرياً فإنها تقطع منازلها في سنة والقمر يقطع منازلها بشهر واحد . انتهت أقوال المفسرين .

سادتي وسيداتني :

لقد سمعتم مقال المفسرون ممّا يتعلق بالجغرافيا والتاريخ والفلك .

فأقول في دوري : إنّ بحر فارس وبحر الروم لا يلتقيان ، فقد كان يجب على المفسرين

الكرام أن يذكروا بحرين يلتقيان .

وأقول ، إنّ اسكندر ذو القرنين ، كتب تاريخه معاصروه ومرافقوه ، فقد ولد في سنة

(٣٥٦) ومات قبل أن يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره في سنة (٣٢٣) قبل المسيح ، ولم يعيش

ألفاً وثلاثين سنة ولم ينقرض - في وقته قرنان من الناس وهو حيّ كما قالوا .

وأقول ، أنّ قتل الاسكندر مرتين ، وقيامه من الموت مرتين ، لمن الأمور التي كان لابد

لمؤرخيه ولاسيما معاصريه ، من تدوينها لو كانت من الحقائق التاريخية ، وهذا كتاب الله بين

أيدينا فهل ذكر ذلك ؟ إنه لم يذكره ، ولم يلمح إليه تلميحات .

وأقول ، أنّ أرمينيا واذربيجان وخراسان يعرفها أهل هذا الزمان كما يعرفون بلادهم ،

وهكذا بلاد الترك وما وراء بحر الروم ، فليس هناك سد كما ذكروا . وأمّا السد المعروف بسد

الاسكندر في الصين فليس بناؤه كما قالوا ، وهو بعيد من كلّ وجه عن وصفهم .

وأقول لو كان أتباع الواثق الذين فوّض اليهم أمر معاينة السد وصلوا إليه وشاهدوه كما

قالوا ، لأمكن للمفسرين أن يجمعوا على مكانه من الأرض .

وأقول ، أنّ ما وراء السد المذكور ، أضحى أيضاً معروفاً بما فيه من بر وبحر ، وإنسان

وحیوان ونبات ، كسائر أقطار الكرة الأرضية . فليس في ما وراء السد ولا في الكرة الأرضية

كلّها ، قوم طول كلّ واحد منهم وعرضه مائة وعشرين ذراعاً ، أو طول كلّ واحد منهم شبر

واحد ، أو من يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وليس في جهة من الأرض قوم يغورون في

المياه متى طلعت الشمس ، ويخرجون منها متى ارتفعت فيرعون كالبهائم .

وأقول ، لو أدرك المفسرون الحقيقة ، لقالوا في أصل ذي القرنين قولاً واحداً ، إمّا اليونان

أو حمير ، وإنّ الفرق لعظيم بين أن يكون ذو القرنين اسكندر بن فيلفوس ، أو مرزبان بن مرزبه من اليونان ، وأن يكون أبا كرب بن عبرين بن افريقين من حمير .

وأقول أنّ الأفلاك أضحت بفضل العلم الحديث معروقة بما فيها ، فليس للسماء جرم وليس لها عمد ، وليست محبوكة بالأرض أو مشبكة كالتشبيك بين أصابع اليدين وليس فوقنا ست أرضيين مبسوطة فوق سمائنا الواحدة فوق سماء الأخرى ، على الوجه الذي ذكرنا .

وأقول ، أنّ الأولى بنا أن نفهم من تعدّد الأرضين ، كما فهم كثير من المحققين في العصر الحاضر ، معنى السيارات التي إن هي إلا أرضون أو كرات سابحة في الفضاء كالأرض أو الكرة التي نحن عليها .

وأقول لو اكتفى المفسّرون بتفسير « ذات الحبك » بما روي عن علي رضي الله عنه أنها ذات الحسن والزينة لكان أولى .

وأقول أنّ الشمس ثابتة في مستقرّها وإنّما تدور على نفسها ولا تبين للعين شارقة أو غاربة إلا بسبب دوران الأرض على نفسها ومتى غابت الشمس عنا تشرق كما تعلمون على اميركا ثم تغيب عنهم وتشرق عليها فلا تغرب إذاً في ماء وطن أسود منتن كما ذكرنا .

وأقول أنّ الكرة الأرضية كلها قد كشفت فليس فيها عند مغرب الشمس مدينة لها اثنا عشر ألف باب اسمها بالسريانية حريحصا ، وليس عند مطلع الشمس مدينة أخرى اسمها جابليق أو مرقيسيا .

وأقول أنّ السريان القدماء كانوا في بلادنا ولا تزال منهم بقية فلا وجه لتسمية المدينتين المذكورتين بالسريانية .

وأقول أنّ الشمس لا تدور حول الأرض كما يدور القمر بل إنّ القمر يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس كما لا يخفى .

وأقول أنّ السنة الشمسية ليست ثلاثمائة وستين يوماً كما ذكرنا بل هي ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة وبعض ثوانٍ .

القرآن مصباح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة

ولكن المفسرين أكثروا من التخييل وأخطأوا في التفكير،

والضيق بين الأقدمين والمتأخرين

وأقول أن كل ما قالوا مما ذكرت لم يقله الله في آياته ولكنهم قالوه هم ونقلوه عن أخبار شتى ورواة مختلفين متناقضين في الرواية .

وأقول أن المفسرين لم يتفقوا في التفسير ولم يجزموا أمراً ولم يقطعوا بأمر في كل ما نقلت ، وجل ما استندوا إليه في ذلك تخيلات وروايات من قيل وقال مختلفة .

وأقول بالنظر الى عدم جزمهم وعدم إجماعهم والى اختلاف أقوالهم أن كل باحث في ذلك يحار عقله فيرتد الى مطلع الهدى ومنبثق النور الكتاب والسنة .

وأقول لو قلدت باعتقادي قولاً من أقوالهم المذكورة لرأيتني في خطيئة أمام الله إذ أنه لا دليل ولا حجة لاعتقاد ذلك القول مع منافاته للحقائق العلمية وللمحسوس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ما اشتبه عليك علمه فألفظه ، وما أيقنت بطيب وجوهه فدل منه » .

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول : « إذا رأيت كلامي يخالف الكتاب والسنة فاضربوا به عرض الحائط » .

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه ، إذا سمع من أحد الصحابة قولاً متعلقاً بالدين ، يضع يده على قبضة سيفه ويقول : « هات الدليل » ، وما ذلك إلا حرصاً منه على صيانة الدين من إدخال ما ليس منه فيه .

وأقول أن من القواعد الشرعية « لا عبرة للظن البين خطأؤه » .

قال الشيخ محمد بدر الدين النعساني : « جردت الكتب المؤلفة في الدين من أصول الدين وسنته ومحاسنه وحشيت من الخرافات والأكاذيب والأحاديث الموضوعة المفتراة على صاحب الشريعة » .

وأقول بما أن الحمل على الحقيقة متعذراً مادياً بالنظر الى ما ذكره كان من الواجب على أعلام التفسير أن يحملوا على معنى الكناية والمجاز بعض ألفاظ الآيات التي ذكرت ، وأن

لا يهتموا العمل بالحقيقة متى أمكنت وأن يكتفوا ببيان المعنى المعقول الذي لا ينافيه العلم والمحسوس . مثلاً إذا فسّروا ﴿وجدها تغرب في عين حمئة أو حامية﴾ قالوا عين حمئة أي ذات حمأة من حمئت البئر أي صارت ذات حمأة أي الطينة السوداء . وقالوا نقلاً عن التوراة أنها تغرب في ماء وطين أسود منتن . مع أنه ليس في التوراة التي في الأيدي شيء من هذا ، وأما الأخرى فأين هي لينقل عنها هذا القول غير المعقول ؟ فعوضاً عن هذا كان عليهم أن يكتفوا بمفهوم من مزيج أقوال بعضهم وهو أن ذا القرنين لما بلغ ساحل المحيط ولم يكن في مطمح بصره غير الماء وجد الشمس أي تراءى له كأنها تغرب فيها مع أنها تغرب وراءها لأن الشمس لاتزائل الفلك ولا تدخل عين الماء .

وأقول أن المياه التي يتراءى لنا أن الشمس تغرب وراءها على خط الاستواء هي حامية أي حارة بخلاف مياه المناطق الباردة المتجلدة حول القطبين ومياه المناطق المعتدلة . من يعلم أنه لم يشر الله تعالى بقوله ﴿وجد عندها قوماً ووجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ الى أقوام اميركا الأصليين من الجنس الأحمر الذين هم وراء الغرب والشرق في النصف الثاني من الكرة الأرضية ؟

من يعلم أن الله لم يرد بذلك أن يهدينا الى ما هنالك لكشفه ؟ أجل إن السبب هو الطريق ، وأي طريق موصل من الغرب الى الشرق غير الطريق الذي يمرّ حول النصف الثاني من الكرة الأرضية مجتازاً اميركا ؟ الله أكبر لا إله إلا هو ، إنه أرانا بكل صراحة ووضوح أن من الغرب الى الشرق طريقاً حول النصف الثاني من الكرة وأن على تلك الطريق أقواماً تشرق عليهم الشمس متى غربت عنا . ياليتنا اهتدينا فسلكننا تلك الطريق قبل أن سلكها كريستوف كولومب .

ياليتنا اهتدينا فذهبنا وكشفنا ورأينا محققين كلام الله لنكتب عن علم في تفسيره بدلاً من أن نصف هؤلاء الأقوام ومدنهم وشكل معيشتهم بالخيال أشكالاً غريبة . ذلك شأننا في كثير من الأمور . نعم لو دققنا في حقائق كلام الله واهتدينا لسبقنا غيرنا من الأمم في كشف الكرة الأرضية كلها .

لننظر الى مايفعل الغربيون لكشف الحقائق ولنعتبر .

فكم عالم منهم محقق ضحى في العصور الأخيرة بنفسه عامداً الى مجاهل الكرة بكشف معاميتها ، حتى أنه لم يبق في الكرة إلا مجهولان فقط ، هما القطبان ، وكم منهم من اقتحم ومن يقتحم أخطار الموت سواء في البحر أو في البر أو في الفضاء هائلاً بالطبيعة وقواتها الهائلة ، هائلاً بالعواصف ، بالأعاصير ، بالبحور المتجمدة ، بالجبال والقفار المروعة ، حيث البرد

القارس المميت ، حيث كل شيء جليد ، حيث يسود الظلام النصف من كل عام . يموت الواحد منهم فيقتني أثره الآخر ، وتهلك جماعة فيكمل عملها جماعة غيرها ، ذلك كله لجلاء الحقائق وإنارة العالم أجمع . وكم من حقيقة جلوا ، وكم من عالم أناروا . هكذا يأمر الكتاب أن يُفعل . ففعلوا هم . أمّا نحن فكل مافعلناه أنا تخيلنا كل ما أردناه فقلناه ، فكنا عرضة للنقد ومضغة في أفواه غيرنا ظناً منهم أن مقالنا بعض المفسرين ، قد جاء به الكتاب ، إنهم في ظنهم على ضلال مبين ، فليس في الكتاب شيء غير الحقيقة والأمر بتحقيقها واتباعها .

أيها القائلون أن الإسلام مانع الترقّي ، ارجعوا عن قولكم ، فإنّ دين الإسلام الحق ، لفي الكتاب والسنة ، وقد رأيتم أن الكتاب قد أرانا بكل صراحة ووضوح ، قبل أن كشفتم وقبل أن رأيتم ، أن من الغرب الى الشرق طريقاً حول النصف الثاني من الكرة . وإنّ على ذاك الطريق أقواماً تشرق عليهم الشمس متى غربت عنا . هذا مايريناه ديننا ، وليس ماعدا ذاك ممّا يتعلّق بالأمر الذي نحن فيه ، إلا أقاويل وأباطيل .

إنّ القرآن لمصباح الهدى ، ومنار الحكمة ، ودليل المعرفة ، هو الفصل ليس بالهزل ، ظاهره حكم ، وباطنه علم ، ظاهره أنيق ، وباطنه عميق . والتفكر في آياته حياة قلب البصير ، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور فكم في القرآن من آيات هدى للعالم الحديث ، لم يستنر بها المتقدّمون الذين عمت عندهم الروايات وغلب عليهم الخيال فاستغنوا به عن الحقيقة .

قلت ، كان من الواجب أن يحملوا على معنى الكناية والمجاز بعض ألفاظ الآيات . نعم ، فإنّ المجاز والكناية من صفات الكلام العالي والإنشاء البليغ ، وإنّ آيات الله تعالى لمظهر المعجزات في البيان . وأزيد على ذلك أنه كان من الواجب أن لاينتهي بهم الأمر في التفسير الى قول ماقالوا أو ما رووا عن وجود أشياء وعوالم على الأرض ، مادية محسوسة ، لو فتش الناس عنها في ماعينوا وعين لها الرواة من المواقع - وقد أضحي في استطاعة الناس الوصول الى حيث شاؤوا من الأرض - لما وجدوا تلك الأشياء والعوالم ولاوجدوا لها أثراً .

إن الرواية هي خبر يحتمل عدم الصحة فلا يجوز الاستناد اليه والإتكال عليه إلا بعد تحقيقه ، وإن الأمور المادية تحقق بالحواس فهل فعل ذلك المفسرون ؟ «أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِثْقَالُ كِتَابٍ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ؟» إنهم قالوا : «بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ» .

وجاء في الحديث «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَقُولُوا مَا يَعْلَمُونَ وَيَقْفُوا عِنْدَ مَا لَا يَعْلَمُونَ» .
إنّ حدّ تفسير الكلام ، أن لايعني إلا استخراج المعاني من ألفاظ الكلام وعباراته عينها .

وما زاد على ذلك فهو خروج عنه وإحداث وتغيير لتفسير . من أجل ذلك ليس علينا أن نعتقد صحة ما ليس مستخرجاً في التفسير من كلام الله نفسه سبحانه وتعالى لا شريك له إن كلام الله ، الحق عينه ، أما الأخبار والروايات فنقبل منها ما هو محقق ومثبت فحسب تبعاً للقاعدة المرعية عند الأئمة « إذا صحّ الحديث فهو مذهبي » والله حسبنا ونعم الوكيل .

وأقول ، ليس كل ما ذكرت من أقوال المفسرين وجه في الآيات كان يمكنهم أن ينظروا إليه في إستنادهم ، اللهم إلا مسألة دوران الشمس ، فقد كان قبل علم الحقيقة عذر لمن يخطئ فيها ، ولا بدع أن يخطئوا فقد كان على هذا الخطأ العالم أجمع ، وهكذا كانوا يفهمون ما قالت التوراة عن الشمس ويشوع بن نون .

وإني لأشكر حضرة السيد هبة الله الشهرستاني ، على تأليفه كتاب (الهيئة والاسلام) باحثاً في استخراج مسائل الهيئة الجديدة ، أي مسائل علم الفلك من ظواهر الكتاب والسنة ، باذلاً كما ذكر الجهد البليغ في ترويج العقائد ، وتنقيحها عن الأباطيل والزوائد ، فإن السيد المشار إليه قد أثبت فيما أثبت ، أن الله تعالى لم يقل في آياته بدوران الشمس حول الأرض وأن اللام في ﴿وَمُسْتَقَرُّهَا﴾ ، بمعنى (في) كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا الْقَمَرُ لِمَ لَا تَرَى الْكَوْكَبَ﴾ وقوله تعالى ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْحَتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيكون معنى الآية كما هو الواقع أن الشمس تدور على نفسها في مستقرها .

وقد بحث السيد المشار إليه في أمور كثيرة ، منها ما يروى عن خلق الأرض على الحوت أو على قرن الثور ، وعن جبل قاف المحيط بالأرض إنه سبعون أرضاً من ذهب ، وسبعون أرضاً من فضة ، وسبعون أرضاً من مسك ، وطول كل أرض مسير عشرة آلاف سنة . وانتقد أقوال المفسرين انتقاداً شديداً .

وهنا الحظ ياسادتي وسيداتي ، أن المعنى الذي ذكره الشهرستاني في تفسيراته ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ذكره قبله السيد العلامة محمد حسين المرعبي . وقد اتصل بي أن ذهني أفندي أحد علماء الأستانة قال به وهو يدرس تلامذته في مكتب الملكية ، وذكر بين الأدلة الفرقانية على دوران الأرض قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وقد حسب ذلك للاستاذ الجليل تفسيراً جليلاً ، إذ صان قلوب تلامذته من خلل الإيمان فكبروا لقوله تعالى تكبيراً .

وهنا لابد لي من القول أن شكري للشهرستاني إنما كان على فتحه باباً جديداً للتجدد ولا يتضمن قبولي كل رأي رآه ، ولكل رأي .

اقتراح على الأمة

ساداتي وسيداتتي :

لابد لي من القول أنه لايجوز في عصر قد ظهرت فيه الحقائق مرئية ملموسة ، قبول مثل المعلومات الجغرافية والتاريخية والفلكية التي هي بعض ماجاء به المفسرون ورواه الراوون . وكم لهم من مثل تلك المعلومات الغنية في غير ماذكرت من العلم ، وأرى من الواجب على علماء العصر المسلمين ، الذين اطلعوا على الحقائق الظاهرة في العصور الأخيرة ، أن يأتوا بتفسير جديدة توافق كلام الله في آياته ، ولاتناقضها حقائق العلم الحديث ، صوناً للمسلمين كافة - ولاسيما الذين يطلعون على الحقائق العلمية - من خلل في إيمانهم ، وصدأ للناقدين عمّا يسندون اليها ممّا يسندون ، فحقائق العلم الحديث كلها حقائق في القرآن ، وإنما أرى أن تفسير المفسرين الذي نقلته والحقائق العلمية ضدان لايتفقان ، فكم في القرآن من أنوار هدى للعلم الحديث ، لم يستنر بها المفسرون المتقدمون ، الذين عمّت عندهم الروايات ، وغلب عليهم الخيال وتغلبت العادات ، فاستغنوا بذلك عن الحقيقة وعن واجب التطور .

بناءً عليه رأيت أن أقترح على أمّتي ما يأتي فأقول :

بما أن آيات القرآن لم تقتصر على الأمور الدينية بل تناولت أجزاء من العلوم والفنون الدنيوية بأنواعها : اشتراكية ، واجتماعية ، وسياسية ، وطبية ، وفلكية ، وطبيعية ، وتاريخية ، وجغرافية ، وغيرها .

وبما أن فيها كثيراً ممّا يحتاج الى التفسير والتأويل .

وبما أنه يتعذر على الإنسان أن يلمّ بمتفرعات الأمور والفنون على أنواعها .

وبما أن الترقّيات الحاضرة ليست إلا وليدة الاختصاص .

وبما أن كلّ مفسّر للقرآن في القدم عدّ نفسه متفقّها في الدين ، مشترعاً ، وطبيباً ، ولغوياً ، وفلكياً ، ورياضياً ، وتاريخياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، وجغرافياً ، أو جامعة لأنواع العلوم والفنون ، فجال فيها كلها مستقلاً أو مستبداً برأيه ، مع أنه لم يكن جامعة حقّاً ولايتسنّى ذلك لأحد .

وبما أنه من الأمور الخطرة أن يبدي الإنسان رأيه في علم أو فن لم يعرفه ولم يكتسب به اختصاصاً .

وبما أن العلوم الدنيوية كانت قاصرة في ذلك الزمان ، وكان المفسترون يكتفون للتفسير بعلم النحو وعلم الكلام وأصول الفقه وماشاكل من العلوم التي لا تؤهلهم الى كشف أسرار العلوم الدنيوية التي ذكرت .

وبما أنه ظهر في العصور الأخيرة حقائق كانت مجهولة من قبل ومخترعات ومكتشفات كثيرة أظهرت تلك الحقائق ، وانتجت ترقى العلم والفن ترقياً عظيماً لم يكن مثله من قبل .
وبما أن التفاسير القديمة كثيراً ما بدلت من حقائق القرآن ، الخرافات والأباطيل ، وكثيراً ما ذكر علماؤنا المصريون فقلت لكم بعض أقوالهم .

وبناءً على ماتقدم ، أرى من الواجب أن تؤلف لجنة لتفسير القرآن من أجلة الفقهاء المصريين ، وعلماء الإجتماع والأخلاق ، وأولي الاختصاص في العلوم والفنون المتنوعة ، يشغل كل منهم مجتهداً ضمن دائرة اختصاصه ، متعاونين في استخراج الجواهر المكنونة في ذلك الكتاب الكريم ، فنرى حينئذ بين أيدينا تفسيراً جليلاً ، منه يرى العلم والفن هدًى ودليلاً ، والعالم والأمة خيراً كثيراً ، ويمسي سهم الإنتقاد على الاسلام كسيراً .

الآيتان الكريمتان اللتان يستند اليهما بعض رجالنا في ستر الوجوه

وأقوال المفسرين الكرام ونظرات لي فيها

سادتي وسيداتتي :

انتهينا من التفسير المتعلق بالجغرافيا والتاريخ والفلك ، وقد ساقنا البحث الى سلوك طريقه تفتيحاً للعيون ، وتنويراً للقلوب ، فما علينا الآن إلا أن نرجع الى المحور من موضوعنا ، أعني الآيتين اللتين كان بعض تفاسيرهما ، مما ألقى على وجه المرأة المسكينة ذلك النقاب . وهما : الآية الثلاثون من سورة النور والآية التاسعة والخمسون من سورة الأحزاب . فالآية من سورة النور ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ .

والآية من سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ .

قال النسفي في الصفحة (٦٢١) في تفسير «ويدنين عليهن من جلابيبهن» أن يُعرفن فلا يؤذنين» : «وذلك أن النساء في أول الاسلام على هجيراهن في الجاهلية ، كن مبتذلات ، تبرز المرأة في درع وخمار ، لفصل بين الحرة والأمة ، وكان الفتيان يتعرّضون إن خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للإماء ، وربما تعرّضوا للحرة لحسبان الأمة ، فأمرن أن يخالفنهن بزيهن عن زي الإماء بلبس الجلابيب ، ذلك أجدر أن يعرفن فلا يتعرّض لهن» .

قلت : إن بيان النسفي ، لا يثبت للأقدمين أخلاقاً أحسن من أخلاق رجالنا ونسائنا .

وقلت : بالنظر الى هذا البيان ، يفهم أن القصد ، لم يكن ستر هذا العضو ، أو ستر ذاك ، بل كان اختيار زي للحرائر ليعرفن به من الإماء إذا خرجن في الليل الى النخيل والغيطان ، فلا يتعرّض لهن الفتيان .

وقلت : يؤكّد هذا القصد ما ذكره الخازن عن أنس بن مالك ، أن جارية متشبهة بالحرائر مرّت بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال لها : يالكاع أتتشبهين بالحرائر ؟ وعلاها بالدرة أي بالسوط منعاً لها عن ذلك .

وقلت : ياليت سيّدنا عمر رضي الله عنه ، علا بالدرة الرجال ، الذين كانوا يتعرّضون للنساء ليلاً ، لما كن يخرجن للغيطان مضطرات ، بدلاً من أنه علا بها تلك المسكينة ، التي أرادت أن تحفظ نفسها بشكل ملبسها من التعرّض . ولعلّ في ذلك حكمة تخفى على مثلي .

وقلت : ياليت سيّدنا عمر يبعث اليوم حيّا ، فيفرّق السافلات عن الحرائر بالملبس ، ويعلو بالدرة كلّ سافلة خلقاً تشبّه بهنّ ، ليعرف كلّ من الصنفين بزيّه ، فلا يلتبس الأمر بهذا النقاب .

وقلت : يظهر أنه لم يكن في حاجة الى الجلاب ، إلا في الليل ، لتعرف المرأة منه ، إن وجهها في النهار أكثر تعريفاً لها من إدناء الجلاب .

وقلت : اختلف المفسّرون في الجلاب : فمنهم من قال الجلاب كسرداب القميص ، ومن قال رداء تغطّي المرأة به ثيابها ، ومن قال : ثوب واسع دون الرداء ، ومن قال الملحفة ، ومن قال ثوب واسع دون الملحفة . وكيف كان الجلاب فليكن ، قميصاً أو رداء أو ملحفة ، فإن القصد من إدنائه في الليل ، وقاية النساء من أهل الريبة ، متى خرجن لقضاء حوائجهن الى النخيل والغيطان ، فإذا كان الجلاب قميصاً أو رداء ، فلا يمكن أن يغطّين بالإدناء منه الوجه ، بل يغطّين الصدر الذي كان مكشوفاً ، وإن كان ملحفة وغطّي به الوجه ، وقعت النساء بما يحدثه من العسر في محذورين : الأوّل عدم رؤيتهن طريقهنّ ، والثاني في عدم رؤيتهنّ أهل الريبة من بعيد .

فقد تسوقهن طريقهن اليهم . وخير أن يرينهم من بعيد فلا يقربن منهم ، بل يبتعدن ابتعاداً ، لأنهم ، كانوا على ما يظهر يسرحون في الليل وراء فريسة من الإماء كأنهم ذئاب ، خسنوا ، وياليتهم قبل أن يسرحوا كانوا فريسة التراب ، إنهم فاسقون ، وفسقهم سبب الأسباب ، للتفاسير المتناقضة التي نقرأ ، وللبلاء الدائم بالذنب أو النقاب .

وقال النسفي أيضاً في الصفحة (٤٢٦) في تفسير «ولا يبدن زينتهن» : «إن مواضع الزينة الرأس ، والأذن ، والعنق ، والصدر ، والعضدان ، والذراع ، والساق ، فهي للأكليل ، والقرط ، والقلادة ، والوشاح ، والدملج ، والأسوار ، والخلخال» .

وقال في الصفحة نفسها في تفسير «إلا مظهر منها» أي «إلا ما جرت العادة والجملة على ظهوره ، وهو الوجه ، والكفان ، والقدمان ، ففي سترها حرج بين ، فإن المرأة لاتجد بداً من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة الى كشف وجهها ، وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها ، فيجوز النظر الى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها» .

قلت : إذا نظرنا الى هذه الآية لا الى روحها كما سيأتي ، فإن هذا القول لقول وجيه ، فهذه الأعضاء أقل ما يلزم ظهوره من المرأة ، ويوسع في الظهور بحسب الضرورة والعادة .

وقال في تفسير «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» : «كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن ، وكن يسدن الخمر من ورائهن ، فتبقى مكشوفة ، فأمرن أن يسدن منها قدامهن» .

قلت : كان ينبغي للنسفي أن لا يغير العبارة من كلام الله تعالى وليس فيه ما يقتضي تفسيراً ، إلا كلمة «جيوبهن» لأن الجيوب ومواقعها تتغير بتغيير الأزياء ، فقد كانت في الصدور ، وأما الآن فليس لها موضع متعارف فالإكتفاء بتفسير معنى الجيوب ، وإبقاء كلام الله تعالى على ما هو ، (خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) . إن التفسير يكون بالإيضاح لا بالتغيير ، ولكن النسفي غير كلامه تعالى «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» فقال مفسراً ، أي يسدن الخمر من قدامهن ، لامن ورائهن ، وشتان بين العبارتين .

إن الضرب بالخمر على الجيوب أي الصدور ، يقع بأن تأخذ المرأة الطرف الأيمن من خمارها المنسدل من ورائها على جنبها ، فتضرب به على كتفها الأيسر ، فيغطي صدرها ، وذلك مشهود في مات فعل القرويات حتى اليوم .

فلما قال النسفي ما قال ، والناس في المدن ميالون الى كل ما فيه تعسير وتضييق على المرأة ، اتبعوا قول النسفي ، مهملين النظر في كلام الله تعالى ، إذ أن الفقهاء عودوا الناس أن يأخذوا الحقائق الدينية منهم لا من أصولها . فسدت نساء المدن الخمر من قدامهن . لتغطية

صدورهنّ ، فتغطّت وجوههن وما فيها من الحواس والقوى ، على الطريق المؤدي الى الصدر ، ولكنهن لم يسدن الخمر من قدامهن ، إلا انكشف وراء من رؤوسهنّ ، وبانت شعورهنّ ، فضاع الغرض الأصلي من وضع الخمر ، ولم تكن الملاءة في ذلك الحين ، إلا من الخصر فما دون ، وما زال يلبسها على هذا الشكل بعض القرويات ، اللاتي يلبسن ويضربن بها ، وفقاً لقوله تعالى ، على الصدور لتغطيتها ، وتسمّى الملاءة عندهنّ ساية ، كما يسمّى الخمار منديلاً . والأسمان من التركية عن أصل فارسي ، وبما أن الحل في المدن ، اقتضت تغطية ما أصبح مكشوفاً من وراء الرأس ، تسربت المرأة بذلك السربال ، أي الإزار ذا الجناحين الطويلين ، اللذين يوقعانها في الارتباك عند كل عمل . وكان ذلك كلفة لم يأمر بها الله ، ولم يستوجبها إلا تصرف النسفي وغيره بكلامه تعالى ، تصرفاً كان الناس في غنى عنه . إن قلم النسفي تسارع في خط عبارة لم يتبصر في حقيقتها ، ولم يستشرف نتيجتها . فلو أراد الله تعالى أن يسدن الخمر من قدامهنّ ، أو لو أراد سبحانه أن يضربن بها على وجوههن ، لصرّح بذلك تصريحاً ، ثم إن الخمر إنّما وضعت لتغطية الرؤوس ، فلو أراد الله تعالى أن يغيّر وضعها فيجعلها غطاءً للوجوه كما فعلت المدنيّات تبعاً لقول النسفي ، لبيّن سبحانه ذلك تبييناً .

وقال الخازن في الصفحة الـ ٤٢٧ : «وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ» أي على موضع الجيب وهو النحر أي أعلى الصدر ، وأمّا الطبرسي وغيره فقالوا ، موضع الجيب الصدر لا النحر ، وقد كنّى عن الصدور بالجيوب ، لأنها ملبوسة عليها .

وقال النسفي في الصفحة نفسها : «يسترن بالخمر شعورهنّ وأعناقهنّ وأقراطهنّ وصدورهنّ» .

قلت : أن الضرب بالخمار فعلاً على الصدر ، وهو منسدل على الجانبين ، كما تفعل المسلمات في القرى ، لا يغطّي كما نرى مقدم الشعر والعنق ، وأمّا الوجه فلا يغطّيه أبداً .

وقال في الصفحة ٤٢٧ : «لايبدن زينتهنّ» «يعني الخفية التي لم يبح لهنّ كشفها للأجانب وهي ماعدا الوجه والكفين» .

وقال في الصفحتين ٤٢٦ و ٤٢٧ : «والمستثنى بقوله «إلا ماظهر منها» الوجه والكفان

عن سعيد بن جبير والضحاك والوزاعي» .

وقال في الصفحة نفسها : «إلا ماظهر منها» أي الثياب نقلاً عن ابن مسعود .

قلت : إن قول ابن مسعود ، ولا أعلم كيف استخرجه ، لاشيء فيه يشير الى ستر الوجه ، لأنّ الثياب لا تلبس عليه ، وقلت لاحاجة للبس الجلباب فوق ثياب تستر الصدور ، فالقرويات اللواتي يسفرن ولا يلبسن الجلباب فوق ثيابهنّ ، لسن بمخالفات للدين .

وقال في الصفحة نفسها : ﴿إلا مظهر منها﴾ الكحل والخضاب والخاتم في الكف نقلاً عن ابن عباس .

وقال في الصفحة ٦٢١ نقلاً عن ابن عباس نفسه : أمر نساء المؤمنين أن يغطّين رؤوسهنّ ، ووجوهنّ بالجلابيب ، إلا عيناً واحدة ليعلم أنهنّ حرائر .

قلت : إنّ كل هذه الأقوال متناقضة ، كما لا يخفى على كلّ متأمل ، وإن نقل الخازن هنا عن ابن عباس ، مناقض لما نقله هو نفسه كما يفهم ممّا ذكرت ، ومناقض لما قاله الطبرسي عن ابن عباس نفسه وسيأتي ، ولا يخفى أن من القواعد الفقهية (لا حاجة مع التناقض) .

وقلت : إنّ ما روي عن ابن عباس بستر الوجوه بالجلابيب إلا عيناً واحدة ، قول عندي لأرى أن استخراجها من كلام الله ممكن . وهو قول لم يقبله من المسلمين إلا الدرّوز .

وقلت : إنّ الإمام كنّ يخرجن مكشوفات الرؤوس والصدور ، فتغطية الرأس والصدر ، أمر كاف لتفريق الحرائر عنهنّ كما أراد تعالى .

وقلت : لو صحّت هذه الرواية عن ابن عباس ، لكان الله تعالى في غنى عن آية : «الغص من البصر ، وعدم إبداء الزينة إلا مظهر منها ، والضرب بالخمرة على الجيوب» .

وقال الطبرسي في الصفحة ٢٥٢ في تفسير ﴿يدين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ نقلاً عن ابن عباس ومجاهد : أي قل لهؤلاء فليسترن موضع الجيب بالجلباب أي يغطّين جباهنّ ورؤوسهنّ ، إذا خرجن لحاجة ، بخلاف الإمام اللّاتي يخرجن مكشوفات الرؤوس والجباه .

قلت : إن حضرة المفسر نسي أن موضع الجيب هو الصدر ، فجعله الجبهة والرأس ، ومن كان قليل التدقيق لهذه الدرجة ، فليس علينا أن نعتقد بقوله .

أفلا ترون ياسادتي ، كيف تختلف روايات النقل عن ابن عباس ؟ فأيّ رواية تُصدّق ؟ وقال الطبرسي في الصفحة ١٦٠ ﴿وليضربن بخرهنّ على جيوبهنّ﴾ : (الخمرة المقانع جمع خمار ، وهو غطاء رأس المرأة المنسدل على جنبها ، أمرن بإلقاء المقانع على صدورهنّ ، فقد قيل إنهنّ كنّ يلقين مقانعهنّ على ظهورهنّ فتبدو صدورهنّ ، وكُنّي عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوسة عليها) .

قلت : إنّ الأمر بإلقاء المقانع على الصدور ، يستوجب تغطية الصدور لا النحور ، فكان على حضرة المفسر أن يكون أكثر تدقيقاً .

وقلت : إذا نظرنا إلى هذين القولين ، بوجوب تغطية الرأس والجبهة والصدر ، لم تلزم تغطية الوجه ، والكفين ، والقدمين ، والذراعين ، والعنق والأذنين .

(وقال في الصفحة نفسها نقلاً عن الضحاك وعطا ﴿إلا مظهر منها﴾ أي الوجه والكفين) .

قلت : فبعد هذا أيضاً ، هل يكون الإدعاء بستر الوجه والكفين إلا مكابرة ؟
وقال في الصفحة نفسها نقلاً عن ابن عباس نفسه : أي تغطي شعرها وصدرها وترايبها
وسوالفها .

قلت : وهذه رواية أخرى عن ابن عباس !
وقلت : إن قول ابن عباس هذا ، لا يشير الى تغطية الوجه ، والكفين ، والقدمين ،
والذراعين ، والعنق ، والأذنين .

وقال في الصفحة عينها عن ابن عباس نفسه ﴿إلا مظهر منها﴾ : إن الزينة الظاهرة التي
لا يجب سترها ، الكحل والخاتم ، والخدان ، والخضاب في الكف .

قلت : وهذا أيضاً عن ابن عباس ! وهو يشير أيضاً الى ظهور الوجه والكفين .
وقال في الصفحة نفسها في تفسير ﴿إلا مظهر منها﴾ : إن الزينة الظاهرة التي لا يجب
سترها عن ابن مسعود ، الثياب .

وعن قتاده : الكحل ، والسوار ، والخاتم .

وعن الحسن : الوجه والبنان .

وعن علي بن ابراهيم : الكفان والأصابع .

قلت : إن هذه الأقوال المتناقضة ، كلها استنسابات واستحسانات وليس فيها قول مبني
على دليل من الكتاب أو من السنة ، ولو كان دليل لإتفقوا .

وقلت : يظهر أن الفقهاء يتصرفون بكلام الله كل كما يشاء . فحمل كل منهم الكتاب على
آرائه ، وعطف الحق على أهوائه ، فمن أراد وسع ، ومن أراد ضيق . أما نحن التعسفات ،
فمكرهات في نظر بعضهم ، على أن لا تتبع إلا ما فيه تفسير علينا وتضييق .

وقلت : بما أن السوار مما يظهر فالذراع لا يستر .

وقال في الصفحة عينها : (روي أنه تعالى لعن السلتاء من النساء والمرهءاء ، فالسلتاء من
لاتخضب بالحناء ، والمرهءاء التي لا تكتحل) .

قلت : إن هذه الرواية غير مثبتة ، فإذا ردت الى كتاب الله لا توافقه ، فالله جلّ وتعالى عزّ
عن أن يجعل اللعنة على النساء اللواتي لا يتخضبن بالحناء ، وما أكثرهن . أو يوافق عدل الله جلّ
جلاله أن يستوجب عدم الكحل والخضاب لعناً ؟

واحسرتاه على النساء ! إن جباهنّ وعيونهنّ ، وآذانهنّ ، ووجوههنّ ، وأعناقهنّ ،
وأذرعهنّ ، وأكفهنّ ، فضلاً عن عقولهنّ ، ألعوبة المفسّرين والرواة ، وهنّ يلعنّ إذا تزينّ ،
ويلعن غير متزينات !

« وقال البيضاوي في الصفحة (٤٦٧) في تفسير «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» والمستثنى بقوله «إلا ما ظهر منها» هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة . قلت : أو بعد هذا أيضاً مكابرة وإدعاء في ستر الوجوه . « وقال في الصفحة عينها «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» أي ستراً لأعناقهن . قلت : ولكن موضع الجيب ، الصدر لا العنق ، والصدر أولى بالستر من العنق . إذن كان على حضرة المفسر أن يقول «وليضربن بخمرهن على جيوبهن أي ستراً لصدورهن» .

وقلت : يظهر أن بعض المفسرين الكرام كانوا يستعجلون في الخط أحياناً ، فلا يساعدهم الوقت لإحكام الرابطة بين القلم والدماغ ، فقد يكون ماخطوه غير الذي عقلوه . وقلت إن هذا القول على ما هو ، لا يتناول إلا ستر الأعناق ، فلا يوجب ستر الوجه ، والأذنين ، والذراعين ، والكفين .

تلك ياسادتي وسيداتي أقوال المفسرين في «إلا ما ظهر منها» «وليضربن بخمرهن على جيوبهن» «ويدنين عليهن من جلابيبهن» .

ألا ترون أن في بعضها من التعقيد والعسر ، بقدر ما في الآيات الكريمة من الصراحة واليسر ؟ ألا يحسب الانسان نفسه في فوضى من تلك الأقوال ، وأكثرها عنديات واستنسابات واستحسانات وروايات متناقضات لا أدلة فيها ولا بينات ؟

الشارع عندنا واحد ، ياسادتي ، الشارع واحد ، هو الله تعالى . فالنبي صلى الله عليه وسلم لما خطب بالناس بمنى قال : « كل شيء مردود الى كتاب الله وماعدهاء فهو زخرف ، وأنا لم أقل قولاً لا يوافق كتاب الله » صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن شرعه شرع الله . فردوا ياسادتي وسيداتي ، ماذا ذكر بعض المفسرين الى الكتاب ، وقد نقلت اليكم آتيه ، أفلا ترون في كثير من الأقوال ما يجوز أن يحسب شرعاً جديداً ليس من شرع الشارع جل جلاله ؟ ردوه الى أحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وستتبارك شفقتي بذكرها . تروا إنها ليست منها .

قال الامام علي رضي الله عنه : « لو أن الباطل خلع لما خفي على ذي حجب ، ولو أن الحق خلع لما كان فيه اختلاف ، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمتزجان فيجئان معاً » . وقال رضي الله عنه : (فياعجبا ومالي لأعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها ، يعملون في الشبهات ويسيروا في الشهوات ، المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر ما أنكروا) . وقال رضي الله عنه : (إن أكثر الحق فيما تنكرون) .

أفلا يجدر بنا أن نرجع الى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلّم مصدري النور والهدى ؟ إن الله جل علمه ، وتعالى حكمته لم يحصر في آياته الأعضاء التي تظهر من المرأة ، ولم يبين الى أي حد من الأعضاء يجب على النساء أن يدنين عليهن من جلابيبهنّ ليعرفن من الإماء ، تاركاً تحديد ذلك للزمان وللعقل السليم . والجبلة والعادة والضرورة . فقال المفسّرون ما قالوا أشكالاً ممّا ذكرت . وإنّ ما قلته لكم لجزء من كل مماثل له ، وإنّي أدعو سيداتي وسادتي لمطالعة كتب التفسير ، فيما يتعلّق بالموضوع الذي نبحت ، فيرون ما رأيت ، ويرون أن شأن المفسّرين في هذا الموضوع ، كان شأنهم في الجغرافيا والتاريخ والفلك كما سبق ، إن هنا وهناك لفوضى من الأقاويل والروايات والأباطيل ، يغنيها عنها كلام الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلّم .

ولابدع ولاعجب ، في اختلاف النقل والروايات ، عن الصحابة الكرام وغيرهم ، فكثيراً ما روى الرواة ، أحاديث موضوعة ، ما قالها النبي صلى الله عليه وسلّم كما بيّنت سابقاً ، وكثيراً ما نقلوا من أحاديث شريفة أشكالاً . وإنّ المسموعات تختلف بحسب روايتها . والأخبار الشفوية قلّما يتفق عليها الناقلون .

ومع هذا كله ، فالمفسّرون كادوا يتفقون جميعاً ، على كشف وجه المرأة ، وكفيها ، وإن من قال في تفسير هاتين الآيتين ، أن تستر المرأة كل أعضائها حتّى الوجه ، لم يستند قط الى دليل ما من أصول الدين ، وكان قوله ترجيحاً بلا مرجّح ، بل عكس المرجّح ، وما كان منه إلا استحساناً عندياً محضاً ، خالف به غيره من الفقهاء ، ناسياً أن ذلك منه إهمال لقوله تعالى ﴿إلا ما ظهر منها﴾ .

ألا يجب ياسادتي وسيداتي ، أن يظهر من المرأة عضو ما ، ليعمل كلام الله تعالى ولا يهمل ؟ وأي شيء أخرى من الوجه بالظهور ؟ لو كان القائلون بستره يستندون الى حقيقة ما في أصول الدين ، لاتفق المفسّرون والفقهاء الثقات على ذلك وأجمعوا .

ألا ترون ياسادتي وسيداتي ، أن بناء البيوت وترتيبها في زماننا هذا ، قد تغيّر تغيّراً عظيماً ، حتّى أنه لم يبق من حاجة لخروج النساء ليلاً ، الى مثل النخيل والغيطان والصعيد الأفيح ، وإنه لم يبق إماء فيلبس أمرهن بالحرائر ، وأنه صار باستطاعة المرأة ، أن تستغني عن الجلباب بكل ثوب لائق بها يستر صدرها . العبرة للمعاني لا للألفاظ والمباني ياسادة . فما لفظ الجلباب أو لفظ الجيب إلا لفظ إتفاقي جاء في الآية لأنه زي ذلك الزمان ، وهنا ممّا من يقول أن شكل الملاءة اليوم هو شكل ذلك الجلباب ؟ وهل جيوب اليوم في الصدور ؟ وهل يبقى معنى لكلام الله لو لبسنا خمر الزمان القديم ، وضربناها على جيوبنا في مواضعها اليوم ؟

فشكل الملابس ليس ممّا لا يتغيّر شرعاً . يشهد على ذلك أن الرجال المسلمين فضلاً عن الخلفاء أنفسهم ، قد بدّلوا الطربوش من العمامة ، وتركوا الجيب ولبسوا البانطالون الفرنجي ، وغيروا ملابسهم أشكالاً ، ذلك لأن المؤمن حرّ بلبسه ، ولأن الثوب الذي يلبسه ممّا لا يحاسب عليه . وسيأتي تفصيل ذلك في قسم المعارضات والردود .

أما رأيتم أنه لم يكن للإماء أن يتشبهن بالحرائر في الملبس ، حفظاً لأنفسهن من التعرّض ، وذلك ما حمل سيدنا عمر رضي الله عنه ، فعلا بالسوط الجارية المتقنعة قائلاً لها : يالكاع أتتشبهين بالحرائر ومنعها من ذلك ؟

ألا ترون وتعلمون ، أنه ليس في هذا الزمان إماء ، ولكن فيه سافلات لهنّ الحرية في أن يلبسن ملبس الحرائر ، فلم يبق لنا والحالة هذه معرف إلا وجوهنا ، وما فيها من سمّ الحياء وسيماء الشرف ، فكيف لا يؤذن في السفور لتلك الوجوه ؟

إن تجاوز بعضهم على حق المرأة بستر وجهها ، مع أنه مغاير لكل ما ذكرت من الأقوال بكشفه ، تجاوز على حق الله ، فلو أراد الله تعالى ستر وجه المرأة ، لسهل عليه ، وهو القدير العليم ، الذي خلقنا وعلمنا البيان ، أن لا يسكت فيصرّح أن تستر الجلابيب الوجوه ، ولا ستغنى عن قوله ﴿إلا مظهر منها﴾ بعد قوله ﴿وأن لا يبيدين زينتهن﴾ أو لقال سبحانه وتعالى رأساً ولا يبيدين وجوههن ، أو ولا يبيدين كذا وكذا ، أو لقال تعالى يسترن أو يغطين وجوههن كذا وكذا ، (والله لا يستحي من الحق) وكذلك لو كان قصده ستر الوجوه ، لاستغنى عن قوله تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ إذ لا يبقى لزوم لذلك بعد أن يوضع بين وجه المرأة وعينيها وبين الرجال حجاب من جلاب . قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ؟

فيا سادتي الرجال ، إذا كنتم مصرّين على أن لاتردّوا الأقوال الى الكتاب والسنة ، وعلى أن لا تقبلوا أقوال الفقهاء والمفسّرين الثقات ، بكشف وجوه المسلمات ، وكنتم باقين على مايورث عسراً وتعقيداً من أقوال وتأويلات ليست في كلام الله ، فلم تدعمها أدلة أو بينات ، وإذا كنتم ترون كلام الله في آتيه مجملاً ، فهاتوا منه أو من الحديث الشريف كلاماً مبيناً مفصلاً ، فنخضع نفوسنا طوعاً ونطأطىء رؤوسنا سمعاً .

ولكن إذا لم تستطيعوا أن تأتوا بالكلام المبين ، فأنى لكم أن تعلّموا الله بالدين ؟ وإني أذكركم ياسادتي بالقواعد الشرعية ، التي ذكرتها لكم في بحث الدفاع الحر المقدّس وهي «التيسير أولى من التعسير» و«الفرج أولى من الحرج» و«إذا تعارضت الحجج بلا مرجح تساقطت» «وعند احتمال الأمرين من اجتهاد وأدلة يؤخذ بما ينفع المتهم ويعيد له

حريته» «وفي العقوبات يقتصر على النص ولا يجوز التوسع فيه اجتهاداً أو قياساً». آملة أن لا تكونوا أعطف على الأئمة الجناة ، منكم على أمهاتكم وبناتكم ، وزوجاتكم ، وأخواتكم ، وإذا رأيتم بعد ذلك بقية ميل في أنفسكم الى ظلمهن ، فجاهدوا الجهاد الأكبر لنصرة النفس العاقلة المرضية ، فحق المرأة تحت لواءة ذلكم الجهاد . وإن نساءكم لمتكلات على من عليه الإتكال تعالى ، وقد قال في كتابه العزيز : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

دعوة الرجل إلى الانصاف

كن منصفاً ياسيدي الرجل ولا تتبع الهوى . فالرجل من لا يغلبه هواه ، إن الله أراد لنا في آياته اليسر لا العسر فلا تعكس الآية . لقد ورد النص بحقك وحق المرأة على السواء ، فلا يأمر أحداً منكما بستر وجهه ، وإنما أمرك وأمرها بالغض من البصر ، أعيد عليك نص الآية وقد قالت : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم..وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾ . فلماذا استغنيت عن ستر وجهك بأدب نفس المرأة ، وغضها من بصرها ، ولم تغن المرأة عن ستر وجهها ، بأدب نفسك ، وغضك من بصرك ؟ أو ليس من العار أن تسلم للمرأة ، بأنها تقدر أن تطيع هذا الأمر الفرقاني ، وبأنك لاتقدر أن تطيعه أنت ، فتطلب منها هي أن تستر وجهها ، ولو كان ستره قاتلاً لقواها ؟ أليس غضك من بصرك إذا اقتضته الحال ، أكثر انطباقاً على منطوق الآية الكريمة ، وأهون من هذا الستر القاتل القوي ؟ ألم يكن أكثر انطباقاً على شرف الاسلام ، لو سابت عنترة ذلك الجاهلي ، بالأدب الذي أمرت به وقد قال مفتخراً بأدبه :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتني حتى يوارى جارتني مأواها

ياسيدي الرجل ، بما أنك أمرت والمرأة على السواء ، بالغض من البصر ، وبما أنك متمسك بالدين على ماتذكر ، والدين يقتضي العدل ، وينافي الظلم ، فإما أن يكون الأمر بذلك لكل فريق ، موجباً على الفريق الآخر ستر وجهه أو لا يكون ، فإن كان موجباً فأرجو منك ستر وجهك عن المرأة ، مثلما سترت وجهها عنك ، وإن لم يكن موجباً ، فأرجو منك كشف وجهها ، مثلما أنت كاشف وجهك ، وإن لم تفعل ، فأرجو منك أن تعترف بأن العدل والتدين اللذين تزعم ، لم يكونا إلا حيلة لظلمك أمك ، وأختك ، وزوجتك ، ووسيلة للاستبداد بهن .

المعنى السامي الذي أفهمه من كتاب الله

سادتي وسيداتي :

بعد نقل مانقلت ، وبيان مابينت ، أعرض لديكم رأيي ، في تفسير الآيتين ، مستندة الى العقل المطلق ، والتفكير الحر في القرآن كما أمرت ، فمن شاء فليقبل ، ومن شاء لايقبل ، ومن يجنح الى أن يجادل بالتي هي أحسن ، فليبرز للملأ العاقل أدلته .

أولاً : لايجوز أن نحسب كلاً من الآيتين ، موجبة ستر الوجوه ، وسائر الأعضاء كما قال بعضهم ، لأنه لو كان قوله تعالى ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ مقتضياً ذلك كما يقتضيه قوله تعالى ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لأغنت إحدى الآيتين عن الثانية ، فكانت إحداهما بلا لزوم ، ولكان بلا لزوم قوله تعالى أيضاً ﴿وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ لأنه لا محل لأمر المؤمنين بالغض من الأبصار إذا كانت وجوه المؤمنات تحت حجاب أو ستار ، وهذا مما لايجوز أن يسند اليه تعالى . إنه جل وعلا عن أن ينزل في كتابه كلاماً زائداً ، إذن لكل من الآيتين حكمة خاصة ، ولتنزيل كل منهما سبب خاص . ونحن في غنى عن إعادة الإيضاح بما يتعلق بالآية «يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ» .

ثانياً : إنما القصد من ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أن لايتبرجن ، وأن لايعرضن أنفسهن بإبداء محاسنهن للرجال قصداً ، كما كانت النساء يفعلن في الجاهلية الأولى ، يعني إنما القصد من أن يكن رصينات ولايبدين ، أي لا يظهرن من محاسنهن شيئاً ، إلا ماظهر منها عادة وطبعاً ، فما كان من المرأة غير ظاهر بحسب العادة والجملة ، يجب عليها عند مشاهدة الرجال أن لاتبديه ، لأن اظهارها للرجل الأجنبي ماكان غير ظاهر عادة وجملة ، أمر يخالف الرصانة ويبعث على الريبة .

ألا ترى أن قوله تعالى في الآية عينها ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتَهُنَّ﴾ يدلنا على أن مايمنعه تعالى ليس إلا قصد الاظهار لما كان غير ظاهر ؟

إن المنهي عنه في كتاب الله ، هو الإبداء أي الإظهار ، وهو المتعدي من فعل البدو والظهور ، لا اللازم منه . وقد استثناه تعالى . فتناول المنع الإظهار قصداً ، ولم يتناول الظاهر بنفسه اللازم ظهوره ، فإن في إظهار اصبع قصداً ، أو في لفطة مفعولة ، أو إظهار حركة مقصودة ، من تحت ملء ساترة ، مايبعث على ريبة ليس منها أثر في ظهور الوجه الرصين ، بما فيه من

كل لازم الظهور عادة وطبعاً وجبلة وضرورة ، ولا يخفى أن الأمور بمقاصدها ، والله لا يحاسب إلا على المقاصد والنيات ، والعبرة للمعاني لا للألفاظ والمباني . قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا نَفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي الحديث (البسوا وتجميلوا إن الله جميل يحب الجمال) . وليس كل تجميل يعد تبرجاً ، إن التجميل مباح ممدوح ، وأما التبرج فمكروه ومذموم .
وقلت : وينبغي للمرأة أيضاً للحكمة عينها ، أن لاتخفي عند مشاهدتها الرجال ، ما كان ظاهراً بحسب العادة والجبلة ، لأن اخفاءها ما كان ظاهراً بحسب الجبلة والعادة ، يخالف الرصانة ويبعث على الريبة ، وهذه الجهة سأشبعها درساً في بحث الفتنة .

وإنني أرى ، إن الأمر الإلهي بالغض من الأبصار ، موجه الى الروح ، فالبصر له محركان : أما النفس النزيهة المرضية ، أو النفس الخبيثة الأماراة بالسوء ، والمأمور برده هو البصر المحرك بالنفس الأماراة التي يجب غضها بل إعماؤها ، أما البصر المحرك بالنفس المرضية ، التي هي نفحة من الروح الإلهية فينبغي له أن يكون دائماً حراً مطلقاً ، وإنما من أجل هذا استعمل الله سبحانه وتعالى (من) التبعية فلم يقل يغضوا أبصارهم أو يغضضن أبصارهن ، بل قال تعالى يغضوا من أبصارهم ويغضضن من أبصارهن ، أي يغضوا ويغضضن منها البصر الخبيث الشرير .

إن حركات النفس المرضية وقواها ، يجب أن تكون دائماً منتصرة لاتغض ولا تخفض قصداً ، لأن غضها وخفضها بحركة مقصودة يوقظ الشيطان في القلب ، ويحرك فيه قوة للنفس الأماراة ، تحارب بها النفس المرضية ، فنكون قد حركناها الى النزاع ، وساعدناها على الإلتصار ، فلا مانع مطلقاً ، للنفس النزيهة المرضية من رؤية الجمال . وإنما الجمال نعمة بل أثر من آثارة ونعمه ، فبقدر ما يتجلى الجمال للإنسان في العينين ، يتجلى جمال الله وجمال آثاره ، وجمال نعمه ، فغضنا البصر النزيه قصداً ، عن رؤية الجمال ، كفران لنعمته تعالى ، أما النفس الخبيثة الأماراة ، فيجب غض بصرها وبصيرتها ، بل إعماؤها ، وحرمانها بذلك رؤية كل جميل .
فلينظر الإنسان الى نفسه ، فإن رأى النفس الخبيثة فيه تحرك البصر فليخفضه معلناً عليها الجهاد الأكبر . وإن كان ينظر ببصر النفس النزيهة المرضية ، ويرى النفس الخبيثة فيه مغلوبة مخزية ، فحق له أن يرى آيات الجمال ، إنها آيات المبدع الجميل ذي الجلال ، مصدر الخير

والإصلاح والكمال هذا ما يتجلى لي من الحكمة البالغة في آيات الله ، وهو معنى ظاهر بسيط يتجلى في معرض البداة ، لكل نفس تتأمل في نزاهة ، دون ميل الى التعقيد ، أو رغبة في التقييد . فقبله عقلي ، واطمأنت اليه نفسي ، فيصدع به لساني ، وأعمل به ، ولكل عمله ومعتقد ، لاجة بينه وبين أحد إنما الحجة بينه وبين الله .

إن المعتقدات لا يجوز شرعاً فيها التقليد ، بل يجب على الانسان نفسه أن ينعم النظر ، ويعمل الفكر ، لمعرفة الحقيقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ » . وإن القرآن لمصباح الهدى ، ومنار الحكمة ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، والتفكر فيه حياة قلب البصير ، أجل إن التفكير فيه حياة القلب ، وقد شعرت بتلك الحياة في قلبي ، عند تفكيري في آياته ، وفي هذه الآية ، كما شعرت بها عند تفكيري في الآيات ، عن رحلة ذي القرنين ، تلکم التي سبق تفسيرها في بحث التاريخ والجغرافيا والفلک . إن تخيلات المفسرين في التفسير هنا ، كانت أشبه بتخيلاتهم في التفسير هناك ، ولكن الحق غير ما قالوا هنا وهناك .

الأحاديث الشريفة في السفور

سادتي وسيداتي :

فلننتقل الآن الى الأحاديث الشريفة في السفور ولنستمع :

الحديث الأول : رواه أبو داود عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها قال : دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق . فقال لها صلى الله عليه وسلم : « يا أسماء ، إن المرأة لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا » مشيراً الى جهة وجهه وكفيه .

الحديث الثاني : نقله الحلبي في سيرته ، عن هند امرأة أبي سفيان ، قال : أتت هند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متنقبة بالأبطح وقالت : إني مؤمنة ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت عبده ورسوله ، ثم كشفت وجهها وقالت ، أنا هند بنت عتبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرحباً بك » .

أفلا ترى ياسيدي الرجل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم . لما رأى أسماء لابسة ثوباً رقيقاً

على جسمها ، نهاها عن ذلك ، وذكر لها صلاح سفور الوجه والكفين ، وإن هند كانت وهي جاهلية ، عابدة أوثان ، متنقبة مثل رفيقاتها الجاهليات ، فلما أسلمت رفعت نقابها عن وجهها في حضرة النبي ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعترضها في ذلك ، ولكنه رَحَّبَ بها ؟ ولا بد لي من الملاحظة أن الكف في اللغة هي اليد الى الكوع . يُقال : «مد اليه كفه ليسأله» ، وقيل سميت بذلك لأنها تكف الأذى عن البدن . وأما قولهم كف مخضَّب على معنى ساعد مخضَّب . وفي مجمع البحرين عد الكف الكوع .

وأما الوجه الذي أشار النبي صلى الله عليه وسلم على جهته معلناً صلاح كشفه ، فقد قال بعضهم أنه الوجه الوضوئي أي شبراً بشبر .

وأما البعض الآخر فقد عدَّ الإشارة الى الوجه متناولة العنق . ومما يدل على ذلك قول مجاهد وابن عباس ، الذي نقلناه في تفسير الآيات : «أي يغطيان جباههن ورؤوسهن» . وقول ابن عباس على رواية أخرى «أي تغطي شعرها وصدرها وترايبها وسوالفها» وفي هذين القولين دلالة كافية على أن العنق تابع للوجه ومما لا يستر . وينبغي لنا أن نرجح هذا القول لما فيه من اليسر ، فإن حد اللباس الطبيعي هو أعلى الصدر أي النحر والترايب . ولا يمكن أن يكون رأس الذقن حداً طبيعياً . فالذقن كلها داخله في الوجه وحدها في الرجل منتهى منبت شعر لحيته ، ويقابلها مثل هذا الحد في المرأة .

الحديث الثالث : رواه الإمام محمد الباقر عن جابر الأنصاري قال : خرج رسول الله يريد فاطمة وأنا معه ، فلما انتهينا الى الباب . وضع يده عليه فدفعه ثم قال : السلام عليكم ، فقالت وعليك السلام يارسول الله ، قال أدخل ؟ قالت : أدخل ، قال أنا ومن معي ؟ قالت ليس عليّ قناع ، قال خذي ملحفتك فقنعي بها رأسك . ففعلت ثم قال ، أدخل ؟ قالت نعم يارسول الله ، قال أنا ومن معي ؟ قالت ومن معك ، قال جابر ، فدخل رسول الله ودخلت ، وإذا وجه فاطمة أصفر كأنه بطن جراده ، فقال رسول الله مالي أرى وجهك أصفر ، قالت : يارسول الله من الجوع . فقال رسول الله : اللهم مشبع الجوعة اشبع فاطمة بنت محمد ، قال جابر : فوالله لنظرت الى الدم ينحدر من قصاص شعرها . حتى عاد وجهها أحمر فما جاعت بعد ذلك .

أفلا يفهم من هذا الحديث ، أن فاطمة بنت رسول الله ، قابلت جابراً في حضرة أبيها صلى الله عليه وسلم وهي سافرة ، حتى رأى وجهها كيف كان ، وكيف صار ؟

قلت : يفهم من رؤية جابر ، قصاص شعر سيدتنا فاطمة . أن القناع لم يكن يستر مقدم شعر الرأس كما هو الحال في القرويات ، وسنرى أن طرة سكيمة حفيدة سيدتنا فاطمة رضي الله عنها ، كانت مرئية .

الحديث الرابع : أخرجه الترمذي والنسائي عن المغيرة ، « انه خطب امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «أنظرت إليها» قال : لا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» . فلو كان الوجه عورة ، وسفوره محرماً ، أكان من الممكن أن يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرجل ، بالنظر الى المرأة قبل عقد النكاح ؟

الحديث الخامس : في عيون الأخبار عن علي بن عبد الله ، عن محمد بن أبي عبد الله ، عن سهل بن زياد ، عن العظيم بن عبد الله ، عن محمد بن علي الرضا ، عن آبائه عن علي رضي الله عنه قال : « دخلت أنا وفاطمة على رسول الله ، فوجدته يبكي بكاءً شديداً ، فقلت له : فداك أبي وأمي يا رسول الله . ما الذي أبكاك ؟ فقال : يا علي ليلة أسرى بي الى السماء ، رأيت نساء من أمتي في عذاب شديد ، فأنكرت شأنهن ، فبكيت لما رأيت من شدة عذابهن ، فقالت فاطمة : حبيبي وقرة عيني ، أخبرني ما كان عملهن ؟ فقال : أما المعلقة بشعرها فقد كانت تكشف شعرها للرجال . وأما المعلقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها ، وأما المعلقة بذيبيها فإنها كانت ترضع أولاد غير زوجها بغير أذنه ، وأما المعلقة برجليها ، فإنها كانت تخرج من بيتها بغير إذن زوجها . أما التي كانت تأكل لحم جسدها ، فإنها كانت تزين بدنّها للناس ، وأما التي تشدّ يديها الى رجليها ، وتسلب عليها الحيات والعقارب ، فإنها كانت قذرة لا تغتسل . وأما العمياء الصماء الخرساء ، فإنها كانت تلد ولداً ما فتعلقه في عنق زوجها . وأما التي كان يقرض لحمها بالمقاريض ، فإنها كانت تعرض نفسها على الرجال ، وأما التي كانت يحرق وجهها وبدنها ، وهي تجر أمعاءها ، فإنها كانت قوادة . وأما التي كان رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار ، فإنها كانت نمّامة كذّابة . وأما التي كانت على صورة الكلب ، والنار تخرج من فيها ، فإنها كانت قينة نواحة حاسدة » .

أسمعت ياسيدي الرجل ، ما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إنه لم يشر الى تغطية شيء من الرأس إلا الشعر ، اما لعدم تغطية الوجه والكفين والذراعين والعنق فلم ير واحدة من النساء معذبة . ولم ير وجه سافرة يحرق ، إنما الوجه الذي يحرق ، وجه القوادة سافرة كانت أو محجّبة ، والتي كانت تأكل لحمها أو كان لحمها يقرض بالمقاريض فإنها من كانت تزين بدنّها ، وتعرض نفسها على الرجال ، لامن كانت سافرة بوجهها الرصين الشريف ، ولاغرو أن باقي الحديث مرشد الى مكارم الأخلاق فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » ، وَخَاطَبَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

ومع هذا ، وعلى افتراض معارض بأن هذه الأحاديث الشريفة الصريحة من الأحاديث غير الصحيحة ، فهل يجوز أن تجبر المرأة على ستر وجهها ، وهو مجمع حواسها وقواها ، مالم يرد

نهى عن كشفه ؟ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ شَيْءٍ مُطْلَقٌ حَتَّى يَرَدَّ فِيهِ نَهْيٌ » . فهل سمعت أو قرأت ياسيدي الرجل ، في الكتاب ، أو في الحديث ، نهياً عن سفور وجه المرأة ؟ لاشك في أن الجواب (لا) .

وإذا لم تسمع نهياً ، فهل سمعت أو قرأت فيهما أمراً بستره ؟ لاشك في أن الجواب أيضاً (لا) .

إذن لماذا تخالف أمر الله وأمر رسوله ؟ إن ستر الرجل وجه المرأة ياسيدي ظلمٌ مبين ، جلّ عنه الدين .

لا إجماع في ستر الوجوه

سأدتى وسيداتى .

ذكرت لكم آيات الكتاب ، والأحاديث الشريفة ، ومع مافيهما من الصراحة الجليلة ، استندت أيضاً الى كتب التفسير ، وكتب الشرح ، وآراء كثيرين من العلماء والفقهاء ، وعرضت لديكم كيف أنها تدعم قضية المرأة .

وقد بقي من أصول الدين ، الإجماع ثم القياس بحسب السنة ، والعقل بحسب الشيعة . أما القياس ، فلا شأن له في موضوعنا ، إذ أنه لا يجوز أن نقيس حركاتنا وأعمالنا ، على مقياس الجاهلية ، والأمم القديمة ، من عبدة الأوثان ، الذين كانت أكثر نساءهم يتنقبن . وليس لنا أن نقيس أنفسنا ، على نساء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنخالف بذلك الآية النازلة فيهن ، وفيها ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ وغير ذلك مما يمنع القياس ، وأما العقل ، فقد ذكرت أدلته في القسم الأول من هذه المحاضرات . وأما الإجماع فهو كالكتاب والسنة ، يدعم قضية المرأة دعماً .

إن الإجماع ياسادتي ، إنما يتم كما هو مصرح في أصول الفقه ، بأن يتفق في عصر كل المجتهدين من أمة محمد ، على حكم شرعي ، دون أن يكون ثمت مخالف من المجتهدين حتى ولا واحد ، لأن كل مجتهد يخطئ ويصيب ، وقد يخطئ الكثيرون ، والحق في رأي المجتهد الواحد المخالف .

فلنتأمل في هذا . ثم أرجو منكم ياسادتي ، قبول دعوتي إياكم الى كتب الشرع للنظر

والتحقيق . فتروا أن المجتهدين عامة ، والامام الأعظم ، كادوا يجمعون على أن الوجه ليس بعورة ، وإن سفوره مباح أحياناً ، ومأثور أحياناً ، وواجب أحياناً أخرى ، وما حُرِّمَ قط في حين من الأحيان ، وإذا نظرنا بأعيننا نساء المدن المحجَّبات ، فإننا ننظر أيضاً نساء القرى السواقر ، على أن حجاب النساء في المدن ، لم يكن مبنياً على اجتهاد يفرقهن عن نساء القرى ، إنما بني على عادة نشأت في بعضهن ، ثم انتشرت بينهن ، فإن جاز أن يسبب اعتياد نساء المدن ، إجماعاً في الإسلام على الحجاب ، فاعتياد نساء القرى ، أولى أن يحسب إجماعاً على السفور ، وهن أكثر من أولئك أضعافاً ، فأين إجماع المجتهدين من الأمة ، على ستر وجوه النساء جميعهن ، كما يموهون علينا ليستبعدونا دائماً .

ياسادتي الرجال هذا كتاب الله ، هذه سنن الرسول ، هذا اقناع الفقهاء والمجتهدين من الأمة ، والإمام الأعظم ، وهذا العقل بيننا وبينكم ، فلا تظلمونا مموهين بالدين فتذكرونا قول الشاعر :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

«أعدلوا هو أقرب للتقوى ، واقسطوا إن الله يحب المقسطين» .

يقول المدققون في أحوال الاجتماع ، إن الإنسان قد يتعود الظلم حتى يحسبه في آخر الأمر حقاً له وعدلاً . فعسى أن لا يكون اعتيادكم ظلم المرأة وصل بكم الى هذا الحد . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ» وقال صلى الله عليه وسلم : «خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ» .

ستر الوجوه خوف الفتنة

الخوف من وقوع الاثم في قلب الرجل . الأحاديث الشريفة، ونظرات لي

سادتي وسيداتي :

رأيتُمَ ما رأيت ، أن لأمر في الكتاب ولا في السنة ولا إجماع لستر الوجوه . إذن من أين جاء هذا الستر ؟ أو لم يقل به الفقهاء ؟

بلى قالوا . قالوا : إن عورة الحرة جميع بدنها ، خلا الوجه والكفين ، والقدمين

والذراعين ، ولاتكشف المرأة الشابّة وجهها ، لا لأنه عورة بل خوفاً من الفتنة ، أمّا عند أمن الفتنة ، فيباح النظر اليه ولو جميلاً ، كالنظر الى وجه الأمرد ولو جميلاً .
أمّا الفتنة ففيها أمران : أما الخوف من وقوع الإثم في قلب الرجل فحسب ، أو الخوف من الرجل أن تبلغ من نفسه الفتنة حدّ الفجور . فاستحسنوا منع الشابّة من كشف وجهها ، خوفاً من الفتنة .

* * *

لنبحث الآن في الأمر الأول ، أي ستر الوجه خوفاً من وقوع الإثم في قلب الرجل . إن فقهاءنا اتخذوا أساساً لمنع الشابّة من كشف وجهها خوف الفتنة ، الأحاديث الشريفة الآتية :
الحديث الأول ، عن أبي جعفر الباقر رضي الله عنه قال : استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة ، وكان النساء يتقنن خلف آذانهنّ ، فنظر اليها وهي مقبلة ، فلمّا جازت ، نظر اليها ، ودخل ، في زقاق قد سمّاه لبني فلان ، فجعل ينظر خلفها ، واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه . ولمّا مضت المرأة ، نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره ، فقال : والله لآتين رسول الله ولأخبرنه . فلمّا رآه رسول الله قال : ما هذا ؟ فأخبره . فهبط جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... ذَلِكَ أَذْكَى لَهُمْ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ .
الحديث الثاني ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : (مَنْ مَلَأَ عَيْنَيْهِ مِنْ امْرَأَةٍ حَرَامًا حَشَاهُمَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَامِيرَ مِنْ نَارٍ) .

الحديث الثالث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لعلي رضي الله عنه : (يَا عَلِيُّ أَوَّلُ نَظْرَةٍ لَكَ وَالثَّانِيَّةُ عَلَيْكَ) ، وفي رواية أخرى (يَا عَلِيُّ لَكَ كَنْزٌ فِي الْجَنَّةِ فَلَا تُشْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ، فَإِنَّ لَكَ الْأَوَّلَى وَلَيْسَ لَكَ الْآخِرَةَ) ، وفي رواية ثالثة (لَا يُشْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَلَيْسَ لَكَ يَا عَلِيُّ إِلَّا أَوَّلُ نَظْرَةٍ) .

الحديث الرابع ، (لَكُمْ أَوَّلُ نَظْرَةٍ فَلَا تُشْبِعُوهَا نَظْرَةً أُخْرَى وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ) .
فكان فقهاءنا ، خافوا على الرجال أن يصيبهم ما أصاب الأنصاري ، إذ عميت بصيرته وبصره ، حتّى اصطدم رأسه بالحائط ، فشجّته عظمة فيه أو زجاجة وأسالت دمه ، فستّروا وجوه النساء ، ليتخلص أمثال الأنصاري ، من مثل فتنة العمياء ، التي لاتدلّ فيه على أدب وعفاف وحياء .

وقلت : لو لم تخضع تلك المرأة بحركة تقوم مقام القول ، لما طمع ذلك الأنصاري وفي قلبه مرض ، حتّى عمي بصره وعميت بصيرته فشجّ رأسه .

وقلت : لانرى في زماننا رجلاً على هذا الشكل ، فصار يجوز للنساء ، أن يستمتعن بالهواء والضياء . وقلت ، الله جل جلاله أعلم من الفقهاء بالمصلحة ، فلما شج رأس الأنصاري ، لم يأت جبريل بآياته ستر الوجوه ، وإنما أتى بآية الغض من البصر .

وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم أيضاً من الفقهاء بالمصلحة ، فلم يأمر النساء بستر وجوههن ، بل أمر الرجال أن لا يتبعوا النظرة النظرة فيملأوا عيونهم حراماً ، وهذدهم إذا فعلوا ، بحشو عيونهم يوم القيامة بمسامير من نار .

وقلت : إن إعطاء رسول الله الرجال حقاً في النظرة الأولى ، ومنعهم من أن يتبعوا النظرة النظرة ، ومن أن يملأوا عيونهم من الحرام ، كل ذلك لا يتضمن الأمر بستر وجوه النساء ، بل يدل على كونها مكشوفة ، إذ لا يمكن النظر إليها وهي مغطاة .

وقلت : لو كان قصد الله جل جلاله ، وقصد رسوله صلى الله عليه وسلم ، ستر وجوه النساء ، لما كان ثمة مانع من التصريح ، ولما اكتفينا بتعليم الرجل الأدب ، والله لا يستحي من الحق ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وقلت : إذا كانت النظرة الثانية طبيعية ، غير مدفوعة من النفس الأمارة بالسوء ، فلا بأس فيها ، يدلنا على ذلك ، نهيه صلى الله عليه وسلم ، عن إملاء العين بالحرام . والمخاطب بذلك النهي ، هو النفس لا الجسد . وما الجسد ، إلا آلة في يد النفس ، فإن لم تشترك النفس الأمارة بالسوء ، وكان الجسد محرّكاً لها حينئذ في النظر . ولكن أن تشترك تلك النفس الأمارة ، في النظر إلى المحارم ، فالحرام حينئذ واقع . ولا بد لمسامير النار ، التي تحشى بها العينان الناظرتان ، من أن تكون أشد إحماءً واحمراراً .

القياس على ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه بنصر بن حجاج قياس فاسد

سادتي وسيداتي :

يرى بعض رجالنا أن يستنتج أن ستر وجه المرأة من هذه الأحاديث وبطريق القياس ، على ما فعل سيدنا عمر رضي الله عنه ، بنصر بن حجاج ، وخلاصة الحكاية ، أن سيدنا عمر رضي الله عنه ، كان يطوف ليلاً في المدينة ، فسمع امرأة تنشد متغزلة :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

فأمر عمر رضي الله عنه بإحضار نصر ، ولما رآه شاباً جميلاً ، وله ذوائب شعر فتانة ، أمر
بخلق رأسه ، ثم جيء به بعد الخلق ، فرأى أن في وجهه من الجمال بقية كافية لاقتان النساء .
فأمر بإبعاده حالاً الى البصرة ، وأمر عامله أن يبقيه هناك ، سياسة ، حتى يشيب .
فيستنتج بعض رجالنا من هذا ، بطريق القياس الفاسد ، أنه كما أن سيدنا عمر رضي الله
عنه ، أبعد نصراً خوفاً من فتنة النساء ، فهم يسترون وجوه النساء خوفاً من فتنة الرجال .
قلت : إن سيدنا عمر رضي الله عنه ، وهو من أتقى البشر ديناً ، وأكرمهم خلقاً ،
وأخلصهم عدلاً ، وأظهرهم ثوباً ، لم يستحسن مافعل بنصر استناداً الى دليل من أصول الدين ،
يعم حكمه ويقاس عليه ، ويتخذ قاعدة يعمل بها ، إنما كان ذلك منه فعلاً إدارياً سياسياً
استحسنه في تلك الأحوال على خلاف القياس ومن القواعد الشرعية « ماثبت على خلاف
القياس ، فغيره لا يقاس عليه » .

وأنتم ممن تعلمون ، أن السياسة في كل زمان ، لا تتقيد بالعدل المطلق ، بل كثيراً
ما يراعى فيها النفع العام ، تبعاً للقاعدة الشرعية « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » ومن
تلك السياسة ، تدابير إدارية ، قد يعامل بها في زماننا بعض الأشخاص ، دون أن يتحرى فيها
العدل المطلق وتسمى ضابطة إدارية أو مانعة .

ألا ترون ، أن « التوقيف » قبل الحكم في القوانين الحاضرة ، هو ظلم ظاهر ، إذ أنه كثيراً
ما يتناول الأبرياء ، ومع ذلك اختاره واضع القانون ، حفظاً للأمن العام ، إذ لم يجد بعد لحفظه في
بعض الأحوال سبيلاً آخر .

وقلت : إن سيدنا عمر رضي الله عنه ، هو حكيم عادل لا يخاف منه أن يضع الشيء في غير
موضعه ، فما جاز له لا يجوز لغيره ، فإنه مافعل ذلك ليقاس عليه ، بدليل أننا لم نر من قاس عليه
ففعل مثل مافعل .

وقلت : إن سيدنا عمر رضي الله عنه في معاملته نصراً ، إنما راعى جانب المرأة ، فإنه
لدفع الفتنة ، عزّر الرجل لخطيئة المرأة ، وذلك على عكس مايفعل رجالنا ، إنهم يريدون أن
يعزّروا كل النساء ، لخطيئة بعض الرجال .

أجل ، أي ذنب على نصر إذ خلقه الله جميلاً ليعزّر ، ويبعد ، ويحرم ، أهله ووطنه ؟ أي
ذنب عليه ، إذ افتنت به مفتونة موصومة ، وتمنت أن يمهد لها سبيل شرب الخمر معه ؟ ألم
تكن أخرى بالتعزير والإبعاد ، من ذلك المسكين ؟ إذن أراد سيدنا عمر بما عمل ، خلافاً
لمقتضى الظاهر ، ودفعاً للفتنة ، أن يعلم الرجال مراعاة جانب النساء .

وقلت : إذا اعترض أحد قائللاً : أرادت أمة ، أن تتشبه في الغيطان ليلاً ، بالحرائر ، صوناً

لنفسها من تعرّض الرجال ، فعلاها سيدنا عمر رضي الله عنه بالسوط ومنعها ، وذلك لا يدل على مراعاته جانب المرأة ، بل يدل على مراعاته جانب الرجل ، إذ أنه عزّر المرأة لخطيئة الرجل ، فأقول إن الإمام في ذلك الزمان ، لم يكن لهنّ مالحرائر من الحقوق ، فلا يصح القياس .

ومع ذلك ، فإن العلماء قد اختلفوا في عصمة الأنبياء أنفسهم ، في ما يقع في أفعالهم ، وفي ذلك خمسة أقوال ، كما يفهم من تفسير الخازن الصفحة ٣٢٧ ، فمن العلماء من جوز عليهم الكبائر ، ومنهم من جوز عليهم الصغائر عمداً ، ومنهم من جوز ذلك على جهة السهو والخطأ والتأويل ، واستدلوا بذلك بخطيئة آدم ، مع أنه كان نبياً ، إذ قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ واستدلوا أيضاً بما تكرر في القرآن والحديث ، من اعتراف الأنبياء بذنوبهم ، وتوبتهم ، واستغفارهم ، وإشفاقهم ، وبكائهم ، على ماسلف منهم ، وهل يتوب ويستغفر من لا ذنب عليه ؟

فبعد هذا ، هل يجوز لنا ، أن نعتقد العصمة بسيدنا عمر رضي الله عنه ، حتّى نستفيد ممّا فعل بنصر ، ونقيس عليه قياساً فاسداً معكوساً قصد ظلم المرأة ؟

تغزّلت المرأة في بيت من الشعر واحد ، فخلق رأسه وأبعد ، ثمّ تغزّل الرجال في قصائد ملأت دواوين شعرنا ، حتّى أصبحنا نربأ بأنفسنا عن قراءتها ، فلم يخلق رأس ، ولم يُبعد نفس .

وإنه لغريب ، أن سادتي الرجال ، لم يكتفوا بتعزيز الجميلة من المسلمات ، بل اكتفى سيدنا عمر رضي الله عنه بتعزيز نصر بن حجاج ، بل عزروهنّ جميعهنّ ، وحبسوهنّ ، وسترنا وجوههنّ ، وأذاقوهنّ مفضل الذل ، عزروهنّ كلّهنّ ، حتّى الزنجيات ، والعجائز ، والمشوهات ، ولم يستثنوا الرصينات ، والشريفات ، البعيدات عن الفتنة . ولماذا ؟ ذلك كله صيانة للرجال ، من أن يرتكبوا إثم الإفتتان بوجوههنّ .

هكذا رأى سادتي الرجال ، رأوا أن استعمال المسكر وأكل الفايض ، وتحليلهم ، حتّى في قوانينهم ، محرم ، وتحريمهم ما حلل ، رأوا أن كلّ ذلك غير هام ، ولكن يخافون جداً من إثم الإفتتان ، فيضلون طريق الجنة ، كأن الأثم لا يحصل بسفور غير المسلمات في القلب إذا فسد ، وكأنه لا يحصل في الملاهي والمراقص وأمثالها ، وفي بيوت الفجور التي ينتابها صاحب ذاك القلب الفاسد .

سبحان ربي ! بقدر ما يريد لنا في شرعه العدل والصراحة ، يرى منا عكس ذلك ، إن الله عليم بأنّ الرجال لا يسترّون وجوه النساء احترازاً من الإثم ، وإنهم يعلمون ، أن صيانتهم ليست في نقابهنّ ، ولكنهم يريدون تحت هذا الستار ، دوام استعبادهم إياهنّ ، محرومات كل حق خادما لهنّ كيف شاؤوا .

النقاب يفسد والفتنة اليوم في النقاب لا في السفور

وصوت للشيخ الغلاييني

ياسيدي الرجل ، ادخل الى ضميرك ، وحاسب نفسك ، أفلا ترى أنك الغادر ، إذا افتتنت بالمرأة ، وأنها المغدورة ؟ أليس أهون عليك ، أن تشرف نفسك ، من أن تقتل بالحجاب قوى أمك ، وابنتك ، وأختك ، وزوجتك ، وأم غيرك وابنته وزوجته وأخته ؟ اجتهد رجالنا أي اجتهاد ، ليجدوا سبباً يبرر استعبادهم النساء بالحجاب ، وإذا لم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً معقولاً ، عمد بعضهم الى تشبيه الرجال بالأسماك ، ووجه المرأة بطعم السنارة الفاتن الأسماك ، وناهيك به من تشبيهه! بنس التشبيه! فإن الطعم هو الذي يستر الصنارة ، حتى يأتي اليها السمك .

أفلا ترون ياسادتي ، إن الوجه ، كثيراً مايكون أولى أن يشبه بالصنارة ، وإن الغطاء أولى أن يشبه بالطعم ؟ أفلا ترون أن العيون تحيط بالمرأة إذا كان وجهها مستوراً بالنقاب ، ولو كانت زنجية شوهاء ، وتنكف عنها العيون لو سمرت ، كما تنكف الأسماك عن الصنارة لو كشفت ؟

ياسيدي الرجل :

أرجو منك ، أن ترى العبرة البادية في ما أقول ، فتسلم حينئذ بأن السفور ليس مبعثاً للفتنة ، وبأن حجابنا الحديث ، قديفسد ناظره ، وقلب لابسه . إن شاعركم ياسادتي الرجال ، ذلك الفيلسوف المعروف الشيخ أحمد فارس هو الذي قال :

لا يحسب الغرُّ البراقع للنسا	منعاً لهنّ عن التمهّدي في الهوى
إن السفينة إنّما تجري إذا	وضع الشراع لها ، على حكم الهوا

أجل ليس الوجه السافر مبعثاً للفتنة ، إن الغطاء على منواله الجديد ، وإن بعض الحركات الفاتنة مبعث للفتنة .

فقد قال بعضهم : كلّ سدلة من النقاب في وجه الرجل ، تولد بالنظر لمغزاها ، وممرها ، شياطين ، واحداً في قلبها ، وواحداً في قلبه ، أما البنت الصغيرة ، ذاك الملاك الطاهر ، فمسكينة مسكينة ، قد يفسد قلبها باكراً جداً ، بذاك الغطاء ، حتى تصبح تحبه بالنظر الى

مأفهمت فيه ، من المغزى والمرمى ، غير ناظرة الى ما فيه من ظلم وقيد ، ومنع لضياء والهواء فويح المسبب لفساد ذاك القلب الظاهر .

سألت إحدى السيدات ، تلميذة لبست النقاب ، أكان الرجال ينظرون اليك وأنت سافرة ، أكثر مما ينظرون اليك اليوم وأنت متحجبة ، أم الأمر بالعكس ؟ فقالت الفتاة : لأعلم لأنني لما كنت أذهب الى المدرسة سافرة كانت أفكاري مشغولة في دروسي ، فلم ألحظ نظرة ما ، من ناظر اليّ أما الآن ، فقد تغيرت الحال ، فإنني لأمرّ برجل إلا حدّجني بنظره .

تصوّروا ياسادتي سافرة تحدث أحدكم ، فأبدت حركة تشير الى استحياؤها أو خوفها منه ، أو جهرت له بذلك ، أفلا يدعو مثل هذا الحديث شياطين تحضره ؟ وهل تعني حركة سدل النقاب في وجه الرجل . شيئاً غير مثل هذا الاستحياء وهذا الخوف ؟ فلو كان مثل هذا الحياء ، ومثل هذا الخوف ، ولا كان النقاب إذا كانا وكان مجلبة للشياطين .

أو تصوّروا أنها أخذت تباحث أحدكم في الممنوع بينهما ، وفي تدينها وخوفها من الله في ارتكاب الممنوع ، أفلا يتضمّن ذلك تذكيراً بالممنوع ، وترغيباً فيه ؟ أو ما تعني حركة سدل النقاب في وجه الرجل هذا المعنى ؟

وقد تعودت بعض النساء ، سوء الإفتكار ، حتّى أنهنّ لا يتكلّمن كلاماً ، إلا أردفنه بعد كلّ عبارة بقولهنّ (بلا معنى) ، إنهنّ يحسبنّ ذلك أدباً ، يمنع سوء تأويل كلامهنّ ، ولكنهنّ لا يدركن ، أو لا يردن أن يدركن ، أن ترديدهنّ كلمة (بلا معنى) سبب يحدث ذلك المعنى الشرير في فكر القائل ، وفكر السامع ، ولولاه لما خطر الشر حينئذ في بال .

وما أشبه كلمة (بلا معنى) من حيث المغزى والمرمى ، بحركة سدل النقاب في وجه الرجل ، إذ أن كلاً من الكلمة والحركة المذكورتين ، ليس إلا مهمزاً للشياطين في مضمار من سوء الأفكار .

اتركوا النساء على البسيط ياسادتي ، اتركوا عقولهنّ وأفكارهنّ تشتغل بالعلم وبالأمر النافعة ، وبالتفكير في ماعملن وفي مايجب أن يعملن لخيرهنّ ، وخير عيالهنّ ، وخير بلادهنّ ، وخير البشر ، افكروا قليلاً في تربية أرواحهنّ ، ولا تحصرن كل افكاركم في شكل ملبسهنّ .

إذا خفت ياسيدتي من الفتنة ، فأرمي نقابك واسفري ، فقد أصبحت الفتنة وأمست في النقاب لافي السفور .

ياسيدتي ، إن كلّ سجيّة في النفس ، لا يتمّ رسوخها ، مالم تصبح فيها ملكة ، والنفس راغبة في كل مايلي قدرها ، فإذا رغبت ، ولاشك أنك راغبة ، في أن يكون نقاء الروح فيك ملكة ، فأرمي النقاب ، واكشفي وجهك .

إن الوجه مرآة الروح ، فالمرأة الشريفة تجتهد لتجعل روحها نقية دائماً ، فيظهر في وجهها نقاؤها ، وإن اعتيادها الدائم ذلك الحال ، يجعل نقاء الروح فيها ملكة راسخة .
أما إذا سدلت النقاب ، وهو وجه مزور يستر الوجه الحقيقي ، فلا مرآة هناك ترى ، ويرى فيها نقاء الروح .

ولاتعترضي عليّ ياسيّدتي قائلة : إنّ كشف الوجوه لم ينفع بعض الرجال ، إذ لم يجعل تلك الملكة ترسخ في نفوسهم . فياسيّدتي ، إنّ ما حرّم بعض الرجال رسوخها ، هي القاعدة الفاسدة التي اتخذوها « عيب الرجل على زر مداسه » .
فلينبذوا هذه القاعدة الفاسدة ، وليعلموا ، أن نقاء الروح مطلوب منهم ، كما يطلب من النساء ، تصلح فيهم الروح ، وترسخ تلك الملكة .
ياسيدي الرجل :

إنني لأراك قد منعت السفور . وقبلت التزيّن والتبرج في الزي والغطاء ، ولم تفكر أن الريبة أو الفتنة ، أضحت في زماننا تنتج عنها أكثر جداً ممّا تنتج عن السفور .
ألم يصبح التبرج أي إظهار المحاسن والتغنج . مشهوداً في نوع الحجاب وفي الأزياء الحديثة التي عمّ أمرها فيما بيننا ، والتي نشهد صورها المكبرة كلّ يوم في أحياء المدن حتّى أضحي الحجابيّون أنفسهم يقرأون على السفور ألف صلاة وسلام .

وهنا أنقل صفحة من كتاب « الدين الاسلامي واللورد كرومر » للشيخ مصطفى الغلاييني قال فيها : « إن الحجاب قديم موجود في الشرائع قبل الاسلام ، وليس هو من مخترعاته ، غير أن الحجاب بشكله الحاضر لا دليل عليه في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة ، بل إن المسلمين ، اقتبسوا من مجاوريهم ومخالطيهم من الأمم . على أن الحجاب بهذه الحالة المألوفة اليوم ، هو ما ينهي عنه الشرع الاسلامي ، وذلك أنه أمر الرجال بغض البصر عن النساء ، كما أمرهنّ كذلك ، وذلك لخوف الميل اليهنّ ، ومن يتأمل في الحجاب المضروب اليوم ، على وجوه بعض النساء يرّ أنه أدعى للميل ، ممّا لو كنّ غير متحجّبات . لأن إظهار الزينة التي أمرهنّ الله بإخفائها ، فهو يغرّر الأغرار ، ويستميل الأشرار ، وكثيراً ما يشف عن جمال باهر ، ووجه حسن ، وقد يكون الأمر بالعكس..... وإنّ مانشأ بعد الصدر الأوّل من ستر الوجه واليدين ، فليس ممّا تأمر به الشريعة » .

أنشدك الدين والشرف ياسيدي ، أن تخلو لنفسك ، وتطلّقها من قيود العادة ، ثمّ خذ السفور مع القبعة والرصانة الى جهة ، وضع الملاة في زيتها الحديث والنقاب الحاضر الى جهة ، واحكم في أيهما أبعد عن التبرج ، وأدفع للفتنة التي يقولون ، واحكم في أيهما مصلحتك وشرفك ، أليس من مظاهر التبرج في الملبس والغطاء الحديثين ، أن بعض ناقصات الأخلاق من

غير المحجّبات ، يتحجبن أحياناً على الزي الحديث الفتّان ، تبرّجاً يعرّضن به أنفسهنّ ، مدعيات أنهنّ مسلمات ، من بيوت أكابر المسلمين ؟
أيروقك أن يظنّ هذا الباطل حقاً ياسيدي الرجل ؟ أم يجب أن يروك سفور الحقائق كما هي ، ومنها المرأة وهي حقيقة ذات حياة أجدر الحقائق بالسفور ؟

حق للزوجة على زوجها وحق للزوج على زوجته

سادتي وسيداتي :

جاء في كتاب «الكفاية لذوي العناية» ، تأليف المرحوم مفتي بيروت السابق مانصّه : «حق الزوجة على زوجها ، هو احتمال الأذى منها ترخماً عليها لقصر عقلها ، والحلم عليها عند طيشها . وإذا وقع نفور أو نشوز منها ، أدبها ، وحملها على الطاعة قهراً ، فإن لم تطع ضربها ضرباً غير مبرح ، بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ، ولا يدمي لها جسماً ، وحق الزوج على زوجته ، أن تتطيّب له وتتزيّن ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، وإذا خرجت من بيتها بأذنه فلا تخرج معطرة أو متزينة ، ولو أذن لها في ذلك ، فإن الملائكة تلعنّها حتّى ترجع» ذلك كله خوف الفتنة .

سيداتني ، فلنشكر للرجل فضل تسليمه بهذا الحق عليه للمرأة! حقّ الترخّم عليها لقصر عقلها! والحلم عليها عند طيشها! وحملها على الطاعة قهراً ، بضربها ضرباً غير مبرح ، يؤلمها ، ولكن لا يكسر عظمها ، ولا يدمي جسمها ، وليس لي أن أجول في حلبة المطالبة بهذا الحق وتأمينه : لأن سادتي الرجال ، سلّموا به طوعاً ولا يزالون مسلمين ، سواء كانوا في الحقّين منصفين ، أو غير منصفين ، وسواء كان ضربهم المرأة ، حملاً لها على الطاعة الشرعية ، أو فشاً لغضبهم .

ياسادتي الرجال ، ذلك هو حقكم الشرعي قد تبين ، وهو أن تتطيّب لكم المرأة وتتزيّن ، وإذا خرجت من بيتها بإذنكم ، نزعّت الطيب والزينة ، وإلا ذهبت وآبت ملعونة ، وإذا أردتم ياسادتي الرجال ، وأنتم لاتعدلون عن المطالبة بالحق هذا مثلما عدلت أنا عن المطالبة بحق المرأة ذاك ، فطالبوا به لا بغيره ، كلّفوا نساءكم - إن قدرتم - أن لا يتزيّن خارج بيوتهنّ ، لنلا تلعنهنّ الملائكة في ذهابهنّ وإيابهنّ ، واسمحوا لهنّ بالسفور . إنه حقهنّ عقلاً ونقلاً ، وهو للحياة من ضروريات الأمور . إنه لا يستوجب لعنة من ملائكة ولا من بشر ، بل لا يتصور الناس ملائكة إلا في عالم سفر .

الخوف من الرجل ان تبلغ من نفسه الفتنة حد الفجور ونظرات لي

سادتي وسيداتي :

تتكلم الآن في الأمر الثاني ، وهو الخوف من الرجل ، أن تبلغ من نفسه الفتنة حد الفجور .
يقال أن الرجل ، إذا افتتن وتبع هواه ، لا يقدر عواقب ، بل يرتكب كل كبيرة ، فتمسي
أعراض النساء عرضة لتعرض الرجال ، ويذكر رجالنا حوادث شتى ، حتى أن بعضهم ، يذكر
ما فعله النبي داود عليه السلام ، لما رأى من أعلى سطحه بثشبع تستحم واقتتن بها ، وإني أقدم
على ذكر رواية التوراة ، لأنها تاريخ مقدس هو مرجع عالم يزيد على خمسمائة مليون من
الناس ، ولكل ما يعتقد ، أذكرها مع مطلق التفكير الحر ، وماهي إلا صورة من صور التاريخ ،
التي تظهر أحوال الأزمنة القديمة التي يتغنى بها بعضنا ، أذكرها الآن لأن ذكرها في التوراة ،
يدل على حال تلك الأزمنة ، لا لأنني معتقدة صحتها فالاعتقاد أمر آخر ، وقد ذكرت للسبب
نفسه رواية المفسرين ، عن شكل تبرج النساء الفظيع ، في الأزمنة المذكورة ، من الجاهلية
الأولى ، أي زمن داود وسليمان عليهما السلام .

جاء في التوراة ، الإصحاح الحادي عشر من صموئيل الثاني ، أن داود النبي رأى من أعلى
سطحه في أورشليم ، بثشبع زوجة أوريا الحثي تستحم ، وكانت امرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل
رسلاً وأخذها ، وأدخلها اليه ، وحبلت منه ، ثم دعى النبي زوجها أوريا اليه ، فأكل أمامه وشرب
وأسكره ، وبعدئذ ، أرسل معه مكتوباً الى يواب القائد ، الذي كان محاصراً بني عمون في ربه .
وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب
ويموت . وهكذا جرى ، فضرب أوريا وقتل ، وبعد أن ندبت بثشبع بعلمها ، وانقضت أيام المناحة ،
أرسل داود وضمها الى بيته ، وصارت له امرأة ، هي أم سليمان الحكيم ، وهو ولده الثاني منها .

نعم ، لو تصورنا ماروي عن النبي المشار اليه عليه السلام ، مع أنه كان زوجاً لأكثر من
ثلاثمائة امرأة ، لسهل علينا أن نتصور ما فعله غيره من قبله ، وبعده ، فنقضي حينئذ أن الحق
للأقدمين ، في سترهم لوجوه نسائهم خوف الفتنة ، وفي وضعهم الأقفاص على بيوتهم ، لنلا
تري النساء . مع أنهم على ما يظهر ، كانوا يتركون نساءهم تستحم في محال تشرف عليها
أبصار الرجال من أعلى السطوح .

ولكن ، بما أن رواية التوراة هذه ، غير مسلم عندنا أنها صحيحة كما وردت ، فلا أرى
جائزاً أن أتخذها موضوعاً للبحث ، إذن لنبحث عن غيرها .

أجل ، مضت أزمنة كثيرة ، ومنها زمن الإنكشارية وغير بعيد منّا عهده ، اضطرّ فيها الناس إلى إخفاء أموالهم ، وجواهرهم ، ونسائهم ، خوف اعتداء الأشرار ، وتسلب المستبدين ، وإلى إخفاء معتقداتهم وأفكارهم ، خوف علماء السوء والمرائين الماكرين ، ومما أكثر هؤلاء في تلك الأزمنة . فقد كان في كل بلد ممن وصفت ، جماعة يرون أنفسهم سادة ومسيطرين ، ورجال البلد ونساءه عبيداً لهم وإماء ، ولا بدع ، فإن النفائس كانت رهينة السلب ، والنفوس رهينة القتل ، والأعراض في خطر . وكانت المصارحة بالمعتقدات والأفكار ، مدعاة للوقعة ، فإن الفاقة المادية ، فضلاً عن الفاقة الأدبية ، كانت في أشد حالاتها ، حتى ضرب المثل بمن تحسب ثروته بالغة كيساً خمسمائة قرش ، وسمي عالماً من ألم القراءة والكتابة ، تلك أحوال كانت تعقد الألسنة ، وتكسر الأقلام ، وتغلّ الأيدي ، عن تناول أسباب الحياة ، لايجرؤون على الخروج من بيوتهم ، ما لم يكونوا مسلّحين بأنواع السلاح .

وإنّي أذكر من أغاني العرائس القديمة ، تلك الأغنية المشهورة :

«بيك يامليحا راح غالشام وحدو ، بيك يامليحا بوزيد الهلالي» .

وقد ذكر في كتاب الكفاية ، أنه يحرم على الإنسان أن يسافر وحده لما فيه من الخطر . إنّي أذكر حقائق ياسادتي ولاأصور خيالا . ولاأولّف «ألف ليلة وليلة» جديداً ، ذلك يفعله المدافعون عن الحجاب .

أفلا ترون ياسادتي وسيداتي ، أن غطاء النساء وحجابهنّ ، مبني على حكمة إخفاء المال والجواهر ، بالنظر الى تلك الأحوال الخطرة ؟ وهل ترون من حاجة ، الى أن نتبع في عصرنا طريق حكمة الإخفاء ؟ ثم ألا ترون ، أن الحكومات قد نظّمت تحت راية السيادة العلمية الحرة تنظيمات متواليات تصان به الأعراض ، وتحفظ النفائس والنفوس ، وقد امتدّ رواق العلم والأمن ، فترعرع تحته الأدب ، ونشأ الإنسان على المبادئ الشريفة الحرة ، فتقلّصت ظلال المخاوف ، إذ كثر في الحكومات الرقيب والمشارف .

ألا ترون الحكومات الحاضرة ، وقد تألّفت تحت راية السيادة العلمية الحرة الراقية يوماً فيوماً ، فتحرّر الرجل وفكره ، وإرادته ومعتقده ، ولسانه وقلمه . وتحرّرت المرأة كما تحرّر الرجل ، في كل العالم الراقى ، حيث يكمل الرجال أدب النساء . ويكمل النساء أدب الرجال ؟ أو لا ترون ألوفاً من الفتيات والسيدات يضربن ، مجتمعات ومنفردات في مشارق الأرض ومغاربها ، ويطفن العالم ، على أتم ما يكون من الثقة والطمأنينة ؟

ألا ترون ألوفاً من الفتيات والسيدات السافرات ، اللواتي يشبهن البدور ، يمرحن في الشوارع والمنتزهات ، ساعيات لخيرهنّ ، وخير بني البشر ؟

ألا ترون الجواهر النفيسة ، وبعضها يساوي الملايين ، تعرض في الأسواق ، لاحافظ لها غير لوح شفاف من البلّور ؟ فمن يعتدي اليوم مهما كان شريراً شقيّاً على عرض غيره أو جواهر غيره ؟ وعلى كل حال ؛ إن كان إخفاء النساء مبنياً على حكمة إخفاء النفائس خوف الإفتتان ، فقد وجب على الرجل ، أن يحسن تطبيق الحجاب على هذه الحكمة ، وهل من أثر لهذه الحكمة ، ونحن نرى العجوز من جهة ، ولاخوف عليها ، تتحجّب الحجاب الكثيف الذي لا تخرقه عيون الناظرين ، ونرى الفتاة الحسنة من جهة أخرى ، تلبس الثوب القصير ، وترسل نقابها الناعم الشفاف ، وهو من دواعي الخلافة ، متبرجة به ، يزيدا جمالاً ، فتحدّق إليها العيون ؟ فهل يُبنى كلُّ من شكلي حجاب العجوز والفتاة ، على حكمة الخوف من الفتنة ؟ وإذا افتتن الرجل بالمرأة ، فما ذنبها هي ليخفي وجهها ؟

إنكم تعلمون ياسادتي ، أن الدين إنّما وضع لخير الناس كافة ، وإلقاء السلام العام في الأرضين ، ومع ذلك فإن العالمين المختلفين عقولاً وميولاً لم يسلموا من الفتنة فيما بينهم بسبب الدين نفسه ، فهل لنا والحالة هذه ، أن نخفي وجوه الدين دفعاً للفتنة ؟ هكذا أيها السادة وجه المرأة ، إن الله تعالى أودعه كل قواها التي إن هي إلا قوى الخير ، والصلاح ، والسعادة لها ولعشيرتها ، وللأمة جمعاء ، فإن يقع في قلب مفتون ما ، مضروب على قلبه ، فتناً لم تتعد إلى غيره ، أيجب أن تخفي وجوه النساء جميعهن ، خوفاً من أن يتبع مثل تلك الفتنة ؟ إن من القواعد الفقهية « يختار أهون الشرين » ، فهل أهون الشرين في ستر وجوه النساء جميعهن ؟

ومن القواعد الفقهية « الأمر إذا ضاق اتسع » ، أفلا ترون أنكم ضيّقتم على النساء ، تضيقاً مخالفاً أمر الله وأمر رسوله ، وأقوال ثقة الفقهاء والمفسرين ، فاقتضى الأمر أن توسعوا عليهن ، وتروّحوا عليهن ضنكهن ؟

بطلان سبب الحجاب وزوال مانع السفور

ياسادتي الرجال :

إذا زال المانع عاد الممنوع ، وإذا بطل السبب بطل المسبب ، فقد زال مانع السفور ، وزال سبب الحجاب ، فلنرجع إلى ما يأمر الله به أولى الأبواب .
قال حافظ إبراهيم شاعر النيل :

ليست نساؤكم حليّ وجواهرأ
ليست نساؤكم أثاثاً يقتنى
تشكّل الأزمان في أدوارها
ربّوا البنات على الفضيلة إنها
وعليكم أن تستبين بناتكم
خوف الضياع تصان في الأحقاق
في الدور بين مخادع وطباق
دولاً وهنّ على الجمود بواقى
في الموقفين لهنّ خير وثاق
نور الهدى وعلى الحياء الباقي

صدقت أيها الشاعر الكبير ، إن المرأة ليست حلية تصان في الأحقاق خوف الضياع ، بل هي رأس مال عظيم ، يستفاد منه لخير العيلة والأمة ، فلو تركناها مخبوءة في خدرها ، لكان مثلنا ، مثل قصير النظر ، الذي يخفي ماله في صندوقه ، مكتفياً بتمتّعه في مرآه ، ولو أوتي الحكمة لأحسن إنماءه وأوتي به خيراً كثيراً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « أَكْثَرُ الْخَيْرِ فِي النِّسَاءِ » .

سيداتى ، لم يبقَ من داعٍ في زماننا للخوف من الرجال ، إنّما يجب أن نخاف من نفوسنا ، إن لم نشرفها بالتربية الصحيحة ، وإنّي لأهزأ ، وأهزأ جداً ، بعقل من يحسب أن في غطاء وجهه محارمه بلوغ الإرب . إن السرّ في القلب ياسيدي الرجل ، فلا تستبدل تهذيب النفوس والقلوب ، بغطاء الوجوه ، وإلا فأنّت من يعتاض عن اللباب بالقشور .

التحجب والتخدر والتخدير عندنا ، وتطويل الأظافر في الصين

سادتى وسيداتى :

إن دين الإسلام ليس مختصاً بمسلمات المدن ، أو بعيالات متسودات في القرى . أمّا التحجّب والتخدر ، فقد كانا مختصين بنساء العيالات الغنيّات ، أو المتسودات ، اللواتي تملّكهنّ الغرور ، فأردن أن يمتزن على غيرهنّ بالتحجّب ، والتخدر ، والبطالة ، لابلجد والسعي والفضيلة .

إنهن لم يدركن واجبات المرأة . وواقهنّ رجالهنّ بعامل الغرور أيضاً وهم لم يدركوا تلك الواجبات ، أو لم يريدوا أن يدركوا .

ولأعلم ما إذا كان المخدّرون والمخدّرات ، والمفتخرون بالتخدير والتخدر والمفتخرات ، يدركون معنى الخدر والخدر ولأعلم ما إذا كان ربّات الحجال يدركون معنى الحجال ؟

الخَدَر في القاموس ، الكسل والفتور ، وامدلاً يغشى الأعضاء . والمكان المظلم الغامض ، ومنه «إني إذا استخفى الجبان بالخَدَر» .

والخدر الظلمة ، وسترٌ يمدّ للجارية في ناحية البيت ، والحجال الخلخال ، فيالها من صفات ، تفاخر بها ربّات الحجال! وكان مثل أولئك المخدرات ، مثل سادة الصينيين ، الذين يرون امتيازهم على غيرهم . في طول أظافيرهم .

إنهم يتخذون طول الأظافر ، دليلاً على غناهم ، واستغنائهم عن الجد والسعي في أمور الحياة ، وأعظم مايهمهم ، أن لاتؤذى أظافيرهم ، التي قد يزيد طول واحدتها على نصف ذراع ، إنهم يجلسون على كراسيهم جامدين كالأصنام ، غير محرّكين من أعضائهم إلا اللسان للأمر والنهي . وأظافيرهم الطويلة معروضة على ركبهم ، يطعمهم الخدمة ويسقونهم ، ويلبسونهم ماشاؤوا من طعام ، وشراب ، وكساء .

إنهم لم يدركوا واجبات الرجل .

ثم أخذت عادة التحجّب تعمّ المدن ، حيث قلت فيها سيادة بعض الناس على غيرهم ، فتبع الوضع الرفيع تشبّهاً تحت ستار التدين وخوف الفتنة ، وأمّا القرى فبقي التخدر والحجاب فيها مختصّين ببعض البيوتات .

إن سادة الصينيين ، يتخذون الأظافر الطويلة ، دليلاً على غناهم واستغنائهم عن الجد والسعي في أمور الحياة ، وهكذا سيداتنا ، ابتدأن في عادة التحجّب والتخدر . أمّا في العالم السافر الراقي ، فإن أصحاب الملايين والمليارات ، فورد ، روكفلر ، أديسون ، ماركوني ، باستور ، مدام كوري ، أولئك ، وأمثالهم ممّن عرفوا واجبات الرجل ، وواجبات المرأة ، ممّن ملأوا الدنيا خيراً وفضلاً وإحساناً ، لم يشاركوا ولا يشاركون سادة الصينيين ، ولا مخدراتنا باعتقادهم أن في الخمول ، والكسل ، والفتور ، والجمود ، والبطالة ، امتيازاً ورجحاناً على الناس ، إنهم يعلمون أن الخمول والجمود ، من مظاهر الموت لامن مظاهر الحياة ، إنهم يعلمون كما علم الشيخ عبد القادر المغربي ، أن عظمة الأمة إنّما تقاس بمقدار سعي أبنائها ومحصول أتعابهم ، وكل أمة أنفت من الأعمال ، واستحلت طعم الراحة والبطالة ، أسرع اليها الفناء والإضمحلال ، وخلفها غيرها من الأمم العاملة النشيطة ؟

ألا ترون ، إن الله جل وعلا ، لمّا حجب نساء النبي صلى الله عليه وسلّم ، لأحوال مختصة ببيت النبوة ، كأنه جلّ جلاله ، خشي أن يتقلّد نساء المسلمين ، نساء النبي صلى الله عليه وسلّم ، فينال المسلمين خسارة عظمية ، تدارك الأمر فصرّح قوله ﴿يانسأ النبي لستن كأحد من النساء﴾ .

أجل إن الله جل جلاله ، لم يرد أن نقيس أنفسنا على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالتحجب ، وصريح بإرادته تصريحاً ، ولكن نحن خالفناه فكنا الخاسرين .
الصينيون ثاروا أخيراً على الأظافر وقطعوها . فاحر بكل من تعتمد على شرف نفسها ، أن تثور على نقاب وجهها ، فتمزق أحشاء ذلك الذئب ، الذي كثيراً ما عاث في هذا القطيع .

قولان للشيخ عبد القادر المغربي، وكلمة الى أهل المدن

في شهر كانون الثاني الماضي ، خطب الشيخ عبد القادر المغربي ، في حفلة أقامتها جمعية تهذيب الشبيبة السورية في بيروت ، خطاباً شيقاً ، تحت عنوان : « محمد والمرأة » قال فيه :

« وكلمتي في الحجاب ، أن البشر من يوم أخذوا هذا الطور الإجتماعي ، وجد فيهم طبقات أرستقراطية ، يرون من مصلحتهم أو تميزهم ، أن يحتجبوا ويقللوا مخالطة غيرهم من الطبقات ، وهذا كما يفعل الملوك والملكات . بل عظماء الناس ونساؤهم ، الى يومنا هذا ، ونبوءة محمد ليست من الأرستقراطية ، في شيء ، فلم يضرب بينه وبين عامة الناس حجاباً ، فكانوا يدخلون بيته لتلقي العلم ، كما يدخل التلاميذ مدرسة أساتذتهم ، لكن بعض هؤلاء التلاميذ ، كانوا ثقلاء في حديثهم ، ثقلاء في طور زياراتهم ، فأشار عمر على النبي « ص » بمنع الناس من دخول بيته ، فلم يوافق النبي ، احتفاظاً بما نسميه اليوم ، ديموقراطية ، وتجنباً للمظاهر الملوكية ، ثم اشتدت ثقالة الثقلاء ، فنزل الوحي بحجاب نساء النبي « ص » وعدم دخول الناس بيته ، اللهم إلا في أحوال خاصة . هذا هو المظهر الوحيد ، الذي اضطر إليه النبي « ص » بسائق الحاجة الماسة ، ثم أخذ المسلمون يقلدون نبيهم فحجبوا نساءهم ، حتى أصبحت كل امرأة مسلمة ، محجبة ، وكل بيت لمسلم ، بلاطاً ملوكياً ، ولكن ما أسوء مصير الأمة التي ليس فيها رعايا عاملات ، وإنما كل نساؤها ، ملكات محجبات . »

وخطب في النادي النسائي العربي فقال : « إن الغرض من حجب المرأة عن الأنظار ، ومنعها عن مخالطة الرجال ، إنما هو التبجيل والتكريم ، لا الإهانة والتحقير ، وكيف يكون حجب المسلم لإمرأته تحقيراً لها وإهانة ، وهو بسبب هذا الحجاب أصبح خادماً لها حابساً نفسه على قضاء حاجاتها ؟ إنه يعدها جوهرة نفيسة فيحفظها في خزانته تكريماً لها لا تحقيراً . »

لكن الحق يقال أنه يجب أن لا يمنع الحجاب المرأة المسلمة من تحصيل العلم الذي في تحصيله حفظ لحقوقها الشرعية ، فالاعتدال في الحجاب لازم على كل حال ، وإلا عمّ الجهل وساء الحال ، أما رفع الحجاب بالمرّة ، وإعطاء المرأة حريتها المطلقة في مخالطة الرجال . من دون أن يكون لوليها حق مراقبتها ، فهذا ضار جداً .

هذا ما قاله حضرة الشيخ أيها السادة والسيدات فاقروا من خلال السطور ما يرمي اليه .

انتبهوا الى عبارته القائلة : « ما أسوأ مصير الأمة التي ليس فيها رعايا عاملات ، وإنما كلّ نسائها ملكات محجّبات » .

انتبهوا الى قوله : « إن الإعتدال في الحجاب لازم على كل حال ، وإلا عمّ الجهل وساء الحال » .

انتبهوا الى قوله : « أما رفع الحجاب بالمرّة ، وإعطاء المرأة الحرية المطلقة في مخالطة الرجال ، من دون أن يكون لوليها حق مراقبتها فهذا ضار جداً » .

انتبهوا الى القيود التي وضعها لتجعل مخالطة الرجال والنساء ضارة ، وانتبهوا الى المفهوم المخالف ، تروا أن لافرق بين مانطلب وماحكم لنا به الشيخ الفاضل بموجب شرع الله .

ومن من المسلمات ترضى برفع الحجاب بالمرّة ، وبكشف العورات من مثل صدور وأعضاء .

ومن منهن ترضى بالحرية المطلقة في مخالطة الرجال بدون حق المراقبة ؟ بل إنّنا نعتبر أن مراقبة الجنسين كلّ منهما الآخر في المخالطة ، أمر لابدّ منه لصيانة الجنسين ، وتكملهما آداباً .

ولكن يظهر أن حضرة الشيخ لا يزال يخشى علماء السوء ، فيريد أن يفهم الأمة بالرموز ، رموز ينتبه اليها العاقلون والعاقلات ، فيعرفون أن الحجاب ليس من الشرع المنير ، بل ممّا يفضي بالعيلة والأمة الى سوء الحال والمصير ، ويموّه بها على الجاهلين والجاهلات فيفتخرون بالخيال ، كأنّ المسلمات المحجّبات ، ومنهنّ العجائز والمشوّهات ، كلهنّ جواهر فائتات مكنونات في خزائن القصور ، أو كأنّهنّ ملكات جالسات على السرير . ما أجمله من خيال ، لربات الحجال ! وما أسوأ المآل ، بهذا الحال !

كنت أود بعد أن قرأت كتاب الشيخ النفيس (الأخلاق والواجبات) أن لا يلتقط الناس اللآلئ من فمه إلا نقيّة ، لاتشوبها شائبة ، فرمى بها اليهم في أصدافها .

ولكن ياسيدي الشيخ أصحيح أن الملكات والأرستوقراطيات في الدنيا ، يضعن النقب على

وجوهن متحجبات بها عن الناس ، كما وضعتها المدنيات منا حتى المتسولات الطائفات على الأبواب وفي الطرقات ؟

أيجوز تشبيه المرأة من جهة المعاملة ، بالجواهر المادية التي لاروح لها ؟
وهل كل مسلمة جوهرة نفيسة مملوكة مادة لكل مسلم ليحرمها نعمتي الحرية والإرادة ،
وينزلها الى دركة الجماد ؟ وإن كانت المرأة جوهرة الرجل ، فلماذا لا يكون الرجل جوهرة
المرأة فتخفيه مثلما يخفيها تبجيلاً وتكريماً ؟ وهل سمع في الدنيا ، أنه يحبس ويحجب عن
الأنظار ، ويمنع من الاختلاط ، إلا المتهمون والمتهومات ، والمجرمون والمجرمات ؟ فكيف
يكون ذلك الحبس والحجب والمنع تبجيلاً وتكريماً للمسلمات ؟

أجل هكذا ابتداء الحجاب في المدن حتى عم ، ولكن السافرات في القرى لم يزلن أضعاف
المحجبات في المدن وأكثر ، فلو كان السفور محرماً لمنع الاسلام منه القرويات والأعراب ، ولم
نسمع قط عالماً خطر بباله أن يمنع القرويات من السفور .
سادتي أهل المدن :

أخاطبكم ، ولأخاطب الأعراب ، وأهل القرى من الإسلام ، إذ يظهر أنهم خافوا الفتنة .
والضرر من النقاب ، لا من السفور فسفروا .

المسألة ياسادتي هامة ، لا يترتب عليها مستقبل المرأة فحسب ، بل يترتب عليها
مستقبل الأمة جمعاء . المرأة نصف لأمة ، والأم حياتها ، فاعذروني في قلبي ، إنني رأيتمكم
غير منصفين ، في الخوف من الفتنة ، كما رأيتمكم غير منصفين ، تجاه دليل الغض من
البصر .

وإنني رأيتمكم في تقليد النقل ، كما أنني رأيتمكم في تطبيق حكم العقل ، غير منصفين ،
وذلك لأنكم لم تكتفوا تبعاً لقول الفقهاء ، بستر وجه الشابة عند خوف الفتنة ، بل سترتم سواء
كان من محل للخوف ، أو لم يكن ، في سائر النساء كيف كانت حالاتهن ، اللهم إلا إذا كانت
بعض القواعد والعجائز ، والمشوهات ، ومن ضنت عليهن الطبيعة بالجمال ، فلا تخشى منهن
الفتنة ، قد تكلفن من تلقاء أنفسهن الحجاب والنقاب ، على أمل أن تحدق اليهن العيون ، كما
تحدق الى الشابات الجميلات ، فتنبسط نفوسهن بخيال من الشباب أو من الجمال ، فتكون
التبعة حينئذ عليهن لاعليكم .

مجانبة الرجال الحق مع اعترافهم به

سادتي :

إلا أن الحق قد ظهر ، يراه كل ذي بصر ، وأودّ لو جانبتموه واقفين الى جنبه ، بدلاً من أن تجانبوه كأئكم لستم من أهله أو حزبه ، قال حافظ ابراهيم الشاعر المصري الكبير ، يخاطب قاسماً أميناً ذلك المصلح الكبير :

أقسام إن القوم ماتت قلوبهم	فلم يفقهوا بالسفر ما أنت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم	فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم	لوضع نقاب استقامت رغائبه
فلو خطرت للناس حواء أمنا	يلوح محياها لنا ونراقبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها	تصافح منا من ترى وتخطبه
وخلفهما موسى وعيسى وأحمد	وجيش من الأملاك ماجت مواكبه
وقالوا لهم إن السفور محلل	لقالوا نعم حق ولكن نجانبه

ولا بدّ لي هنا من أن أذكر ما علّقه على هذه الأبيات ، حضرة الكاتب الاجتماعي ، محمود

توفيق بك حيث قال :

« كآني بحافظ يقول لقاسم أمين . قمت تدعو نساء المصريين لرفع الحجاب وقد نطقت صواباً ، ولكنهم لا يفهمون الصواب ولا يتبعونه ، بل إنهم أفرطوا في الإصرار على الباطل ، والتهافت على الضلال ، فلو قام غيرك ينادي رجالهم ، أن يتخذوا لهم نقاباً كالنساء ، لجاروه على ذلك الخطأ ، ولتبوا دعوته ، فأصبحوا وكلهم متبرقعون ، ولو جاءتهم حواء أمهم ، وفي يدها مريم العذراء ، مكشوفتي الوجه ، دليلاً على رفع الحجاب عن النساء ، ومعهما موسى وعيسى وأحمد عليهم الصلاة والسلام ، يؤيدون دعواهما ، ويفهمون الناس لذلك ، معنى ما أنزل الله تعالى على لسانهم ، في كتبهم المقدسة ، من التحليل للكشف عن وجه المرأة ، واختلاطها بالرجال وعدم مغاييرته للأوامر الإلهية ، ومع الجميع جمع غفير من الملائكة المقربين مصدقين بلسان الحق جلّ شأنه لما يأمر به هؤلاء الأنبياء ، لما كان نصيبهم منهم ، إلا الرد والعصيان ، ولقالوا لهم صدق الله العظيم ، وبلغ كل رسول كريم . ولكننا

على ذلك الحق نحيد . ولانفعل إلا مانريد ، فإنهم لا يمارون إلا في الحق ، ولايطيعون إلا الظالم ، ولايتبعون إلا الباطل» .

ولكن أجل تجانبون السفور وتحيدون عنه ، ياسادتي الرجال ، مع اعترافكم أنه محلل وحق ، ولكن لاحتباً للدين ، كما تموهون . إذا أن الدين هو الحق ، والحق هو الدين قبل تحباً للظلم ، للاستبداد ، للاستعباد . إنكم تعودتم ذلك ، وتتجنبون ، تبعاً لقاعدة أهل الشرق ، ترك العادة ، ولو سددت عليكم طرق الرقي والسعادة .

الدين والأسقاء ، إنه لا يحكم عند الله ، ولا يحكم رسوله ، ولا يحكم العقل والدين ، ولا يحكم الحق ، بل يحكم الهوى ، والويل لأمة يحكم فيها الهوى .

«إذا رأيت الهوى في أمة حكماً فاحكم هناك بأن العقل قد ذهب»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الله عز وجل : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَعِظْمَتِي وَكِبْرِيَانِي وَنُورِي وَعُلُومِي ، وارتفاع مكاني ، لا يؤثر عبدٌ هواه على هواي إلا شئت عليه أمره ، وليست عليه دنياه ، ولم أوتيه منها إلا ما قدرت له . وَعِزَّتِي وَجَلَالِي ، وَعِظْمَتِي وَنُورِي ، وعلوي ، وارتفاع مكاني ، لا يؤثر عبدٌ هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي ، وكفلت السموات والأرض رزقه ، وكنت له من وراء تجارة كل تاجر ، وأتته الدنيا وهي مرغمة» .

أجل ، قد تجانبون السفور ياسادتي ، مع اعترافكم أنه محلل وحق ، ولكن لاحتباً للدين كما تموهون ، فإنكم لو كنتم عاملين للدين ، لما حللتم في قوانينكم ما حرم الله ، ولما حرمتهم ما حلل .

القسم الرابع

في

المعارضات والردود

معارضة قاضي الشرع السابق ونظرات لي فيها

سادتي وسيداتي :

اتصل بي ، أن أحد قضاة الشرع سابقاً ، هو عَلم عندنا من أعلام معارضي السفور ، وأن له أدلته الساطعة وحججه الدامغة ، فرجوت منه بالواسطة ، أن يبين أدلته العقلية والنقلية ، لعلّي أجد فيها من الحكمة ، ما يغير معتقدي ، ولا شأن لي إلا التقاط الحكمة ، والرغبة في التكمّل الأدبي . فبعث اليّ بقصيدة له نشرها في جريدة البلاغ ، ذاكرّاً أنه تمّ نظمها بفضله تعالى وكرمه ، يوم الأحد الواقع في ٧ محرم الحرام سنة ١٣٤٥ يردّ فيها على قصيدة الزهاوي ، المنشورة في جريدة الميزان ، وذكر أنّي سأجد فيها كلّ شيء لجلاء القضية .

قرأتها وقرأتها ، فرأيت أن أنقلها لسامعي الكرام محوّلّة الى نشر ، محتفظة بمعانيها وتراكيبها وألفاظها ، ومارأيت تحويلها الى نشر ، إلا لكي لا يلهو القارئ أو السامع ، بالترنم الظاهر اللفظي ، فلا يفتن للمعنى والحكمة ، وهما الضالة المنشودة ، وما كان التغني هو القصد في هذا الموضوع ، بل الإستفادة علماً وأدباً وحكمة ، وهذه أدلة حضرته العقلية والدينية ، في قصيدته المذكورة .

قال :

«أولاً : إنّ عزّ المرأة يدوم ، بأن تخضع لقوله تعالى (قَرْنَ) ، وبأن تغضّ هي الطرف عنّا ، ونصوم نحن عنها ، والمسلم الذي يقرأ الكتاب ، ويدعو لإرتكاب الآثام ، هو مظلوم ، والمؤمن الذي يقرأ الكتاب ، ويقضي بخلافه هو زعيم .

«ثانياً : إنّ سفور النساء داء وخيم ، هتَكَ العرض في البلاد ، وحلّ الهمّ من فوق رؤوس العباد ، ويأباه التهذيب والتعليم ، وليس يرضاه غير نذل يبغي الخنا ويروم ، وليس يدعو اليه إلا السفیه الرجيم ، وإن من سفرت سَقَلت بالخنا ، وإن إبادة الحيا عنها ومنها ، توجب الخراب والتحطيم ، فالمرأة تعوم فوق شبر .

«ثالثاً : إن السفوريين يريدون أن يكونوا كلاباً ، وتكون نساؤهم كمنزير مستديم استعماله ، مشاع بين الرجال .

«رابعاً : إن الأقوام التي قبلت السفور ، ضاعت أنسابها ، وتعدى اللئيم على أعراضها ، وخربت بلادها ، وعمّ الجهل فيها ، وسفلت ، واستولى عليها الذلّ والصغار ، وأتى إليها القحط ، وقلّت بركات السماء ، وحلّ الغلاء ، وقلّ الحياء ، وعدم الوفاء ، وتوالى عليها البلاء ، وسرت فيها السموم ، وماتت المروءة ، حتّى لم يبق فيهم من المروءة ميم .

«خامساً : خروج النساء من غير عذر سافرات ، شر خبث ولؤم ، إذ يتصدى السقيم لمن بارحت بيتها فهانت ، لأنّ اس الغرام يقوم في الوجه ، والخدر هو الحصن الحصين ، الذي تُحمى فيه الأعراض والجسوم .

«سادساً : إن الحجاب طهر ، والسفور رجس ، فيه جهل وعذاب أليم ، والحجاب أمره قديم ، ويجب أن يقرّ هذا القديم ، لكي يعرف الغلام أباه ، وإن بيوت الأيتام والأديرة ، شاهدة على ذلك ، فلكم فيها من أولاد السفوريين المكتومة آباؤهم .

«سابعاً : زعموا أن السفور نافع لترقي المرأة ، ولكن كذبوا ، فهو خراب للبلاد ومضيم للعباد ، كذبوا لأنّ أمرنا أعوجّ بالسفور ، ولا يستقيم بغير الحجاب .

«ثامناً : إن المرأة خلقت لما يرى ويروم ، أي قد خلقت لترفع الكون بهزّ سرير يقيم فيه الرضيع ، فتجعله مليكاً يدير البلاد وهو حكيم . ولم تخلق للرقص والخلاعة والفحش ، لأن ذلك ذميم ، واجتماع الأجنبي بالعداري مذموم ، وإن من يسلم به ، فكأنه سلّم باجتماع الشياطين ، مع ملائكة الرحمن ، وليس للشياطين أن يقيموا معهنّ .

«تاسعاً : تبكيت للزهاوي ، لعدم بيانه برهاناً جلياً على دعواه . ممّا بين هو ، ودعوت له الى التوبة ، وتذكير بأن حياة الإنسان تمضي ، ويبقى في المآل ذكره ، وتقضى الحلوم ، والسعيد السعيد ، من ترك ذكراً عاطراً جميلاً ، يدوم بعده» .

هذه هي أدلة مولانا القاضي السابق ، الذي استمّح عفوه ، لحلي الى نشر عقد قصيدته ، ولكن محتفظةً بتراكيبها وألفاظها الأصلية ، لنلا يلهو الناس بالترنم ، بدلاً من أن يفتنوا لما فيها من البراهين ، والأدلة والعلم والأدب ، ولا أعلق عليها شيئاً بل أقتصر بالقول ، إن هذه الأدلة لاتقنع ، ولسامعي وقارئني أن يقابلوا بين أدلة الفريقين والآداب والأخلاق والحقائق التي ذكرها كلّ منهما أو أشار إليها ، فيؤثروا إحدى الخطتين . خطة مولانا القاضي الفقيه ، أو خطة هذه الفتاة .

على أنّي اعتقد اعتقاداً شخصياً ، أنه لو أجاز مولانا القاضي لنفسه ، التعرف الى البيوت

الشريفة السافرة - الى العيلات الشريفة السافرة ، لا الى غيرها من السوافر - لو رأى مجالس تلك العيلات وفيها الأنس والعلم والأدب والوقار .

لو رأى كيف يكمل الرجال هناك أدب النساء ، وكيف تكمل النساء أدب الرجال .
لو رأى ، كيف تجري المناظرات هناك ، على قواعد الأدب ، يقودها العقل والعلم ، ولا يتحرى فيها إلا الحقيقة .

لو تأمل فرأى ، أن النساء المسلمات ، لسن دون غيرهن شرفاً في الفطرة ، وأنه يمكنهن كما أمكن غيرهن ، أن يتبادلن والرجال أحاديث العلم والأدب إذا سفرن .

لو تأمل ، في أن طالبي السفور من الرجال ، ليسوا بأنذال يرومون الخنا كما يقول ، بل هم أولو الشرف ، أولو الألباب المتلهبة قلوبهم بالحمية لخير أمتهم .

لو فطن ، أن في كل ما قاله إهانة عظيمة للمسلمات ، إذ أن السوافر الآن تملأ الدنيا . فلا تعجز المسلمات عن صون نفوسهن إذا سفرن كما تصون غير المسلمات السوافر نفوسهن .

لو علم أن كثيرين من الأطفال ، المكتومي الآباء ، لم يرم بهم الى حضن الراهبات خادמות الرحمة ، إلا مستترين تحت ملاءة محجبة .

لو سافر الى بلدان العالم السافر الراقي ، حيث يختلط الرجال والنساء بالمعنى الذي يقصده أهل الأدب ، ورأى مافي بيوت النبل هناك ، مع العرض المصون ، والمروءة الخالصة ، والأدب الصحيح ، وحفظ الأنساب ، ومافي تلك البلدان من بركات الله وخيرات البشر .

لو افكر أن الأمم الاسلامية المحجبة ، أمست محكومة مادياً ومعنوياً لذلك العالم .

لو نظر على الأقل ، الى محلات العيلات السافرة في دار الخلافة ، ومدن الدولة العثمانية الاسلامية قاطبة ، ورأى أنها أجمل المحلات في المدن المذكورة ، وأوسعها طرقات ، وأكثرها نوراً وزهوراً ، وانتظاماً ونظافة ، مع أن الحكم كان للمسلمين وزمام البدايات في أيديهم .

لو تحرى الداء الذي أورثنا ما أورث من الضعف والانحطاط والتأخر .

لو تأمل أقل تأمل ، في قوانين العالم السافر ، ومؤلفاته الخلقية والأدبية ، وهي مظهر من مظاهر رقيه في الأخلاق والآداب .

لو كان له كل ما ذكر - وهو عالم فاضل احترامه وأجله ، ولم أجادله إلا في سبيل الدفاع عن الحق - لتغير قلبه ولسانه في موضوعنا ، ولغير كثيراً من أبيات قصيدته ، ولربما عاد ينشدنا من الثناء على السفور وعالمه ، قصائد خالدة .

معارضة الشيخ سعيد البغدادي في رسالته:
«السيف البارق في عنق المارق» ونظرات لي فيها وردود

سادتني وسيداتني

عرفت أنه نشر في بغداد رسالة هامة عنوانها «السيف البارق في عنق المارق» من تأليف العلامة الفاضل والمرشد الكامل ، الشيخ محمد سعيد ، المدرّس في حضرة الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه . بيّن فيها حكمة الحجاب للنساء . فاستجلبتها آملة أن أجد فيها ضالتي المنشودة ، بارقة كعنوانها ، لصدورها من مثل مؤلفها المدرّس المرشد ، وهي مطبوعة في مطبعة الولاية سنة ١٣٢٨ . إن الرسالة المذكورة ، تبحث في أول الأمر ، كما هو مكتوب فيها حرفياً ، عن «ورود بعض الجرائد ، ناقله عن بعض الملاحد ، مالم يلعب بارق الصلاح على سطر حروفها ، ولا اكتحلت عين بصيرة نامقها بأثمن الهداية لغواية وقوفها ، كفره صريح ، وكلامه قبيح ، نبذ دينه وراءه ظهرياً ، واتخذ الكفر الصريح لباساً وزياً» .

ثمّ تبحث عن أربعة أسئلة في بيان شأن المرأة .

السؤال الأول : لماذا يجب رضاء المرأة في الإقتران ، ولا يجب رضاؤها في الفراق ؟

السؤال الثاني : ما الحكمة من إعطاء الذكر مثل حظّ الانثيين ؟

السؤال الثالث : لِمَ كانت شهادتها نصف شهادته ؟

السؤال الرابع : ما حكمة الحجاب والتستر ؟

ولأنّي لا أتناول هنا من أقواله ، إلا ما ذكر عن حكمة الحجاب والتستر ، غير مستغنية عن نظره الى الطلاق ، لشدة تعلّقه بتحرير المرأة ، وقد كنت أقيت في الجولات العامة نظرة على سبب تنصيف المرأة في الشهادة والإرث .

قال حضرة الشيخ المرشد المشار اليه : حكمة الحجاب والتستر من وجوه خمسة وسردها كما سأوردها بحرفها ، معلقة على كل وجه منها ، كلمة صغيرة ، أشرت فيها إلى السبب الذي حال دون اقتناعي بصحة ذلك الوجه وصوابه .

قال حضرته :

الوجه الأول : « إن كشف الحجاب يورث الحسرات! ويجلب الزفريات! فيرى الإنسان مالميس قادراً عليه ، ولا صابراً عنه! وهذا من أعظم العذاب! وأشد الإكتئاب! وإذا مشت المرأة كاشفةً نقابها مايسةً بين أترابها ترى أرباب الغلطة لايهجعون! ولا يعمل من الأعمال يشتغلون! فإن قيل أن الأجانب على هذه الخصلة عاكفون ، وبهذه الرذيلة راضون أقول هذا منهم بحسب الظاهر وإلا فقلوبهم من هذه الحالة محترقة ، وأكبادهم ممزقة! ليس لهم إطمئنان بأولادهم! لراحة لهم إذا خرجوا بل يصاحبون أزواجهم إناء الليل ، وأطراف النهار خشية العار ونزول الدمار! والمسلم المحمدي أمين على أولاده ، مطمئن في ذهابه وإيابه ، يسافر الأسفار البعيدة ، وهو منشرح الصدر والفؤاد ، لا يخشى العواقب ولا تدهشه المعاطب » .

قلت : إذا كان يجب ستر ما يراه الإنسان ممّا ليس قادراً عليه ، ولا صابراً عنه ، فيجب أن يستتر عن كلّ إنسان كلّ ما يشتهيّه ، وعن الفقراء كلّ ما عند الأغنياء ، من بيوت وملابس ، وماكل ، وأسباب الرفاهية على أنواعها .

وقلت : لو كانت قلوب الأجانب محترقة ، وأكبادهم ممزقة من السفور ، لأبدلوا الحجاب منه ، فالأجانب ليسوا بعبيد للعادة مثلنا ، بل هم أحرار ، يبدلون ما شاءوا ويتبعون الأمر الأصح .

وقلت : إن مصاحبة الأجانب أزواجهم ، آناء الليل وأطراف النهار ، أبعد عن العار ونزول الدمار ، وأقرب الى حكمته تعالى ، من جعل الرجال قوامين على النساء ، على أنّي أرى أنه إذا سافر المسلم المحمدي ، معتمداً على الحجاب وحده ، كما يقول سيدي المرشد ، لا على شرف المرأة وإبائها ، وأدب نفسها كما أقول ، كان قصير النظر جداً وصفقته خاسرة .

علم الفضيلة ياسيدي ، علم الفضيلة ، واعلم أن زمام الإنسان في يد روحه ، لا في جسده .

فقرات من محاضرة الأنسة عنبرة سلام

كان يجب عليك ياسيدي المرشد ، قبل أن تسند الى الأجانب هل السفور ماتسند ، أن تدرس أخلاقهم وآدابهم ، ولا تكتفي بالتخيّل تبعاً للهوى .

وإنّي أنقل لك فقرات من محاضرة الأنسة عنبرة سلام ، من أديباتنا المعروفات ، وهي المحاضرة التي ألقتها أخيراً في بيروت . بعنوان « شرقية في الغرب » علّك تقرأ المحاضرة وتأخذ منها عبرة ، وترى كيف يكون عفاف الجنسين والأدب .

فقد قالت فيما قالت : « لم أعجب لشيء في انكلترا ، عجبي للحرية الشخصية ، التي تحس أنك تتنفسها مع الهواء ، والممنوحة بأوسع معانيها لكل إنسان ، مادام لا يخل بالنظام ، ولا بالآداب العامة ، ولا بالأمن العام ، هذه الحرية التي تجعل منهم أسياداً طليقي الرأي والقول والعمل ، لكل منهم مبدأ خاص لا يخشى إعلانه ، وشخصية محترمة لاتستعبد بالقيود ، ولكم كنت أطرب إذ أراهم يسرون في حياتهم بصراحة لاتشوبها مواربات ، لأنها تأبى لهم الإتيان بشعارات قد يلجأهم اليها السير في الخفاء .

انطلق كما تشاء ، وتحديث بما تشاء ، فأنت متمتع بنعم البلاد ، والحرية معبودة الجميع ، ولكنها حرية تهذبها المدنية فلا تظهر خشنة ولا طائشة .

وبأدب راق خالٍ من الإدعاء الفارغ ، وباحترام لاتشوبه مبالغة ، تعامل المرأة كيفما اتجهت ، وإنني أقول ، وأكاد لأصدق ذلك ، بأنني أقمت في انكلتره سنتين لم أسمع فيهما كلمة تخدش الأذهان ، ولم أر نظرة توجه الى امرأة بفضول ، وقد بقيت أشهراً عديدة أذهب صباح كل يوم مقدار ساعة بالقطار لأخذ دروساً في الإنكليزية ، والإزدحام يكون على أشده في ذلك الوقت ، والقطارات ملأى بالفتيان والفتيات ، كنت أقصد دائماً ملاحظة آدابهم ، فما كنت أرى رجلاً إلا معه جريدته يستغرق في قرائتها ، وكل فتاة تتلهى بجريدة مصورة ، أو تفتح كتاباً ، أو تخرج من حقيبتها شغلاً تتابع حياكته بالصنارتين ، حتى اضطرت أن أفعل مثلهم ، وأهتئ كل يوم شيئاً أقرأه في القطار .

وقد نالت الإنكليزية من الحقوق العامة ، مايمكنها أن ترفع رأسها به تيهياً ، أمام الأمم ، حتى نالت مؤخراً حق الانتخاب على اطلاقه ، ويبلغ عدد اللواتي لهن حق التصويت ، حسب الإحصاء الأخير ٩٢٢ ٨٣٢ ١٤ امرأة ، في مقابل ٦٩٧ ٧٩٩ ١٢ رجلاً .

وكنت كلما رأيت الفتاة الإنكليزية تتمتع بنعم الحياة وافرة ، أتمثل الجهود التي بذلتها في أجيال متطاولة ، لبلوغ هذه المرتبة الرفيعة ، ولكن رؤيتها كانت تثير في نفسي عاطفتين : كنت أعجب بها وأغبطها ، مأخوذة اللب بهذه القدوة الحسنة ، ثم كنت أتألم وأشكو الإجحاف من دنيا تحسب علي هذه الأيام التي أحيها من العمر ، حياة .

قلت : ومن أراد استطاع ، فلتكن لنا قوة الإرادة بأن تتمتع بنعم الحياة وافرة ، ولنرم النقب عن أبصارنا وبصائرنا ، ولنضرب عرض الحائط بأقوال أمثال سيدي المرشد ، ولنستعمل حقوقنا الشرعية التي خولنا إياها كتاب الله وسنة رسوله ، تصبح الأيام التي نحيها من العمر ، حياة ، ويتم لرجالنا ونسائنا ذلك الأدب الرائع ، فليس غيرنا أولى منا بتلك الحقوق وتلك الحياة ، وذلك الأدب . إن الله أنزل علينا القرآن لنسعد لالنشقى لتحرر لا لنستعبد ، لتصلح أخلاقنا لا لتفسد .

ثم قال حضرة المرشد :

الوجه الثاني : « إن كشف النقاب سبب قوي للعشق ، والقلوب مجبولة على رحمة العاشقين ! والمرأة لרטوبة مزاجها وبرودة طبيعتها وكثرة حنانها كثيرة الإنفعال ممّا تشاهده فإذا رأت من العاشق أحوال العشق ظاهرة ودواعي الغرام باهرة ، انكسرت اليه ، ومالت لديه وإذا حصل الميل ، فقد تمّ الويل ، فهناك يحلّ الفساد ، ويختلط نسب الأولاد ، فيجب على المرأة سدل النقاب على وجهها ، لئلا ترى أحوال العاشقين فترحمهم ، وتحنّ عليهم ، وتميل لديهم ، وتنكسر اليهم ! » .

قلت : لاحول ولاقوة إلا بالله ، وهو حسبي ونعم الوكيل ! ولكنّي أرجو من سيدي المرشد ، أن لا يقيس كلّ النساء على ما رأى ، إذ يكون قياسه قياساً مع الفارق . إن هذا الوجه الذي بيّنه ، ليس من الشرع ولكنه معنى مبتكر ، أتى به على ما يظهر سيدي المرشد ، بناءً على مشاهدته وتجاربته ، وكان عليه أن يجتنب قياس من لم يجرب على من جرب ، فلا يرمي النساء كلّهن بمثل هذه الإهانة وفيها مفسدة للأخلاق .

ثمّ قال :

الوجه الثالث : « إن الحجاب ممّا أمتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، فالأسف على العاقل ، الذي يريد الترقّي لبني نوعه ، ويختار لهم الصلة الحيوانية ، ولكنّي لألومه لأنه حيوان في صورة إنسان ، يريد لغباوة طبعه ، تلويث وجه الإنسانية ، بما انطوى عليه من الصفات الذميمة » .

قلت : إذن الأولى بسيدي المرشد ، أن يتحجّب ويضع النقاب على وجهه ، مثل النساء ، ليمتاز به عن سائر الحيوان ، فالرجل أجدر من المرأة بهذا الامتياز ، لأنّ عقله كامل ، وعقل المرأة ناقص ، كما زعم حضرته في جوابه الثاني على السؤال الثاني في الرسالة المذكورة ، وهكذا أقول ، لكل من يقول أن حجاب المرأة ليس بدليل على تحقيرها ، إنّما هو دليل على احترام الرجل إياها ، إني أقول له : إذن الأولى بالرجل أن يحرز مثل هذا الدليل على احترام المرأة إياه ، فيحتجب ساتراً وجهه . وإلا فهو مرءٍ فيما يقول و« إنّ الله حرّم الجنّة على كلّ مرءٍ » .

ثمّ قال :

الوجه الرابع : « لو أرخى الرجل عنان المرأة ، وجعلها مایسة في الطرقات ، تكلم الشريف والوضیع ، وتغدو الى الأماكن البعيدة والمنتزهات ، وتخالط الشباب أرباب الشهوات ، فربّما يحصل الميل التام ، ويختل النظام ، وحينئذ تحلّ الفرقة ، وتكون الأولاد في الطرق ممزقة ، وتقل محبة الرجل لأولاده ، فينقطع النسل ، ويحصل العقم ، فلأجل هذا وماضاهاه ، كان الحجاب من أتم أسباب الألفة وعدم الفرقة » .

نظرات خاصة الى الطلاق

ومقابلة بين ما يريده الله وما يفتون به

وقال حضرة المدرّس المرشد ، في بيان الحكمة من وجوب رضا المرأة في الإقتران وعدم وجوبه في الفراق ، قال :

«أولاً : إن سبب الفراق هو من سوء أخلاق النساء ، وإنّ المانع لهنّ عمّا يرديهنّ ، إنّما هو الزوج ، فلو علمت النساء ، أن عقدة الطلاق موقوفة عليهنّ ، لباشرن كلّ رديئة ، وفعلن كلّ خزية ، فتقوم الفتنة على ساق ، ويكثر الشقاق ، فيختل أمر النظام ، وترتفع دعائم القيام ، فيثور حوله العار ويكثر الدمار ، فلهذا كثرت الفاحشة في الملة الراضية بهذه الرذيلة ، كما يشاهده من كشف على الحقائق بالأسفار ، وأطلع على الخفايا بمطالعة الكتب التاريخية والأسفار .

«ثانياً : إن الرجل بعد مابذل المال ، وتحمل الأثقال فقد صارت المرأة كالأسيرة تحت حكمه برضاها . ثمّ إذا أراد رفع الإثارة عنها ، وجعلها حرة مطلقاً ، ورضي بالخسران ، أيقال أن هذا ظلم وعدوان ؟ بل كل من له مسكة عقل يحكم بإنصافه وعدم جوره واعتسافه .

قلت : ياسيدي المرشد ، إن بين السفور ، وإطلاق عنان المرأة على الوجه الذي تذكر ، فرقاً عظيماً .

وقلت : تقول ياسيدي المرشد ، لو علمت النساء أن عقدة الطلاق موقوفة عليهنّ ، لباشرن كلّ رديئة ، وفعلن كلّ خزية ، فلهذا جعلت عقدة الطلاق بيد الرجال ، رادعاً للنساء عن تلك المنكرات ، والرادع للمرأة عمّا يرديها إنّما هو الزوج ، كأنك تعني بذلك ياسيدي أن ليس للمرأة من نفسها زاجر أو رادع .

ويلوح لي يا حضرة المرشد ، أنك أخطأت في تأويل الحكمة ، لأنه لو كان القصد من إعطاء الزوج حق الطلاق ، ردع الزوجة عن مباشرة الرديئة وفعل الخزية ، لقضت الحكمة نفسها ، أن تعطى الزوجة مثل هذا الحق ، رادعاً للزوج من مباشرة الرديئة ، وفعل الخزية ، مالم يرى سيدي المرشد ، إن الرجال إذا وردوا موارد الرديئة والخزية ، ليس عليهم من بأس ، وليس ما يقتضي أن توضع الروادع وتقام دونهم الموانع .

الطلاق ياسيدي المرشد ، ليس نعمة من الزوج على زوجته ، يفكّ بها أسرها ويحرّر رقبتها كما ذكرت ، الطلاق يكرهه الله ويبغضه ، الطلاق يهتزّ منه عرشه جلّ جلاله ، الطلاق خراب

البيوت ، وشقاء الزوج والزوجة والأولاد . وإنّ مسبب الطلاق زوجاً كان أو زوجة ، ملعون لدى الله والملائكة وعند الناس أجمعين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَأْمِنُ شَيْءٍ أَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَيْتٍ يَخْرَبُ فِي الْإِسْلَامِ بِالطَّلَاقِ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (مَأْمِنُ شَيْءٍ مِمَّا أَحَلَّهُ اللَّهُ أَبْغَضُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّلَاقِ . وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَلْعَنُ الْمُطْلَاقَ الذَّوَاقِ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (تَزَوَّجُوا وَلَا تُطَلِّقُوا ، فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَهْتَرُ مِنْهُ الْعَرْشُ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ نَشْوَرٍ فَعَلَيْهَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ خَلَعَ زَوْجَتَهُ بِلَا ضُرُورَةٍ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أَوْصَانِي جِبْرَائِيلُ بِالْمَرْأَةِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي طَلْقُهَا إِلَّا مِنْ فَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ) .

وقال صلى الله عليه وسلم (أَخْشَى مَا يُخْشَى عَلَى الْعَائِلَةِ أَنْ يَتَعَدَّدَ الزَّوْاجُ وَأَنْ يُعْكَرَ صَفْوُ الطَّلَاقِ) .

إن في هذا الحديث الشريف ، عبرة لمن اعتبر ، إن النبي صلى الله عليه وسلم ، خاف على العائلة من أمرين : تعدّد الزواج على الاطلاق ، والطلاق إن يعكّر صفوه ، فمتى تأملنا هنا في درجة كره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الطلاق ، أدركنا الى أي درجة يكرهان ، تعدّد الزوجات ، وقد علّق الله تعالى تحليله ، على حد المستحيل ، ألا وهو تمام العدل ، وأتى يمكن ذلك .

قال الكاتب الإجتماعي الشهير اسماعيل صبري باشا :

يامن تزوج بائنتين ألا اتند
أوقعت نفسك ظالماً في الهاويه
ما العدل بين الضرتين بممكن
لو كنت تعدل ماأخذت الثانيه

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، أن قوماً جاؤوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن أبانا طلق امرأته ألفاً ، فقال صلى الله عليه وسلم (بانتُ امرأته بثلاثٍ في معصيةِ الله ، وَبَقِيَ تِسْعَمِائَةٍ وَسَبْعَةٍ وَتِسْعُونَ وَزُرّاً فِي عُنُقِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : (أَكْرَهُ الْمُبَاحَاتِ عِنْدَ اللَّهِ الطَّلَاقُ) .

وفي حديث محمود بن لبيد رحمه الله تعالى ، أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يدي رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضباً فقال : (أَتَلْعَبُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ) .

هذه هي أيها السادة والسيدات ، إرادة الله جلّ جلاله في الطلاق ، وهذه هي أحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم . أبعد هذا يجوز لك ياسيدي المرشد ، أن تحسب الطلاق إحساناً من الزوج الى زوجته ، وفكاً لها من أسرهِ ، وإعتاقاً من رقه ، لو كان الأمر كذلك ، لما أبغضه الله ولما لعن سبحانه وتعالى الطلاق ، ولما اهتزّ عند لفظ الطلاق على الأرض عرشه في السماء جلّ جلاله ، فتحرير الرقبات أمر يحبّه الله لا يبغضه .

أمّا الحكمة في إباحة الله الطلاق ، مع كرهه إياه فهي كما يأتي :
قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ . فالنكاح نعمة من عند الله تعالى على عباده . أمّا الطلاق فهو كفرانها وكفران النعم حرام .

إن الله يبغض الطلاق ، لأن فيه كفران النعمة ، وخراب البيوت ، وحلله كما ذكر في المبسوط لشمس الدين السرخسي رحمه الله تعالى ، لأن معنى النعمة ، يتحقق عند موافقة الأخلاق ، فأما عند عدم موافقة الأخلاق ، فاستدامة النكاح سبب لامتداد المنازعات ، فكان الطلاق مباحاً للتقصي عن عهدة النكاح ، عند عدم موافقة الأخلاق ، ولا يخفى أن سوء الخلق يظهر أحياناً من الزوج وأحياناً من الزوجة .

وقال الإمام الغزالي في الاحياء : وإثما يكون الطلاق مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها . ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها ، أو ضرورة من جانبه . قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ امْرَأَتِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ أَيُّوبَ عَلَى بَلَائِهِ ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى سُوءِ خُلُقِ زَوْجَتِهِ أَعْطَاهَا اللَّهُ مِثْلَ ثَوَابِ آسِيَةِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ) .

سادتي وسيداتي :

لاعجب من تأويل حضرة المرشد ، وقد عدّ بعض فقهاءنا الرابطة العيلية التي هي أقدس الروابط البشرية ، أوهى من خيط العنكبوت ، ذلك مع ماسمعوا وسمعنا من أحاديث نبينا صلى الله عليه وسلم ومن كره الله تعالى لتلك الرابطة أن تُفكّ ، واهتزاز عرشه للمرأة أن تترك .
إنهم سهّلوا أمر الطلاق حتّى فهموا ، أنه يقع سواء كان الزوج في لفظه إياه طائعاً ، أو مكرهاً ، أو لاعباً ، أو هازلاً ، أو سكران ، أو مخطئاً .

قالوا أنه يقع ولو بلفظ يسمع ، كأنه مركب من طلق ، ولو لم يكن للافظه في الطلاق نية .

بل لو كان ذلك اللفظ يكتب بصور متنوعة ، لمعانٍ مختلفة ليس منها الطلاق حتى ولو كان الزوج يجهل اللسان العربي فلا يفهم معنى الطلاق .

فقد جاء في الفتاوى الهندية : رجل تركي قال لامرأته ، تراتلاق ، وهي تكتب على خمسة أشكال تلاق ، أو تلاغ ، أو طلاغ ، أو طلاك ، أو تلاك . فيقع الطلاق على المرأة ولو تعمّد الزوج وقصد ألا يقع ، وإن قال أردت به الطحال وما أردت الطلاق فلا يصدّق ، ولو كان لفظ تلاق بالتاء والقاف ، أو تلاك بالتاء والكاف ، معناه في التركي الطحال .

وقد جاء فيها : قال لزوجته أنت طالق ولم يكن يفهم معنى طالق فتطلق .

قلت : يظهر أن القاعدتين الشرعيتين (الأمور بمقاصدها) و (العبرة المقاصد والمعاني لالألفاظ والمباني) مرعيتان إلا في الأمور التي تشقى فيها النساء ، ولو نال الشقاء أزواجهن وأولادهن معهن .

وقلت : إن نظر بعض فقهاءنا الى الألفاظ دون المعنى ، وحصر اهتمامهم فيها لافيه ، عوّدهم النظر الى الجسد دون الروح ، وحصر اهتمامهم فيه لافيه .

وجاء في الفتوى المذكورة ، أراد أن يتكلم بكلام ، فسبق لسانه بالطلاق ، فالطلاق واقع .

وجاء فيها : أراد أن يطلق زينب من زوجاته ، فجرى على لسانه عمرة فتطلق عمرة .

وجاء فيها : رجل له امرأتان ، اسم احدهما زينب واسم الأخرى عمرة ، فقال يازينب ، فأجابته عمرة ، فقال أنت طالق ثلاثاً ، طلقت المجيبة ولو قال نويت زينب ، طلقتنا ، هذه بالإشارة وتلك بالإعتراف .

وقد توسّعوا في الأمر لتسهيل فكّ الروابط العيلية ، أكثر ممّا ذكرت فقد جاء في الفتاوى المذكورة :

« لو حذف القاف من طالق ، فقال أنت طال بكسر اللام وقع الطلاق » .

قلت : وإذا كان ذلك الزوج ، ابتداءً بلفظ الطلاق ، فخطر له كره الله لما يفعل ، فندم وتاب وسكت عن إكمال لفظه ، أيحسن أن يكمل نحن اللفظ عنه ، فنظلمه ، ونظلم زوجته ، ونخرب بيته ، ونشتت عيلته ؟

وإذا فعلنا نحن ذلك ، فمن يستوجب كره الله وبغضه واهتزاز عرشه ؟ أذلك التائب النادم ، الساكت عن إكمال لفظه ، أم ذاك المفتي الذي أكمله ؟

ولأجل كثرة التوسّع ، رجّحوا عنه تعارض الأقوال ، القول الذي تفكّ به الروابط العيلية ، فجاء في الفتاوى المذكورة ، من شرب من الأشربة المتخذة من الحبوب والعسل ، فسكر وطلق ، لا يقع عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، ويقع عند محمد ، ويُفتى بقول محمد .

قلت : لماذا يفتى بقول محمد ؟ لماذا يرجح محمد على الإمام الأعظم وأبي يوسف متفقين ؟ وهل الخير في خراب البيوت وإحداث كفران النعمة ، يكرهه الله ويبيغضه ، ويهتز له عرشه جلّ جلاله ؟ أم أنه يرجح قوله لأنه ينتج في ماينتج ضرراً وشقاء للنساء ؟

وقلت : ترون أيها السادة والسيدات ، أن الله جلّ جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يستر المرأة أن تتعلم ، وتكشف وجهها ، وتستعمل حواسها وقواها تيسيراً . فعسر بعضهم عليها ذلك كله تعسيراً .

وكذلك أنهما ، جلّ جلاله ، وصلى الله عليه وسلم ، عسرا طلاق المرأة تعسيراً فيستر بعضهم طلاقها تيسيراً . إذ أنهم رأوا في تيسيره تضيقاً عليها وتعسيراً .

أفلا يجب ياسادتي بعد ماقرأنا . أن نرجع الى كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو أن نرجح أقوال الفقهاء ، التي تحكم الرابطة العائلية ، ونضم اليها بعض قيود قانونية توافق الكتاب والسنة ، فيكون لنا أحكام حكيمة ، لاتسبب خراب البيوت وشقاء العيلات وكره الله واهتزاز عرشه جلّ جلاله ، بل عمار البيوت ، وسعادة العيلات ورضاء الله .

ليس السفور من مسببات الطلاق بل الحجاب من مسبباته

ولنلا يعد خروجي هذا عن الموضوع اسهاباً ، أرجع الى قول سيدي المرشد ، إن السفور يوجب الفرقة ، وجعل الأولاد في الطرق ممزقة ، وانقطاع النسل ، وحصول العقم . وإن الحجاب من أتم أسباب الألفة وعدم الفرقة . فأقول : ذكرت في محاضراتي ، أن النسل عندنا لايتزايد في تزايد في بلاد السفوريين ، الذين ضاقت بهم أرضهم على رحبها ، حتى أتوا واستولوا على المسلمين الذين قلّ نسلهم ، وعلى أراضيهم التي أمست واسعة عليهم .

وأقول : دلّ إحصاء الطلاق الرسمي لمدينة القاهرة ، في مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٢٩٨ الى سنة ١٣١٥ ، على أن كلّ أربع زوجات ، يطلقُ منهنّ ثلاث وتبقى واحدة ، ودلّ الإحصاء العام لعدد الطلاق والزواج الذي حصل في القطر المصري عامة في سنة ١٨٩٨ أنه حصل في القطر ، مائة وعشرون ألف زواج ، وثلاثة وثلاثون ألف طلاق . أي ظهر من الإحصاء المذكور أن كلّ أربع زوجات تطلقُ منهنّ واحدة ويبقى ثلاث . وسبب هذا الفرق بين القطر عاماً والقاهرة وحدها ، ناشيء عن أن نساء القاهرة محجّبات ، ونساء القرى والأرياف اللواتي يؤلفن الأكثرية الساحقة سوافر . وهذان الإحصاءان استخرجهما من سجلات المحاكم الشرعية حضرة

عامر افندي اسماعيل ، الموظف بنظارة الحقانية ، والمنتدب بالمحكمة الشرعية الكبرى ، على ماهو مذكور في كتاب تحرير المرأة للمصلح الكبير قاسم أمين . أمّا عند الأجانب ، الذين قال عنهم حضرة المرشد ، أنهم برذيلة السفور راضون ، فلا نرى عندهم فراقاً أو طلاقاً إلا ماندر . ولنا شاهد من إخواننا غير المسلمين السافرة نساؤهم ، ظاهر أماننا . فالطلاق عندهم نادر جداً . إن ذلك كله ممّا يدل على أن الحجاب لم يكن كما قال حضرة المرشد من أتم أسباب الألفة وعدم الفرقة ، بل ممّا يدل ، على أن السفور لم يكن كما ذكر حضرته ، ليختل منه النظام ، وتحل الفرقة . ولتكون الأولاد في الطرق ممزقة ولينقطع النسل ويحصل منه العقم .

وأقول : مهما اجتهد سيدي المرشد ، لن يريه الله في ستر وجه المرأة وجهاً للصواب أو دليلاً للصحة ، إذ أن ستر وجهها لم يُبْنَ على الكتاب أو السنة ، أو على دليل فقهي صحيح ، إنّما بني على عادة فاسدة ، والمبني على الفاسد فاسد .

* * *

تتمة المعارضات والردود

ثمّ قال :

الوجه الخامس : «إن المرأة شاكرة لرجلها ، واقفة بالخدمة بين يديه وكلما ازداد في تحجبها علمت أنها محبوبة ، وفي جمالها مرغوبة ، فلو أجبرنا النساء ، أو أبحن لهنّ الخروج الى المكاتب والأسواق ، لاختلّ أمر الارتقاق ، وهو تدبير المنزل ، وخدمة الأزواج ، وتربية الأطفال ، وضاعت الأولاد ، وقلّ الإسعاد ، لكنّ الأمر المعقول ، أن يكون الولي أو المحرمّ ، يعلمها في وقت فراغها ما يكون سبباً لسعادتها حالاً ومستقبلاً ، وذلك هو الأمر المشروع ، وفي العقول السليمة مطبوع ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .

قلت واحسرتاه! «نحن بوادٍ والعدول بوادٍ» أين نحن وأين سيدي المرشد! هو يريد أن يحجبنا حتّى عن المدارس والمكاتب ، يريد أن تقتصر في تعليم المسلمات على تعليم الولي والمحرم إياهنّ ، في وقت فراغهنّ ، ويقول هذا هو الحق الذي أراده الله ، ويريد أن يهدينا الى سبيله . هكذا يريد أن يفهم سيدي المرشد ، تلكم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي سيأتي ذكرها في معارضة الشيخ الأزهري ، فيما يتعلّق بفريضة العلم . وإذا كان سيدي المرشد ، الولي المحترم جاهلاً فاسد الأخلاق ، فهل من العدل والمصلحة ، أن لاتتعلم تلك المسكينة إلا الجهل والفساد ؟

ثم قلت : كفانا تمويهاً بالدين قصد الاستبداد بنا ، واستعبادنا واقفات بالخدمة ، بين أيدي أمثال سيدي المرشد ، خلافاً للدين ولناموس الطبيعة .

أهذه أدلة العقل ، والعلم ، والدين ، ياسيدي المرشد ؟ أليس للنساء نصيبٌ مافي الدنيا غير الجمال ، ليحيبهنّ الى رجالهنّ ، ويرغبوا فيهنّ ؟ وإذا ذهب الجمال فماذا يبقى لهنّ ؟ أو ما من دليل للرجال المسلمين على الحب إلا التحجيب ؟ أو ليس لرجال السوافر أدلة يؤيدون بها حبّهم لنسائهم ؟ وهل الآباء والأبناء والأخوة المسلمون ، لا يحبّون بناتهم وأمّهاتهم وأخواتهم ، ولا يرغبون فيهنّ مالم يكنّ جميلات ؟ والفضيلة ياسيدي المرشد ؟ الشرف ، الناموس ، كرم الخلق ، العفاف ، الحياء ، الإباء ، الوفاء ، الإخلاص ، عزّة النفس ، أدب القلب ، أدب اللسان ، خوف الله ، علو الهمة ، الصدق ، الصراحة في القول ، الأمانة ، النزاهة ، الإستقامة ، الرأفة ، الحلم ، الوقار ، الرصانة ، الإعتدال ، البر ، التقوى ، الطاعة ، حسن التدبير ، محبة الأهل ، محبة الوطن ، محبة الأمة ، حب الخير العام ، أكلّ هذه الفضائل لاشيء ؟ أو لا تستحقّ النساء من أجلها شيئاً من الحب الخالص لهنّ ، ومن الرغبة فيهنّ ؟ أم أن تلك الفضائل كلّها من خصائص الروح لاتهمك ، بل إنّما الذي يهمك جمال الجسد وحده ؟

وإن كان الحجاب دليل الحب ، فلماذا لاتسمح للمرأة أن تبرز الدليل على حبّها رجلها بتحجيبه ، كما أبرزه هو بتحجيبها ؟
أو لا تفهم المرأة من تحجيبها ، عدا الرغبة فيها من أجل الجمال ، ضعف الثقة بها ، كأنما رجلها يراها عارية من فضائل النفس ، التي تصونها من الزلل ؟

خطابي الأخير الى الشيخ

وفيه بحث عن تلك اللعبة «أنا أعمى ما بشوف أنا ضراب السيوف»

ماهذا ياسيدي ؟ ماهذه الحجج والأدلة الشاذة ؟ كنت في غنى عنها ، لو وجدت في الكتاب أو في السنّة حجة تدلي بها ؟ ماهذه التعبيرات الغريبة! يورث الحشرات - يجلب الزفرات - أعظم العذاب - أشدّ الإكتئاب - أرباب الغلّة لايهجعون - رحمة العاشقين - حنت عليه - مالت لديه - انكسرت اليه - حصل الميل - تمّ الويل - حلّ الفساد - اختلط نسب الأولاد - سيف بارق - عنق مارق - جرائد - ملاحدا ؟

أهذه هي دروس الأخلاق ، التي نأمل أن تلقوها علينا لتعزيز نفوسنا ومناعتها وكبرها
ياسيدي المرشد ؟

أهذه أخلاق أمك ؟ أهذه أخلاق بنتك ؟ أهذه أخلاق أختك ؟ أهذه أخلاق زوجتك ؟ أهذه
أخلاق المرأة المسلمة ؟ أهذه أخلاق الأم ؟ أمين الأخلاق أن تسند إليها هذه الأخلاق ؟

« هذا مقام الأمهات	تفهل قدرت الأمهات
لاتلغ فييه ولا تقل	غير الفواصل محكمات
وإذا خطبت فلا تكن	خطباً على شرف الفتاة »

أين أنت يا شيخنا محمد عبده ؟ أين أنت ؟ رحم الله ترابك ، إنك لواقع فيما خفت منه .
أهذه هي تعاليمك ياسيدي المرشد ، بشأن الحث على العلم ؟ إنني أريد علماً لألقاباً
ولاعمامة .

إنني لن أتبع قولك ياسيدي المرشد ، مهما شتمت ، ومهما سببت ، ومهما رميت
بالإلحاد ، إنني سأعلو وأعلو حتى لأسمع ماتقول ، بل إنني لأتبع إلا ما قاله الله جلّ جلاله ،
وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم والأحسن ما قاله الأئمة العظماء ، والإمام الأعظم أبو
حنيفة . إن قوله « وجه المرأة ليس بعورة » لا يزال نصب عيني ، مكتوباً على لوح الحق بأحرف
من نور ، فلا ترم بالإلحاد من يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله ، ومن يقول قول الإمام الأعظم ،
وأنت مدرس في حضرته ، وأنني لن أقتصر على الوساطة في تعقل أصول الدين ، واختيار أحسن
الأقوال مما قاله أعظم الأئمة .

فالوساطة في زماننا غير خليقة بالركون إليها ، مالم تر العين ، ويحقق العقل ، ويطمئن
القلب .

أنت خائف من علم المرأة ياسيدي المرشد ، إنك تخاف من كشف الغطاء عن قلبها ، كما
تخاف من كشف النقاب عن عيناها ، لتبقى عمياء قلباً وعيناً ، آلة صماء في يدي أمثالك .
إنك تحب استعباد المرأة ، ولاتسأل عما نتج وينتج من استعباد الغير إيانا ، مادامت هذه
حالتنا العقلية . يجب على المسلمين أن يمشوا الى الأمام ، فلا تثقل عليهم من علمك ياسيدي .
لم يقل الأغيار « إن الإسلام مانع من الترقى » لولا مثل ما أتحفتنا به من أقوال شاذة ، وإنني
أذكرك على كل حال ياسيدي المرشد ، اللاعب بالسيف البارق ، في عنق المارد ، ولم يبق بارقاً
بل علاه الصدا ، الحديث الشريف القائل : « مَنْ كَفَرَ مُؤْمِناً فَقَدْ كَفَرَ » . وقد جاء في كتاب
الكفاية لذوي العناية ، أنه إذ قال مسلم لمسلم أنه كافر يرتد فيبطل نكاحه وتحرم ذبيحته ،

ولا يصلح نكاحه ، ولا يستقر له ملك ، ولا يرث ولا يورث ، ويحبط عمله ويخلد في النار إن مات ، قبل أن يتوب .

فخفف من غلوائك في استعمال سيف المروق والإلحاد ، لاعباً به يميناً وشمالاً .
إنّ تنازع البقاء اليوم في الدنيا ، أصبح أمراً جذاً ، لا يجوز في خطورته اللعب ، أقول هذا لأنك ذكرتني ياسيدي المرشد لعبة يلعبها الأولاد . يأخذ أحدهم بيده خشبة ، ويضع على عينيه ستراً ليكتسب جرأة ، ويجول في الساحة هازاً تلك الخشبة هزّ السيف قائلاً : « أنا أعمى مابشوف أنا ضرباب السيوف » فتفرّ الأطفال خوفاً منه ، وهم بين ضاحك وباكٍ حتّى تخلو له الساحة فتنتهي اللعبة .

ينبغي لك أن تفهم ياسيدي ، أن العلم الحديث ، وحرية التفكير ، رقياً عقول النساء وعقول الرجال ، عن الحالة التي تكون فيها عقول الأطفال ، إن حالة علمك ، الذي رأيناه في رسالتك ياسيدي ، لمّا يزيد في تحريك العواطف ، لرفع الغشاوة عن العقول وعن العيون ، والعمل الجد والتجدد ، رجالاً ونساء ، فقهاء وغير فقهاء ، لأنه إذا تجدد صنف واحد منا ، بقي الآخر في ثوب الأمة رقعة .

يجب على كلّ من ينتسب الى العلم الشرعي ، أن يتكلّف عناءً ، في تعقّل شرع الله وحكمته تعالى في آياته ، وينظر الى حال الزمان وموجباته ، فيبدّل الحكمة والسداد ، من سيف الرمي بالإلحاد .

أيجوز لنا بعد ، أن نستعمل « بارودة بفتيل » تجاه البواريد والقنابل والمدافع البعيدة المرمى ؟ وهل يجوز أن نستعمل النوق والجمال ، تجاه الدبابات والطائرات والسيارات المصفحة ؟ أيجوز لنا أن نؤثر الجهل على العلم ، والظلم على العدل ، والباطل على الحق ، والإستعباد على الحرية ، والحجاب على السفور ؟

وهل يجوز لنا أن نرمي كلّ أهل القرى من الإسلام ، ونرمي الأتراك وأهالي سمرقند وطاشقند والأفغان بسيف المروق والإلحاد ؟ وبعد سنين عدّة ، عندما ترى كلّ المسلمين سوافر مستغنيات ، وفقاً لإرادته تعالى ، عن نقابهنّ بشرفهنّ ، وحيائهنّ ، وعفافهنّ ، وعزتهنّ ؟ ماذا تقول ؟ هل تعدّهنّ كلهنّ ملحدات ؟ إن هذه الفكرة الصالحة ، زرعت في قلوب الأمة ، فلا بد لها من أن تثمر ويعمّ زرعها وانتاجها . إنّ مرمّاها سعادة الأمة والبقاء في التنازع وإنّما البقاء للأصلح .

معارضة الشيخ ابراهيم القاياتي الأزهرى

بدع يجور بها على النساء

سادتي وسيداتي :

لقد بلغني أيضاً أنّ العلامة الفاضل الشيخ محمد ابراهيم القاياتي شيخ رواق القشتبية في الأزهر الشريف ، نشر رسالة مطوّلة سمّاها « رسالة السنة والكتاب في حكم التربية والحجاب » فجلبتها آملّة أن أرى فيها نور هدى .

وشدّ مادّهشت لما رأيت فيها ما رأيت ، رأيت أنه بالغ أكثر من غيره في التمويه وجمع البدع لظلم المرأة .

رأيت أنه ومن استشهد بأقوالهم ، جاروا عليها جوراً لم يجره ظالم على مظلوم .

إنهم أرادوا أن يحصروا في المغزل علم المرأة المسلمة .

إنهم حرّموا عليها كلّ علم غير الغزل حتّى الكتابة ، وتوسّعوا معها كرماً ولطفاً الى ما هو

بمعنى الغزل .

إنهم لم يكتفوا بالملاءة والنقاب حجاباً ، بل أرادوا أن يجعلوا حجابها جُدُر خدرها لاتخرج

منه إلا الى قبرها .

إنهم لم يكتفوا بسد طرق عقلها أي حواسها بالنقاب المظلم ، بل أرادوا أيضاً أن يسدّوا

حينما تتكلّم فمها بيدها تغليظاً لصوتها خوف الفتنة .

إنه لم يكفهم أنهم منعوا تكملها العقلي والأدبي في مجتمعات الرجال والنساء لتكتسب من

علمهم ، وأحاديثهم ، وتجاربهم في العالم ، بل منعوها أيضاً أن تجتمع وغير المسلمات ، عادين

غير المسلمات معها كالرجال الأجانب ، فلا يجوز أن يرين وجهها ، أو يسمعن صوتها ، أو

يرين منها شيئاً ولو قلامه ظفرها المرمية ، إلا إذا كنّ إماء وجواري عندها .

كلّ ذلك لإعماء بصرها وبصيرتها ، كلّ ذلك لأموّر جسمانية لاشأن للروح فيها .

أمير الشعراء يصف المسلمات

سادتي وسيداتي :

ليس هذا من شأن المسلمات وليست هذه سنتهن .

أتريدون أن تعرفوا المسلمات كيف كنّ ؟ فلنسمع أبيات من أمير الشعراء . قال فيما

قال :

هذا رسول الله لم	ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة	لنساءه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة	سنة والشؤون الأخريات
ولقد علمت بناته	لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينه تملاً الد	نياسا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسترت	أي الكتاب البيّنات
وحضارة الإسلام تنطق	عن مكان المسلمات
بغداد دار العالمما	ت ومنزل المتأدّبات
ودمشق تحت أمية	أم النساء النابغات
ورياض أندلس نـمـيـن	الكاتبات الشاعرات
الله أنبـتـهـن في	طاعته خير البنات
يبشثن في الفتيان من	روح الشجاعة والثبات
فأتين أطيب ما أتى	زهر المناقب والصفات
ووجوههن وماؤها	ستر على المتجمّلات

براهيني على وجوب تكمل المرأة في المدرستين: المدرسة والعالم

أما بعض رجالنا وإن شئت قلت بعض مشايخنا ، فقد اقتصروا البحث الباطل عن النقص في عقل المرأة المسلمة ودينها ، حتى كادوا يصدقون أنفسهم في الباطل ، ورموها بكل سهم من جعبة الإمتهان والظلم .

وإني قبل أن أبين لكم حججهم على عدم جواز تعليمها ، أبين حججي لوجوبه في المدرستين : المدرسة والعالم . أسردها واعذروني أن أكثرتها منها ، فهي درر ولآلىء ، من كتاب الله وسنة رسوله . وهل تستكثر اللآلىء والدرر ؟

إن أول ما أنزل الله تعالى على نبيتنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . فهل يجوز يا أيها العلماء ، القائلون ضد تعليم المرأة ، أن ينكر على المرأة المسلمة أنها إنسان فتحرم تعليم ربها الكتابة بالقلم ؟ وهل يمكن رد أقوالكم يا أيها العلماء الى كتاب الله ؟

يا أصدقاء تعليم المرأة وخصومها ، إني شرعت أبين حججي ، وهي آيات كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم . فالنور ظاهر ساطع من تلكم الآيات والأحاديث لكل ذي عينين . فليظهر القادر منكم بالحجة والبرهان ، وليجادل بالتي هي أحسن ، وليترك الرمي بالمروق والإلحاد الى جانب ، انه حجة الضعيف في الروح .

يا خصوم المرأة ، إن من يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله لن يكون ملحداً . إن من يسعى للتكامل أدباً وعقلاً لن يكون مارقاً . إن من يغذي روحه بالعلم لن يكون مارقاً . وأن تعدوا كل من سلك هذا الطريق مارقاً أو ملحداً ، فقد عكستم الآية ، ورأيتم الملحد والمارق مؤمناً ، والمؤمن ملحداً ومارقاً .

يا خصوم المرأة ، تبعوا الناس كلام الله ، وسنن رسوله . فهما أحق أن يتبعا ، ولا تجتهدوا في أن تتبعوهم أقوالاً وتأويلات تخالفهما .

ولا يخفى أن الله قد أظهر في هذه الآيات أن نعمته الأولى على الإنسان خلقه إياه ، ونعمته الثانية تعليمه ما لا يعلم ، فلماذا تُجرّم المرأة نعمة الله عليها ؟

وقال تعالى : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ . و « تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

فلماذا تحرم صدور النساء آيات الله وقلوبهن أن تعقل أمثاله ؟

وقال تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ .

أما أنتم فتريدون أن تمنعوا عن المرأة المسلمة الأصل من نعمة ربها والزيادة . وهل طلب

الزيادة علماً ينحصر في زمان محدود ، أم يجب أن يدوم مدة الحياة في مدرسة العالم ؟

وقال تعالى : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ .

فعلام يستأثر الرجل بالرفعة وهي من فضل ربي عليه وعليها ؟

وكيف يتسنى للمرأة أن تصعد في درجة الرفعة ، والرجل في مدرسة العالم يواصل الجد وقد أقفل منها دون المرأة كل باب ؟

وقال تعالى : ﴿وَهَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فأنى تحرم النساء أن يكنّ في مستوى الرجال في نتيجة علم مشترك ، وليس الرجال والنساء إلا جناحي الأمة ، ولا تعلق أمة الى مستوى الأمم الراقية إلا إذا استوى جناحاها .

وقال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ .

فهل يجوز ألا تكون النساء ممّن يشهدون أن لا إله إلا الله ؟

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .

فلم لا يريد الرجال أن تكون النساء ممّن يخشون الله ، حاصرين فيهم صفة العلم ؟

هذا قليل من كثير جاءت به الآيات البيّنات توجب العلم على المرأة والرجل .

فلنرجع الى الأحاديث الشريفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْعِلْمُ قَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ » .

إن ما يتناوله العقل بداهة من هذا الحديث الصريح أن لا فرق بين المسلم والمسلمة في

تكليفهما طلب العلم . ولعمري إن الأصل اشتراك النساء والرجال في كل تكليف ، مالم يرد نص يمنع .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَطْلُبُوا الْعِلْمَ مِنَ الْمَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ » .

فهل يجوز منع المرأة من أن تصدع بالأمر ؟ وهل يمكن أن لا يتناول أمر رسول الله صلى

الله عليه وسلم مدرسة العالم وهي التي تدوم مدى الحياة ؟

جاء في كتاب (الاسلام روح المدنية) للشيخ مصطفى الغلاييني الصفحة الـ ٢٧٢ « أن

الشريعة صرّحت بوجوب إطاعة المرأة لزوجها إلا ان حال بينها وبين طلب العلم . فإنها حينئذ

لاتطيعه . بل تخرج الى طلب العلم ودراسته وتحصيل ما يلزمها من العلوم التي تجعلها سعيدة في

الحياتين . والدين قد أمر بتعليمها وتهذيبها كالرجل ، فالذنب يرجع الى المسلمين أنفسهم ،

لأنهم لم يقوموا بهذا الأمر الذي فرضه الله نحو المرأة » فهل أقصح من هذا البيان في وجوب

طلب العلوم على المرأة حيث يطلبها الرجل في المدرستين ؟

وفي الحديث « الْعِلْمُ حَيَاةُ الْإِسْلَامِ وَعِمَادُ الدِّينِ » .

فلماذا يحرم الإسلام حياة نصفه والدين نصف عماده ؟ هل ترون مافي مدرسة الأولاد من

العلم كافياً ليكون منه للاسلام حياة ، وللدين عماد ؟

وفي الحديث « لَأَخَيْرَ فِي الْعَيْشِ إِلَّا لِعَالِمٍ دَاعٍ ، أَوْ سَامِعٍ وَاعٍ » .

فلماذا يجعل عيش المرأة ممّا لاخير فيه بحرمانها العلم والتعليم إن في المدرسة الصغرى وإن في مدرسة العالم الكبرى ؟

وفي الحديث « مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ ، وَمَنْ أَرَادَهُمَا مَعًا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ » .

فلا تحرموا المرأة الدنيا والآخرة ؟

وفي الحديث « أَطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ فِي الصَّيْنِ » .

فلا تحرموا المرأة طلبه في مدرسة العالم مثلما يطلبه الرجل .

وفي الحديث « لِكُلِّ شَيْءٍ طَرِيقٌ وَطَرِيقُ الْجَنَّةِ الْعِلْمُ » . و « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » .

فلماذا تقطعون على النساء طريق الجنة مستأثرين بها لأنفسكم ؟ ولكن لاينفعكم هذا ياسادتي ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ النِّسَاءُ عَلِمَ اللَّهُ إِسْتِضْعَافَهُنَّ فَرَحَمَهُنَّ) .

وفي الحديث « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها لِطَالِبِ الْعِلْمِ رَضًى بِهِ وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » .

فلا تحرموا النساء أجنحة الملائكة واستغفار العالمين ؟

وفي الحديث « نِعَمَ وَزِيرُ الْإِيمَانِ الْعِلْمُ » .

فلا تحرموا سلطان الإيمان في المرأة وزيراً نعم الوزير ؟

وفي الحديث « عَالِمٌ يُنْتَفَعُ بِعِلْمِهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ أَلْفَ عَابِدٍ » .

و « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ النُّجُومِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » .

و « الْعَالِمُ أَفْضَلُ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ » .

فعلام تحرم المرأة هذا الفضل وهذا الأجر ؟

وفي الحديث « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَمِيرَاثُ الْأَنْبِيَاءِ الْعِلْمُ ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ » .

فبأي حق نحرم النساء أن يأخذن بحظ وافر من ميراث الأنبياء صلى الله عليهم وسلم ؟

وفي الحديث « الْعِلْمُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ، وَنُورُ الْأَبْصَارِ مِنَ الْعَمَى ، يُنْزِلُ اللَّهُ حَامِلَهُ مَنَازِلَ الْأَبْرَارِ ، وَيَمْنَحُهُ مَجَالِسَ الْأَخْيَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

فحتى م تحرم قلوب النساء حياتها وأبصارهن نورها مؤثرين لهن العمى ؟ أليحرمن دائماً

منازل الأبرار ومجالس الأخيار ؟

وفي الحديث « الْعِلْمُ مَعَالِمُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ » .

فَلَا تَجْعَلُوا حِجَاباً كَثِيفاً بَيْنَ النِّسَاءِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى طَرِيقِ الْحَلَالِ لَيْسَلِكُنَّ ، وَعَلَى طَرِيقِ الْحَرَامِ لِيَتَجَنَّبْنَ ؟

وفي الحديث « كَمَالُ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ » .

فلماذا تحرمون النساء كمال الدين بالعلم والعمل ؟ ألكي تتهموهن بنقصه ؟

وفي الحديث « مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مِنْهُ مَا يَفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يَصْلِحُ » .

فهل من مصلحة الرجال أن يكون الفساد في أعمال النساء أكثر من الصلاح ؟

وفي الحديث « الْعِلْمُ إِمَامُ الْعَقْلِ وَمَالْعَقْلُ تَابِعُهُ ، يُلْهِمُهُ السُّعْدَاءُ وَيُحْرِمُهُ الْأَشْقِيَاءُ » .

فلماذا لا تريدون ياسادتي الرجال ، أن تكون نساؤكم من السعداء بل لماذا تكتبون

عليهن الشقاء ؟

دعوا عقل المرأة يتبع إمامه ، ثم اتهموها بنقص العقل وبما تتهمون .

وفي الحديث « مَا عَصَى اللَّهَ تَعَالَى بِمَعْصِيَةِ أَكْثَرِ النَّاسِ مِنَ الْجَهْلِ ، وَأَمَقَّتْ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيْهِ

الْجَاهِلُ » .

فهل يروقكم ياسادتي الرجال ، أن تكون نساؤكم من أمقت عباد الله إليه تعالى حتى

اخترتم لهن الجهل أعظم المعاصي ؟

وأتى تكون النساء من أمقت عباد الله وحبهن من أخلاق أنبيائه ، وهن أحب ما في الدنيا

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث « وَهَلْ يَنْفَعُ الْقُرْآنُ إِلَّا بِالْعِلْمِ » .

إذن ويل لمن يحرم نساءه العلم ، فكأنه بذلك يحرمهن نفع القرآن .

وفي الحديث « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَطَلَبُوهُ وَلَوْ بِسَفْكِ الْمِهْجِ وَخَوْضِ اللَّجَجِ » .

أوليس النساء من الناس ؟ وهل من حضٍّ على طلب العلم أبين من هذا الحديث الشريف ؟

وفي الحديث « بِالْعِلْمِ يُطَاعُ اللَّهُ وَيُعْبَدُ ، بِالْعِلْمِ يُعْرَفُ اللَّهُ وَيُوَحَّدُ » .

فكيف يجوز أن تحرم النساء معرفة الله وتوحيده وطاعته وعبادته وقد قال سبحانه وتعالى

﴿ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ . فإن اعتبرتم المرأة إنساً أو إن تعتبروها جنّاً فلها الحق

أن تتعلم لتعرف ربها وتعبد .

إن الله يريد معرفة وعبادة مستندة إلى العلم والروح ، لا إلى حركات الجسد كالركوع

والسجود فحسب ، إذ أن ذلك حال عبدة النار نحو النار وعبدة الشمس نحو الشمس ، وحال

كل عابد وثناً نحو معبوده ؟ وأي نفع للعبادة إذا لم تؤثر في النفوس صلاحاً ؟ فقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : (كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَا يَرْبِحُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعَ وَالْعَطَشَ) .

حجج الشيخ الأزهري في منع تعليم المسلمة الكتابة وعلماً آخر غير الغزل،
ونظرات لي فيها

أيها السيدات والسادة :

إن تلکم الآيات البينات ، وهذه الأحاديث الشريفة ، التي تبارکت شفتاي بسردها وآذانکم بسماعها ، لا يريد بعض رجالنا ومشايخنا أن يلتفتوا اليها التفاتة ، مؤثرين عليها كما جاء في رسالة الشيخ الأزهري المذكور بعض أحاديث مروية يستنتجون منها ، ولا أعلم كيف يستنتجون ، إن تعليم النساء منهي عنه شرعاً ، وأنه لا يجوز أن يتعلمن إلا الغزل . وجاء في الرسالة المذكورة « أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتعليم النساء الغزل لأنه يرشد الى طلب تعليمهن مامعنى الغزل من كل ما لا يلزم من تعلمه وصنعتة خروج من المنزل كالخياطة ، وطلب تعليمهن الغزل دون غيره ، ممّا في معناه ، لما للغزل من المزية التي لا توجد في غيره » .

ودونکم الأحاديث التي يستنتجون منها ما يريدون :

الحديث الأول في الصفحة ١٤٩ من الرسالة المذكورة :

عن زياد بن عبد الله القرشي قال : دخلت على هند بنت المهلب بن أبي صفرة ، وهي امرأة الحجاج بن يوسف ، فرأيت في يدها مغزلاً تغزل به ، فقلت : أتغزلين وأنت امرأة أمير المؤمنين ؟ قالت : سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطولكن طاقةً أعظمكن أجراً ، وهُوَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَذْهَبُ بِحَدِيثِ النَّفْسِ » .

الحديث الثاني في الصفحة عينها :

عن زياد بن أبي السكن قال : دخلت على أم سلمة وببيدها مغزل تغزل به ، فقلت : كلما أتيتك وجدت في يدك مغزلاً ، فقالت : إنه يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس ، وقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعظمكن أجراً أطولكن طاقة » .

الحديث الثالث في الصفحة « ١٥١ » .

عن الترمذي الحكيم عن ابن مسعود ، إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مرّ لقمان على جارية في الكتاب فقال : « لِمَنْ يُصْنَعُ هَذَا السِّيفُ » . وأخرج الترمذي الحكيم من هذا الحديث أن فيه إشارة الى علة النهي عن تعلم الكتابة وهي أن المرأة إذا تعلمتها توصلت بها الى أغراض فاسدة ، وأمكن توصل الفسقة اليها على وجه أسرع وأبلغ وأخدع من توصلهم اليها بدون ذلك . لأن الإنسان يبلغ بكتابته في اغراضه الى غيره ، مالم يبلغه رسوله ، ولأن الكتاب أخفى من الرسول ، فكانت أبلغ في الحيلة وأسرع في الخداع والمكر ، فلأجل ذلك صارت المرأة بعد

الكتابة كالسيف الصقيل الذي لا يمر على شيء إلا قطعه بسرعة ، فكذلك هي بعد الكتابة تصوير لا يطلب منها شيء إلا كان فيها قابلية الى إجابته اليه على أبلغ وجه وأسرعه . انتهى قول الترمذي الحكيم .

الحديث الرابع في الصفحة « ١٥٠ » .

افتى به الشهاب بن حجر إذ قال : روى الحاكم وصححه البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاتنزلوهن في الغرف ولا تعلموهن الكتابة . وعلموهن الغزل » ، وعلى رواية أخرى « لاتسكنوا نساء كم الغرف ولا تعلموهن الكتابة » .

قلت أن أكثر المحققين لا يقولون بصحة هذا الحديث بل يعتقدون أنه من الأحاديث الموضوعة ، ذلك لأنه لا يوافق كتاب الله بل يخالفه . ولاغرو أن المرأة نالت من الأحاديث الموضوعة بحسب الأهواء ، ما أراد لها الرجل وشاء . وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فقال : «أيها الناس كَثُرَتِ الْكَذَّابَةُ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مَتَّعَمِدًا فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ . كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمَاجَاءَ كُمْ عَنِّي يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَنَا قُلْتُهُ ، وَمَاجَاءَ كُمْ يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ فَلَمْ أَقُلْهُ » . وقال الإمام علي رضي الله عنه ، وقد زور الناس الأحاديث على النبي من بعده كما زوروا عليه في عهده .

قلت : لا بدع أن يكون هذا الحديث موضوعاً . ولا يخفى أن الأحاديث لم تكتب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الصحابة كانوا يجتنبون ذلك تبعاً لنهييه ، صلى الله عليه وسلم ، مخافة أن تختلط بآيات القرآن المكتوبة ، ودام الإمساك عن كتابة الأحاديث أكثر من قرن ونصف . فإن أول من صنف في الحديث كتاباً مدوناً وصل إلينا هو الإمام مالك رضي الله عنه وقد أشار به عليه الخليفة المنصور العباسي لما حج سنة ١٦٣ إذ قال له «دَوِّنْ لَنَا فِي الْحَدِيثِ كِتَاباً تَجَنَّبَ فِيهِ شِدَائِدُ ابْنِ عَمْرٍ ، وَرَخِصَ بَنُ عَبَّاسٍ ، وَشَوَّاذُ بَنِ مَسْعُودٍ ، وَالزَّمَّ وَسَطَ الْأُمُورِ . فَنَحْمِلِ النَّاسَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى كِتَابِكَ وَنَثَبْتَهُ فِي الْأَقْطَارِ ، وَنَعْهَدُ إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يَقْضُوا بِسِوَاهِ » . وعقبه الشيخان صاحبا الصحيحين أبو عبد الله البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ ومسلم بن الحجاج المتوفى سنة ٢٦١ . فقد صححا - على ما يفهم من كتاب الأخلاق والواجبات للشيخ عبد القادر المغربي - من ثلاثمائة وستين ألف حديث نحو من عشرة آلاف حديث فقط ، ذلك ما يثبت بناء على نظر الشيخين وبالنظر الى الشرائط التي اشترطها كل منهما ان الأحاديث المزورة التي اتصلت بهما كانت نحواً من ثلاثمائة وخمسين ألف حديث .

ثم أن الإمام الغزالي أرى ابنه سبعين ألف حديث وقال له : يا بني ، إن هذه الأحاديث كلها موضوعة زورها الناس على النبي وهو براء منها .

وإن ماصحه الشيخان مستند الى روايات غير مكتوبة ، تناقلتها الألسن نحواً من مائتين وخمسين سنة ، ولا يخفى أن الذاكرة تخون الإنسان ، والنقل عرضة للتغيير مع الزمان ، وقد رأينا كيف كان النقل عن ابن عباس متناقضاً على أنواع مختلفة ، ورأينا كيف كانت الروايات ، في بحث الجغرافيا والتاريخ والفلك ، ملفقة ، فلا مندوحة لنا من رد الأحاديث لدى الحاجة الى كتاب الله تبعاً لأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولابد لنا هنا من الذكر أنه ظهر بعد الشيخين وفي منتهى القرن الثالث علماء في الحديث كثيرون ، أشهرهم أربعة : أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، فهؤلاء توسعوا في الشرائط وقبلوا أحاديث كثيرة لم يقبلها الشيخان في صحيحهما ، ومساندهم تسمى « كتب السنن » .

ثم قلت أن هذا الحديث ، حديث الغزل والكتابة - المروي روايتين مختلفتين فضلاً عن أنه لا يوافق كتاب الله ولا يوافق ما ذكرت من الأحاديث الشريفة ، فهو يخالف أيضاً الحديث الشريف الذي رواه أبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي « عَلِمِيهَا رِقِيَّةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتَهَا الْكِتَابَةَ » .

وقلت : إن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (أَطْوَلُكُنَّ طَاقَةً أَغْظَمُكُنَّ أَجْراً وَهُوَ يَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَيَذْهَبُ بِحَدِيثِ النَّفْسِ) . لا يدل على حصر العلم في الغزل ، كما استنتج بعض فقهاءنا ، لكنه يعني ترغيب النساء في ملازمة العلم والعمل ، عن البطالة التي هي مجلبة للشيطان النفس ، لأن طول الطاقة معناه المشهور المعروف ، القدرة على الشيء الذي يحتاج الى مشقة وثبات ، ومنه قوله تعالى ﴿لَا تَحْمِلُنَّ مَالاً طَاقَةً لَنَا بِهِ﴾ .

وقلت : ألا تدخل الكتابة ، وهي من لوازم العلم المفروض على كل مسلم ومسلمة ، في العمل الذي رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء فيه ؟

وقلت : إنهم يهملون هذا المعنى الجليل الذي ذكرت ، ويذهبون الى الفهم من طول الطاقة طول الخيط ، والى أن أطول النساء خيطاً بغزلهن ، أعظمهن أجراً ، وأن لاشيء يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس إلا طول الغزل .

وقلت : إنني لأشاطر الترمذي الحكيم في استخراجهِ من حديث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، عن لقمان ، نهياً عن تعلية الكتابة ، وأخالفه مخالفة على رؤوس الاشهاد في كل ما ذهب اليه مما يعيب العلم ويمس كرامة المرأة .

يقول الترمذي أن العلم يفسد المرأة . فلو كان الفساد من خواص العلم ، لما بقي في العلماء صالح .

أيها السادة : أذكركم أن كلاً من سيدنا عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، لقب بالسيف . ذلك ، لأن في السيف معنى شريفاً ، وإن قول لقمان (لمن يصقل هذا السيف) ، يعني أن لقمان كنى عن المرأة بالسيف ، لأن السيف لا يحسن إيفاء وظيفته إلا إذا كان صقيلاً مرهفاً ، وهكذا المرأة ، لاتحسن إيفاء وظيفتها ، وما أوسع وظيفتها ، مادام صداً الجهل والإهمال يغشى جوهر عقلها .

هذه هي ياسيداتى وساداتى الأحاديث الأربعة التي يؤثرونها على تلکم التي ذكرت ، ذلك ، ليقولوا أنه لايجوز للمرأة أن تتعلم إلا الغزل . ولكن المرأة تتعلم بما لها من الحق الشرعي . ماشاءت من العلوم ، رضوا أم ظلوا غير راضين ، فإن بفضل العلم الذي تتعلمه المرأة اليوم ، آلات الواحدة منها تغزل في ساعة ما يغزل المغزل في سنين ، وإن خيطها لخيط طويل يزيد على خيط المغزل أضعافاً ألوفاً ، فهل أهل تلك الآلات ، ياساداتى الفقهاء ، هم الأعظمون في نظركم أجراً ؟ وهل يجوز والحالة هذه أن نحصرقوى المرأة في الغزل . وأجرها في طول خيطها ؟

أما رجالنا المهملون تلکم الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة والآخذون بمثل هذه الاستخراجات الغريبة ، فماذا يريدون ، باختيارهم للنساء العمل الدائم بالمغزل ، إبقاءهن في الجهل ، فلا يخرجن إلا الى قبورهن ، ولاشيء يرهبنهم في سلطانهم الأعمى ، أكثر من خروجهن الى المدارس .

إنهم لا يخافون كما يقولون ، أن يفسد العلم أخلاق المرأة ، إنما يخافون أن ينيرها نور الحق .

«العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر»

إنهم يخافون إذا تعلمت أن يفقدوا سلطة (جحا على خالته) .
هكذا تعود الرجل في الشرق ، تعود أن يجعل المرأة في رقه ، ويجعل نفسه في رق الحاكم ، تعود أن يكون ظالماً في بيته ، مظلوماً خارج البيت .
إن الجزاء الحق من جنس العمل .

حجج الشيخ الأزهرى في وجوب استتار المسلمة عن غير المسلمين. وسترها قلامه ظفرها

وتغليظها صوتها. ونظرات لي في أقواله وفي الأقوال المستند إليها

سادتي وساداتي :

لا تتعجبوا من استخراج الترمذي والشيخ الأزهرى ، فقد جاءنا هذا الشيخ باستخراجات أخرى أغرب من هذه ، لمنعنا من العلم الذي يريده لنا الله جل جلاله ونبيه صلى الله عليه وسلم .

إنه لم ينقل لنا في رسالته آية من تلكم الآيات الجليلة . ولا حديثاً من تلكم الأحاديث الشريفة ، بل نقل إلينا من أقوال الفقهاء المتنوعة ، ما يدل على وجوب سد أفواهنا بأيدينا ، وسد أبواب بيوتنا علينا ، خوف الفتنة .

قال : جاء في تنوير الأبصار (الذممة كالرجل الأجنبي فلا تنظر الى بدن المسلمة) .

وقال : جاء في شرح النابلسي على هدية بن العماد (لا يحل للمرأة أن تنكشف بين يدي نصرانية أو يهودية أو مشركة إلا أن تكون أمة لها) .

وقال : إن البناني قال : (الذممة مع الحرة المسلمة كالرجل) .

وقال : جاء في المنهاج : (إن الذممة مع المسلمة كالأجنبي) .

قلت : واحسرتاه! إذن أين تتعلم وممن ؟ أبالغزل وبالغزالات نكتفي ؟

وقال : اختلف الفقهاء في جواز النظر الى ما يرمى من قلامه ظفر المسلمة ، فقال الدميري (يحرم النظر الى قلامه ظفر رجلها لأنها عورة ولا يحرم النظر الى قلامه ظفر يدها لأنها ليست بعورة) وقال ابن حجر خلافاً للدميري (يحرم النظر الى قلامه ظفر المرأة المفصلة ولو عن اليد لأن اليد أيضاً عورة) .

وقال : جاء في الروض (يجب على المرأة أن توارى قلامه ظفرها لتلا يراها أحد) . واستطرد الى قوله [وإذا وجب مواراة قلامه الظفر من يدها فكيف يتوهم أنه لا يجب ستر وجهها ويديها] .

ترون ياساداتي ، أن حضرة القائل ، حسب القول بوجوب مواراة قلامه الظفر من يدها كأنه نص إلهي منزل ، أو حديث نبوي مثبت ، فجعله قاعدة للقياس واستنتج من ذلك القياس فيما يرمى من فضلات الأظفار التي ليست إلا عرضاً حقيراً جداً . استنتج من هذه المقدمة تلك النتيجة الجليلة الجوهرية العظمى : ألا وهي وجوب إخفاء وجه المرأة ويديها ، الجزء الإنساني

الذي جعل الله فيه حواس الإنسان كلها ، فياله من منطق! وياه من قياس لايزيد عن الحق إلا بعداً! وجل دين الله عن أن يصاب بمثل هذا القياس وعز جداً .

وقال نقلاً عن الدميري أنه قال : (وإذا قرع باب المرأة فينبغي لها أن لاتجيب بصوت رخيم ، بل تغلظ صوتها ، بأن تجعل ظهر كفها بفمها ، وتجيب كذلك خوفاً من الفتنة) .

قلت : ولكن أخواتنا النصرانيات جعلن معنا بحكم الرجال والمسلمات يحرم عليهن كل علم غير الغزل ، فإذا أردنا أن نتعلم غير الغزل فأئى يتيسر لنا ذلك ، من المعلمات النصرانيات ، وعيوننا مغطاة بالنقاب ، محرومة رؤية الكتاب ، وأفواهنا مسدودة بأيدينا ، محرومة الخطاب والجواب ، خوفاً من الفتن؟! من الفتن!!

فما أخرى بي أن أتذكر وأذكر مستهلاً من خطبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال : (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَدَأَ وَقُوعَ الْفِتَنِ أَهْوَاءُ تُتَّبَعُ ، وَأَحْكَمُ تُبْتَدَعُ ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّهِ) .

وقال الأزهري المشار اليه : جاء في شرح الدر نقلاً عن المجتبى « لايجوز النظر الى ملاء الأجنبية » .

قلت : إذن لاغطاء لنا إلا جذر البيت .

ثم قلت : أين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويده على سيفه يقول : «هَاتِ الدَّلِيلَ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ مِنَ السُّنَّةِ»

وقلت : أيمثل هذه الاجتهادات تتمكن من مباراة الأمم في ميدان التنازع للبقاء ؟ ألا يفتن رجالنا ، ويقعون في الإثم ، إلا بسماع صوت ، أو نظر وجه ، أو يد ، أو قلامه ظفر ، من مسلمة ؟

وماشأن أخواتنا المسيحيات ، وغيرهن ، اللواتي جعلن بحكم الرجال لو سمعن منا صوتاً ، أو رأين وجهاً . أو يداً ، أو قلامه ظفر ؟

فيا سيدي الدميري

ويا سيدي البناني

ويا سيدي ابن حجر

ويا سيدي النابلسي

ويا سيدي صاحب المنهاج

ويا سيدي صاحب التحفة

ويا سيدي صاحب الروض

وياسيدي الأزهري ، لكم في غير مايتعلق بالمرأة أقوال أجّلها ، أمّا فيما يتعلّق بالمرأة فقد عكستم الآية . عكستم الآية ياسادتي .

إن شرع الله تعالى للمرأة ، كما هو للرجل ، علمٌ ، وعدلٌ ، ويسرٌ ، ونورٌ ، ورفعٌ ، وسعادة ، وخير ، تجعلها أقوالكم فيها إن تتبع ، جهلاً ، وظلماً ، وعسراً ، وظلاماً ، وضعةً ، وشقاءً ، وشرّاً .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وَ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لَكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ لَكُمْ الْعُسْرَ ﴾ وَ ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

ولمّا نزلت الآية ، خرج النبي صلى الله عليه وسلّم وهو يضحك ويقول : (لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ) .

أمّا اجتهاداتكم هذه فكان مرمّاها تغليب العسر على يسرين أو تغليب الضعيف على قويين خلافاً لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، ومن أجل ذلك ما كان نصيبها من المسلمين في زماننا العلمي ، إلا أنهم أهملوها إهمالاً ، وملاؤوا المدارس من البنات يتعلّمن فيها الكتابة وعلومها وفنوناً أشكالا وأشكالا ، وصرفوا النظر عن تشبيه نسائهم بالمرأة القديمة ، التي كانت تكتفي من طعامها بخبزٍ من شعير . ومن ملبسها بقميصٍ من قطنٍ ، وبمسكنها ببيتٍ من شعرٍ ، حتّى أن المسلمات نسين المغزل وهيئته ، واختلطن بأخواتهنّ في الوطنية أو في الإنسانية ، ولن يتوقف أزهرى ، أو بغدادى ، أو بيروتى ، أو دمشقى ، في ردّ الناس الى اتباع مامر من أقوالكم ، إذ أنه لا يمكن رد تلك الأقوال الى الكتاب ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم (كُلُّ شَيْءٍ مَرْدُودٌ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكُلُّ حَدِيثٍ لَا يُوَافِقُ كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ زُخْرُفٌ) إن الأقوال التي لاتوافق كتاب الله لاقيمة لها .

إنكم رميتم بالمقدمات ياسادتي ، وماهي إلا إفراط وغلو . فليست من كتاب الله أو من سنة رسوله ، ولم تستشرفوا ماقد تلد أقوالكم بعدكم من النتائج ، إنكم لو استندتم في أقوالكم الى نص في الكتاب ، أو في السنة ، لوافقكم الفقهاء وأجمعوا .

وإني لأضرب لكم ياسيداتي وسادتي مثلاً على إرادة الله جلّ جلاله اليسر للاسلام . إني عدت الى كتب التفسير لأرى السبب والحكمة في نزول الآية التي تستثني الأرقاء من الذين لايجوز أن تبدي النساء لهم زينتهنّ ، مع أنهم رجال كالرجال . فرأيت أن المفسرين متفقون على سبب نزولها المروي عن عائشة وأم سلمى رضي الله عنهما ، وعن أنس بن مالك ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلّم أتى الى فاطمة بريقق وقد وهبه لها ، وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ماتلقى ، قال ليس من بأس ، إنّما هو أبوك وغلأمك ، ونزلت الآية .

فانظروا كيف جعل الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم مع العسر يسرا ، ومع الحرج فرجاً ، واذكروا كيف غلب بعض الفقهاء العسر على يسرين .

ولا يمكنني هنا أن أتمالك من بيان دهشتي ، حينما رأيت في قول بعض المفسرين غلواً في اليسر يعاكس غلوهم في العسر . فقد استنتج المفسرون من آية الله جل جلاله ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبُعولتهن وآبائهن... وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ ومن الحديث (لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ بَأْسٍ) أنه يجوز للرقيق أن ينظر الى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة ، ناسين أن أمر الله للضرورة ، وأن الضرورات تقدر بقدرها ، فكان الأولى بالمفسرين أن يكتفوا بالإجازة للرقيق أن ينظر من مولاته عدا الذراعين والقدمين الرأس حتى العنق وكفى .

أجل قد قال أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ، لا يحل للمرأة أن ينظر عبدها الى شيء من جسدها إلا شعرها .

كنت أظن ياسيدي الأزهري وياسادتي الفقهاء أن الغلو منحصر في شعرائنا ، فلو سالت قطرة من الدمع لجعلوها بالخيال في الوصف بحرراً تتلاطم أمواجه ، فإذا هو غير منحصر في الشعراء ، وإذا وجد من يعذركم فيما قلتم ناظراً الى أحوال زمانكم ، والله أعلم بأحوال ذلك الزمان ، فنحن لانعذر في زماننا إذا اتبعنا أقوالكم ، ولم نرجع الى الإستنارة من مصدري نور الهدى والاستقاء من تبعتي الخير الخالص ، الكتاب والسنة ، فهما أحق أن يتبعنا .

لنا الحق أن نحيا الحياة المثلى في تنازع البقاء ، ولنا الحق في الحياة الآخرة ، فأذنوا لنا واذن لنا ياسيدي الشيخ الأزهري ، في الاستهداء من مصدر النور ، واتباع أحسن الأقوال ، وأقوم المناهج ، لمباراة الأمم ، إنك لو أحسنت ، ياسيدي الشيخ ، انتخاب الأقوال لما أتيتنا بأقوال شاذة ليس أتباعها في زماننا إلا الموت قبل الموت ، عدا عما فيها من المخالفة لأصول الدين وروحه .

كلمة للفيلسوف سبنسر فيها لنا عبرة

سادتي وسيداتني :

إنه ليؤلمني ويؤلم كل مسلم ومسلمة ، أن لاتكون أحسن الأقوال التي تقوي في الإنسان الحس الديني ، والتي توافق أوامر الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، يؤلمنا وأيم الله ، أن لاتكون صادرة عن فقهاءنا الذين ذكرت أقوالهم ، بل صادرة عن بعض العلماء الغربيين

الذين ربّوا عقولهم فوجّهوا مداركهم الى اكتشاف حقائق العالم ، وربّوا أرواحهم فوجهوا إرادتهم الى الخير ، وإحساسهم الى الجميل ، وهي الأمور اللازمة لسعادة الإنسان ، ولهذا نرى كثيراً من أقوالهم أكثر انطباقاً على الكتاب والسنة ، من كثير من أقوالنا .

إذن تلك هي أحسن الأقوال الواجب على أولي الألباب اتباعها .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَتَى وَجَدَهَا أَخَذَهَا] والناس سواء ، فلا ينظر الى من قال بل الى ما قال .

لنسمع مثلاً ما قاله الفيلسوف سبنسر في كتابه الذي كتبه في التربية ، وكأنني به فسّر حكمة الآيات التي تبارك لسانني بذكرها ، قال :

(ليس العلم للرجل والمرأة منافياً لإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس ، إنّما المنافي للدين هو ترك العلم ، ولنضرب لذلك مثلاً ، فنفرض أن عالماً من كبار المؤلفين يصنّف الكتب ، ويقرّر الحقائق والناس يثنون عليه ويطلقون ألسنتهم في مدحه ، ولكنهم مع ذلك لم يروا من كتبه إلا غلفها ، ولم يقرأوا شيئاً منها ، ولم يجهدوا أنفسهم يوماً في فهم ما اشتملت عليه ، فما تكون قيمة هذا المدح في نظرنا ؟ وما الذي نعتقده في صدق هؤلاء المادحين ؟
إن جاز لنا أن نقيس عظام الأشياء بصغارها ، نقول أن الناس يعاملون الكون وخالقه هذه المعاملة .

وأدهى ما يأتون من تلك المعاملة ، أنهم لا يكتفون أن يعيشوا ويموتوا وهم لا يعرفون حقيقة من حقائق تلك الأشياء التي ينادون بأنها من أبدع البدائع وأعجب العجائب . بل ينحنون باللائمة على من يشتغل بفهم حقائقها والوقوف على ما أودع فيها من أسرار . ولو فقهوا لعلوم أن إهمال العلم ، هو المضعف للإحساس الديني ، بل الماحق له ، أمّا خدمة العلم فهي عبادة يؤدّيها القلب ، لأن خدمة العلم هي اعتراف بأن للمخلوقات قيمة عالية وأن الذي أوجدها له الشأن الأعلى والمكان الأسمى .

خدمة العلم هي احترام للكون وصانعه ، يؤدّيها طالب العلم ، لبالفهم واللسان ، ولكن ببذل وقته وفكره وعمله) .

هذا ما قاله الفيلسوف سبنسر من جهة منافع العلم للمرأة في أمر الدين ، وأمّا من جهة منفعة في أمر الدنيا ، فقد كانت أقواله أيضاً كأنها مستمدة من آيات الله وأحاديث رسوله .
فلماذا تحرمون ياسادتي الرجال المرأة أن تقوي إحساسها الديني بالعلم ، أيضركم أو يضرها أن تفهم حقائق الكائنات لتدرك عظمة خالقها ادراكاً حقاً ، وتدرّي واجبها نحو ربها ، وواجبها نحو نفسها ، وأسررتها ، وأمتها ، ووطنها ، وبني جنسها . أهذا هو الفساد الذي تخافون ؟

فقرة جليلة من خطبة الأمير علي خان

ولنسمع الآن فقرة جليلة من خطبة ألقاها الأمير علي خان رئيس المؤتمر الاسلامي الكبير .
في المؤتمر المذكور الذي عقد في الهند . قال فيما قال :
(أجل أيها السادة ، إنني أعتقد أن تربية البنات يجب أن تسير يداً بيد مع تربية البنين ،
إذا كنا نود أن يأتي التعليم بالفائدة المطلوبة ، ويجب أن نعلم أننا لانتظر خيراً ما لم تكن
نسبة التربية بين الأبناء والبنات متساوية ، لأننا إذا أهملنا نصفاً من الهيئة المكوّنة لحياتنا
الاجتماعية واعتنينا بالنصف الآخر فإن النتيجة تكون سيئة فاسدة ، إذ أن من الأمور المقررة أنه
إذا ترقّت أفكار نصف الأمة وبقي النصف الآخر ملقى في ظلمات الجهل وانحطاط الفكر ، فإن
الجزء المتعلّم ينفر من الجزء الجاهل ، ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع الى ذلك
سبيلاً ، ويحاول إمّا أن يسير في تيّار لايرضي الشرف والصالح ، وإمّا أن يخفض نفسه وينحط
بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط في حياته) .

٤

معارضة الشيخ محمد رحيم

أقواله في الملبس. وعتب عليه وعلى أمثاله لتركهم السنن ولباب الأمور،
وتعلقهم بالبدع والقشور. وعتب على الأمة

جاء في رسالة (رفع الشبهات عن بعض المشتبهات) ، للشيخ محمد رحيم الطرابلسي ،
وهي من الرسائل المنشورة ضد السفور :

«لايجوز للمسلمين ولا للمسلمات ، أن يتشبهوا بغيرهم من بعض الملل الأخرى ، لأن
التشبه بالغير ، شعار الأمم الضعيفة ، والأنفس الذليلة ، ويؤدي الى الإندغام فيمن تشبهوا
بهم ، بناءً عليه ، يجب أن يكون للمسلمين والمسلمات شعار خاص ، يمتازون به عن غيرهم

من المشركين ، وأهل الكتاب ، فمن مميزات الرجال منهم اللحية ، والعمّة . أمّا اللحية فالسنة فيها أن تكون قبضة ، وإنّ مايفعله ، متخنّثة الرجال ، من الأخذ منها ، وهي دون القبضة فلم يبيحه أحد! أمّا العمّة ، فقد جاء في المدخل أن السلف الصالح كانوا يتقنّعون بعمائمهم ويتحنّكون بها ، ويرخون طرفيها بين أكتافهم ، أو بين أيديهم ، والعمّة من غير تقنّع ولا تحنّك تسمّى اقتعاطاً ، وقد كرهه مالك ومجاهد وغيرهما . ومن المميزات للنساء المسلمات ، الحجاب . وأن يضعن الخمر على رؤوسهنّ . ولو في قعر بيوتهنّ ، ولا يجوز للمسلمين أو للمسلمات ، أن يلبسوا البرانيط ، أو يلبسوها أولادهم الصغار ، لأنّ ما حرم على الكبير فعله حرّم عليه فعله بولده ، ذلك لأنّ في لبس البرنيطة معنى التشبّه ، والتشبه بالغير لا تبيحه الشريعة المطهرة عظم أو صغر . وما قرب من البرنيطة « مثل ما يلبسه كثير من المسلمات اليوم ، ويسمى عندهن بونه » كان في حكمها ، لأنه يسهل لبس البرنيطة بعد ، أمّا ما يسمّى طربوشاً ، فيكره لبسه بغير عمامة على الدوام ، دون بعض الأحايين ، لأنّ السلف كانوا يلبسون القلنسوة ، قال ابن رشد ، القلانيس ما كان لها ارتفاع في الرأس على أي شكل كانت . ويكره للرجل أن يلبس ما يشكّل عورته كالبنطالون ، ويجب أن تكون أثواب النساء سابغة واسعة ، إلا أكمام اليدين والرجلين ، فلا يوسعنها ، وإذا خرجن من بيوتهنّ ، عليهنّ أن يخرجن في حفش ثيابهنّ ، ويمشين مع الجدران ، « وحفش الثياب رزالتها وباليها » .

قلت : إذن نحن والرجال ، في تقنيع الوجوه وتحنيكها سواء ، عودوا ياسادتي الرجال ، الى تقنيع وجوهكم ، وتحنيكها ، وقديم زيّكم بما فيه من حلق الرؤوس وجزّ الشوارب ، وإرخاء اللحي . ثمّ طالبونا بالقناع ، وبالدرع والجلباب ، وقديم الزي إن كنتم منصفين .

لقد ذكر سيدي الشيخ ، قسماً من لباس السلف الصالح لتتشبه بهم فيه ونقتدي ، ولم يذكر غير ذلك من ملبسهم ، ولم يذكر نوع ماكلهم ولا شكل مسكنهم ، ولا آلات غزلهم ، وحياتهم ، وفلاحتهم ، وسائر صناعاتهم ، ليتم بيننا وبينهم وجه الشبه ، ولكي نتمكن ، كما يريد ، من الجمود التام على عقولهم وأحوالهم ، ولانرقى عنهم في شيء ما ، ولئلا نتشبه بغيرهم من الأمم الحديثة ، الناهضة الراقية ، تشبيهاً يقتضي منا تقدماً ونهوضاً ورقياً! .

ولكن أتى يجوز لك ياسيدي الشيخ ، أن تمنع المؤمن من أخذ الحكمة إذا وجدها عند غيره و (الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ) ؟

إن القراطيس ياسيدي الشيخ ، لم تكن في صدر الإسلام معروفة ، وكان كتاب القرآن من الصحابة رضوان الله عليهم ، كما يفهم من كتاب الأخلاق والواجبات للشيخ عبد القادر المغربي ، يكتبونه أثناء نزوله في الجلود ، وجريد النخل ، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام ،

الى أن رتبت آياته في سورة ، وجمع في المصحف في السنة الثلاثين للهجرة ، فهل لك أن تطلب منا أن نرجع الى الكتابة على الجلود ، وجريد النخل ، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام ؟
ياسيدي الشيخ ، أهذه هي الدرر والآلئ التي أمكنك أن تلتقطها من شرع الله بحر الحكمة المحيط بالعالمين ؟

لألومك وحدك ياسيدي ، بل ألوم الشرق كله مادام محتفظاً بآفتين في قلبه ، هما التقليد والجمود ، مسمّمتا الضمائر ومعميتا البصائر ، هما التقليد والجمود ، المضخّتان بقوى الأرواح وجواهر السرائر ، في سبيل أشكال الملابس وأعراض الظواهر ، وأرى أن أقدم واجب على كل ذي علم ونور ، وأخي نخوة وحمية في الاسلام غيور ، أن يجاهد بكل ما أعطاه الله من قوة ، لسحق هاتين الآفتين ، حتى إذا تخلصنا منهما ، انكشفت لنا تلك الآلئ والدرر المكنونة في شرعنا ، إنها لدرر وآلئ تجعل الزمان مزداناً ، مرصّعاً ، متألّئاً ، مستنيراً بها ، أكثر ممّا تزدان السماء بالشمس والقمر والنجوم ، مرصّعة ، متألّئة ، منارة بها .

ياسادتي المشايخ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَيْلٌ لِّأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ » وقال أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه : « طلبة العلم ثلاثة ، صنف يطلبه للجهل والمرء ، فدى الله من هذا خيشومه ، وقطع منه حيزومه ، وصنف يطلبه للاستطالة والختل ، فأعمى الله على هذا خبره ، وقطع من آثار العلماء اثره ، وصنف يطلبه للفقه والعلم ، فشدّد الله من هذا أركانه ، وأعطاه يوم القيامة أمانه » فعسى يأتي زمان لا يرى المسلمون فيه إلا الصنف الثالث ، ولكن الإنسان يخطئ ويصيب ، وجلّ من لا يخطئ .

إنّا ياسادتي المشايخ ، نحتاج الآن في هذا العصر الراقي ، الذي تتنازع فيه الأمم البقاء ، بأشد قواها ، الى الحريات في حركات العقل ، وحركات الجسد ، أكثر من ذي قبل ، لنتمكّن من مجارة الأمم ومباراتها . وقد تحرّرت فيها حركات العقول وحركات الأجسام ، فاسمحوا لنا بكسر كل قيد لم يكن إلا بدعة غريبة ، أحدثها بعض الفقهاء ، ولم تكن من كتاب الله أو سنة رسوله .

إنّي أخاطب العقول الحرة ياسادتي ، فأرجو منكم أن تعملوها ، بل تشعلوها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [الْعَمَلُ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ] .

وليصدق كلُّ بما يأمره به عقله ، أنموت وفي رقابنا أرسان من الجمود والتقليد والعادة ، يقودنا بها الجهلة المتعصبون ؟ وهل يجوز أن نطفئ ذلك النور الروحاني من قلوبنا ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ ﴾ ؟ .

إذا كان لابد من إرسان في الأمة ، ليقود بعضها البعض الآخر ، فخير أن تكون الارسان في

أيدي المستنيرين الناهضين ، الناظرين الى اللباب والحقائق ، الماشين الى الأمام والى النور ، من أن تكون في أيدي الغافلين ، الجامدين ، المتمسكين بالقشور والأباطيل ، الراجعين الى الوراء ، والى الظلام ، والأفضل الأفضل ، أن يكون كل مسلم حراً بلا رسن لا يقوده أحد ، ولا حجة بينه وبين أحد ، إنما الحجة بينه وبين الله وحده وإني ممن قطعوا رسن الجمود والتقليد والعادة قطعاً ، ونزعوه نزعاً ، واعتصموا بحبل الله متفكرين في شرعه ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . إني ممن يأخذون اللباب ويتركون القشور ، إني خرجت بفضل ربّي ، وعدل أبي ، من الظلام الى النور ، ولن يعمى عن الحق من يعقل كتاب الله وسنة رسوله ويعمل بها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَفْلَحَ مَنْ رَزِقَ لِبّاً) .

* * *

اكراه النساء على الأخذ بالقشور والبدع، اوجب امتهانهن

ياسيدي الشيخ ، إن الأمم تتفاضل في حالة البداوة . بالقوة البدنية فإذا ارتقت ، تفاضلت بالعلم ، ثم إذا بلغت من الإرتقاء غاية ، تفاضلت بالأخلاق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ لَكُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) وأنت تعلم أن أداة (إنما) حصرية فلا تدخل الملابس في بعثته صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل قائل عاقل ، أن الأمم تمتاز وتتفاضل بشكل الملابس ، فأود لو أنعمت وأنعم أمثالك النظر ، في مكنون آيات الله ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالدرجة المطلوبة من التعقل والتفكير ، فنسمع دروساً في غير دروس الملبس ، دروساً تجعل أرواحنا المشرفة بالاسلام ، تمتاز على غيرها خلقاً وأدباً سوياً ، وعلماً وعقلاً ورقياً . أما إذا امتاز ملبسنا ، بجلباب ونقاب ، وامتاز غيرنا علينا بما أحرز من استمتاع بالنور ، ومن علم ، وعقل ورقى ، وأخلاق ، وآداب ، فلا خير في هذا الإمتياز ، وحبذا ذلك الإحراز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فَأَكْمَلُوهُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . إنه لا يكمل إلا بها) .

إن ظلم النساء ياسيدي الشيخ واستعبادهن وأسرهن وامتهانهن ، وإعماء عيونهن وقلوبهن ، لا يكمل ديناً .

ألا تذكر ، أنك أنت ، أنت نفسك ، تسند الى أمك ، وابنتك ، وأختك ، وزوجتك ، المتحجبات المتنقيات تسند الى المسلمات المأسورات بشكل الملابس وسيئ العادات ، اتهن ناقصات العقل والدين ؟ فأبي أدب وخلق يتصور الناس في الناقصات عقلاً وديناً كما تزعم ،

والخلق والأدب لا يجملان ، إلا حيث العقل والدين يكملان ؟ وبعد أن تسند أنت هذا ، ماذا نتوقع أن يسند غيرك ماذا ؟ ياليت مشايخنا أكملوا الدين في النساء بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب بدلاً من إنقاصهم إياه بالحجاب والنقاب!

ذكرتك ماتسند اليهن في حجابهن ، ونقابهن ، وأسرهن بعاداتهن ، وأن تسند عدم الصحة الى قولي هذا ، فكن صريحاً شريفاً ، واعلن أن المسلمات المحجبات كاملات في العقل والدين ، كما يعلن الناس في العالم السافر الراقي إن نساءهم السوافر كاملات كالرجال الكاملين ، وإن لم تعلن ذلك ، وثبت في تحجيبهن ، وفي إسنادك ماتسند إليهن ، فلا خير في النقاب والحجاب ، وهما للمهانة من الأسباب ، وسلامٌ وتحيّةٌ على السفور . حيث الكرامة وحيث النور .

الاشتراك مع الآخرين، في الملبس لا يعني التشبه بهم فيه.

فنبينا ﷺ اشترك واياهم في لبس البرانس والقلانس

ياسيدي الشيخ لا يجوز الخلط بين الاشتراك والتشبه ، إن لبسنا زيّاً نشترك وغيرنا فيه ، غير ممنوع شرعاً ، إلا إذا كان القصد من الإشتراك ، التشبه إظهاراً لميل قلوبنا الى دين صاحب الزي . أمّا إذا رأى الإنسان زيّاً فيه حكمة ، من نفع للصحة وتسهيل للحركة والعمل ، وموافقة للرصانة ، وبعد عن الريبة والتبرّج ، ولبس ذلك الزي مشاركاً فيه لابسيه ، فلا لوم عليه في الدين ولا حرج . إن ذلك من الأمور التي لا يحاسب الله عليها المؤمن ، بل يأمره بها ، ويأمره أن يجتهد على تحسينها وتجميلها ليكون كأنه شامةٌ بين الناس ، إنه تعالى لا يحاسب إلا على المقاصد والنيات .

وقد جاء في الحديث عن جعفر الصادق رضي الله عنه ، كما هو مثبت في كتاب الوسائل الصفحة ٣١٤ (كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، برنس يتبرنس به ، أي يلبسه على رأسه) وفي مجمع البحرين ، عند البحث عن الحديث ، أن البرنس شيء يلبسه النصاري على رؤوسهم ، إذن نبينا صلى الله عليه وسلم ، لم يجتنب أن يلبس ما يلبس النصاري ، إن دين الانسان وإيمانه ياسيدي في قلبه ونفسه ، لا في ثوبه وملبسه .

إذا كان الملبس هو المؤثر في أخلاق النساء ، فلماذا لاتفوق نساء النور غيرهن أدباً وأخلاقاً ، وهن يلبسن من الملبس أستره ، وأطولاه ، وأبسطه ، بل أطبقه على ما يسميه بعضنا

الحجاب الشرعي ؟ ولماذا لا يؤثر الحجاب والنقاب في النساء الساقطات ، ولا يصلح أحوالهن ؟ وإن كان الحجاب يمنع الفتنة فلماذا يحيط بالمرأة المحجبة نطاق من عيون الرجال ، ويندر أن ينظروا نظرة افتتان الى سافرة ، سافرة طبعاً وعادةً ، وجبلة ، لا قصداً ؟

ياسيدي الشيخ ، إذا كان الإشتراك في الملبس ممنوعاً ، سواء كان مقروناً بقصد التشبه والميل لدين صاحب الزي ، أو لم يكن ، فلمَ اشرطنا معهم في كل الملابس ، وأخذنا عنهم كل ما يلزم لمعيشتنا حتى الإبرة والخيط والملعقة و«الشحيط» .

لقد أجمدنا بعض ذوي العمام ياسيدي الشيخ ، في التعصب الجامد ، والورع البارد ، حتى خدرت عقولنا ، وشلّت أيدينا ، وعجزنا عن صنع ما يلزمنا ، وجلبنا كل شيء من العالم السافر الراقي ، ولبسناه أو استعملناه ، ولم يبق شيء مما عندهم لم نشترك فيه ، إلا البرنيطة أو المظلة ، والمؤمنون أحق منهم بها ، وقد كانت عندنا قبل أن كانت عندهم ، ونحن أحوج منهم اليها ، فالحر عندنا أشد من الحر عندهم .

اشترانا والافرنج في الملبس لنا فيه من الخير أكثر مما لهم

قال سيدي الشيخ ، إن اشتراكنا وغيرنا في الملبس ، يستوجب اندغامنا بهم ، وقال أحدهم في بعض الصحف : إن السفوريين المتجددين ، يقولون للافرنج ، «نوالي من واليتم ونعادي من عاديتهم» .

فلننظر الى ذلك المصلح الأعظم مصطفى كمال ، القائل بالسفور وبالملبس الأصح ، والذي تجلّت في شخصه ، نهضة الأمة المسلمة التركية ، فهل قال للافرنج «نوالي من واليتم ونعادي من عاديتهم» ودخل تحت راية سيطرتهم مندغماً وشعبه بهم ؟ أم أنه نسل بلاده وأمته ، من وهدة الإضمحلال ، الى ذروة الاستقلال ؟

لاشك أن مصطفى كمال ، قد أفرط في بعض الأمور ، ولكن قوة الدفع تتزايد بنسبة قوة التضييق ، فالأمة التركية قضت أجيالاً تحت كابوس من عمام يضغط الحرية ، حتى صغرت تلك الأمة ، وانحطت انحطاطاً شائناً ، فأضاعت القسم الأعظم من ملكها ، وأوشكت أن تقع تحت نير الاستعباد ، ولم يتسن للحياة المضغوطة الكامنة في نفس تلك الأمة ، عوامل من النهضة وأحوال موافقة لظهورها ، الى أن قيض الله لها زعيمها الحر الناهض مصطفى كمال ، فكان منها بمثابة الفم من البركان ، فثارت نفوسها على عوامل التضييق ، مخرجة أثقالها ، قاذفة بها ناراً ملتهبة ،

تتحرق كل ما قبح وساء من العادات والتقاليد ، ليقوم مقامها الحسن الجميل من كل جديد .
نعم إن مصطفى كمال ، في إظهاره نهضة قومه ، وأخذه من الفرنجة كل حكمة ، وكل حسن ، إتبع الحديث الشريف القائل «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا أَخَذَهَا» . فكان الله له ناصراً .

ياسيدي الشيخ ، إن كان الفرق باللباس ، وتقييدنا به ، من لوازم الاسلام ، فأى شيء قضى على المسلم في الأزمنة الأخيرة ، التي مرت قبل مصطفى كمال ، وقد كان حراً في لباسه ، مقلداً أزياء غيره ، أن يلبس مثل أخيه غير المسلم ، ويزيل الفوارق الكثيرة ، التي كانت تفصل الواحد عن الآخر ؟ أو ليس الذي دعاه رابطُ الأخوة والتشارك في الدنيا ، دون نظر الى المذهب أو الدين ؟ أولم ير المصلح العثماني الأول ، الخليفة السلطان عبد المجيد ، أن التفريق مما يفت في عضد الدولة ، ويوهي قوتها ، ويسوقها الى الفناء ، فكان من إصلاحاته الخيرية ، أنه أبدل الطربوش من العمامة ، ولبسه هو نفسه ، ومشى خلفه أبناء سلطنته ؟ أراد بذلك شدّ روابط الأخوة بين العثمانيين .

ثم غيّر من جاء بعده من الخلفاء ، للمقصد عينه ، لباسهم ، ولبسوا الزي الفرنجي ، ومنه البنطالون ، وتبعهم في ذلك المسلمون وغيرهم ، وقد كان الفقهاء لا يجيزون ذلك للمسلمين ، لأن فيه تشبهاً بالأمم الأخرى ، ولأن البنطالون يظهر شكل الجسم الذي لا يجوز ظهوره ، أمّا المسلمون فقد غيّرُوا لباسهم ، واتّخذوا ذلك اللباس الفرنجي ، الذي رأوه أصلح من ملابسهم ، وشاركوا في لبسه إخوانهم ، ولم يروا لذلك في أمر دينهم تأثيراً وتغييراً .

وهل يقوم دين المسلمة بزي من جلباب ، وردع ونقاب ، حتّى لا يجوز تغيير ذلك الزي ؟ ولم لا يجوز للمرأة ما جاز للرجل ، من تغيير الزي واختيار الأصلح ؟ وهل تلبس اليوم المسلمات ، ما كانت أخواتهنّ من قبل لابسات ؟ واللواتي لا يلبسن جلباباً ونقاباً من القرويات ، واللواتي يلبسن القبعات من المسلمات التركيات وغير التركيات ، والأفغانيات ، واليوغسلافيات ، وجلالة ملكة الأفغان ثريا ، أهنّ يامسلمون غير مسلمات ؟ وهل يوافق المصلحة الاسلامية أن تفصم عروقها الوثقى من الأمم التركية والأفغانية واليوغسلافية ؟

ياسيدي الشيخ ، انظر الى الأنكليز والفرنسيين والألمان والإيطاليين واليابان والأميركيين ، وكلّ شعوب الأرض المتمدنة ، أليس لباس رؤوسهم ولباس جسومهم جميعاً ، على شكل أوزي واحد ، وقد أجمعوا بعد الدرس ، أنه الأصلح لتسهيل حركات الجسم ، وحفظ الصحة ؟ فهل أثر تشابه اللباس عندهم ، في نهضة كلّ منهم ، وحميته ، ووطنيته ، ودينه ؟ وهل اندغمت أمة منهم بأخرى ؟ أولم يبق الانكليزي انكليزياً ، والأفرنسي افرنسياً ، والألماني

ألمانياً ، والياباني يابانياً ؟ فلماذا يقصر نظرنا الى هذا الحد ؟ وهانحن نرى رجالنا . وقد لبسوا مايلبس رجال الفرنجة ، ولبسوا مايلبس أخوانهم غير المسلمين دون فرق بينهم ، فهل اندغموا بغيرهم ، ومنعهم ذلك من أن يكونوا مسلمين ؟

النقاب موروث عن عبدة الأصنام وليس من خصائص الاسلام

ياسيدي الشيخ ، إن التفريق باللباس ، والحؤول من هذه الجهة ، دون تمازج الناس ، ليس أمراً مشكوراً ، والحجاب في الأصل ، ليس من خصائص الإسلام ، ولا من مقتضيات شريعته الحرة السمحة ، وإنما هي عادة قلّدنا بها سائر الأقوام ، ومن سبقنا من عبدة الأصنام ، وإثباتاً لعادة ستر الوجه قبل الإسلام في الجاهلية ، اليكم ما قاله الربيع بن زياد العبسي ، في رثاء مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك	فليات ساحتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه	يلطمن أوجههن بالأسحار
قد كنّ يخبئن الوجوه تسترا	واليوم هنّ برزن للأنظار
يضربن حرّ وجوههنّ على فتى	عفا الشمائل طيب الأخبار

واليكم ما قالته أم عمران بنت وقدان في الجاهلية ، تحرّض قومها على أخذ بثّار .

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم	فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا	نقب النساء فبئس رهط المرهق

واليكم بيتاً ممّا قالته هند بنت معبد الجاهلية ، في رثاء ابن أخيها خالد .

إن تخرج الكاعب من خدرها يومك لاتذكر فيه الخباء

هكذا كانت الجاهلية ، وهكذا كانت سائر الأمم كالروس والفرس واليونان .
نعم إن نساء الجاهلية كنّ متنقبات ، ولكنّ المفسّرين قالوا لنا أنهنّ كنّ متبدلات ، إذن لاخير في نقابهنّ .

كتاب الله يحجب الاشتراك في الملبس ويؤنب القائلين بعكس ذلك

ياسيدي الشيخ ، هات الدليل من الكتاب أو من السنة ، على وجوب تمييز المسلمين في الملبس عن غيرهم ، وعدم جواز لبسهم ملابس مشتركة ، بينهم وبين غيرهم . أولم تقرأ آيات الله في كتابه ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ، كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ، وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

أو ماترى في هذه الآيات البيّنات ، ماهي نعم الله المحلّلات ، وما هي المحرّمات ؟

وإني لأشعر أنقل اليكم ، تفاسير هذه الآيات من كتب التفسير بحروفها .

قال المفسّرون البيضاوي والنسفي والخازن والطبرسي : السربال يعم كل مايلبس .

وقالوا : زينة الله ، كل مايلبس ويتجمل به .

وقالوا : خصّ الله الحرّ بالذكر ، اكتفاءً بأحد الضدّين ، أو لأن وقاية الحرّ كانت أهمّ

عندهم .

وقالوا : في الآية دليل صريح ، على أن جميع الأطعمة والمشروبات والملبوسات ،

وأنواع التجمّلات ، حلال ، إلا ماخصّه الشرع بدليل في التحريم . لأن الأصل في جميع الأشياء

الإباحة ، إلا ما حظره الشارع ، وثبت تحريمه بدليل مفصّل .

وقالوا : الطيبات من الملبس والمأكّل مشتركة في الدنيا بين المؤمنين وغيرهم ، وهي

خالصة للمؤمنين في الآخرة .

وقالوا : عن ابن عباس رضي الله عنه « إن المؤمنين يشاركون المشركين في الطيبات في

الدنيا فأكلوا من طيبات طعامهم ولبسوا من جياذ ثيابهم ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة

للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء » .

وقالوا : إن الملابس والمطاعم وأنواع التجمّلات ، غير خالصة للمؤمنين في الدنيا ، لأن

المشركين شركاؤهم فيها . ولم يقل تعالى هي للذين آمنوا ولغيرهم ، لينبّه على أنها خلقت

للذين آمنوا على طريق الأصالة ، وعلى أن غيرهم تابع لهم .

وقالوا : وأرجو منك أن تصغي الى ما قالوا ، في تفسير قوله تعالى ﴿وكذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ أي قال الله تعالى كذلك أبين الحلال ممّا أحللت ، والحرام ممّا حرّمت ، لقوم علموا أنّي أنا الله وحدي ، لا شريك لي ، فاحلّوا حلالي ، وحرّموا حرامي ، قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب ، الذين يحرّمون ما أحلّ الله ، إن الله لم يحرّم ما تحرّمونه أنتم ، بل أحله الله لعباده ، وطيبه لهم ، وإنّما حرّم ربي الفواحش من الأفعال والأقوال ، جهرها وسرّها ، والأثم ، والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .

وقالوا في تفسير ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي وأن تتقولوا عليه ، وتفتروا الكذب في التحريم .

فهل ترضى ياسيدي الشيخ أن تكون ممّن يقولون على الله ما لا يعلمون ، فيحرّمون على المؤمنين نعمة الله التي أخرج لعباده ، ويهملون البحث عن محرّماته ، مقيمين مقامه التشويق الى التفريق بالملبس ؟ لندع البحث عن الملبس ياسيدي ، وابحث عن مكارم الأخلاق .

إنه لمن دواعي العجب ، أن خزانة الكتب الاسلامية ، على وفرة ما حوته من الكتب والأسفار ، وعلى مافيها من دواوين الأشعار ، المملوءة من المدح والرثاء ، والفخر ، والهجو ، والغزل ، لو فتشنا فيها عن كتب الأخلاق التي تركها لنا السلف ، لما كدنا نعدّ أكثر من ثلاثة هي : (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ، و (أدب الدنيا والدين) للماوردي . و (الجزء الرابع) من إحياء الإمام الغزالي ، وقد زينها منذ عهد قريب ، كتاب (الأخلاق والواجبات) للعالم الفاضل الشيخ عبد القادر المغربي ، فأتنا ياسيدي الشيخ بكتاب ثانٍ ، في الأخلاق والواجبات ، تهذب به ناشئتنا على مبدأ قوي . وتراعى به تغيّرات الأزمان ، وتطوّرات أحوال العمران ، على مثل ما فعل الشيخ المغربي ، وليكن فداك ألف كتاب ، ليس فيها نفع لتهذيب أخلاق الأمة ، على المبادئ القويمة :

(وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا)

المقابلة بين ما أمر الله ورسوله من جهة ،

وما قال ابن عابدين من جهة أخرى . ونظرات لي

ياسيدي الشيخ ، أتخاف على القطيع ، إذا اشترك وغيره في الملبس أن يضيع ؟
الرعاة يسمون الغنم ، ويشرمون آذان المعزى ليعرف . فهل تريد أن تسم الناس ، بوسم اللباس ؟

إن بعض أسلافك من الفقهاء ، كانت رغبتهم في إحداث غرائب البدع ، أشبه بالولع . فابتدعوا من السمات والعلامات والمعاملات لغير المسلمين أنواعاً وأشكالاً ، جلّ عنها شرع الله الأشرف وتعالى . إنّ ذلك كله كان مفعولاً لمعنى مؤلم ، هو تفريق المسلم عن غير المسلم .

وقد يكون أنّك أخذت قولك ياسيدي الشيخ ، بوجوب تمييز المسلمين عن غيرهم ، من رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ، حيث قال مملخصه : - لما كان الذميون مخالطين أهل الاسلام ، فلا بدّ من تمييزهم عنّا . وإذا وجب التمييز ، وجب أن يكون بما فيه ذل وصغار لهم ، كيلا يعامل غير المسلم معاملة المسلم ، في التوقير والتعظيم ، فلا يركب غير المسلم خيلاً مطلقاً ، وإن ركب حماراً ينزل عنه عندما يمرّ بالمسلمين ، ويضيق عليه في المرور بأن يلجئه الى أضيق الطريق . ولا يسكن داراً عالية البناء ويجعل على داره علامة ، لنلا يقف عند داره سائل ، ويدعو له بالمغفرة ، أو يعامله بالتضرّع معاملة المسلمين ، وإذا استعلى على المسلمين ، حلّ للإمام قتله ، وإذا استخدم العبيد والجواري يلزمه الحبس والتعزير الشديد . ولا يعمل بسلاح ، أي لا يحمله ولا يستعمله ، لأنه عزّ ، وكلّ ما كان عزّاً يمنع عنه ، وعليه أن يظهر الكستيج مزئراً به فوق ثيابه ، محوكاً من خيوط الصوف والشعر الثخين ، والكستيج فارسي معرّب ، معناه الأصلي العجز والذل ، ولا يلبس الثياب الفاخرة كصوف مربع ، وجوخ رفيع ، وإبراد رقيقة ، لا يلبس زنار الابريسم ، لأن ذلك جفاء في حقّ الإسلام ، ومكسرة لقلوبهم ، وإنّما يلبس قلنسوة طويلة من كرباس أو لبد ، مصبوغة بالسواد ، وتجعل مكاعبهم (أي مداساتهم) خشنة ، فاسدة اللون ، وكذا تؤخذ نساؤهم بالزي في الطرق ، فيجعل على ملأة اليهودية خرقة خضراء ، وعلى ملأة النصرانية خرقة زرقاء ، وكذا في الحمامات ، فيجعل في أعناقهنّ طوق الحديد . الى آخر ماوضع هناك من القيود المبتدعة وعدد ، الى أن قال : وينبغي لغير المسلم ، أن يلازم الصغار فيما يكون بينه وبين المسلم في كل شيء ، وعليه ، فيمنع من القعود حال قيام المسلم عنه ، ويحرم القيام له تعظيماً ، وتكره مصافحته ، ولا يبدأ بسلام إلا لحاجة ، ولا يزاد في الجواب على «وعليك» .

أيجوز لنا ياسيدي الشيخ ، أن نأخذ بهذه البدع الغريبة التي ماأنزل الله بها من سلطان ، وتخالف الكتاب والسنة مخالفة صريحة ، حتّى تنشر الرسائل بين العامة ، مشوقاً الى التفريق بالملبس ، لتزيد الغرور غروراً ؟ أيجوز أن نعد هذه البدع ، من الشرع المتّبع ، ونجعلها أحكاماً نتمشّي عليها .

أم يجدر بنا أن نرجع الى كتاب الله ، وسنة رسوله ، حيث الخير والصلاح ، وحيث التآخي والسلام ، وحيث المدنية والنور ؟ ألا ترى ، أننا إذا قدرنا فاتّبعنا مثل هذه البدع أمسينا

مصدقاً لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ، وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ ؟

أين هذه البدع من كتاب الله وسنة رسوله ؟ شتان ما بين الثرى والثرى . إن المسلم الذي يرى مارأى ابن عابدين ، أشبه بمن يملك ثوباً فاخراً جميلاً قشيباً ، فلا يلبسه إلا مقلوباً .

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... عَسَى أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مَوَدَّةً. لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقال تعالى : ﴿إِذْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ... وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ... فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع في قوله هذا العدل كله وحسن السياسة كله ، قال عن الذميين : (لهم مالنا وعليهم ما علينا) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آذَى ذُمِّيًّا فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آذَى ذُمِّيًّا فَأَنَا خَصْمُهُ ، وَمَنْ كُنْتُ أَنَا خَصْمُهُ خَاصِمَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آذَى ذُمِّيًّا ضَرَبَهُ اللَّهُ بِسَيَاطِرٍ مِنْ نَارٍ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَشْرَفُ الْإِيمَانِ أَنْ يَأْمَنَكَ النَّاسُ ، وَأَشْرَفُ الْإِسْلَامِ أَنْ يَسْلَمَ

النَّاسُ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « رَأْسُ الْعَقْلِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ التَّحَبُّبُ إِلَى النَّاسِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ آلفٌ مَأْلُوفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارَهُ غَوَائِلَهُ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ حَفَّ الْإِسْلَامَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَبَاغِضُوا وَلَا تَنَابَزُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ

إِخْوَانًا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ خَيْرٌ مِنْ عَامَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» .
وقد صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، رجلاً ذمياً ، فقال له الذمي :
أين تريد يا عبد الله ، قال : أريد الكوفة ، فلما عدل الطريق بالذمي ، عدل معه أمير المؤمنين ،
فقال له الذمي : لماذا عدلت معي ؟ فقال له أمير المؤمنين : هذا من تمام حسن الصحبة أن يتبع
الرجل صاحبه هنيئاً إذا فارقه ، كذلك أمرنا نبينا .

ولنصغ الآن الى الحديث الآتي : أسرت خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب مع
بني طي ، سفانة بنت حاتم الطائي ، وأتوه بها وكانت مسيحية ، فقالت : «هلك الوالد ، وغاب
الرافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ، ولا تشمت بي أحياء العرب ، فإن أبي كان سيّد قومه ، يفكّ
العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ،
ويفشي السلام ، ويحمي الكلّ ، ويُعين على نوائب الدهر ، ومأثاه أحد في حاجة فردّه خائباً ،
أنا بنت حاتم الطائي » . فقال صلى الله عليه وسلم : «هذه صفات المؤمنين حقّاً ، خلّوا عنها ،
فإن أباهما كان يحبُّ مكارم الأخلاق» وبعد أن أكرمها أرجعها الى قومها آمنة مكرّمة .

ثم قدم عليه صلى الله عليه وسلم أخوها عدي بن حاتم الطائي ، فقام له تعظيماً ، ونزع
رداءه وأجلسه عليه ، وجلس صلى الله عليه وسلم على التراب ، ثم التفت الى أصحابه وقال :
«أكرموا عزيز قوم ذلّ» ثم أدخله بيته مكرّماً إياه ، ولم يكن عنده في البيت غير حفصة ووسادة
من آدم . فطرحها له وأجلسه عليها ، وجلس صلى الله عليه وسلم على الأرض . ثم قال له «إنّ
أباك مات قبل أن يؤمن فأذا كان يوم القيامة وأمر الله بأبيك إلى النار أن يأنار هيديه ولا
تؤذيه ، فإن كان أبوك في النار لا يدوق حرّ النار لأنّه كان يحبُّ مكارم الأخلاق» .

هذا شرع الله الواجب أن يتبع ، لاتلك البدع ، قابلوا بين شرع الله ، وتلك البدع . إنها
ليست ممّا شرع .

ياسيدي الشيخ ، لا عمل للانسان ، أشد ضرراً من تعاميه عن مرضه أو اخفائه ، وعدم
سعيه لشفائه . ومن أهم الأمراض الاجتماعية عدا الجمود والتقليد ، مرض كثير الغدر بصاحبه
هو التكبر أو الغرور ، الذي يعمي الإنسان فلا يعرف نفسه ، هو التكبر والغرور الذي أعمى قلب
الرجل عن الحق ، وعن العدل ، وعن كتاب الله ، وعن سنة رسوله ، فعامل المرأة المستضعفة
بما عامل ، وحاول أن يعامل كل من غلبه مثلما عاملها بالغمض والتحقير . ولكن ذلك يخالف
كتاب الله وسنة رسوله ، فلا ينتج إلا وبالاً ، ولايزيد إلا سفالاً ، ولايعود على صاحبه إلا
بالخسران . قال الله تعالى ﴿فَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي الشيطان ، إنه يحمل الإنسان على
محابه ووراءها كل ما يضرّ به . وقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَعْظَمُ التَّكْبَرِ غَمْضُ الْخَلْقِ وَسَفَهُ الْحَقِّ » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « الْمُتَكَبِّرُ فِي الْأَرْضِ يُنَازِعُ جَبَّارَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .
وقال صلى الله عليه وسلم : « الْكِبَرُ رِذَاءُ اللَّهِ ، وَالْمُتَكَبِّرُ يُنَازِعُ اللَّهَ رِذَاءَهُ ، وَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رِذَاءَهُ لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا سَفَالًا ، وَكَبَّهُ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : يُخْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي خَلْقٍ مِنَ الذَّرِّ ، فِي صُورِ النَّاسِ ، يُوْطَنُونَ حَتَّى يَفْرَغَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ يُسَلِّكُ بِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ وَيُسْتَقُونَ مِنْ طِينَةِ خِيَالٍ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ » .

قال الشاعر الاميركي : « لم يقبلني المتكبر المتعصب في دائرة الأخوة إذ بنى حوله دائرة وضعني خارجاً عنها ، فبنيت حولها دائرة من الأخوة أخرى أوسع منها ، فبقيت وإياه في دائرة واحدة » . فما كان أحري بابن عابدين أن يجل الدين الاسلامي ، عن مثل تلك البدع ، وأن يسبق ، تبعاً لروح ذلكم الدين الشريف السامي ، الشاعر الاميركي ، في تبين دائرة الإخاء العظمى التي تجمع العالم ، تلك التي أسسها المسيح عيسى وشيدها محمد عليهما الصلاة والسلام .

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، أن يركب الخيل مطلقاً ، وإن ركب حماراً لضرورة فينزل عنه عندما يمر بالمسلمين ، وأوجب عليه التضييق ، وألجأه الى أضييق الطريق ، كل ذلك تأمناً لملازمته الذل والصغار على ماذكر ، وانظر اليوم ، أنت ياسيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، ألا ترى أنه بعد نيله حرّياته وإفلاته من قيوده وأغلاله ، لم يكتف بتسخير الأرضين ، وسهولها ، وحزونها ، لعجلاته ، وسياراته ، ودباباته ، وبتسخير البحار لبواخره ، ومواخره ، ومدرعاته ، بل سخر الأفلاك الواسعة لطياراته ، وركب متن الجو ينظر الى الأرضيين من عل ، هازئاً بالقطبين والأوقيانوس الشاسع الواسع ، الفاصل بين العالمين ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، أن يسكن داراً عالية البناء لئلا يقف عند داره سائل ويدعوه بالمغفرة أو يعامله في التضرّع . وانظر اليوم أنت ياسيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، وقد نال حرّياته ، وأفلت من قيوده وأغلاله ، ألا ترى أن قصوره الشاهقة ، وقد يبلغ بعضها سبعين طبقة ، تناطح السحاب وقد تعلوه ؟ وهو لا ينتظر السائل ليدعوه بالمغفرة ، أو يعامله بالتضرّع ، إنما ترفع عن ذلك ، وهو يرسل الى ماوراء البحار ، والى كل الأقطار ، ملايينه وملياراته ، لإسعاف الفقير ، وشفاء المريض ، ونشر العلم ، وتثقيف العقل ، وإسعاد البشر ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، أن يستخدم العبيد والجواري استخفافاً به ، فتأمل أنت ياسيدي الشيخ ماذا فعل غير المسلم ، بعد نيل حرّياته وإفلاته من قيوده وأغلاله . أنه حرّر العبيد والجواري ، في الدنيا كلّها جبراً ، بمعاهدات خاصة ، وبدلاً من أن يستعبد إخوته وأخواته

من بني الإنسان ، ويسخرهم ، استعبد الطبيعة الجامدة ، مسخرًا إياها ، ومسخرًا قواها لإرادته ، وخدمته ، وراحته ، ونفعه .

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، أن يلبس الثياب الفاخرة ، مثل الصوف المربع ، والجوخ الرفيع ، والإبراد الرقيقة ، ولا زنار الابريسم لأن ذلك جفاء في حق الاسلام ومكسرة لقلوبهم ، بل يلبس الكستيج ثوب العجز والذل ، محوكاً من خيوط الصوف والشعر الثخين .

وقد تناسى ابن عابدين على ما يظهر أنه علم القرآن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن يستعبد من مساوي الأخلاق كان الحسد من جملة ما لقنه الاستعاذة منه فقال تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .

وانظر اليوم ياسيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، ألا ترى أنه قد حصر فيه صنع الأقمشة الفاخرة ، كما حصر فيه سائر الصناعات الهامة عنوان العزّ والقدرة ؟ فهو الذي يرسل إلينا من الأقمشة الفاخرة مانلبس .

هل يرى ابن عابدين موافقاً لمكارم الأخلاق التي إنمّا بعث نبينا صلى الله عليه وسلم لتتميمها ، أن نحسد غير المسلم ، على لبس الملابس الفاخرة وزنار الابريسم ، ونعد ذلك مكسرة لقلوبنا ، في حين أن غير المسلم يرسلها إلينا من وراء البحار ، لتنزّين بها ، دون أن يجول في فكره شيء من الحسد ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم أن يعمل بسلاح ، وانظر اليوم أنت ياسيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، وقد نال حرّياته ، وأفلت من قيوده وأغلاله ، ألا ترى أنه بدلاً من مثل (بارودة بفتيل) صنع لنفسه قلاعاً متحركة تدهش القلوب والأنظار . وأسلحة مروعة من المدافع والقنابل وآلات الدمار ، ومايدك من الأرض جبلاً ، ويزلزلها زلزالاً ، ويشعلها إشعالاً . البروق والرعود والصواعق تتري من فوهات في غيوم من الدخان والغاز الضار ، كأنها براكين نار ، تخرج أثقالاً ، بعدت مجالاً . في الأرض وفي الجو وفي البحار ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، أن يلبس على رأسه إلا قلنسوة طويلة من كرباس أو لبد مصبوغة بالسواد ، وأن يلبس من المكاعب غير الخشن الفاسد اللون . وألق اليوم ياسيدي الشيخ نظرة ، ألا ترى أننا نحن بقينا على شكل واحد ، من القلانيس المتركة أو الطرابيش التي يصنعها غير المسلم ، ويرسلها إلينا ، وأن مداساتنا الحمراء أو الصفراء ، بقيت ثابتة لا تتغير ، يستحي أن يلبسها أحد منا ، إلا الفقراء من أهل القرى ؟ أما هو فقد صنع لنفسه قلانس ومكاعب جميلة ، نافعة ، فاخرة ، متجددة ، متبدلة مع الحرّ والقرّ ، قد لاتحصى أشكالها ، ولاتحصر أنواعها ، فاشتركتنا في ما اخترع من المكاعب والملابس ، ولكننا انشطرنّا شطرين في القلانيس .

أوجب ابن عابدين على غير المسلمات ، أن يجعلن على ملاءتهن خرقاً خضراء ، أو زرقاء ، وأن تجعل في أعناقهن في الحمامات أطواق الحديد . فانظر اليوم ياسيدي الشيخ ، الى غير المسلمات ، وقد نلن حرّياتهن ، وأفلتن من قيودهن وأغلالهن . ألا ترى أنهن أطرحن الملاءات والخرق ، وظهرن بأثواب وقلائد من العز والفخار ، كأنهن ملائكة من بشر ، يسعين لجعل الأرض جنّات ، تجري من تحتها الأنهار ، تشرح القلوب ، والصدور ، وتسّر الأرواح والأبصار ؟

إن قيود الملابس التي قال بها ابن عابدين ، ياسيدي الشيخ ، كانت لمعرفة غير المسلم ، حتّى لا يغلط أحد في معرفته ، فيعامله معاملة لائقة ، وما كانت الا بدعة مثل بدعة الحجاب للمرأة المستضعفة لملازمة الذل والصغار .

لم يجز ابن عابدين للمسلم أن يصفح غير المسلم ، أو يبدأه بسلام أو يزيد في الجواب على (وعليك) وأن يقوم له تعظيماً ، ولكن ما قاله ابن عابدين مخالف صراحة لقوله تعالى ﴿وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ ومخالف لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن (لا غِرَارَ فِي صَلَاةٍ وَلَا تَسْلِيمٍ) . وجاء في معاني الأخبار : لا غرار أي لا نقصان أما في الصلاة فقد ترك إتمام ركوعها وسجودها . وأما في التسليم ، فأن يقول الرجل (السلام عليكم) أو يرد فيقول (وعليك) . ولا يقول (وعليكم السلام) . وقد صادف الإمام الشافعي وثنياً ، فبادره بالسلام قائلاً (السلام عليكم ورحمة الله) فقل له : أتدعو له بالرحمة ؟ أجاب : أوليس برحمة الله يعيش ؟

قال ابن عابدين ما قال بشأن السلام ، وعدم التعظيم والإحترام ، ولكن ألا ترى اليوم ياسيدي الشيخ ، أن غير المسلم ، بعد نيله حرّياته ، وإفلاته من قيوده وأغلاله ، استحقّ منا واجباً من السلام ، والإكرام ، والتعظيم ، والاحترام ، نتسابق اليه ، لنقضيه لديه ، ولنا مثل ذلك الواجب عليه ؟

سادتي وسيداتي :

إن النتائج التي حصلت في العالم السافر الراقي ، تدل على صحة المقدمات في آرائه وأعماله ، وأمّا النتائج التي حصلت في عالمنا المقيّد ، في كلّ حركاته وأعماله ، فإنها لتدل على فساد المقدمات في آرائنا وأعمالنا ، فلنترك الغرور ياسادة ، لافرق في الدنيا المشتركة بين الإنسان ، وأخيه الإنسان ، فليتشبه كلّ منا ، بمن هو خير منه عملاً ، أيّاً كان وأين كان ، (إن التشبه بالكرام فلاح) ومن كان مغروراً ، مستصغراً غيره ، فليس له نصيب من غيره إلا الاستصغار كما قال الشاعر :

مَثَلُ المعجب في خيالاته مثل الواقف في رأس الجبل
ينظر الناس صغاراً وهو في أعين الناس صغيراً لم يزل

الى الأمام ياسيدي الشيخ الى الأمام ، إلحق بالناس لتقرب منهم فتستكبرهم لدى النظر اليهم ويستكبروك ، ولاتبق متأخراً بعيداً عنهم ، فتستصغرهم لدى النظر اليهم ويستصغروك .

(والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر)

إلحق بهم وإقرب اليهم ياسيدي ، لئلا تراهم من بعيد أشباحاً ، وهم إخوانك ، فيروك هم أيضاً شبحاً وأنت أخوهم . إن بعض الحكماء مثل هذه الحالة بقوله (أمسى عليّ المساء في الصحراء ، فلاح لي من بعيد شبح أسود ، وجدته أخي) .

نعم ياسادة ، إن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره ، وإن منزلة المرء من ربه ، ومن بني جنسه ، تكون على مقدار مايوصل من النفع والخير للبشر أنهم إخوانه ، إن نور الحرية بدّد الظلمات وأزال ماأحدثه التعصّب من الفروق بين الناس في الدنيا ، ذلك التعصّب المكروه ، الذي شدّ ماوجب عنا في شرع الله ، والكتب المنزلة من الأنوار ، ومافيها من أمهات الخير ، ومكارم الأخلاق .

ذلك التعصّب المكروه . الذي أنسانا أن الإنسان أخو الإنسان ، وأن الله رب العالمين (يشرق شمسّه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين) . ولم يكن تقييد الذميين بالملابس إلا نتيجة ذلك التعصّب .

أمّا اليوم وقد تحرّر الذميون ، مثلما تحرّر العالم السافر الراقي ، من قيود الملابس ، وألقوها بعيداً عنهم ، فكان سيدي الشيخ ، وقد عجز عن تقييد الذميين ، يفتش عن مثل تلك القيود ليقيد بها المسلمين ، تأييداً لمبدأ التفريق بين العالمين . وقد يكون أن الشيخ يهمله ، على ما ذكر بعض الظرفاء ، أن يعرف من أول نظرة ، لمن يقول «السلام عليكم ورحمة الله» ، ولمن يقول «نهاركم سعيد» أو (وعليكم) . ذلك قد يهمله ، أكثر ممّا تهمله الأمور التي ترفع عالم الاسلام الى أعلى الدرجات ، أو تخفضهم الى أسفل الدركات ، قد يهمله ، أكثر ممّا تهمله الأمور ، التي تمشي بهم الى الأمام ، فتجعلهم في طليعة الأقوام ، أو ترجع بهم الى الوراء ، فتجعلهم كالأنعام تقاد بالزمام ، وقد يؤثر الشيخ مثل هذه الحال ، مهما ساء المآل ، ليعد نفسه من القادة الأعلام .

المسلم حُر في ملبسه. وخير لباس كل زمان لباس أهله

ياسيدي الشيخ ، إنك تشوق الى التقنع والتحنك ، كأنك لم تسمع الحديث عن علي رضي الله عنه «التقنع ريبه في الليل ومذلة في النهار» .

إنك تضيق علينا الخناق ، بقيود الملبس ، كأنك لم تقرأ آيات الله التي ذكرتها مع تفاسيرها ، ولم تقرأ الحديث عن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ، «ثلاثة أشياء لا يحاسب الله عليها المؤمن، طعام يأكله، وثوب يلبسه، وزوجة صالحة تعاونة ويحصن بها» .
وكأنك لم تقرأ الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه «كُل مَاشِيَتَ ، وَأَشْرَبُ مَاشِيَتَ وَأَلْبَسُ مَاشِيَتَ مَا أَخْطَأْتُكَ خَصَلَتَانِ سَرَفٌ وَمَخِيلَةٌ» .

إنك تريد أن ترجعنا في الملبس ، الى ما وراء العصور التي خلت ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يريد الجمود ، ولا رجوع القهقري ، وقد جاء في الحديث الشريف «أَحْسِنُوا لِبَاسَكُمْ وَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ» .
وجاء في الحديث الشريف «خَيْرُ لِبَاسٍ كُلِّ زَمَانٍ ، لِبَاسُ أَهْلِهِ» .

وأرجو منك ، أن تعي الحديث الآتي . ولكل فيه ، من حكمة وعبرة مايكفيه :
«قال سفيان الثوري . لأبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه . يا ابن رسول الله ، إنك تلبس القُوهيَ والمروِي ، ومالبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا علي رضي الله عنه ، مثل هذا اللباس ، فقال ويحك ، اسمع مني وعِ ما أقول ، فإنه خير لك عاجلاً أو آجلاً . إن أنت مت على السنة ، ولم تمت على بدعة ، أخبرك أن رسول الله ، كان في زمان مقفرٍ جَدِبَ مقصّر ، وقترٍ مقتر ، وكان يأخذ لقتره وإقتاره ، وعلياً كان في زمن ضيقٍ معسر ، وكان يأخذ لضيقه وإعساره ، أما وقد أقبلت بعد ذلك الدنيا ، وأرخت عزاليها ، واتسع الزمان ، فأحق الناس بطيياتها ، أبرارها لافجارها ، ومؤمنوها لامنافقوها ، ومسلموها ، لا كفارها ، فنحن أحق من أخذ ما أخرج الله وأعطى ، ثم تلا ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الى آخر الآية . والى أن قال : إن علياً رضي الله عنه اشترى ثلاثة أثواب بدينار ، القميص الى فوق الكعب ، والإزار الى نصف الساق ، والرداء من يديه الى ثدييه ، ومن خلفه الى إلبته ، ثم رفع يديه الى السماء ، وما زال يحمد الله على ما كساه حتى دخل منزله قائلاً : هذا اللباس ينبغي للمسلمين أن يلبسوه ، ثم قال : وعليٌّ كان في زمانٍ يستقيم له ماليس فيه ، ولكن لا تقدر أن تلبسوا مثل ذلك اللباس ، في هذا الزمان . ولو فعل أحد منكم ، لقالوا أنه مجنون ، أو مرءٍ سيءٍ ، ولو فعلته أنا لقالوا جُنَّ جعفر» .

فيا سيدي ، إن كان من يلبس في زمن أبي عبد الله جعفر الصادق ، لباساً مثل لباس علي ، رضي الله عنهما ، عرضةً لقول الناس أنه مجنون ، أو مرءٍ سيء ، فما تكون حالة من يلبسه اليوم ، وقد مضى على ذلك الزمان مايزيد على ألف سنة .

إنّي أيها السادة ، تمثّلت أبي ، كأنه لابس مثل ذاك القميص والإزار ، والرداء ، نازلاً الى قصر العدل والقضاء . وتذكّرت ماقاله أبو عبد الله رضي الله عنه . فلم أتمالك عن التسارع لإغلاق الباب . قبل أن يرى في مثل تلك الثياب ، ولكنه خيال ماكاد يخطر في البال حتّى غاب . وماذا يقول الناس ياسيدي عن سيدة ، إذا لبست اليوم درع الزمان القديم ، أي قميصه ، وهي زيّه ، وخرجت بين الناس ؟

انظروا ياسادة أين نحن . وأين سيدي الشيخ ، إنه مايزال يبحث عن تضيق أكمام الرجلين واليدين ، وعن قدر اللحية بالقبضة ، وعن الاقتعاط وشكل تقنيع الرجال وتحنيكهم . وكأن الشيخ في رسالته ، « رفع الشبهات عن المشتبهات » قد أشبه من وصف الإمام علي رضي الله عنه وعنّى بقوله « يقول أقف عن الشبهات وهو فيها وقع ، ويقول اعتزل البدع وبينها اضطجع ، لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيصدّ عنه » .

إن سيدي الشيخ ، يعتبر جعل اللحية قبضة لاتزيد ولاتنقص ، كأنه من الأمور الهامة الحيوية للاسلام ، ومن أركان الدين وعمده ، ولهذا أخبرنا عن أن مايفعله متخنثة الرجال ، من الأخذ منها وهي دون القبضة أمر لم يبيحه أحداً ومعنى المخنث المسترخي المتشني . إذن أمسى المسلمون كلهم ، في نظر الشيخ ، مسترخين متشنيين مخالفين للدين .

إنه يحكم أيضاً بكره لبس المسلمين الطربوش بلا عمامة يتقنعون بها ويتحنّكون ، إذن أضحى المسلمون كلهم في نظر الشيخ مرتكبون ماكرهه الدين .

ماهذه الأخبار التي تتحفنا فيها في هذا الزمان ياسيدي ؟ إنك مفرط في وضع القيود ؟ ألا ينبغي للمسلم أن يكون حراً على الأقل في مقدار لحيته ؟

واحسرتاه! أهذه هي التعاليم التي ننتظرها من الشيوخ لتعم الاسلام وتمشي بهم الى الأمام ؟

حفش الثياب، لا يلبس بين الناس، ولبسه كفران لنعم الله

ثم يكلفنا سيدي الشيخ ، أن نلبس حفش الثياب أي رزالتها وباليها ، متى خرجنا من بيوتنا ، كأن الشيخ نسي الحديث الشريف « إِذَا أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَاهَا

« عَلَيْهِ » ، والحديث الشريف « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ إِذَا خَرَجَ لِإِخْوَانِهِ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ وَيَتَجَمَّلَ »
 والحديث الشريف « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَالتَّجَمُّلَ . وَيُبْغِضُ الْبُؤْسَ وَالتَّبَاؤُسَ » والحديث
 الشريف « إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ فَظَهَرَتْ عَلَيْهِ . سُمِّيَ حَبِيبَ اللَّهِ مُحَدَّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَإِذَا
 أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ بِنِعْمَةٍ فَلَمْ تَظْهَرْ عَلَيْهِ سُمِّيَ بَغِيضَ اللَّهِ مُكَذِّبًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ » . وقد قال تعالى :
 ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

فلماذا تكلف المرأة أن تكون بغیضة الله ، مكذبة بنعمة الله . هذا فضيلاً عما يدعو اليه
 لبسها حفش الثياب من الريبة ؟

لا ينبغي لك ، ياسيدي الشيخ ، أن تجعل همك إلباس النساء حفش الثياب وباليها . ولكن
 اجعل همك ، تقوية نفوسهن ، وإلباسهن أين كن ، ثوب الحياء الأروع ، فكل لباس غيره
 لا ينفع ،

« إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مِنْ لَاحِيَاءِ لَهُ وَلَا أَمَانَةَ وَسَطِ الْقَوْمِ عَرِيَانَا »

وهنا لابد لي أن أذكر ، نكتة من اختلاف المشايخ بزينة النساء إذ خرجن من بيوتهن :
 لقد سمعنا قول الشيخ محمد رحيم ، ولنسمع قول الشيخ عبد القادر المغربي في خطابه
 « محمد والمرأة » قال : « يعجب النبي أن لاتهجر المرأة زينتها . قالت أم سنان : بايعت النبي ،
 فنظر الى يدي وليس فيها أثر للخضاب فقال : « ما على إحداكن أن تغيّر أظفارها وتعصب يدها
 ولو بسير » ، فهو يحضها على الخضاب ، وأن يكون في معصمها سوار ولو سيراً من جلد » .
 مسكينة المرأة ، إنها حائرة بين أقوال المشايخ . إذن عليها أن ترجع الى كتاب الله وسنة
 رسوله ، وتعتقلهما بنفسها .

المسلم حرفي لباس رأسه

ولبس المظلات أو البرانيط، خير من لبس القلانيس المتركّة أو الطرابيش

وإنك ياسيدي الشيخ تقاوم لبس البرنيطة ، وماهي إلا مظلة . وقد سئل الرضا رضي الله
 عنه ، عن رجل يلبس البرطلة ، فقال : « قد كان أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ،
 يلبس مظلة يستظل بها من الشمس » .

ولو تأملت في سير السلف ، لرأيت أن آل البيت ، كانوا يلبسون مايشاؤون ممّا

يستحسنون ، قائلين « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ » . إن أحق الناس بأحسن اللباس : الأبرار لا الفجار ، والمؤمنون لا المنافقون ، والمسلمون لا الكفار . ويوسف نبي ابن نبي . وقد كان يلبس أقبية الديباج ، مزرورة بالذهب ، ويجلس في مجالس آل فرعون البس وتجمل ، إن الله جميل يحب الجمال » .

فكيف تلوم المسلم ياسيدي ، إذ استحسن مظلة فلبسها يستظل بها من الشمس ، وقد لبس مثلها أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه .

لبس المسلمون الطرابيش ، وماهي إلا قلانس يونانية الوضع ، تركها الأتراك بما غيروا فيها ، حتى صارت الى حالتها الحاضرة ، وهي جامد : على حال واحد صيفاً وشتاء ، لا تتغير ، إنهم في هذا الشرق ، جعلوا كل ملبس للانسان ، يتغير بحسب الفصول ، والحر والقر ، إلا ملبس الرأس ، فإنهم جعلوه جامداً ، وكأنهم أجمدوه ، لأنه لبس مواطن العقول التي أرادوا وأسفاه! أن يجمدوها .

وإننا لنرى المسلمين في الصيف ، يرفعون الطرابيش عن رؤوسهم ، إذ لا ظلال لها ولا تقي الحر ، بل تزيده شدة ، وتنتج ضرراً لاسلامة ، فهي على رؤوسهم نقمة لانعمة ، حر الشمس أهون منها . إن هذه القلانس المتركة ، خالية من الحكمة ، بقدر ماتحتوي المظلات منها .

ومع هذا فإنني ، أيها السادة والسيدات ، لست مبشرة بلبس المظلات أو غيرها . وإنما أنا مبشرة وداعية مع من بشر بالحرية على أنواعها ودعى اليها ، إنني أرى الحرية روح النهضة في الأمة الإسلامية ، وأعدّها ركن الرقي والسعادة في الهيئة الاجتماعية . إنني أريدها محيطة بالعالم حلقات من نور ، مرتبطة بعضها ببعض الآخر ، لا ينقص منها حلقة ، وبعد أن يقبل هذا المبدأ ، فمن أراد المظلة فليلبسها ، ومن أراد الطربوش ، أو القاووق ، أو اللبادة ، أو القالباق ، أو الكوفية والعقال ، أو القلنسوة فليلبس ، إنه حرّ في نفسه ، وله أن يتخذ ملبساً لرأسه ما يراه نافعاً لائقاً ، وليجلّ الدين عن أن يتخذ شكل الملابس ، وسيلة للطعن في إيمان اللابس . لو كان الطربوش لباس المسلم ، لما لبس الأرناؤوط اللبادة ، والجركس القالباق ، والعرب الكوفية والعقال ، وكل قوم من الإسلام شكلاً ؟

أجل ، وإنني لأعيد كلامي : إن لبس المظلة أو غيرها لايهمني . إنما تهمني الحرية ، وأعدّ التسليم بلبس المظلة ، من الأدلة الظاهرة فينا عليها ، وعلى انطلاق عقل المسلم من عقاله ، وتحرّره من قيوده وأغلاله ، وعلى أننا شرعنا ننظر الى الباب دون القشور .

قال الله تعالى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وما قلت فيما قلت القلنسوة ، إلا لأنها كانت أيضاً من ملابس آل البيت ، والسلف الصالح رضوان الله عليهم . وعن أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه ، قال في الصفحة الـ ٣١٤ من كتاب (الوسائل) كان رسول الله يلبس القلانس اليمينية ، وفي الحرب ذات الأذنين .

أجل ، إنه صلى الله عليه وسلم ، كان يلبس في الحرب من القلانس ذات الأذنين لتقيه الحر ، وقد كان يغير ملبس رأسه الشريف تبعاً للحر والقر .

سادتي المشايخ ، إنكم تقاومون لبس المظلات بعلّة أنها تمنع تمييز المسلمين من غيرهم ، ولاتقاومون الطرابيش أو القلانس المتركة ، وقد منعت فعلاً تمييز المسلمين عن غيرهم ، كيف تقاومون المظلات والقلانس ذات الأذنين ، وهي في الأصل من وضعنا ، وقد لبس منها نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولبس منها أئمتنا ، ولاتقاومون القلانس المتركة ، وقد رآها صلى الله عليه وسلم بنور النبوة قبل أن تظهر ، ورأى أن فيها شراً عظيماً ، فقال صلى الله عليه وسلم - كما جاء في الصفحة الـ ٣١٥ ، من كتاب وسائل الشيعة في أحكام الشريعة - « إذا ظَهَرَتِ الْقَلَانِسُ الْمَتْرَكَةُ ظَهَرَ الْفُجُورُ » ؟

كيف تقاومون المظلات ، مع أن فوائدها الصحية كثيرة ولاضرر منها ، ولاتقاومون الطرابيش أو القلانس المتركة ، وأضرارها الصحية أكثر من فوائدها ، فضلاً عن تشاؤم النبي صلى الله عليه وسلم منها ؟ .

أو ليس العناية بالصحة ، من أول الواجبات الشخصية في الإسلام ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نَفْسُكَ مَطِيئَتُكَ فَأَرْفِقْ بِهَا)

وقال صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا) وقال صلى الله عليه وسلم : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ) . وقوة المؤمن الجسدية ، إنما تنشأ عن مراعاة قوانين الصحة ، التي أرشد اليها العقل ، وحضّ عليها الشرع ، واليكم قرار الجمعية الطبية المصرية بشأن البرنيطة والطربوش ، أنقله حرفياً عن المقتطف ، راغبة لأمتي كلّ ما فيه الخير ، فخير الاسلام من نفع الاسلام وحرّهم ، لامن ماكرهم ، وخيرهم من مشى بهم الى الأمام ، لا من أثقل عليهم عبء التقاليد وأخرهم . وهذا هو قرار الجمعية :

حضرة صاحب السعادة وكيل جمعية الرابطة الشرقية :

بناءً على ما جاء بمذكرة جمعيتكم الموقرة المؤرخة في ١٨ مايو سنة ١٩٢٦ بشأن استفتاء الجمعية الطبية المصرية في الملابس الصحية ، أتشرف بأن أبلغ سعادتكم قرار الجمعية الطبية الآتي :

هل الطربوش المنسوج من الصوف في شكله المعروف ولونه الأحمر واقٍ للرأس ممّا يجمع من الحواس حتى مؤخر العنق ؟ وإن كان ذلك ، فما هو الأصلح للاستعمال بدلاً منه ، ومن أيّ مادة يكون حبكه ونسجه ، وعلى أي صورة يكون شكله ؟
والجمعية الطبية ردّاً على هذا السؤال قرّرت ما يأتي :

غطاء الرأس يجب أن يكون خفيفاً كثير المسام لتجديد الهواء وتسهيل التبخير ، ومانعاً لحرارة الجو الخارجية في الصيف ، وحافظاً لحرارة الرأس في الشتاء ، ويجب أن تكون حافته السفلى واسعة وبحالة يمكن دخول الهواء منها بسهولة ، مع ملاحظة امتداد زائدتين ، واحدة من الأمام لوقاية العينين وحمايتهما ، والثانية من الخلف لوقاية مؤخرة الرأس .

ومن الضرر الجسيم وضع شيء من قماش سميك خالٍ من المسام على الرأس مثل الحرام الصوف أو مايمائله ، والطربوش الحالي بسبب نوع قماشه وشكله ولونه وخلوّه من المسام وثقله ، يدفئ الرأس أكثر من اللازم في الصيف ، ويسبّب فيه عرقاً غزيراً أو مضايقةً وصداعاً ، فهو بلا نزاع من الوجهة الصحية ضار بالعينين والرأس .

والجمعية ترى أنّ أفضل لباس للرأس يوافق جو مصر في زمن الصيف القلنسوة ، أي البرنيطة البيضاء المصنوعة من الفلين والتي بها ثقوب كافية للتهوية في أعلاها وبدائرتها السفلى شريط من الجلد مثبت فيها بقطع من الفلين بينها منافذ كافية لدخول الهواء .

وأما في الشتاء ، فالطربوش أقل ضرراً منه في الصيف إذ كان لابدّ من استعماله وإلا فالتقيّة أصلح منه في الشتاء أيضاً ، فإنّ اختلاف قماشها وألوانها وأشكالها ، يسهّل علينا اختيار الموافق منها صحياً لاختلاف الطقس .

إنكم ترون ياسادتي ، أن الجمعية الطبية المصرية ، رأت أن القلانس المتركة ، أو الطرابيش غير صالحة ، ورأت مثل مارأي نبينا صلى الله عليه وسلّم فقالت ، ويجب أن يكون لغطاء الرأس زائدتان ، واحدة من الأمام لوقاية العينين وحمايتهما ، والثانية من الخلف لوقاية مؤخرة الرأس . وما تلك الزائدتان ، إلا أذنان كما في القلنسوة اليمنية التي لبسها صلى الله عليه وسلّم في الحرب .

كفّر المسلمون مدّة ، من شرعوا يلبسون البانطلون ، حتى عمّ لبسه ، فلبسوه أيضاً ، وصار في نظرهم حلالاً مقبولاً ، وهكذا يكاد يحصل في لبس المظلة ، يكفّر الآن من شرعوا يلبسونها ، ولايمضي زمان غير طويل ، حتى يعمّ لبسها فيلبسها المكفّرون أيضاً ، وتصير في نظر الكل حلالاً مقبولاً ، ذلك لأنها للرأس أصلح ملابس .

والفضل لمن يقتحم في أول الأمر ، هول تكفير الجهلة ، وانتقاد العامة ، الى أن يبلغ من الحرية أوجاً عالياً ، حيث يرسل منها اليهم نوراً ساطعاً ، يرون به لدى تحكيم العقل حكمة الله في خلقه ، وفي شرعه فتبطل الأباطيل ويسود الحق ، ولا تسود في الدين والدنيا إلا الحقائق .

كلام ملك من الاسلام وملكة

إن أمر رفع الحجاب ولبس المظلة ، لم يعم في هذا الزمان الأتراك المسلمين فحسب ، بل أخذ يعم جميع المسلمين في الشرق والغرب . وليس أبطأ منا في الخطو نحو الحرية . وهذه جريدة الصحافي التائه ، ذكرت في عددها المؤرخ في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٢٨ ما يأتي : « كان لا يزال في العالم نساء محجبات أكثر من نساء سوريا وهن نساء يوغسلافيا المسلمات ، فإنهن كنّ يحتجبن حتى أواخر الشهر الغابر تحجباً تاماً عن الرجال . وفجأة نفضت مسلمات يوغسلافيا في أواخر هذا الشهر غبار الخمول والعادات ، وتآمرن على التحجب ، وفي ١٠ الجاري ، خرجن جماعات جماعات الى الشوارع سافرات يرتدين الألبسة الأوربية » .

وتلك مجلة المقتطف ، نقلت إلينا في عدد تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ مقالة ضافية للكندي ، يبحث فيها عن النهضة الشرقية في بلاده الأفغان ، وبعد أن انحنى باللائمة على الحرب القلمية ، القائمة في مصر بين القبعة ، والطربوش ، والعمّة ، وبين الحجاب والسفور . حاسباً أن ذلك يدل على أن مصر مازالت في ظلمة وتتغنى بالنور . قال : « وأما أخلاق الأمة الأفغانية فقد غلب عليها بعد الانقلاب الأخير الرصانة والسكون ، وتلمس أبواب الرقي ، بصمت وثبات ، وقد لبسوا جلهم القبعات الأوربية ، ولم يقل أحدهم أن هذا يخالف الدين ، وأباحوا السفور لمن شاء ، والتحجب لمن شاء ، فاختار هذا فريق ، واختار ذاك آخرون » .

وذكرت جريدة العهد الجديد في عددها الـ ٣٧٤ بتاريخ ١٣ كانون الأول سنة ١٩٢٧ أن جلالة ملكة الأفغان ، ترتدي الفساتين العادية ، وتلبس في رأسها القبعة الافرنجية . ثم رأيناها ومعها أختا الملك سافرات مصورات مع جلالته بالقبعة الافرنجية في الجرائد المصورة . ولما زار أخيراً مصر ، صاحبها جلالة ملك الأفغان أمان الله وملكته ثريا ، أثناء سياحتهما الأخيرة الى أوربا ، وكلّ منهما مرتدّ الألبسة الافرنجية والقبعة . ذكرت جريدة الكشاف ، خطاب جلالة الملك حين خطب في الاسلام ، وكلام الملوك ملوك الكلام . قال : « لاحظت أن هنا - في مصر -

يتعلق الكثيرون من أفراد الشعب بالطربوش ، وهذا بناءً على ما يقال من أن الطربوش هو شعار الاسلام ، فلابسه مسلم ، وأما لابس البرنيطة فهو بالعكس .

إنني أعتقد أن هذا خطأ ، وهي دعاية يقوم بها الخصوم ، ولا يخلو الأمر من أن هذا مصدره بعض من يريدون أن يستبدوا بالشعب . أو مصدره الأجانب ، الذين يريدون التفرقة بين صفوف الأمة . ولماذا هذه الدعاية ؟ الجواب إنها تفيد ، أن المسلم ، ولو ذهب منه كل شيء ، معتقداً أنه مسلم ، وإنه محتفظ بهذا الشعار . والملابس الوطنية الواسعة الطويلة ، تدعو الأجنبي الى أن ينظر الى لابسها نظرة احتقار ، وقد كانت هذه الحال نفسها في الأفغان ، وقد منحت شعبي الحرية التامة ليلبس كل ما يريد ، ولكن يجب أن نلاحظ ، أن هذه الإباحة ، لاتمس مبادئ الاسلام . إن دين الاسلام ومبادئه ، تنحصر في الحرية والرخاء ، والعدالة والاجتهاد والعمل ، والقول بالتوحيد ، واحترام النبي ، والأخذ بالفرائض ، أما ما عدا هذا ، فلمسلم أن يختار من الملابس وغيرها ما شاء .

وذكرت الجريدة المذكورة ، حديث مندوبها مع جلالة الملكة حيث قال : «وهنا أقبلت جلالة الملكة وشقيقتا الملك فانحنينا لهنّ ، واستأذنا الملك في أخذ صورته معهنّ ، فأذن مرة أخرى ، وبعد أخذ الصورة ، التفتت اليّ جلالة الملكة وقالت : «أستنشرون هذه الصورة في جريدتكم» فقلت : «وهل عند جلالة الملكة مانع من نشرها ؟» فقالت : كلا . وابتسمت جلالته ، ثم قالت : «وهل تعتقدون أن الدين قوامه القالباق والطربوش والقبعة ؟ إنني أؤكد لكم أنني محتفظة بشعائر ديني ، ونصوصه ، ومبادئه ، رغم قبعتي . لقد كان جدّي مؤذناً في دمشق ، أمّا والدي فها هو أمامكم ، والإثنان قد غرسا في قلبي حبّ الدين واحترامه ، فمن الحرام إذن ، أن يقال بعد ذلك ، أننا بقبعتنا ننبد الدين الذي نفتخر به» الى أن قالت : «وقد رغبت في أن أصحب زوجي في هذه الرحلة العلمية ، لفائدة المملكة الأفغانية ، لأنّي أعتقد ، أن مامن شعب ينهض نهضة جدية ، مالم يشمل الإصلاح رجاله ونساءه معاً» .

ونشرت الجرائد بعدئذ ، كيفية استقبال الملك والملكة في أوروبا ، فقد استقبلت جلالته وجلالته رسمياً ، وترأست هي في حضرة زوجها الموائد والحفلات الرسمية ، وأمامها رؤساء الحكومات والوزراء والأعيان وأركان الدولة . وأتتنا الجرائد الأوربية مزيّنة بصورة جلالته وجلالة الملك وأخواته .

أيها السادة والسيدات :

سمعتم ما قاله الملك المسلم ، وما قالته الملكة المسلمة ، فليحا ذلك الملك ، ولتحيا تلك الملكة ، إنهما خير قدوة للاسلام .

إنّ الله أعطانا العقل لنعقل الأمور ، فليبرز معارضو لبس المظلة ، والإشتراك في الملبس ، دليلاً واحداً ، عقلياً أو نقلياً ، يؤيد اعتراضهم ، أو ليظهروا رجحان الطربوش على المظلة ، بوجه من الوجوه ، وإلا فليسكتوا عما لم ينزل الله به من سلطان ، ولا يقبله عقل الانسان ، وليلزموا حدّهم من الحرية ، لا يتعدّون الحد من حرية غيرهم ، إذا أرادوا هم أن يرجّحوا الطالح على الصالح ، فليس لهم أن يجبروا غيرهم على ذلك ، وليس لهم أن يسندوا ذلك الترجيح الى الدين ، وقد جلّ عن ذلك وعلا علواً كبيراً .

إنّ القلنسوة أو المظلة ، وماشئت سمّتها ، وسمّتها إن شئت أنورية كما سمّاها الأتراك في زمان استعمالهم الرياء خوف المكر من علماء السوء ، فالاسم لاعبرة له ، ومهما تعدّدت الأسماء فالمعنى واحد .

إنّ القلنسوة أو المظلة التي لها أذنان ، أو زائدتان ، أو رفرف لخير من القلانيس المتركة ، إن تلك تقي الحرّ ، وهذه تزيد شدة .

إنّ الرداء في زمن علي رضي الله عنه ، كان من اليدين الى الشديين ، ومن جهة الظهر حتّى الإليتين ، أمّا الاسلام ، فجعلوه بسبب ترقّي الصنعة ، والسعة في الدنيا ، جبة طويلة ، عريضة ، واسعة ، سابعة ، تستر الجسم كلّه ، وتقيه الحرّ والقرّ ، ثمّ رأوا أنّ الجبب والسراويل والعباءات الواسعة الضافية ، تغلّ حركات الإنسان في أعماله وتوجب ارتبাকে فيها ، فأبدلوا منها (البانطالونات) و (الجاكتات) . وإنّ الملاة في الأصل ، ثوب يلبس على الفخذين ، وهي من ملبس الرجال ، جمعها ملاء بالضم والمد ، ومنه قوله فلان لبس العباء ، وترك الملاة ، ومنه ، جلّهم بملاءة . ثمّ خلّعها الرجال على النساء ، فحافظ على شكلها قسم من النساء في القرى ، ويسمّينها سايه ذلك اسمها في التركية عن أصل فارسي ، وتصرف بها أخريات في المدن ، حتّى صارت الى ماصارت اليه ، تارة موسّعة ومطوّلة ، وتارة مقصّرة ومضيّقة . وماخالفوا بتغيير شكل الملبس ، توسيعاً وتضييقاً ، أحكام الدين . هكذا القلنسوة اليمنية ، التي لبسها نبيّنا صلى الله عليه وسلّم ، ولها أذنان وهكذا المظلة التي لبسها أبو عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه . فلا يجوز أن يحرم على المسلمين لبس مثلهما ، استظلالاً من الشمس ، وإتقاء من الحرّ ، إذا حدث في شكليهما بسبب ترقّي الصنعة عند الغربيين ، وتبدّل الزمان تعديل ما .

إنّ القلانيس اليمنية أيها السادة ، معروفة ، وقد استحضر منها المأمورون العثمانيون ورأيانها ، وماهي إلا مظلات من القش ، مصنوعة في صنع وشكل ، لا يفوقها صنع مظلات القش الأوربية ، من جهتي الإتقان والفائدة ، ويعتقد بعض الباحثين المحقّقين ، أن الأوربيين وغيرهم ،

أخذوا صنعة قلانس القش عن اليمنيين ، وتفتنوا فيها ، أيجوز ياسادتي أن يحرم المسلمون ما هو في الأصل لهم ، لتفتن الغربيين فيه ، وما كانوا لنا في ذلك إلا تابعين ؟

لِمَ يروّع سيدي الشيخ ، أن يلبس المسلم علي رأسه مظلة تقويه الحر ؟ ولم يمنع أن يشترك والعالم الراقي ، في الملبس ، قصد الخير في الدنيا ؟ ولم يقول أن ذلك شعار الأمم الضعيفة والأنفس الذليلة ؟ ألا يرى أن أرقى طبقة في اسلام هذا الزمان ، هي الطبقة التي علّمها الغربيون لابسو المظلات ، وهذبتها مخالطتهم ؟ أيعتقد أنه وأمثاله ، يمكنهم أن يباروا اليوم تلميذاً أو تلميذة عند أولئك ، في علوم الدنيا ، من جغرافيا وتاريخ ، وفلك وطبيعيّات ، ورياضيات ، وغير ذلك من العلوم ؟

« الغرب قد أخذ الباب لنفسه والشرق لاه أهله بقشور »

أيجوز لنا بعد ، مثل هذا الغرور الأعمى ؟ أيجوز لنا بعد ، الترفع عن الإشتراك في الملبس وأقواماً ملأوا الدنيا إحساناً ، وعلماً ، وفضلاً ، ورقياً وكمالاً ؟ فبدلاً من أن تقعدنا ياسيدي الشيخ عن الرقي ، بمنع التشبه بهم ، على سبيل المشاركة في نعم الله ، شوق اليه ورغب فيه ، شوق الى مباراتهم ، ورغب في سباقهم ، عسى أن نفوز بسبقهم ، فيضطروا الى الأخذ عنا فيما بعد ، كما كان الأمر من قبل .

إن الدين أسمى من أن يرضى عن شخص لطربوش ، وليس فيه إلا الضرر ، أو يسخط على آخر لمظلة ، وهي لتقيه الحر .

لاتبحث عن الدين ياسيدي في مثل هذه الأمور ، بل ابحث إن شئت عن العادة آفة الشرق ، وآفة العقل ، وآفة الدين ، تلك التي جعلت الشرقيين ، يهتمون دائماً للملابس والظواهر ، ولا يعبأون لمكنونات القلوب والسرائر ، تلك التي عودتهم ، أن يقيّدوا الحركات الجسدية ، ويهملوا التربية الروحية ، ناسين أن الروح جوهر ، والجسد عرض ، وأن الأمر بيد الروح ، لا بيد الجسد ، تلك التي شدّ ماهتم الدين ليغلب فاسدها ، ويزهق باطلها ، فغلبناها نحن على الدين ، وبالأأسف ، في كثير من أمورنا الحيوية ، فوهت كما ترون أسبابنا الإجتماعية ، ولكن يأبى الله ، إلا أن يتم نوره ، فلا بدّ للمسلمين من يوم نسمعهم فيه ، مرددين قوله تعالى ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ .

فيجب علينا فيما يجب أن نفهم من كتاب الله ، أن المظلات نعمة أخرجها الله للمسلمين بالأصالة ، وجعل غيرهم تابعاً لهم فيها ، ولئن كانت اليوم ، على رؤوس غيرهم (فإن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها) .

فلا تبحث عن الدين ياسيدي الشيخ لتقييد الحرية ، ووضع الأغلال في مثل هذه الأحوال ، ولا تكن ممن يقولون على الله مالا يعلمون .

إنّ هذه الشؤون ليست إلا دنيوية محضة ، ولكل أن يختار منها ما شاء ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مصدر النور واليسر والحرية ، ومنبع السعادتين الدنيوية والأخروية : (أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ) .

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالناس أعلم بشؤون دنياهم ، ذلك لأنّ شؤونهم الدنيوية تتغير مع الزمان . فلم يجز الشارع من لا تتغير أحكامهم وعاداتهم وملابسهم تبعاً لتغير شؤونهم ، وما جعل الله لهم العقل شرعاً من داخل . كما جعل الشرع عقلاً من خارج ، إلا لمثل هذه الحكمة . تبارك الله العليم الحكيم .

٥

معارضة الشيخ مصطفى الغلاييني

التناقض في أقواله، للمرأة وعليها، ونظرة في تناقض أقواله

جاء في كتاب (الإسلام روح المدنية ، أو الدين الاسلامي واللورد كرومر) وهو كتاب مطبوع في ٢٣ حزيران سنة ١٩٠٨ لمؤلفه الشيخ مصطفى الغلاييني في الصفحة الـ ٢١٥ مانصه :
«لما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، ورأى حالة المرأة ، وما هي فيه من الذل والهوان ، رقق لها إحساسه الشريف . وعواطفه الرقيقة ، فسعى لتحريرها من قيود العبودية المطلقة ، وأغلال الإضطهاد ، الى أن صارت المرأة ربة المنزل وسيدته ، بما منحها من الحقوق التي جعلتها مساوية للرجل في كلّ شيء ، إلا السيطرة والسلطان المقيدين» .
وفي الصفحة الـ ٢٧٥ «ومما يأمر به الدين نحو المرأة مساواتها بالرجل في جميع الحقوق المدنية والأخروية» وفي الصفحة الـ ٢١٨ « أن الشريعة الإسلامية أوجبت حقوقاً للجنس اللطيف لاتعادلها فيها شريعة سماوية أو وضعية ، خصوصاً في أمر الزوجات ، فقد عظمت شأنهن كثيراً» وفي الصفحة الـ ٢٧٣ «ولانظن أن شريعة من الشرائع طالبت بوجوب تعليم المرأة ، كما طالبت الشريعة الإسلامية ، فلذا نبغ في كلّ عصر من عصور التمدن الاسلامي

نساء كنّ غرة في جبين الدهر ، وشمساً مشرقة في سماء العصر الذي وجدن فيه ، فقد كان منهنّ الفقيهات ، والمحدثات ، والأديبات ، والشاعرات ، والنائرات ، والخطيبات ، والمدرسات ، إلخ... وقد أجاز علماء الحنفية أن تكون المرأة قاضية تفصل بين الخصوم من رجال ونساء ، ونظن أن هذا الحق لم تمنحه أوروبا للمرأة الغربية على شدة تمسّكها بمساواتها بالرجل» وفي الصفحة الـ ٢١٦ «نعم إن المرأة المسلمة اليوم متأخرة عن سواها في العلوم والحضارة ، ولكن ذلك من جهل الرجل واستبداده وعدم إطلاعه على ماسنته لها الشريعة المطهرة من الحقوق ، فالذنب في ذلك راجع اليه لا إلى دينه» . وفي الصفحة الـ ٢٥٨ «أن الحجاب الحاضر ممّا ينهي عنه الشرع الإسلامي لأنه يغزر الاغرار ويستميل الأشرار» وفي الصفحة الـ ٢٥٩ «أن مانشاً بعد الصدر الأول من ستر الوجه واليدين فليس ممّا تأمر الشريعة ، وإن من التحجّب المطلق ، الذي هو غير شرعي ، ضرراً لا ينكر» .

ومع هذه التصريحات الجليّة ، بما خول شرع الله المرأة من الحقوق . مساويةً فيها الرجل ، استدرك الشيخ المشار اليه في كتابه المذكور فقال :

«إنّ اجتماع حرّية المرأة واستقلالها مع احترامها وتعظيمها أمر غير ممكن... لأنها باستقلالها تعتدي على مركز الرجل وحرّيته ، وهو في هذه الحالة يأنف من ذلك ، فيضطرب لاحتقارها أو عدم احترامها ، لأنه أقوى منها جسماً ، وأوسع عقلاً ، وعليه فالمرأة في طور الخنوع للرجل أنعم بالأ وأرفه عيشاً وأسمى مقاماً ، فإن أراد الجنس اللطيف أن يكون محتقراً ، فليطالب بالحرية والإستقلال ، فيرجع الى حالته كما كان في طور الهمجية . إن الرجل بالطبع يأبى أن يكون تحت سيطرة المرأة ، فلا هي تسكن اليه ، ولا هو يسكن اليها ، فيتولّد بينهما النفور . فلا يمكن التآلف والتزاوج ، فلا يكون نظام ، فلا يوجد إنسان ، فلا ينشأ عمران ، فعلى الدنيا السلام»!!

وقال مستشهداً بقول غيره : «مادامت المرأة تضيّع ثلاثة أرباع الوقت إن لم أقل تسعة أعشاره في اللبس والزينة ، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن الأمرين ، فهي لايمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجل . ولو وكلّ أمر تدبير هذا الكون الى النساء ، فقط ، لكان اليوم قفراً هذا إن بقي»!! .

الى أن قال ناظماً :

«وجهلته فابحث عن النسوان»

منهنّ مصدره على الإنسان»!!

«إن حادث يوماً أهمّك شأنه

«إنّي رأيت الشرّ إلا قلّه

والى أن قال :

« لو كانت أخلاق أهل الحضر ، كأخلاق أهل القرى ، وأعراب البادية ، لكان لنا أن نطالب برفع الحجاب غير الشرعي ، غير أننا مع هذا الحجاب الغليظ لانأمن مما هو مخالف للدين والآداب فكيف لو ... أهل القرى والبادية لا يحبّون نساءهم ، لأنهم لاضرورة تدعوهم الى ذلك ، لصحة آدابهم ، وسلامة أخلاقهم ، فهل أهل الحضر والمدينة ، وشبان العصر ، وكهولهم ، وشيوخهم ، وشاباتهم ، وسائر نساءهم ، مثل من ذكرنا ؟ كلا ، إن أكثر من يطالب برفع الحجاب واختلاط الجنسين يتوهّمون امرأة كاملة ، في وسط كامل ، عار من النقائص . وإنما هي امرأة جاهلة ، في محيط فاسد » !! .

وكأنني بسيدي الشيخ أمام اللورد كرومر فارس علم ، يجول بمرهف انقلم ، في ميدان الدفاع عن الدين الإسلامي ، وشرع الله السامي ، جولات ينصر بها الحق على مشهد الأمم ، فتستوجب له الشكر والثناء من كلّ فم . ولكن لا يلبث أن تثنيه العادة وتلفته ، والعادة آفة الشرق وبليته ، فينشني ويلتفت الى المرأة مستدرّكاً فيقول : لا يغرنك أيتها المرأة دفاعي قدّام الناس عن الدين . فلم أقل ماقلت إلا ردّاً لهجمات الآخرين ، أولئك الذين يسندون الى الدين الاسلامي ظلم النساء ، ومنع الإرتقاء . أما نحن وإياك فعلى مانحن عليه . إنّ تحجيبك ليس من شرع الله ، ولكن سوء أخلاق الرجال عندنا ، في محيطنا الفاسد ، يمنعنا أن نعاملك بمقتضى شرع الله .

إنّ ذلك الشرع الشريف قد منحك حق الحرية والاستقلال وحق المساواة بالرجال . ولكن سوء أخلاقك يمنعنا أن نعمل بذلك الشرع الشريف .

فإياك أن تكشفني وجهك ، وأن تطالبي بحق لك . بل الزمي ما عشت الذل والهوان والخضوع الأعمى للرجل ، وإلا فإننا نحن الرجال الأقوياء نزيد في ظلمك ، وقهرك ، واضطهادك ، ونرجعك الى الحالة التي كنت عليها في طور الهمجية .

ويظهر أن سيدي الشيخ ، واثق من تعاون الإخوان ، ذوي السيطرة والسلطان ، على العدوان ، وإعادة المسلمات الى حالتهم في الجاهلية ، إذا طلبن حقوقهن الشرعية . أما المسلمات فيأملن من سادتهن الرجال . أن لا يتعاونوا على العدوان عليهن ، بل يتبعوا قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ .

وهل العدوان على الأم يأسادتي ، يوافق أمر الله تعالى . بخفض جناح الذل لها ، وببرها والإحسان إليها ؟

لا محل للوعيد والتهديد، والفرق بين الشرقي والغربي

ياسيدي الشيخ :

مهلاً ياسيدي الشيخ ، لامحل للوعيد والتهديد ، ولامحل للخوف من حرية المرأة واستقلالها . إن المرأة المسلمة لم تفرّق حالتها اليوم ، في نظر فريق من رجال الزمان ، عن الحالة التي كانت عليها في طور الهمجية ، إلا بكونها مصونة من أن تؤدّ ذبحاً ، أو رمياً من محل عال ، أو دساً في التراب ، وهي عذراء ، لم تفرّق حالتها اليوم إلا بكونها مصونة من أن يحكم زوجها عليها بالموت وهي زوجه إن شاء ، لم تفرّق حالتها اليوم إلا بكونها مصونة من أن تورث وتورث ، كما تورث وتورث الأموال والبهائم ، وهي أرملة ، ومصونة من أن تباع كالسلع والبهائم في حالاتها الثلاث . ولكن يحول اليوم دون الرجال وهذه الأفعال المتناهية في الهمجية مانعان ، القرآن لمن له دين وإيمان ، والقانون لكل إنسان ، فضربة كف من الرجل ، مما يكفي لإلقائه في السجون ، أما الواد أو القتل ، فعقابه الأشد قد شاهدت بعضه العيون .

قال الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ مِنْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ . وقال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حِكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ .

فياسيدي ، بما أن الله ورسوله قضيا ، كما ذكرت ، كشف وجوه المسلمات وحكما به ، لم يبق لنا الخيرة ، من هذا الأمر . وإذا عصينا الله ورسوله ورجعنا الى حكم الجاهلية ، فقد ضللنا ضلالاً مبيناً .

ياسيدي الشيخ ، إن معاملة الرجل المرأة اليوم ، هي من ظلمه الدرجة القصوى التي يتمكن من الوصول اليها . وحسبنا من معاملته الظالمة أنه حرّمها بالحجاب - خلافاً لشرع الله - أن تتمتع بالنور والهواء ، وتستعمل قوى عقلها وحواسها ، إنها لاتزال في نظره - كما قال السيد جميل بيهم في محاضراته التي ألقاها أخيراً في المجمع العلمي الدمشقي عن حالة المرأة في العراق - « إنها لاتزال من قبيل القنية يتزوج بها للخدمة والتناسل ، وإذا ماتت يهنأ الزوج بذلك ويسر ، لأنه يحسب أن الله هياً له بوفاتها فراشاً جديداً ، ولهذا الاعتبار ، أوجبوا عليها أن تستقر أبداً في عقر دارها . فلا تخرج لزيارة ولا تسعى الى متنزه أو لقضاء حاجة ، وترفّع الرجل سيدها عن مصاحبتها في سيارة أو قارب ، ويتحاشى مآكلتها على مائدة واحدة ، ويجتنب محادثتها إلا لحاجة » .

إذن الرجل الذي أعني ، يسؤه موت بهيمة ، أكثر مما يسؤه موت زوجته كأن البهيمة أعزّ عليه من الزوجة . فيالها من عواطف شريفة يفاخر بها الرجل متمسكاً بامتيازها على المرأة عقلاً وديناً .
أتهدد المرأة المسلمة ياسيدي الشيخ ، بحالة فيها ظلم واستبداد ، وامتهان واستعباد ، أكثر مما في هذه الحالة ؟

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « منذ كم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

ياسيدي الشيخ ، إن استبداد الرجال بالنساء ، ولئن يكن دليلاً على قوة في الأبدان ، فهو دليل على ضعف في الأرواح والأذهان .

إن الغربي المجاهد ، وثق بنفسه وبحكمته ، فمنح المرأة حقوقها وحرّيتها وجرى يسابقتها في ميدان الرقي ، لا يخشى منها أن تسبقه أو تتفوق عليه . ولا من نفسه أن تعجز عن حملها . بقوة الفضيلة ، على احترامه ، فكان مافي بلاده من الخير ، نتيجة حكمته وإنعامه .

أما الشرقي الجامد فلم يثق بنفسه وحكمته ، فمنع المرأة حرّيتها وحقوقها لنلا تسابقه فتتفوق عليه ، ولم يأمن من نفسه أن يعجز عن حملها قوة الفضيلة على احترامه . فبدلاً من أن يطلقها فيبذل قواه وتبذل قواها في سباق وجهاد ، لنيل المراد ، قيدها باذلاً قواه في خلق قيود لها من الظلم والاستبداد ، فجرّ ذلك ماجرّ من البلاء على الأمة والبلاد .

ياسيدي الشيخ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ) . وقال عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : (لَا تَفْعَلْ بِالنَّاسِ مَا لَا تُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكَ) . فهل تحجيب النساء وحالتهم التي حكاها السيد جميل بيهم ، من الحالات التي تحبها لنفسك ، وتريد أن يفعلها بك نساؤك لتريدها لهنّ وتفعلها بهنّ ؟ إذا كان لا ، وكنت تكره ذلك لنفسك ، فينبغي لك أن تكرهه لهنّ ليكون لك أفضل الإيمان .

ياسيدي الشيخ ، نرى أنك تتذكر الحمية الجاهلية وتغضب لطلب المرأة المستضعفة ، حقّها ، وتهتدها بالاحتقار والإمتهان والظلم الهمجي ، مستنداً بذلك الى قوة الرجل ، ومدّعياً أن بقاءها على الحالة التي هي عليها من مصالح الأمة . ولكني أرى مصالح الأمة في عكس ماترى ، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم (كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَا يَأْخُذُ ضَعْفُهَا حَقُّهُ مِنْ قَوِيَّهَا وَهُوَ غَيْرُ مُتَّعٍ) ولقوله صلى الله عليه وسلم (إِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَمْ يَجِدْ نَاصِراً غَيْرَ اللَّهِ) ولقوله صلى الله عليه وسلم (خَيْرُ الرِّجَالِ مِنْ أُمَّتِي الَّذِينَ لَا يَتَطَاوُلُونَ عَلَى أَهْلِيهِمْ وَيُخْسِنُونَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَظْلِمُونَهُمْ) ولقوله تعالى « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وإني أتأمل منك ياسيدي ، السكينة لا الحمية الجاهلية . لقوله تعالى ﴿وَإِذَا جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ، حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ. أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .
 وإني مثل كل النساء ، لأخاف منك الإمتهان ياسيدي لقوله صلى الله عليه وسلم
 (مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيْمٌ وَمَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَيْئِيْمٌ) وإني من الذين يعرفون مكارم أخلاقك ،
 وشرف أعراقك .

* * *

لامحل للخوف من حرية المرأة واستقلالها، إنها حقان حقيقان بها

ياسيدي الشيخ :

كما أنه لامحل للوعيد والتهديد ، كذلك لاخوف من حرية المرأة واستقلالها . فإن المرأة لا تفهم من الحرية والاستقلال ما يفهمه سيدي الرجل ، إنه ما يزال يفهم من الحرية والاستقلال ، أن يهضم الإنسان حق أخيه الإنسان ، ويستبد به . أما المرأة التي أثبتت نفسها المرضية ، وعقلها الصالح للهيئة الاجتماعية ، فتفهم من الحرية والاستقلال ، غير ما يفهم سيدي الرجل . هي تفهم أن حرية الإنسان واستقلاله ، محدودان بحرية غيره واستقلاله ، فلا هذا يتعدى حد ذلك ، ولاذاك يتعدى حد هذا ، ولكل حقوق معروفة مقيدة بشرع الله وبقانون البشر ، فلا لب حقوق ، وللإبن حقوق ، وللأم حقوق ، وللأخت حقوق ، وللزوج حقوق ، وللزوجة حقوق ، ولكل واحد في الدنيا حقوق . ولكل دائرة من الحق ، له الحرية والاستقلال فيها ، ولا يجوز له أن يتعداها ، فيدخل دائرة حقوق غيره بدون اذنه . فإذا قلنا أن الولد حرّ مستقل في دائرته ، فلا يعني هذا بطلان حق أبيه ، وقد خوله إياها الشرع والقانون . إن دائرة حرية الولد ، تضيق بقدر ماتتسع دائرة حرية الأب . وهكذا يقاس حال الزوج والزوجة ، وحال الأمر والمأمور ، والرئيس والمرؤوس ، وحال الوالي والرعية ، وحال كل إنسان وإنسان . فالحرية والاستقلال يسودان متى قيّدا بالقانون فكان هو الأمر . ويبطلان متى أطلق فيهما الإنسان بلا رادع ولا زاجر . والمدينة الحاضرة ، والإحترام المتبادل بين الناس ، مستندان الى هذه الأساس ، وهل يتمكن اليوم الرجل الحرّ المستقل ، من غصب حق الرجل الحرّ المستقل ، ومن السيطرة عليه ، ومن استرقاقه ، والاستبداد به ، متجاوزاً الى دائرة حرّيته وحقه ، كما كان يفعل القوي بالضعيف من قبل . لا رادع له ولا زاجر ؟

وهل عدم تمكنه من ذلك نحو أخيه الرجل ، وهل نيل المرأة حرّيتها واستقلالها في العالم

السافر الراقي ، منعاً في ذلك العالم حرّية الرجل واستقلاله ، ومنعاً أن يكون تآلف بين الناس ، وأن يكون نظام ، وأن يوجد إنسان ، وأن ينشأ عمران . ليقال على الدنيا السلام ؟ إن إعطاء النساء حقوقهنّ في تلك الأمم كان أقوى سبب في نهوضها وحرمان النساء في أمتنا حقوقهنّ ، كان أقوى سبب في قعودها عن الرقي . قال الشيخ عبد القادر المغربي في خطابه (محمد والمرأة) : لما عاد المسلمون فسلبوا المرأة حقوقها عادوا فأنحطّوا .

لما كانت المرأة مهضومة الحقوق عند الغربيين أكثر ممّا كانت مهضومة الحقوق عندنا ، لم يكن هضم حقوقها ظاهراً أثره فينا ظهوراً بيّناً ، أمّا الآن ، وقد رأينا ما يقتطف العالم السافر الراقي من الثمار الطيبة بحرّية المرأة ونهضتها ونيلها حقوقها ، فأضحى من الحرام أن تحرم أمتنا النهوض نهضة ذلك العالم .

ولله درّ شاعر القطرين وقد قال :

وقّوا النساء حقوقهنّ ونشّئوا أخلاقهنّ على التقى والباسِ
إنّ النساء إذا أقلن فإنّه بنهوضهنّ نهوض نصف الناس

وقال الكاتب الاجتماعي الكبير جيلسمان : « إن حفظ النوع البشري هو مهمة المرأة يكاد ينحصر فيها . وقد حان الوقت الذي تفهم فيه المرأة مركزها فتحقق أن ظلم القرون المتوالية لم تؤثر فيه إلا قليلاً . إنّ أحسن القرآن ما عقد بين أحسن الأفراد ، وإذا تحرّرت النساء فصرن من العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، سهل التوفيق الاجتماعي بين الفريقين ، وأخذ كلّ منهما نصيبه من الحياة . إنّهن إذا نلن هذه الحرّية وذاك الاستقلال توطّدت الرابطة بينهنّ وبين الرجال . إنّ الأم هي الوسيلة الأولى والأخيرة لحفظ النوع الإنساني وترقيته ، ومادامت كذلك فيجب أن تحل المحل الأرفع من الاهتمام والمقام » .

ياسيدي الشيخ : يجب أن لاننسى أن العدل إن ساد عمر ، والظلم إن ساد دمر .

«العدل يرفع للممالك حائطاً لا الجيش يرفعه ولا الأسطول»

وقال صلى الله عليه وسلّم : « لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدَكَ الْبَاغِي » . فأعد نظرة الى البلدان التي لاتزال فيها المرأة مظلومة ومحجّبة ، وأعد نظرة أخرى الى البلدان التي حرّرت فيها المرأة وسفرت ، تعرف من الثمرات والنتائج الحاصلة أين العدل والبرّ ، وأين الظلم والبغي .

قلت ياسيدي الشيخ ان اجتماع حرية المرأة واستقلالها مع احترامها وتعظيمها غير ممكن ، ولكن ألا ترى ياسيدي أن ذلك أمكن في العالم السافر الراقي بحرية نسائه أي إمكان ؟ ولا يخفى عليك أن فكتوريا ملكة الانكليز حكمت أربعاً وستين سنة بلغ فيها قومها ذروة المجد والسعادة ، وملكات عديدات غيرها حكمن سنين كثيرة بحكمة بالغة وصلاح فائق ، وما قصر أزواجهن ورجال ممالكهن في احترامهن وتعظيمهن . إن في ذلك احتراماً وتعظيماً للحق والقانون . وإن أردت ملكات مسلمات فهن كثيرات ، ذكر الدر المنثور تراجم حياتهن . منهن السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين وقد تملكّت في أواسط الجيل الثامن للهجرة ، وكان يذكرها الخطباء يوم الجمعة على المنابر قائلين : « اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لجميع المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين » ، وكان زوجها جمال الدين وزيراً لها ، وكانت تحكم مايربو على أربعين مليوناً من المسلمين ، وقد طال ملكها ثلاثين سنة كانت فيها مملكته على أحسن ما يكون من الرونق والبهاء ، فكثر فيها الخيرات والأرزاق ، وساد الأمن كلّ أنحائها .

ومنهن الملكة شجرة الدر ، فقد كانت تاسع من تولّى السلطنة بمصر من جماعة بني أيوب . وقع الإتفاق على سلطنتها في ٢ صفر سنة ٦٤٨ . قبل لها الأمراء الأرض وساست الناس أحسن سياسة ، وخطب باسمها على المنابر .

وإني أدعوك ياسيدي الى أن تقرأ من محاضراتي ماكتبه الفيلسوف استوارت عن زوجته بعد وفاتها ، وماكتبه قضاة الأميركان ورؤساء حكوماتهم عن نسائهم ، وقد اشتركن في الحكم والرجال على السواء ، وأدعوك الى زيارة العيلات الشريفة السافرة النازلة بين طهرانينا ، فترى أن احترام الرجل المرأة مع حرّيتها واستقلالها وتعظيمه إيّاها أمر واقع ، وإن تجارته في إعطاء المرأة حقها لم تكن خاسرة ، فالحق مثل العلم يزيد في صاحبه بقدر ما يبذل منه ، فأى مانع يمنع المرأة المسلمة أن تحترم احترام غيرها ؟ وهل يجوز أن يجعل تشرفها بالاسلام مانعاً لها من أن تنال حقها وتُحترم ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « الدين المعاملة » . فهل يجدر بنا ياسيدي الشيخ ، أن تكون معاملة أهل الأديان الأخرى لنسائهم ، أحسن من معاملة المسلمين لنسائهم ؟ ألا يكون ذلك تسليماً ضمناً بأن دينهم أحسن للمرأة من ديننا ؟

ياسيدي الشيخ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إمْرَأَةٌ صَالِحَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ غَيْرِ صَالِحٍ » فهل ترى أن الحرية والاستقلال أجدر بالمرأة الصالحة التي هي خير من ألف رجل ، أم بذاك الرجل الذي تزيده المرأة صلاحاً وخيراً ألف ضعف ؟

أيوافق مصلحة العيلة والمجتمع البشري أن يطلق هذا ليصنع شراً ويفسد تلك ، أم أن تطلق تلك لتصنع خيراً وتصلح هذا ؟

ألا ترى أن البشر كلما أرادوا أن يمثلوا شيئاً فيه معنى جميل من معاني الفضيلة ، مثلوه بشكل امرأة ؟

ألا ترى أن الوثنيين أنفسهم جعلوا آلهة الخمر والسكر والحرب والغضب رجالاً هم باكوس ومارس ونبتون ، وجعلوا آلهة الحكمة والخير والجمال نساءً هن مينيرفا وسرس والزهرة . إن فرنسا ياسيدي ، ولا يخفى عليك ، في مقدمة المفاخرين بالحرية وهي تلقب بأمها . والمرأة لها فيها حرّيتها الساطعة ، واحترامها الفائق ، وشأنها العظيم ، ومع ذلك فالمادة الأولى من قانون الزواج الفرنسي تقول : « إن المرأة مكلفة أن تطيع زوجها ، والرجل مكلف أن يحمي امرأته » . فالطاعة التي كلف القانون المرأة إيّاها ، لم تمنع أن يكون لها معها حرية واستقلال واحترام . إن القانون أوجب عليها الطاعة في أمور معيّنة ، وأبقى لها دائرة من الحرية والاستقلال مصونة من التعدي ، ذلك ما يوافق شرع الله ، ذلك ماتطلبه المرأة المسلمة . فلتكن معاملة الرجل إيّاها مقيدة بشرع الله ، لاتابعة لهواه ، وليبق لها دائرة من الحرية والاستقلال لا يتعداها الرجل .

ما له ووجهها يستتره ، وفيه كلّ قواها فيمحققها محققاً ؟ وما له وتلك القيود الغريبة التي أحدثها لغل حركاتها غلاً ؟

ياسيدي الشيخ ، إذا ذكرت المرأة فالمعنى لا ينحصر بالزوجة ، بل يتناول غيرها أيضاً ، وهل من المعقول أو من الموافق ، أن يتحكم الولد بأمه ، والأخ بأخته ، والمسلم بكل مسلمة ، مهما كانت غريبة عنه ، ومهما كان طالحاً وكانت صالحة ، فيحرمها العلم ، ويحرمها العقل ، ويحرمها الدين ، ويحرمها النور ، ويحرمها السعي ، ويحرمها الحق ، ويحرمها النطق ، ويحرمها الحرية والاستقلال ، ويحرمها كلّ حركة تؤول الى خيرها في الدنيا والآخرة ؟

لماذا يحصر الرجل كلّ هذا فيه ؟ ألم يخلق الله الرجل والمرأة من روح واحدة ؟ أليس له مثل الذي عليهن بالمعروف .

اعجب ياسيدي من استحسانك غمض الرجل حق المرأة ، بعد أن شكوت بكل صراحة من جهل الرجل واستبداده بها ، وعدم إطلاعه على ماسنته لها الشريعة المطهرة من الحقوق ، وقد قضيت أن الذنب في ذلك راجع الى الرجل لا الى دينه .

ياسيدي الشيخ :

إنّ دليل العقل والصلاح ليس بقوة في الجسم ، وليس بشارب أو لحية ، ولا بجبة أو عمامة ، بل إنّ لذلك أثراً أخرى تظهر في الرأي والعمل ، ومن طبيعة النفس أنها تخضع طوعاً لنفس أسمى منها وتتبعها ، فمتى أبطلت القاعدة الفاسدة ، وهي خضوع كلّ امرأة لكلّ رجل مهما كان حالها ، وحلّت محلّها قاعدة خلقية عادلة ، متى حلّ الحقّ محلّ القوة ، وحلّ العلم محلّ الجهل ، وحلّ العدل محلّ الاستبداد ، فالنفوس تتعارف ، والنفس التي هي أصلح وأقدر على إدارة العائلة تسود ، وتحترم ، ويحترم رأيها ، ولالزوم في ذلك الى إتفاق صريح من أحد الفريقين للآخر بالسيادة .

إنّ بذلك يتمّ الصلاح في العيلة والمجتمع ، والإحترام المتبادل فيهما ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء إلا بالصلاح والتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ويجدر بعباد الله أن يجعلوا أكرمهم عندهم ، أتقاهم ، لأقواهم .

نعم ، قال الله تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ولكنّ المفسّرين فسّروا الدرجة أنها فضيلة الإنفاق ، فحيث لا إنفاق لدرجة هناك ولاأفضلية ، والمساواة تامة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَصَبَةِ فَلَوْ كُنْتُ مُفَضَّلًا أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ » .

فليرفع ياسيدي الحجاب المخالف للشرع الإسلامي ، ولتسلم الى النساء حقوقهنّ ، وما الحرّية إلا شرف الحقوق التي منّ الله بها على الإنسان وأنا كفيلة بعدم اعتداء النساء على حقوق الرجال ، فيحترمنهم ، ويحترمونهن احتراماً خالصاً نقيّاً . لأن الإنسان من طبعه أن يحترم من يحترمه ، ويمتهن من يمتنه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ . وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ » .

وما ذلك إلا ليعلمنا المقابلة والمماثلة الحقّة التي تلخص بأن يحترم الإنسان أخاه الإنسان ويحترم حقوقه فيحترمه أخوه الإنسان ويحترم حقوقه ، وإنّ الإحترام الحقّ الذي يشير اليه صلى الله عليه وسلّم ، أمر نفسي لا حركات جوارح ، إذ أن الضعيف قد يظهر بجوارحه للقوي ما ليس في قلبه . فاحترم المرأة من قلبك تحترمك من قلبها . وإذا احترمتك من قلبها ، وجب أن تحترمها من قلبك .

كلّنا يعلم وصيّة الأعرابية لبنتها العروس إذ قالت لها : « كوني له أمةً يكن لك عبداً » إنّما بمثل هذا يتسابق الزوجان على التحاب وعلى الفضيلة .

وإن لم يسلم الرجل للمرأة بحق الحرية والمساواة والإستقلال ، وداوم على صولة ظلمه ، ولم يقبل بالإحترام المتبادل ، فليس لها إلا أن تقول مع الحسين عليه السلام لما نكب بكرلاء : «ولأرى الحياة مع الظالمين إلا برما» ، أو أن تتأسى بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي أراد أن يضع نفسه دائماً مع الضعفاء المظلومين تطيباً لقلوبهم وحماية لهم من صولة الظالمين ، إذ قال : «اللهم أمتني مسكيناً وأحيني مسكيناً واخشِرنِي في زُمرَةِ المساكين» ، أو أن تتعزى تحت نير ظلمها بقول سيدنا المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام حيث قال : «تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم... احملوا نيري عليكم وتعلموا مني لأنّي وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا الراحة لنفوسكم» .

* * *

الرجل يكره المرأة على التزيّن ثم يتخذ من ذلك حجة عليها

ياسيدي الشيخ :

أنت قلت مع من قال ، من إخوانك الرجال ، مادامت المرأة تضيّع ثلاثة أرباع الوقت ، إن لم يكن تسعة أعشاره ، في اللبس والزينة ، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن الأمرين ، فهي لايمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجال .
أما أنا فأقول مع من قال :

زَيْنُوا الباطل حَتَّى	ظَنَّهُ الناظر حَقّاً
إِنَّ قَوْمًا جَهِلَ البَا	طَلَّ والحق لَيْشَقِي

إنّ الغلو في الإسناد ياسيدي ، وليد الباطل ، والتحامل ، والغضب ، وحبّ الاستبداد ، وليس وليد الحقيقة ، والعدل ، والنزاهة ، وتحري المصلحة .

ومع هذا ، إنّ المرأة تطلب حرّيتها واستقلالها لتشتغل بتزيين روحها المرضية بالعلم والآداب ، بدلاً من أن تبقى لدى الرجل مكرهة على الإشتغال بتزيين جسدها له اشتغالاً يميت فيها قوى روحها الناطقة .

أجل ، إنّ الرجل يتطلّب منها ذلك كرهاً ، إذ أنه لايعترف لها بقوة تدفع عنها ضره ، وتجفّف شرّه ، إلا بتزيين جسدها له .

إنه يضع الكوابيس على روحها الناطقة لئلا تنتعش فلا تبقى لعبة مزيّنة للهواه وهواه .

إنه يَمِيت باستعباده إياها تلك الروح ، وكأنه ينتحر ولكن في روحه وهو لا يدرك هذه النتيجة المؤلمة ولا يشعر بها . فقد جاء في المقتطف الأخير لأديب فاضل شهير :

« إنَّ الغرَّ الذي يقيد المرأة ويستعبدها ويحجزها ، يخسر تسعة أعشار قوته ، وتسعة وتسعين في المائة من سعادته وهنائه » .

يا لجور الرجل من جور ، إنه يكرهها على التبرج له . ويعودها ذلك قسراً ، ثم يتخذ حجة له عليها ، ولا ينظر نظرة الى العالم السافر الراقي ، حيث يرى أنه قام مقام تلك المرأة المتبرجة . امرأة جديدة هي « شقيقة الرجل ، وشريكة الزوج ، ومربية الأولاد ، ومهذبة النوع ، هي المرأة الحائزة لجمال المرأة ، وعقل الرجل » .

ياسيدي الشيخ :

إنك استشهدت بكثير من أقوال الرجال ، تأييداً لإدعائك أنه لا يجوز أن تعطي المرأة حقوقها من الحرية والاستقلال . أو يتخذ قضاة الاجتماع ادعاءات ظلام المرأة وخصومها حججاً عليها ؟

ليس للرجل أن يستشهد بأقوال الرجال ليثبت ادعاءه على المرأة ، أمّا المرأة فلها حق واضح بأن تستشهد بأقوالهم ، لأن ذلك إقرار منهم واعتراف بحقها ، والمرء ملزم بإقراره .

فالإلزام المرأة ، يجب على الرجل أن يستشهد بأقوال من النساء ، تتضمن اعترافاً منهنّ بما يدعي .

ليس النساء مصدر الشر، أكثر الخير فيهن

المرأة شريكة الرجل في الحكم الشعبي

والرجال والنساء في المبايعة أو حق الانتخاب سواء

ياسيدي الشيخ :

إنك تقول : « إنَّ النساء مصدر الشر على الإنسان ، ولو وكل أمر تدبير هذا الكون الى النساء فقط لكان اليوم قفراً هذا إن بقي » !!

ولكن ياسيدي ، ما من أحد طلب أن يوكل أمر تدبير الكون الى النساء فقط . إنَّ كل عاقل لا يتبع الهوى ، يعلم أن هذا الكون ، لاتصلح إدارته بأحد الجنسين مستقلاً فيها . ففي كل منهما نقص يجب أن يكمله الآخر .

إنَّ أوَّلَ من تولَّى إدارة شؤون الإسلام كما لا يخفى ، النبي صلى الله عليه وسلّم ، فلمّا فتح الله تعالى له فتحاً مبيناً ، وأتمّ نعمته عليه بضمّ الملك الى النبوة ، كما ذكر البيضاوي ، لم يكتف عَزَّ وجلَّ بمبايعة الرجال ، بل رأى جلَّ عدله وتعالى حكمته ، لزوماً لمبايعة الرجال والنساء على السواء فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْهُ فَسْيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

والمبايعة بين الوالي والمولى عليهم ، هي على ماذكر المفسّرون ، المعاهدة والمعاهدة ، كأنَّ كلاً من الفريقين باع من الآخر وأعطاه خالصة نفسه وداخلة أمره ، أو هي عقد التولية ، وذلك يتم في زماننا بصورة الانتخاب ، منظوراً به الى القانون الأساسي ، الذي هو في دولة المقابلة أو المعاهدة بين الشعب والحكومة ، وما كانت القوانين الأساسية الحاضرة في العالم إلا موافقة لروح الشرع الإلهي .

ولم يكن من فرق بين مبايعة الرجال ومبايعة النساء للنبي صلى الله عليه وسلّم ، إلا أنَّ الرجال كانوا يبايعونه على النصر في الجهاد الأصغر ضد الأعداء من البشر . أمّا النساء فكانَّ بايعنه على النصر في الجهاد الأكبر ، أي نصرته النفوس المرضية على النفوس الأمارة بالشر ، وذلك بصنع مكارم الأخلاق ، وإصلاح الشأن في الدين ، والأنفس ، والأزواج ، والعيال .

ولمّا فرغ النبي صلى الله عليه وسلّم من مبايعة الرجال ، يوم فتح مكة ، جاءت النساء يبايعنه وهو على الصفاء وكانت منهنَّ هند بنت عتبة . فلمّا تلا النبي الآية وفيها شروط المبايعة (ولا يأتين ببهتان ولا يعصينك في قرآن) قالت له هند : «والله إنَّ البهتان قبيح وماتأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، ومما جلسنا هذا وفي أنفسنا إن نعصيك في شيء» .

إنَّ الله تعالى أمر بمبايعة النبي ، ليعلمنا أصول الحكم الشعبي أو الديمقراطي ، وجوب اشتراك الرجال والنساء به ، ولا سيما في الانتخاب . وكيف يسلم الدين أو العقل ، أن تحرم النساء حق الانتخاب وأكثر الخير فيهنَّ ، ومنهنَّ كل صالحة خير من ألف رجل غير صالح ؟ هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

إنَّ الحكم الديمقراطي ، يستمد من الأمة رجالاً ونساءً مشتركين ، ذلك ما علمنا الله إيّاه في كتابه قبل ألف وثلاثمائة سنة ونيف . ولكن ، يا ويح الرجال ، إنهم عدّوا المرأة طوراً كالجماد ، وطوراً كالحيوان ، وسلبوها

حقوق الإنسان ، لم يمنعهم من ذلك سنة ولا قرآن ، استقلّوا بالحكم ، واستضعفوها فحبسوها وظلموها ، ثم عدّوها مصدر الشر على الإنسان .

طوبى لكلّ قوم عرف أخيراً قدر المرأة وحقوقها ، وحسن تأثيرها في المجتمع ، وأعطائها من تلك الحقوق حقّ الانتخاب والإشتراك في الحكم الشعبي ، إنه استحقّ أن تشمله السعادة ، وتنيره الحرّيات . ويسوده الصلاح وتفيض عليه الخيرات ويعمّ بلاده العمران .

ياسيدي الشيخ :

يفهم من مقال الكاتب الإجتماعي علي فهمي « أن علماء الإجتماع والسواس المتشرّعين أجمعوا على أنّ المرأة هي قوام الهيئة الإجتماعية ، وعماد تقدّم الأمم ، وتشديد الدول ، وأنّ الأمة التي لا حياة اجتماعية لها ، لهي عدم في الوجود ، بل هي شر من ذلك العدم » . فأنى تكون المرأة والحالة هذه ، مصدر الشر ؟...

ياويح الرجل! وياقلّة عدله! ليت شعري ، أكان أتيلا ، تيمورلنك ، جنكيز خان ، نيرون ، يزيد ، وأمثالهم من الأشرار الظلمة نساء أم رجالاً ، ليت شعري . أكانت الملايين من قتلى الحروب ، وأشكال الولايات والخراب والدمار والشرور في البلدان والشعوب ، من ضحايا المرأة الرؤوف الحنون ومن آثار أعمالها ، أم من ضحايا نفس الرجل القاسية ومن آثار أعماله ؟ ذاك الرجل القاسي الغاوي ، الذي داس الحقوق حتّى حقوق أمّه التي ولدته وربّته ، وحبسها وستر وجهها ، ومنع النور عن عينيها ، والهواء عن صدرها ، وكسر قلبها ، مسنداً اليها نقص العقل ونقص الدين ، وأنها مصدر الشر للإنسان .

إنّ المرأة ياسيدي ، لم تشتغل في تلك الشرور والحروب . ولم تشترك فيها إلا بتضميد الجراح ، وتخفيف الآلام ، وحقن الدماء ، بما وهبها الله من صفات النفس المرضية ، ولكن لا بدّ لروح المرأة - وقد أخذت تتحرّر في العالم السافر الراقي ، وستنال حرّياتها كاملة مع الزمان في كلّ مكان - لا بدّ لها من أن تنصر روح الرجل في الجهاد الأكبر ، ضدّ النفس الأمّارة بالسوء والشر ، فيتحدّ الروحان حاملين لواء السلام والحرية ، ثائرين على مابقي في الأرضين من آثار الهمجية ، فيسبك العالم كله مدافعه ، وقنابله ، وسيوفه ، وحرابه ، وبنادقه ، وآلات تدميره ، آلات زراعية ، و«ماكنات» صناعية ، وطرقاً حديدية ، وتصبح الدائرة ولكلّ أمة أو نفس فيها دائرة من الاستقلال والحرية ، حدودها أمنع بقوة القانون من الحصون القويّة ، حينئذ يعلو صوت الانسان صارخاً أنا أنا ، أنت أنت ، لامستعبد ، لامستعبد ، ويبطل ذاك القول الظالم (من لا يظلم يظلم) ، ويبطل التغلب ، والتسلّط والتحكّم ، ويبطل أن يكون الحق للغالب ، والويل للمغلوب ، والقول للسيف والمدفع ، ويبطل أن يكون هتاف الناس للقاهر ، والسجود للمتكبّر ،

والسيادة للشر ، وترفع غاية السلم العام الكبرى . فوق مصلحة النفس ، والأسرة ، والدين ، والأمة ، والجنس ، وفوق كل مصلحة خاصة تفرق الانسان عن أخيه الانسان ، وترتبط الأفراد والأمم بعرى الإخاء والمساواة ، وبقانون عام واحد ، وحكم مشترك واحد ، يسود في الشرق والغرب ، كل أمة وكل نفس رجلاً أو امرأة على السواء ، وتحل الاختلافات بالشرائع لا بالمدافع ، وتنير الحرية العالم . ويسود الخير والصلاح فيه ، ويبطل أن يكون الحياء والخجل من العار والعيب مختصين بالنساء ، ويستوي الرجل والمرأة بالرأفة والحنان على بني الإنسان ، وتخزي النزعات الى الحروب ، وتكره البطولة والسياسة السكرانتان بالدماء السائرتان بالخلق نحو الفناء ، كما يكره الوباء ، ولا يتذكر الناس إذ ذاك حكايات الأكلين حقوق الإنسان ، إلا كما يتذكرون - على قول الشاعر التركي - حكايات العفاريت والغيلان .

إنّ ذلك الخير كله . ستلده للعالم حرية المرأة ، والإنتصار في الجهاد الأكبر ، إنها الأم والبنت والأخت الحنون الرؤوف لأبناء البشر .
إنّا لقبنا العصر الماضي بعصر الكهرياء ، فلا ريب أن أحفادنا يلقبون عصرنا المقبل بعصر النساء .

وكل من يستقري ويرى ، ولا سيما بعد الحرب الكبرى ، يقظة النساء ونهضتهن في العالم السافر الراقي ، ومتاعبهن وأعمالهن في سبيل الخير والصلاح والسلام ، يستشرف الزمن الآتي فيقضي بأنّ ما أقول ليس من الرؤى والأحلام ، إنّما تلك أمانى النفوس الخاصة المرضية ، تحققها الأيام . وكلّ من يرغب في الاستقراء ألفت نظره الى كتاب (المرأة في التمدن الحديث) للسيد محمد جميل بيهم فيرى فيه ، من النور مايكفيه .

ياسيدي الشيخ ، إنّما السجون وضعت للأشرار يعاقبون فيها بسلب حرّيتهم ، فأى من الجنسين كثر عدده فيها ، يحكم عليه بأنه الأكثر شراً . أفلا ترى نسبة النساء للرجال في السجون ، تقل عن نسبة واحد للمائة ، فعلام تستحسن الحرية للرجال ، وتستقبحها للنساء ؟
ياسيدي الشيخ :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ فِي الشَّطْرِ الْآخَرِ » فكيف تعد المرأة مصدر الشر ؟

ياسيدي الشيخ ، كيف تقول « إن النساء مصدر الشر على الإنسان » ؟ أنسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأَمَّهَاتِ » ؟

أنسيت خديجة أم المؤمنين ، أول من آمن بنبيّنا صلى الله عليه وسلّم ، وأنارت فجر دعوته النبوية ، وكانت له في أول رسالته العضد المتين ، والنصوح الأمين ؟

كيف تقول «إن النساء مصدر الشر على الإنسان» أنسيت أن النساء آمنَّ بالنبى صلى الله عليه وسلم ، قبل أن آمن به الرجال ؟ أنسيت أن الرجال كانوا يضعون في طريق النبى صلى الله عليه وسلم : حطباً وشوكاً ، ويرمون به بالرماد ، وكانت النساء نساؤهم تحيط به كالملائكة الحافظين ، فمنهن من رفعت الحطب والشوك من طريقه ، ومنهن من نفضن الرماد عن رأسه ، ومنهن من ربطن جراح رجله ؟

أنسيت أنه يوم كان سيدنا عمر رضي الله عنه ، مثقلاً سيفه مفتشاً عن الرسول ليقتله ، كانت أخته فاطمة بنت الخطاب مسلمة تترنم بآيات الله ، وهي التي كانت سبب إسلامه فصار «سيف الإسلام القاطع» ؟

ومن خلّص موسى عليه السلام من الموت ؟ أو ليس امرأة ، هي ابنة فرعون ؟ ومن كان أول من آمن بموسى عليه السلام ؟ أو ليس امرأة ، هي آسية بنت مزاحم ؟ وهي التي أصرت على إيمانها بالله فارتدت رجلها فرعون يديها ورجليها الى أربعة أوتاد ، ثم أمر أن تلقى عليها صخرة عظيمة ، وهي تقول «رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة» .

وكيف تقول أن النساء مصدر الشر على الإنسان ، ومنهن مريم العذراء ، وفاطمة الزهراء ، وأمّ المؤمنين خديجة ، وعائشة الحمراء ؟

كيف تقول ما تقول والنساء قد ولدن الأنبياء ؟ وإذا قلت للأنبياء والدون كما لهم والدات ، فلا تنس سيدنا المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام وقد استقلت به أمه مريم العذراء ، تلك المطهرة المصطفاة ، سيدة النساء ، وخير الأمّهات .

يغضب الرجل على المرأة إن لم تكن حرة

وتغضبه إذا أرادت أن تكون حرة

سيداتي ، غريب أمر الرجال ، إن الشرور التي ظهرت في العالم صدرت منهم ، وهم الذين أوقدوا جذوتها ، وأداروا حركتها ، ويسندون مصدرها للنساء . إن شرورهم لظاهرة ، وهم يقولون ، بعضهم للبعض الآخر (فتشوا عن النساء ، في الخفاء) .

وإذا قيل لأحدهم أن إحدى محارمه ليست حرة ، قام وقعد ، وأرغى وأزبد ، وغضب لكرامته أن تهان ، وإذا رأت أن تكون حرة حقاً ، لتثبت فعلاً ما قاله الرسول صلى الله عليه

وسلم : « أن أكثر الخير فيهن » اضطربت أعصابه ، وخاف على العمران أن تقوِّض أسبابه ، وأن يكون في حرّيتها خراب الكون وخرابه .

وكيف تكون المرأة حرة ياسيدي الرجل ، ما لم تكن فيها صفة الحرية حقاً ! هل من فاضل حقاً بلا فضيلة ، وعالم حقاً بلا علم ، وحر حقاً بلا حرية . وشرير حقاً بلا شر ؟ مسكينة المرأة ، يغضب رجلها أن تكون غير حرة ، وتغضبه إذا أرادت أن تكون حرة .

* * *

المرأة لا تطلب إلا ما خولها شرع الله من الحرية والحقوق
إن في ذلك صلاح العيلة والمجتمع، وبيان للشيخ عبد القادر المغربي

ياسيدي الشيخ :

إن المرأة لا تطلب ولا تريد إلا ما خولها إياه الله ورسوله ، كما ذكرت في كتابك ، من حقوق السيادة والمساواة والحرية ، وذلك نتيجة التحرير من قيود العبودية وأغلال الإضطهاد ، على أنها لاكتفي بالتحرر من قيود العبودية (المطلقة) كما وصفت ، بل تطلب أن تتحرر بموجب شرع الله من كل عبودية ، سواء أكانت مطلقة أم مقيدة ، عامة أو خاصة ، إن وصف (المطلقة) للعبودية ، ليس من الله بل من سيدي الشيخ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كُلُّ نَفْسٍ مِنْ بَنِي آدَمَ سَيِّدٌ فَالرَّجُلُ سَيِّدُ أَهْلِهِ وَالْمَرْأَةُ سَيِّدَةُ بَيْتِهَا) . إن سعي الرسول وعمله لتحريرها سنة يجب على الرجل اتباعها ، وينبغي له أن لا تهول حرّيتها ، فيعاكس كل سعي لتحريرها . ينبغي له أن يقتفي في ذلك سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن فيها الخير والصلاح للعيلة والمجتمع .

قال الشيخ عبد القادر المغربي متشهداً بما قاله علماء الاجتماع : « إن أحقر المنازل إذا تولت رياسته امرأة مدبرة بشوشة كان ملؤه الراحة والهناء والسعادة ، كان فيه أشرف العواطف العائلية ، كان عزيزاً لدى الرجل لما يستلزمه من دواعي السرور ، كان ملاذاً للقلب ، وملجأ من عواصف الحياة ، كان خير مكان للراحة من عناء الأشغال ، ومتاعب الحياة ، كان في الشدة مسلياً ، وفي الرخاء فخراً ، وفي كل حال نعيماً ، فالمنزل الصالح إذن خير معاهد التربية ، لا للشباب وحده ، بل للكهل أيضاً ، وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر . وضبط النفس ، وتدرك روح الحياة ، ومعنى الواجب) .

وقال الشيخ المشار إليه : إن الأعمال التي يزاولها كل من الرجل والمرأة في عائلتهما

تختلف باختلاف حال الأمة التي يعيشان فيها بدَاوة وحضارة ، رقيّاً وانحطاطاً . ويغلب في الأمم المتحضرة أن تكون وظيفة المرأة إدارة الأعمال البيتية كما تكون وظيفة الرجل خارجه . فهو يشتغل ثمة ويتعب ويستثمر أتعابه ثمّ يلقي بهذه الثمرات الى زوجته ، ويتّكل في هنائه العائلي وراحته المنزلية عليها . فالزوجة هي الرئيسة العاملة في المنزل ، أمّا الزوج فهو بمثابة رئيس شرف له . إن رسول اله صلى الله عليه وسلم جعل سيادة البيت للمرأة ، وخصّها بها ، وإن كان لرجلها سيادة أخرى لاتنكر .

« وإذا كانت المرأة هي سيّدة البيت ورئيسته كان من أوّل واجبات الزوج أن يحسن انتخاب تلك الرئيسة . فيختارها من ذوات العقل والدين والتربية الصالحة . فإنها إذا توفّرت فيها هذه الشروط أصبح المنزل فردوس الرجل ، ومظهر كرامته في قومه . والمنبت الخصب لذريته وأولاده ، ومن ثمّ كان للمنزل والعائلة المقام الأول في نظر علماء الاجتماع ، حتّى جعلوا نظام الحياة المنزلية ، أساساً لنظام الحياة الاجتماعية في الأمة كلها ، فإذا فسد النظام الأول فسد النظام الثاني وانحطّت الأمة على أثره . والعكس بالعكس . قالوا وإذا دخلت إحدى المدن كان لك أن تحكم على ارتقاء العائلة بمجرد نظرك الى حالة سكّانها وماهم عليه من الأطوار والأخلاق في أسواقهم وحوانيثهم ومحافلهم وقهاويهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية ، فإذا رأيتهم هنا على نظام أدبي ثالث ، حكمت باستحكام النظام الأدبي في بيوتهم وعائلاتهم ، لأنّ هذا أصل ذاك . وإلا فلا بد أن المنزل هو المغرس الأول للذرية والأولاد فهم يُنقلون منه الى المغرس الثاني أعني المدرسة ، ومنها الى ساحة التجارب والعمل والسعي في خدمة أمتهم ووطنهم ، كما ينقل الفسيل من أرض الى أرض ، فإذا طابت تربة المغرس الأوّل (العائلة) طابت إذ ذاك ثمار أبناء الأمة وغزرت محصولات عقولهم ، وإن خبثت تلك التربة خبثت الثمار ، وقبحت الآثار وسادت الأخبار . »

ياسيدي الشيخ .

أظنّ ماذكرته كافياً ليعرّف السبب الذي من أجله تطلب المرأة حرّيتها ، أنها تطلب حرّيتها ، استعداداً لإيفاء هذه الوظائف السامية ، وتوسلاً لقضائها كما تقضيها سيدة حرة حقاً ، إنها تطلب حرّيتها ، في منزلها وإرادتها ، وقولها وعملها ، لتفتكر في الخير ، وتريده وتقوله ، وتعمله .

قال الشاعر المعروف الشيخ أمين تقي الدين :

هذي البلاد ولن تقوم بنهضة حتّى تريد السيدات قياما

أجل ، إن المرأة تريد حرّيتها لتظهر إرادتها في نهضة الأمة وقيامها . واحسبني قد أثبت تلك الإرادة ، إرادة المرأة .

إنّ المرأة المسلمة ، تنهض وتستنهض الرجل ، ليسير وإياها الى الحرية ، الى الأمام ، والى النور ، حيث الخير والصلاح ، والرقى والسعادة ، فعسى أن لا يقف الرجل ويستوقف المرأة فيستوقف أمته في الخمول والظلام .

المرأة المسلمة ، تحكم العقل ، وتدعو الأمة الى النهوض في اتباع القرآن والسنة ، فعسى أن لا يدعوها الرجل الى الجمود ، في اتباع ما يخالفهما ، من أقوال بعض الفقهاء .

المرأة المسلمة ، ترمي الى توحيد الفرق الاسلامية ، ولا يضمنه إلا الرجوع الى الكتاب والسنة مرجعي فرق الاسلام كلها ، فعسى أن لا يرمي الرجل الى إبقاء التفريق ، ولا يبقيه إلا متابعة السير على أقوال بعض الفقهاء .

قال السيد المسيح : « أتيت لألقي حرباً لاسلاماً » ولم تكن حرب السيد المسيح ، وهو الواضع أساس التآلف والسلام والتآخي بين الناس ، إلا ضد ما ضرّ وما فسد من التقاليد والعادات ، والتعاليم والأقوال ، انتصاراً للمبادئ القويمة ، والتعاليم الصحيحة ، في الكتب المنزلة ، فإن تحسب نهضة الفتاة المسلمة حرباً معلنة ضد الفاسد والضرار ، فليس ذلك إلا جهاداً أكبر ، اتبعت فيه كلام الله وسنة سيديها محمد والمسيح ، انتصاراً للصلاح والسلام .
يا أيّها المعارضون :

إذا أردتم مقاومة المرأة ، وتجميد الأمة على ماهي عليه ، فهاتوا برهانكم ممّا أنزل الله ، ومن سنة رسوله ، لا من أقوال أمثالكم .

لمّا خطب عمر بن الخطاب على المنبر يوم الجمعة قائلاً : إن مهر فاطمة بنت رسول الله أربعمئة درهم ، فمن زاد منكم على ذلك المهر ، أخذت الزيادة منه ووضعها في بيت مال المسلمين . قامت امرأة وقالت : ومن أين لك هذا الحق يا أمير المؤمنين والله تعالى قال في كتابه : « وَإِذَا آتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً » ؟ فقال : يا أيها الناس ، « امرأة أصابت ورجلٌ أخطأ » .

فلنأخذ ياسادتي عبرة من قول سيدنا عمر ، ولنعلم أن الفقهاء يخطئون ، وإن النساء ، وأكثر الخير فيهن ، لهن رأيهن في الحق ، إن العصمة لله وحده .
ياسيدي الشيخ :

أنّى تحسب المرأة سيّدة حرّة حقاً ، وهي مأسورة بحجاب على وجهها وعينيها ، وجميع حواسها . وظله على عقلها ؟

ألا ترى أن الحجاب هذا ، كان مصوناً من بلائه الأرقاء والإماء ؟ فلماذا تبلى السيدة الحرة بهذا البلاء ؟ وهل يصلح للمجتمع الإسلامي أن تكون السيدة فيه محجة عمياء ؟

* * *

سيطرة الرجل وسلطانه المقيدان، وسيادة المرأة

ذكرت ياسيدي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعل المرأة ربة المنزل وسيدته ، بما منحها من الحقوق التي جعلتها مساوية للرجل في كل شيء إلا السيطرة والسلطان المقيدين والمرأة ياسيدي لا تطلب إلا أن تكون ربة المنزل وسيدته حقاً ، وأنى تكون ربة لمنزل أو سيّدة فيه حقاً ، وهي في عرف رجلها . لا يجوز لها أن تقرب من نافذة ذلك المنزل ، أو تطلع الى سطحه ، أو تخرج الى شرفته ، أو داره ، بل يجب عليها أن تخدمه فيه ، واقفة لديه ، كأمة بين يديه .

كيف تكون ربة المنزل أو سيّدة فيه حقاً ، وهي في عرف رجلها لاتزال في المنزل كما قال السيد جميل بيهم ، إلا من قبيل القنية ، يتزوج بها للخدمة والتناسل ، وترفّع الرجل سيدها عن مصاحبتها ، ومواكبتها ، ومجالستها ، ويهناً بموتها لأنه يتهاى له بذلك فراش جديد ؟ أهذه هي المساواة التي أمر بها الدين ؟ أهذا هو تعظيم شأنها الذي أوجبته الشريعة الإسلامية ؟

إن المرأة لاتعارض أحكام شرع الله ، ياسيدي الشيخ ، بل تطأطىء رأسها طاعة واحتراماً له ، وإنما تعارض مايعاملها به الرجل خلافاً للدين ، ولشرع الله ، ولقانون البشر ، ولناموس الطبيعة ، وللمروءة والمصلحة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ) وقال صلى الله عليه وسلم : « سَاوُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ . فَلَوْ كُنْتُ مَقْضِيّاً أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ » فهل يجدر أن تكون حالة النساء السيئة ، نتيجة إبداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ميله الى تفضيلهن على الرجال ؟

إن المرأة لاتطلب تفضيلاً ياسيدي ، ولكنها تطلب من الرجل أن يعترف لها بمساواتها إتياء في حق الحرية . في حق الحياة المثلى . إذا كان الرجل رأس المرأة . فلتكن المرأة قلب الرجل ، إنمّا بمثل هذا يتم الصلاح في العيالات والمجتمع .

أما السيطرة التي ذكرت ياسيدي ، فهي صفة ينبغي للرجل أن لا يتخذها ، لأن المرأة من عباد الله ، والله نهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن السيطرة بقوله ، لست عليهم بمسيطر . وإن أردت بالسلطان الذي ذكرت سلطاناً مستبدّاً جائراً يعمل بكيفه وهواه ، ضمن دائرة من قيود يضعها هو نفسه كما يشاء لاتوافق شرع الله . فهذا لاتسلم به المرأة . وإذا أردت بالسلطان معنى القوام ، فهو يفيد ولاية الرجل في حكومته الصغيرة أي عيلته ولاية مستبدة من إنفاقه ، والولاية ليست مطلقة بل مقيدة بمصلحة من عليه الولاية ، وليس من مصلحة المرأة أن يحرمها رجلها في مقابلة إنفاقه ، حرية هي لها منحة من الله في شرعه ، مستبدّاً بها كما يهوى ، فقد جاء في الإنجيل « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » إنه يحتاج الى الحرية لإحياء روحه ، كما يحتاج للخبز لإحياء جسده .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحْسِنُوا إِذَا وُلِّيتُمْ ، فَأَيُّمَا وَالٍ وَلِيَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ أَتَى فَلَمْ يَجْتَهِدْ لَهُمْ كَجَهْدِهِ لِنَفْسِهِ كَبَّهَ اللَّهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ » .

إذن ينبغي للرجل أن يجتهد لحرية المرأة ، كما يجتهد لحرية نفسه ، وإلا كبَّه الله على وجهه يوم القيامة في النار .

كان الوالي في زمن الاستبداد ، يتصرف بحقوق الناس كما أراد ، كأنّ حقوق الناس كلها حقه ، أما الآن وقد أثار نور الحرية ونور العلم العالمين ، فليس على الوالي إلا تأمين الحقوق ، وليس له أن يخلّ بها قيد شعرة ، وإنّما بهذه الصورة ارتاح الوالي ، والمولى عليهم ، وساد الأمن والعدل والنظام .

إذن المرأة حرة ضمن دائرة من شرع الله والقوانين الموضوعية ، كما أن الرجل حرّ ضمن دائرة من شرع الله والقوانين الموضوعية . وليس لأحد أن يظلم غيره أو يستبد به ، مضيّقاً تلك الدائرة ، ومحدثاً قيوداً من عنده جديدة .

أما الخدمة فإنّ المرأة تخدم الرجل في أمور ، والرجل يخدم المرأة في أمور ، ولا ريب أن الأحوال كلها بين الناس ، على هذا المنوال .

« الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا بخدم »
ومع كلّ ما ذكر يجب ألا ننسى أن في النساء غير متزوجات لا ينفقن عليهنّ ، فحرمانهنّ الحرية في الأعمال ، والتعسير عليهنّ في أسباب الكسب الحلال ، ولا سيما بغطاء الوجه الحائل بين الأنوار ، والأبصار ، وبأجنحة تلك الملاءة التي تعوق الحراك ، ويسبب الإرتباك ، اعتداء شديد عليهنّ وعلى الدين . و ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

ما هذه الحالة التي بلانا رجالنا بها خلافاً لشرع الله ، وسنة رسوله ، وسنن الطبيعة ، إن الانثى من كل حيوان لها ملء الحق وتمام الحرية ، في أن تسعى لكسب عيشها متمتعة بقواها وبالهواء والنور ، أسوة بالذكور ، أما المسلمة فتغل بالقيود منعاً لها من الحرية في كسب عيشها الحلال ، أسوة بالرجال ، نقرأ عن غير المسلمات في العالم السافر الراقي ، أن كسبهن الحلال وتبرعهن في سبيل الخير ، يبلغان الملايين والمليارات ، ونرى المسلمات المنقطعات الواقفات القاعدات على أبواب المحاكم الشرعية ودوائر التنفيذ عورات ملتفات ، وعيات ذليات ، سائلات نفقات! بمثل هذا ينبغي لنا أن نباهي ونفاخر غيرنا من الأمم ؟

* * *

ليس الأعراب أشرف من الحضرة
وليس أهل القرى أشرف من أهل المدن

ذكرت ياسيدي الشيخ ، أن صحة آداب الأعراب ، وأهل القرى وسلامة أخلاقهم ، مما يجعلهم يستحقون السفر ، وإن الفساد في أخلاق أهل المدن ، يجعلهم يستحقون البلاء بالحجاب .

عفواً ياسيدي ، إني قروية ساكنة في المدن ، نظرت في أهل القرى ونظرت في أهل المدينة ، فلم أر أخواتك المدنيات ، وإخوانك المدنيين دون إخواتي القرويات وإخواني القرويين في صحة الآداب وسلامة الأخلاق ، من حيث الفطرة ، ولم يكن مايتراءى من الفساد في المدن إلا نتيجة مفسد النقاب . وماأخواني وأخواتي ، إلا أخواتك وإخوانك ، وماأخواتك وإخوانك ، إلا أخواتي وإخواني . وأرى أن ليس فيهم جميعاً ما يستوجب مثل حكمك ، بل أرى الأمة مستعدة للسفور عن تلك الوجوه الشريفة المسلمة بكل قواها ، وفي حالة تستحق الثقة بنسائها ، والطمأنينة الى رجالها . ولا تحتاج إلا الى مساعدة مثلك من العلماء الأعلام ، أرباب الأقلام ، وأصحاب الأفهام ، لفك قيودها ، وكسر حديدتها ، فتسير الى الأمام ، ولا حجاب ولا قيد لها إلا شرف الإسلام .

وأرى أنه لابد لي من لفت نظر الشيخ الى أنه لايجوز تفضيل اعراب البادية على أهل المدن ، وهو منهم ، وقد قال الله تعالى في سورة التوبة : ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ . وقد ورد في الحديث «مَنْ لَمْ يَتَّقْهُ مِنْكُمْ فِي الدِّينِ

فَهُوَ أَعْرَابِي « نسبةً الى الأعراب سكان البادية . وجاء في حديث عن أبي عبد الله رضي الله عنه «لَابَّاسَ بِالنَّظَرِ إِلَى رُؤُوسِ أَهْلِ تَهَامِةٍ وَالْأَعْرَابِ وَأَهْلِ السَّوَارِ وَالْعُلُوجِ لِأَنَّهُمْ إِذَا نُهُوا لَا يَنْتَهُونَ» .

أو مثل هؤلاء ياسيدي على آبائنا وأمهاتنا وأخواتنا وإخواننا يفضلون ؟
ولابد لي أن أذكرك ياسيدي تكراراً بقولك إنَّ الحجاب في حالته اليوم هو ماينهي عنه الشرع الاسلامي ، لأنه يغرّر الأعرار ويستميل الأشرار ، وإن في الحجاب غير الشرعي ضرراً لاينكر .

إذن إنما يتراءى من الفساد في أهل المدن ليس ناشئاً من فطرتهم ، بل من النقاب علة المفساد ، فلتبدل الحرية منه ولتكشف وجوه المسلمات الشريفة ينكشف لك ماتروم من وجيه الأخلاق ووجوه المحامد .

خصم في الشباب، ونصير في الكهولة

وأرى أنه لابد لي من البيان ، أن كتاب الشيخ الغلاييني ، كان لغير هذا الزمان ، إنه وضعه في أول الشباب ، ولكل أجل كتابه .

لذلك ماخاطبت الشيخ في خطابي ، إلا إياه في أول شبابه ، يوم وضع كتابه أما اليوم فأعتقد ، وليعلم المسلمون والمسلمات ، أن الشيخ المحترم ، وهو من رجال العلم والنور والشقات ، إنه في كهولته الراقية الرشيدة ، وفي النهضة الجديدة ، سيظهر للمرأة نصيراً ، وللحق ظهيراً ، ويتحف العالم المتمدّن بكتاب جديد في تحرير المرأة المسلمة ، يوافق روح العصر ، وروح الدين الإسلامي ، ويسعد العيلة ، وينفع الأمة ، ويعلي شأنها بين الأمم ، كما كان الأمر في القدم ، إنه خليق بأن يكون من خيار المبتدئين ، لخيار المقتدين .

النتيجة

لَو بَعَثَ الْيَوْمَ أَبُو حَنِيفَةَ حَيًّا .

الْحَرِيَّةُ تَتُؤَخَذُ وَتُعْطَى .

سَادَتِي وَسِيدَاتِي

لَقَدْ تَبَيَّنَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ، وَانْقَضَى الزَّمَنُ الَّذِي سَادَ فِيهِ التَّمْوِيهِ وَالتَّضْلِيلُ ، وَأَقْبَلَ الزَّمَنُ الَّذِي يَقْتَضِي أَنْ تَسُودَ فِيهِ الْحَقَائِقُ هَذَا الشَّرْقِ ، كَمَا سَادَتْ كُلُّ عَالَمٍ رَاقٍ . فَأَرْجُو مِنْكُمْ رِجَالًا وَنِسَاءً أَنْ تَضَعُوا أَقْوَالِي مَوْضِعَ الْبَحْثِ الْحَرِّ ، مَوْضِعَ الْبَحْثِ الَّذِي يَحْكُمُ فِيهِ الْعَقْلُ ، وَيَنْظُرُ فِيهِ إِلَى الْبَابِ لَا إِلَى الْقَشُورِ . وَأَنْ تَدْرُسُوهَا بَحْثًا فَيُؤَثِّرُ كُلُّ مِنْكُمْ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ الطَّرِيقَ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ الْأَفْضَلُ فِي الْقَضَايَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْهَامَّةِ الَّتِي بَحِثْتُ فِيهَا .

لَقَدْ ذَكَرْتُ لَكُمْ ، عِدَا الْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، آيَاتِ الْكِتَابِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ ، وَكُلَّهَا تَحَقُّقُ نَظَرَاتِي وَتَدْعُمُ قَضِيَّتِي دَعْمًا .

إِنَّ الْأُمَمَ بِأَسْرَهَا تَمَرَّ سَرَاعًا إِلَى الرَّقِيِّ وَالتَّكْمَلِ ، فَلَا يَصِحُّ وَالْحَالَةَ هَذِهِ أَنْ نَبْقَى فِي جُمُودِنَا الْقَاتِلِ ، أَوْ يَبْقَى فِينَا هَذَا الْجُمُودِ ، إِنْ ضَرُورَةُ الْحَيَاةِ وَتَنَازُعُ الْبَقَاءِ ، يَحْكُمَانِ عَلَيْنَا بِالسَّفُورِ ، وَتَرْكُ التَّخَدُّرِ فِي الْخُدُورِ ، لِنُنَالِ نَصِيبَنَا مِنَ الرَّقِيِّ وَالْكِمَالِ ، وَمَنْ يَقِفُ أَمَامَ تَيَّارِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَارِفِ ، الْجَارِي مُتَسَارِعًا إِلَى اكْتِسَابِ الْحَقَائِقِ وَالتَّكْمَلِ الْعَقْلِيِّ وَالْأَدَبِيِّ ، تَدْسُهُ أَقْدَامُ الطَّامَحِينَ إِلَى نَيْلِ ذَلِكَ الْهَدَفِ السَّامِيِّ .

فَلْنَشْفُقْ عَلَى أَنْفُسِنَا وَلْنَتْرِكَ الْأَبَاطِيلَ وَالْأَوْهَامَ ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الضَّارَّةَ الَّتِي تَعَسَّرَ عَلَيْنَا أَسْبَابُ الْحَيَاةِ وَالسَّعَادَةِ فِيهَا ، وَلْنَعْتَمِدْ ، مَعَ تَحْكِيمِ الْعَقْلِ ، النَّصَّ الْإِلَهِيَّ وَالنَّصَّ النَّبَوِيَّ ، فَهَمَا كَفِيلَانِ بِإِسْعَادِنَا وَبِإِصْلَاحِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا ، وَبِإِدْرَاكِ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْخَلِيقِ بِالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبِالْمَرَاةِ فِي الْإِسْلَامِ .

قَالَ شَيْشُرُونَ الْحَكِيمُ : (مَنْ كَانَ غَيْرَ سَعِيدٍ فَالذَّنْبُ ذَنْبُهُ) . وَقَالَ سَيِّدِي مَحْيِ الدِّينِ الْعَرَبِيُّ فِي الْفَتْوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ : (فَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ثَلَاثَةٌ حَقُوقٌ : حَقٌّ لِلَّهِ وَحَقٌّ لِلْمَخْلُوقِ وَحَقٌّ لَأَنْفُسِهِمْ . فَالْحَقُّ الَّذِي لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا . وَالْحَقُّ الَّذِي لِلْمَخْلُوقِ عَلَيْهِمْ كَفُّ الْأَذَى كُلِّهِ عَنْهُمْ وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ مِنْهُمْ . وَالْحَقُّ الَّذِي لَأَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَسْلُكُوا بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَّا الطَّرِيقَ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهَا وَنَجَاحُهَا فَإِنْ أَبَتْ فَلْجَهْلُ قَامَ بِهَا وَسُوءُ طَبْعٍ) .

يقول الرجال أولو العزائم « الحرية تؤخذ ولا تعطى » ويريد الذين ينفرهم الجمود كأنه شبح الموت ، أن تأخذ النساء بهذا القول .

أما أنا ، فبعد تلك النعمة ، نعمة الحرية التي منحنيها أبي من تلقاء نفسه والتي عدتها نعمة الثانية عليّ ، بعد نعمة الحياة ، أتيت بأشدّ مامنحني الله وحرية التفكير من قوة ، أثبت أن المرأة ما خلقها الله عيّا ولانا قصة عقلاً ولادينا ، وإن الحرية الصحيحة هي بعكس ما يظنّ الجهلة والسفهاء ، هي ولا ريب الأس المتين ، والركن الركين للأدب ، وعزة النفس ، والصلاح ، والكمال ، والدين ، وأثبت أيضاً أن الحرية ، قد لا تؤخذ أخذاً بل تعطى ، وألتمس منكم يا ساداتي الرجال ، أن تحرّروا أفكاركم ، من البديع والأباطيل وتأثير العادات ، وتمنحوا من أنفسكم كلّ اللواتي تثقون بشرف نفوسهنّ من أخواتي العزيزات المحترمات ، أمهاتكم وبناتكم وزوجاتكم وأخواتكم ، تلك النعمة نعمة الحرية ، أما اللواتي ، لم يستحققن الثقة فلا رأي لي في أمرهن ، على أنّي أودّ أن لأرى تحت لواء الحرية ، إلا نفوساً من الجنسين شريفة أبية .

سادتي وسيداتي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « ما حرّم الله شيئاً إلاّ أباحه للضرورة » ألا ترون أن ضرورة الحياة في الزمن الحاضر تستوجب إباحة السفور ، حتّى ولو كان محرّماً ؟ إذن كيف لانبیحه وهو غير محرّم ؟

كيف لانبیيح سفور الوجه وقد حرّم الله علينا ستره أو ستر بعضه في أحرام الحج والعمرة بين عشرات الألوف من الرجال ؟

كيف لانبیيح سفوره . وقد صرّح رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأسماء بصلاحيه .

كيف لانبیحه ، وقد رغب رسول الله بهند لمّا أسفرت في حضرتها ؟

كيف لانبیحه وقد رأينا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم تقابل جابراً بحضرة

أبيها صلى الله عليه وسلّم وهي سافرة ؟

كيف لانبیحه ، وقد قرأنا أن أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه قد أمر امرأته

أم كلثوم بنت سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن تخرج فتأكل معه ومع رسول سلمة ؟

كيف لانبیحه وقد رأينا أن سيدتنا فاطمة وحفيدتها سكينه رضي الله عنهما وغيرهما من

المدرّسات وفضليات المسلمات في الشرق والغرب كنّ يلقين الدروس على ملاءم متزوج من

الرجال والنساء ، ومجالسهنّ كانت حافلة بالعلماء والأهلياء والشعراء ؟

كيف لانبيحه وقد أمر الله تعالى النساء أن يُعرفن فلا يُؤذَن والمعرفة ، كما لا يخفى ،
إنما تقع بالسفور وتمنع بالحجاب ؟

كيف لانبيحه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حَلَّ حراماً ومن حرَّم حلالاً
فقد كفر » ؟

كيف لانبيحه ، وقد أَرانا العقل مافيه من خير ، ومافي الحجاب من شر وضير ؟

* * *

سادتي وسيداتي :

لو بعث اليوم أبو حنيفة حياً .

لو بعث الفقهاء الثقات الأعلام .

لو رأوا مقتضيات الزمن الحاضر .

لو رأوا ما آل اليه العلم الحديث في الإجتماع والإشتراع والفن والصناعة والإختراع .

لو رأوا كيف أجمدنا عقولنا على ما وجدنا من بعض أقوال شاذة ومغالات وعادات ،

مستعبدين لها غير ناظرين الى السنن الحقة والآيات .

لو رأوا ما ينفحنا به في هذا الزمن بعض مشايخنا ، خصوم المرأة ، أعداء التطور الراقي ،

ومعارضو السفور ، مشوقين إيانا الى التخدر في الخدور ، والى الإحجام عن تعلّم الكتابة ، حتى

الى التواري عن عيون أخواتنا في الوطنية أو في الإنسانية ، بدلاً من إتحافنا بأحسن الأقوال ،

لنأتي أحسن الأعمال ، فنكون بها للعالم خير قدوة وخير مثال .

لو رأوا كيف أهملنا اللب والحقيقة والحكمة .

لو رأوا كيف آثرنا جهل نساننا استعباداً لهنّ ، فاستعبدتنا الأمم التي آثرت علم نساها

وحرّيتهن .

لو رأوا كيف أورثنا الشلل بالحجاب وتتايجه نصف أعضاء مجتمعنا من أمهات ، وبنات ،

وأخوات ، وزوجات ، فاستقوت علينا المجتمعات القويات الأعضاء .

لو رأوا كيف انتقم الحق ، وانتقم الزمان منا . وشدّدا انتقامهما ، لظلم النساء ، ومنع

الإرتقاء ، والإحجام عن التطور .

لو سمعوا قول الشاعر الفيلسوف الناطق بلسان الحكيم العارف الداء ، الشاعر بألمه :

«أخر المسلمين عن أمم الأر ضر حجابٌ تشقى به المسلماتُ»

لو رأوا كل ذلك ، لذابت قلوبهم لهفة وحسرة ، وأرونا بأشد مافي نفوسهم من قوة فائقة ، وحكمة بالغة ، أحكاماً توافق السنة والقرآن ، وأحوال الزمان ، إحكاماً فيه اليسر الذي أراده الله لنا ونريده ، بدلاً من العسر الذي لا يريده تعالى ولا نريده ، وفيها المجال الحر الواسع لتأمين مكانتنا في التنازع الدائم للبقاء ، والطريق السوي الواضح الذي يقوده الى ذروة المجد في طليعة الأمم حيث كنا في تلك الذروة العليا .

فلا غرو والحالة هذه أن أقول ثانية أنني بحثت بمقتضى حرية التفكير تحت راية السيادة العلمية المستقلة ، ولو تأملنا لعلمنا أنها ليست إلا راية القرآن والسنة ، أجل تحت تلك الراية الحرة بحثت ، وهكذا فليبحث الباحثون ، ولتبحث الباحثات .
إن كل ما بحثت فيه من شؤون الدنيا الإجتماعية كتحرير المرأة ، وسفورها ، وتحرير العقول ، والتجدد في العالم الإسلامي ، إنه يؤيد نظراتي فيه المعقول والمنقول .
قال الشاعر الفيلسوف :

قال اترك المعقول لاتعمل به	حتى يؤيد حكمه المنقول
قلت اترك المنقول لاتعمل به	حتى يؤيد حكمه المعقول

وإن ما يؤيده المعقول والمنقول ، لخليق أيها السادة والسيدات بأن تتبعه النفوس والعقول ، غير عائرة أو مغلولة بقيود عائقة ، وأغلال خانقة ، من سيء العادات ، قابضة الحريات .

ياويلنا إن لم نصبح ورجالنا يداً واحدة في كسر تلك القيود والأغلال ، آخذين منها الحريات أخذاً للنساء وللرجال ، إنها عطية الله تعالى ، وفيها الصلاح والرقي والسعادة ، فحسنت عن سلبها العادة . ولله در الزهاوي القائل :

لا ترتقي أمة حتى يكون لها يوماً على سيء العادات عصيان

فهرست الكتاب

- 7 • مقدمة بقلم الدكتورة بثينة شعبان
- 39 • فاتحة الكتاب ، وفيها سبب وضعه

القسم الأول

جولات عامة

في الحرية، والحق، والشرع، والدين، والعقل

- 43 • حرية الأديان والمذاهب .
- 44 • حرية العلم واستقلاله .
- 46 • حرية السفور وحرية الحجاب .
- 47 • الشرك الأصغر .
- حرية الدين والعمل في كتاب الله . لامسيطر ولاوكيل على المسلم والمسلمة
- 47 • في أمر الدين والعمل به .
- خطاب الى المسيطر . وفيه النفس المرضية ، والنفس الأمانة بالسوء ،
- 49 • والجهاد الأكبر .
- 50 • نداء الى السلطات .
- 56 • الحرية ، أساس الحياة الإنسانية الراقية . وفيه حرية الفكر ، وحرية الإرادة .
- 57 • موقفني وخطتي .
- 61 • خطابي إلى اخواني الحجابيين .
- 63 • الدفاع الحر المقدس عن الحق .
- 64 • - الشرع ما شرع الله تعالى لعباده .
- اختلاف الأقوال والروايات بين معسر وميسر ، وأسباب البدع المختلفة . وفيه
- 65 • صوت لمحمد عبده ، وصوت للنعساني ، وصوت للفقهاء .
- الحجر على العقول . وفيه صوت جاهر للأفغاني ، وصوت لسيدي محي الدين
- 70 • العربي ، وصوت للفلاييني ، وصوت صارخ لمحمد عبده .

- نداء الى قضاة الاجتماع . وفيه قاعدتان شرعيتان ، وقاعدتان قانونيتان .
74 ووصف للقرآن .
- الدين والعقل متآزران متضامنان في الحق لايفترقان .
76 - العقل شرع من داخل والشرع ، عقل من خارج .
76 ● المسلم ليس أكمل من المسلمة ديناً وإيماناً ، فالرجل خرق أحكام الدين ويرائي فيه .
77 - انتحال عذر للرجل ، ولومه في وقت واحد .
81 ● المرأة أصلح من الرجل في الفطرة عقلاً . هو يرجحها بالقوة الجسدية ، وهي ترجحه بالنفس العاقلة المرضية .
83 - عبارات للفيلسوف استوارت فيها لنا عبرة .
85 - البنات أصلح من البنين .
87 - كيف عامل الرجال الأقدمون نساءهم .
89 - الحمامة خير من النسر ، والحمل خير من السبع .
91 - باستور وأمثاله ، خير من أتيلأ وأمثاله .
92 - روح المرأة ، نصير الرجل في الجهاد الأكبر .
93 - كيف تريد المسلمات أن يكون رجالهنّ .
95 - ترجيح الرجل في الإرث ، والشهادة وتعدد الزوجات ، واستبداده بالطلاق ، حجج عليه لاله .
96 - بقية آيات الله وأحاديث رسوله في كمال عقل المرأة .
101 ● للمسلمة مثل للمسلم في إدراك الحق وبيانه .
104

القسم الثاني

الأدلة العقلية في السفور وتحرير المرأة والتجدد
الإجتماعي ويتخللها أدلة دينية لأن العقل والدين
متآزران متضامنان في الحق لايفترقان

- نظرتان : نظرة الى العالم السافر ، ونظرة الى العالم المحجّب .
109 - المفترى المزور على الناس إنّما حجّته لهم عليه .
111 ● كيف ينبغي للرجال أن يكونوا قوامين على النساء .
113 - النقاب إهانة للمرأة والرجل .
113 - لماذا أسمي النقاب ذنباً .
114 - رد على أمير الشعراء .
115

- 117 - تأثير النساء في صلاح المجتمع بقدر ظهورهن فيه .
- 118 - النقاب يحرم الرجل أن يكون قوَّاماً على المرأة .
- 120 • الخير والصلاح في حرّية المرأة .
- 122 - نداء الى شباب المسلمين في الأقطار العربية .
- 124 • إدارة عرقية ظالمة معلنة في كلّ بيت .
- 125 - كيف يكافئ الرجل أمه ويبرّ بها .
- 126 • قانون جانر وحكم ظالم .
- 128 • المرأة مرآة الرجل .
- 129 • التكمّل العقلي والأدبي في المدرستين . المدرسة . والعالم .
- 130 - الاجتماعات العائلية مراقبي الاخلاق وصوت للرصافي
- 133 - الاجتماعات العائلية عندنا ورد بلا شواك .
- 134 • في الراهبات وأمثالهنّ عبرة لمن اعتبر
- 135 - صوت لمحمد عبده وصوت للزهاوي .
- 138 • لماذا أخطب الرجل أكثر ممّا أخطب المرأة لتحريرها .
- 140 • السفور يلد الأمهات المنجبات ، ونماء الأمة ورقّيها وليدا رقي الأم .
- 142 • رأي المرحوم سعد زغلول في السفور .
- 143 • أقوال تافهة للرجال يسترون بها جبنهم في موقف الأقدام على مايؤثرون .
- 147 • تعليق السفور على تعميم التعليم والتهديب دور وتسلسل باطلان .
- 148 • الجامدات موميّات ، والمتجددات نيرات .
- 149 • مساوئ التقليد والعادة .

القسم الثالث

الأدلة الدينية في السفور وتحرير المرأة والتجدّد
الإجتماعي ويتخللها أدلة عقلية لأن العقل والدين
متآزران متضامنان في الحق لا يفترقان

- 153 • أصول الدين وكتب التفسير .
- آيتا الحجاب والقور في البيوت المختصتان بنساء النبي صلى الله عليه وسلّم
- 154 وأقوال المفسّرين الكرام ، ونظرات لي فيها .
- المفسّرون مجمعون على أنّ آية (قَرْنِ) وآية الحجاب مختصّتان بنساء النبي ،
- 158 والأدلة على اختصاصهما بهن .
- 159 • اجتماع الرجال والنساء أمر واقع ، وقد أباحه الشارع .

- 162 • (قَرَنَ) أمر من قار لا من قرَّ .
- استطراد لأقوال المفسرين الكرام في مايتعلق بالجغرافيا ، والتاريخ ، والفلك ،
- 164 ونظرات لي فيها .
- القرآن مصباح الهدى ، ومنار الحكمة ، ودليل المعرفة . ولكن المفسرين
- 169 أكثروا من التخيل ، وأخطأوا في التفكير . والفرق بين الأقدمين والمتأخرين .
- 173 • اقتراح على الأمة .
- الآيتان الكريمتان اللتان يستند اليهما بعض رجالنا في ستر الوجوه ، وأقوال
- 174 المفسرين الكرام ، ونظرات لي فيها .
- 183 - دَعْوَةُ الرجل إلى الإنصاف :
- 184 - المعنى السامي الذي أفهمه من كتاب الله .
- 186 • الأحاديث الشريفة في السفور .
- 189 • لا إجماع في ستر الوجوه .
- ستر الوجوه خوف الفتنة ، الخوف من وقوع الإثم في قلب الرجل ،
- 190 والأحاديث الشريفة التي يستندون إليها في هذا الشأن ، ونظرات لي .
- القياس على ما فعله سيدنا عمر رضي الله عنه بنصر بن حجاج
- 192 قياس فاسد .
- النقاب يفسد ، والفتنة اليوم في النقاب لا في السفور .
- 195 وصوت للشيخ الغلابيني .
- 198 - حق للزوجة على زوجها ، وحق للزوج على زوجته .
- ستر الوجوه خوف الفتنة ، الخوف من الرجل أن تبلغ من نفسه الفتنة حد
- 199 الفجور ، ونظرات لي .
- 201 - بطلان سبب الحجاب ، وزوال مانع السفور .
- 202 - التحجّب والتخدر والتخدير عندنا وتطويل الأظافر في الصين .
- 204 - قولان للشيخ عبد القادر المغربي ، وكلمة إلى أهل المدن .
- 207 • مجانية الرجال الحق مع اعترافهم به .

القسم الرابع

في المعارضات والردود

- ١ -

- 211 • معارضة قاضي الشرع السابق ، ونظرات لي فيها .

- ٢ -

- معارضة الشيخ سعيد البغدادي في رسالته : « السيف البارق في عنق المارق »
214 ونظرات لي فيها وردود .
- 215 - فقرات من محاضرة الأنسة عنبرة سلام .
- 218 • نظرات خاصة الى الطلاق ، ومقابلة بين مايريده الله وما لا يفتون بها .
- 222 • ليس السفور من مسببات الطلاق ، بل الحجاب من مسبباته .
- 223 • تتمة معارضة الشيخ والرد عليه .
- خطابي الأخير الى الشيخ ، وفيه بحث عن تلك اللعبة ، « أنا أعمى مابشوف
224 أنا ضراب السيوف » .

- ٣ -

- 227 • معارضة الشيخ ابراهيم القاياتي الأزهري ، بدع يجور بها على النساء .
- 228 • أمير الشعراء يصف المسلمات .
- براهيني على وجوب تكمل المرأة علماً وأدباً في المدرستين : المدرسة
228 والعالم .
- حجج الشيخ الأزهري في منع تعليم المسلمة الكتابة ، وعلماً آخر غير الغزل .
233 ونظرات لي فيها .
- حجج الشيخ الأزهري في وجوب استتار المسلمة عن غير المسلمة ، وسترها
قلامة ظفرها ، وتغليظ صوتها ، ونظرات لي في أقواله ، وفي الأقوال المستند
237 اليها .
- 240 • كلمة للفيلسوف اسبنسر فيها لنا عبرة .
- 242 • فقرة جلية من خطبة الأمير علي خان .

- ٤ -

- معارضة الشيخ محمد رحيم . أقواله في الملبس ، وعتب عليه وعلى أمثاله
242 لتركهم السنن ولباب الأمور ، وتعلقهم بالبدع والقشور . وعتب على الأمة .
- 245 • إكراه النساء على الأخذ بالقشور والبدع ، أوجب امتهانهن .
- الاشتراك مع الآخرين في الملبس لا يعني التشبه بهم فيه ، فنبينا ، صلى الله
246 عليه وسلم ، اشترك وإياهم في لبس البرانس والقلانس .
- 247 • اشتراكنا والافرنج في الملبس لنا فيه من الخير أكثر مما لهم .
- 249 • النقاب موروث عن عبدة الأصنام وليس من خصائص الاسلام .
- 250 • كتاب الله يحجب الاشتراك في الملبس ويؤنب القائلين بعكس ذلك .
- المقابلة بين ماأمر الله ورسوله من جهة ، وماقال ابن عابدين من جهة أخرى .
251 ونظرات لي .

- 259 ● المسلم حرّ في ملبسه ، وخير لباس كل زمان لباس أهله .
- 260 ● حفش اللباس ، لا يلبس بين الناس ، ولبسه كفران لنعم الله .
- المسلم حر في لباس رأسه ، ولبس المظلات أو البرانيط ، خير من لبس
- 261 القلانس المتركة أو الطرابيش .
- 265 - كلام ملك من الإسلام وملكة .

- ٥ -

- معارضة الشيخ مصطفى الغلاييني ، التناقض في أقواله ، للمرأة وعليها ،
- 269 ونظرة في تناقض أقواله .
- لا محل للوعيد والتهديد ، والفرق بين الشرقي والغربي .
- 272 ● لا محل للخوف من حرية المرأة واستقلالها ، إنها حقان حقيقتان بها .
- 274 ● الرجل يكره المرأة على التزيّن ثم يتخذ من ذلك حجة عليها .
- 279 ● ليس النساء مصدر الشر ، أكثر الخير فيهن ، المرأة شريكة الرجل في الحكم
- 280 الشعبي ، والرجال والنساء في المبايعة أو حق الانتخاب سواء .
- يغضب الرجل على المرأة إن لم تكن حرة ، وتغضبه إذا أرادت أن تكون
- 284 حرة .
- المرأة لا تطلب إلا ما خولها شرع الله من الحرية والحقوق . إن في ذلك صلاح
- 285 العيلة والمجتمع ، وبيان للشيخ عبد القادر المغربي .
- 288 ● سيطرة الرجل وسلطانه المقيدان ، وسيادة المرأة .
- 290 ● ليس الأعراب أشرف من الحضرة ، وليس أهل القرى أشرف من أهل المدن .
- 291 ● خصم في الشباب ، ونصير في الكهولة .

النتيجة

- 292 ● لو بعث اليوم أبو حنيفة حياً والحرية تؤخذ وتُعطى .

السفور والحجاب

« ... يبقى كتاب « السفور والحجاب » ، وبعد سبعين عاماً من صدوره ، الوحيد الذي كتبته امرأة في تفسير الآيات القرآنية التي تخصُّ بنات جنسها ، إذ أنَّ المفسرين هم عادة من الرجال وقلَّما ظهرت امرأة تمتلك القدرة والشجاعة على مقاربة موضوع دقيق ومعقد وحساس كهذا . وقد تكون نظيرة زين الدين الوحيدة ليس في العالم العربي فقط ، وإنما في العالم الإسلامي ، التي درست الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بالنساء دراسة منهجية وعلمية بروح المرأة المسلمة المؤمنة التي تعتزُّ بدينها وتاريخها وتحاول إعلاء شأن المرأة ، مساهمة بذلك في إعلاء شأن الوطن والإسلام في العالم... »

... ولا يمكن لأي عربي اليوم أن يقارن الحضور الذي حققه قاسم أمين وذلك الذي حققته زين الدين الى حدِّ الآن . ففي الوقت الذي أصبح كتابا قاسم أمين جزءاً من المكتبة العربية فإن كتابي زين الدين يُعتبران في حكم الكتب نادرة الوجود إلا في أمهات المكتبات العربية وقد يكون هذا هو السبب وراء تقصير الباحثين في موضوع المرأة والإسلام كالشيخ محمد الفزالي وعبد الحليم أبو شقة والفلايني وغيرهم الذين خلت كتبهم من الإشارة الى كتابيها ، مع أن ندرة الكتاب لا تغفر للباحث عدم التقصي واستنباط الكتب ذات الصلة الوثيقة بالموضوع من بطون المكتبات العربية . »

PRISUNIC



54010364

R.O 3.600

THANKYOU FOR
SHOPPING